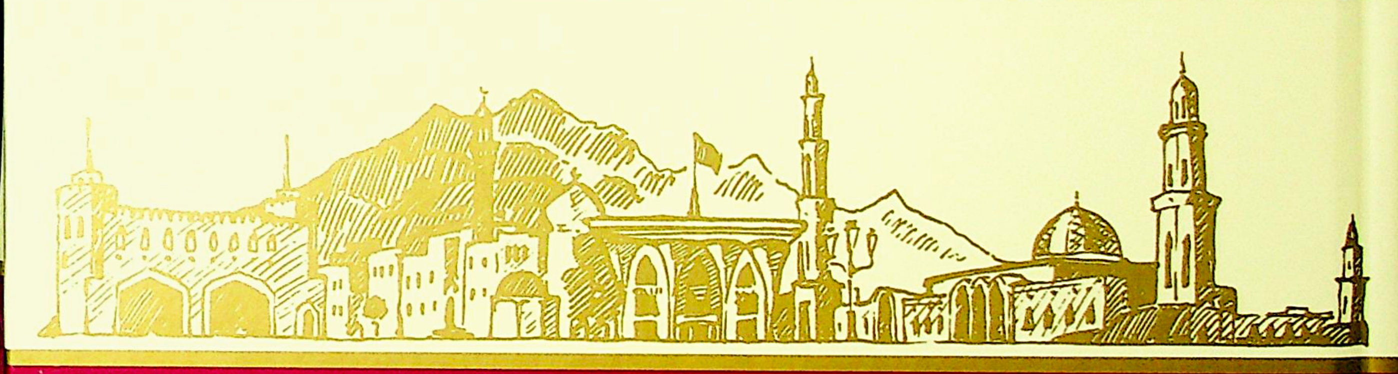


إلى كلِّ من كان له قلبٌ
أو ألقى السمعَ وهو شهيدٌ



تأليف
سماحة الشيخ العلامة
أحمد بن حمد الخليلي
المفتي العام لسلطنة عُمان




نداء الحق
إلى كل من كان له قلب
أو ألقى السمع وهو شهيد

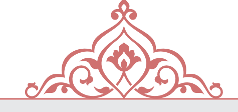


ٱلطَّبعَة ٱلأولَى
١٤٣٩هـ ـ ٢٠١٨م



إلى كل من كان له قلب
أو ألقى السمع وهو شهيد

تأليف
سماحة الشيخ العلامة
أحمد بن حمد الخليلي
المفتي العام لسلطنة عمان





﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾

[الحديد: ١٦]



مقدّمة



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أمر ونهى، بيده الأمر كله وإليه الحكم جميعا وأشهد أن لا إله إلا الله خلق فسوى وقدر فهدى، وأشهد أن محمد عبده ورسوله دعا إلى الله على بصيرة، وكان أسوة في كل خير، وإماما في كل رشد صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه الهداة المهتدين، وعلى تابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن العادات عندما تسري في حياة الناس يتغلغل أثرها في نفوسهم حتى تصبح كأنما جبلت عليها، فيصعب اقتلاعها منها كما يصعب اقتلاع الأطواد الشم الرواسخ من الأرض، ولهذا يلقى المصلحون عنتا شديدا عندما يواجهون في مشروعهم الإصلاحي عادات متحكمة تنجذب إليها النفوس وتتفاعل معها الرغبات، وكم من عادة تتفشى في الناس فتمتد من مجتمع إلى مجتمع من غير أن تستنكف منها النفوس أو يعترضها معارضون.

ومن العجيب سريان هذه العادات في الخاصة والعامة، وبين أولي العلم والجهلة، فلا تلقى استنكارا ولا تجد تحديا، وهذا إنما يعود إلى قابلية النفوس لتلقي كل جديد يستهويها، إما لما تجد فيه من التخلص من المسؤولية وتبعاتها، وإما لما تتصور فيه من راحة بسبب بعدها عن الالتزام.

وما من ريب أن دأب النفوس الميل إلى الأدنى والانجذاب نحو الأسوأ، والتأفف من التكاليف التي تراها شاقة عليها ومقيدة لحريتها.

ودأب النفوس السوء من حيث طبعها إذا لـم يصنهـا للبصائـر نـور

ولا يخفى أن الهدم أيسـر من البنـاء، والتدمير أهون مـن التعمير، فكم يستوجب البناء والتعمير من تخطيط وإتقان واحتراس، ولا يتصور أن يتيسرا بعشوائية وتخبط، بخلاف النقض والتدمير، فإنهما لا يحتاجان إلى تخطيط ولا إلى إتقان، وهكذا كل فساد يسـري في نفوس الناس، وفي أخلاقهم وعملهم بسـرعة مذهلة، فينتقل من بيئة إلى أخرى، ومن مجتمع إلى غيره بغير عناء ومشقة، بخلاف الإصلاح؛ لأنه يتوقف أولا على الاستبصار من قبل القائم به وإلى تبصيره لمن يدعوهم إليه، كما يتوقف النجاح فيه على تحلي الداعية إليه بالصبر والأناة والحكمة، وبالنظر إلى المدعوين إليه وأحوالهم واسـتعدادهم النفسي والذهني لتقبله، وهذا يعني أنهم بحاجة إلى أن يُعَرَّفُوا بقيمة الإصلاح ونفعه والضرورة إليه وأثره الشـخصي والاجتماعي، ويُبَيَّنَ لهم بهذا ما ينجم عن الإفساد من الضرر الخاص والعام.

وكم نرى من بين أيدينا ومـن خلفنا وعن أيماننا وعن شـمائلنا من عادات تنتشر بين الناس؛ لعلها تبدأ بين الجهلة السـذج ولكن لا تلبث أن تشمل الذين يعدون من بين أهل العلم، ويعتمد عليهم في تبصير الناس بأمور دينهم، وهذا إنما يعود إما إلى ما ذكرته من انجذاب النفوس نحو تلك العادات لسبب أو لآخر، وإما أن يكون راجعا إلى الغفلة عن حواجز الشرع التي تمنع من الاندفاع نحوها.

وبسبب ما نراه من هذه العادات وانتشارها وتقبل الناس لها وغفلتهم عما يتبعها من آثارها رأيت من الضرورة التنبيه عليهـا قياما بالحق الذي فرضه الله تعالى علينا فيما أخذه منـا من عهد وميثـاق، وإن كان ما نقوم به لا يعدو أن يكون تنبيها بالأقل على الأكثر إذ استقصاء هذه العادات يحتاج إلى جهد كبير وفراغ واسع، لذلك رأيت أن أكتفي بذكر نماذج وصور منها، وأكل استكشاف



أكثرها وتتبع وجوهها إلى الذين هم أكثر فراغا وأوسع اقتدارا وأيسر فُرَصًا، لعل الله يحقق علـى أيديهم ما لم يتحقق علـى يدي، فتطلع على أيديهم شـمس الصحوة التي تبخر بوهجها ما يختلف مع شـرع الله تعالى من عادات الناس، وقد رجوت ـ بما أقدمه هنا من جهد المقل ـ أن أكون بفضل الله ومنته من الذين استثناهم الله سبحانه من الخسر، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، والله المستعان.

وقد رأيت أن أقتصر في هذه الفرصة السـانحة على ذكر أقسـام من هذه العادات في أربعة عشر محورا وخاتمة.

المحور الأول: فيما يتعلق بالإيمان بالله وتصريفه الخلق.

المحور الثاني: فيما يتعلق بتعظيم كتاب الله وتوقير العلم.

المحور الثالث: فيما يتعلق بحسن أداء العبادات المشروعة.

المحور الرابع: في طلب العلم ونشره.

المحور الخامس: في العلاقات الاجتماعية وبناء الأسرة الصالحة.

المحور السادس: فيما يتعلق بالعقل.

المحور السابع: في السكوت عن المنكرات.

المحور الثامن: فيما يتعلق بالأموال.

المحور التاسع: فيما يتعلق باللباس.

المحور العاشر: فيما يتعلق بالتقاليد.

المحور الحادي عشر: فيما يتعلق بالبيان.

المحور الثاني عشر: فيما يتعلق بالأخلاق.

المحور الثالث عشر: فيما يتعلق بتربية الأولاد.

المحور الرابع عشر: فيما يتعلق بالتوبة والوصية.

الخاتمة: في تحصيل ما تقدم ذكره.



المحور الأول

فيما يتعلق بالإيمان بالله وتصريفه الخلق

إن الفطرة السلمية هادية إلى الله، فالعاقل يفتح عينيه على وجوده، ووجود كل مخلوق في هذا الكون الفسيح، فيرى بعين بصيرته يد الله تعالى تصرف كل شيء في هذا الكون، نشرا وطيا، رفعا وخفضا، عطاء ومنعا، وجاءت شرائع الله تعالى وفق دلائل الفطرة، مصدقة لها فيما تشهد به، ناهيك بما في القرآن الكريم ـ كتاب الله تعالى الذي حفظه بعينه، ووقاه كل تحريف وتبديل ـ فكم تجد في تضاعيف آياته وإشراق بيناته ما يرد العقول الزائغة إلى الفطرة السوية، فيبدد عنها أغشية الضلال التي حجبتها عن إدراك الحقيقة عندما مالت عن فطرتها، فكم من آية في كتاب الله تؤكد أن كل ما يصيب الإنسان من صحة أو سقم، أو غنى أو فقر، أو راحة أو تعب، أو سعد أو نحس، أو إقبال أو إدبار، وكل ما يعتريه من موت أو حياة، أو قوة أو ضعف، فإنما ذلك كله مرده إلى أمر الله ﷻ، فهو الذين يهب من يشاء، ويحرم من يشاء، ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ الشورى: ٤٩ ـ ٥٠.

ولم يكن ما قدره الله له من خير أن يخطئه، أو كتبه عليه من شر أن يجنبه، فالخير والشر والنفع والضر كل ذلك بقضاء الله وقدره، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ الأنعام: ١٧، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ

﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ يونس: ١٠٧، وقد وجه الله عباده إلى اعتقاد وإعلان أن كل مصيبة تلم بهم، فإنما هي بحسب ما كتبه الله تعالى، كما في قوله: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ التوبة: ٥١، وأن كل عطاء أو حرمان فإنما هو بأمر الله تعالى، ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فاطر: ٢.

وجاءت سنة النبي ﷺ مؤكدة ما توحيه الفطر الزكية، وتدل عليه العقول السليمة، وتصدقه نصوص الكتاب العزيز، فقد وجه النبي ﷺ خطابه التربوي العظيم إلى ابن عمه حبر الأمة وترجمان القرآن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، عندما كان غلاما يافعا، فقال له: «**يا غلام إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف**»[(١)].

وجاء بلفظ: «**يا غلام، أو يا غليم، ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟**» فقلت: بلى. فقال: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إليه في الرخاء، يعرفك في الشدة، وإذا سألت، فاسأل الله، وإذا استعنت، فاستعن بالله، قد جف القلم بما هو كائن، فلو أن الخلق كلهم جميعا أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله عليك، لم يقدروا عليه، وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك، لم يقدروا عليه، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا**»[(٢)].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٩٣/١، رقم ٢٦٦٩)، والترمذي (٦٦٧/٤، رقم ٢٥١٦) وقال: حسن صحيح. والحاكم (٦٢٣/٣ رقم ٦٣٠٢) والضياء (٢٥/١٠، رقم ١٥)، أبو يعلى (٤٣٠/٤، رقم ٢٥٥٦).

(٢) أخرجه أحمد (١٨/٥ رقم: ٢٨٠٣).

وهو يؤكد أن النبي ﷺ كان حريصا على أن يربي هذه الأمة وفق هذا السَّنَن الذي ينسجم مع الفطرة، ويلتئم مع هداية القرآن، وبهذا كان يطهر عقولهم من كل لوثة من لوثات العقائد الجاهلية، التي رسخت في أتباعها أن الله سبحانه مُزاحَم في خلقه وأمره من قبل شركاء يزعمونهم، وكم جاء القرآن الكريم بقوارع نذره، وصوادع حججه وبراهينه، ودوامغ آياته البينات ليخلص الإنسانية التعيسة الحائرة من هذه الأوهام، التي حالت بينها وبين إصاخة سمعها إلى نداء الفطرة، الذي يجلجل في جنبات الوجود، وغشت أبصارها بأغشية أن تستهدي بأنوار العقل الكاشفة لهذه الحقائق من وراء حجب الأوهام، فقد أقام القرآن على الذين زاغت عقولهم بينات لا تدفع ـ من أنفسهم، ومن كل ما يزخر به الوجود من عجائب خلق الله ـ على أن كل شيء بيد الله، وما كان لأحد من خلق الله تعالى أن يتطاول عليه سبحانه، فيرد له قضاء، أو يبدل له سنة، أو يدفع له حكما.

وهو عندما يحاورهم في ذلك يدفعهم إلى التأمل والنظر في تصاريف الوجود وسنن الخلق، وقد عجَّبهم من دعاء غيره تعالى لكشف ضر أو تحقيق نفع، كما في قوله سبحانه: ﴿ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الأنعام: ٧١، فكيف يترك الإنسان التوجه إلى الله في ملماته، ويتوجه إلى مخلوق مثله لا ينفع ولا يضر، بل لا يستطيع أن يجلب لنفسه نفعا أو يدفع عنها ضرا، فضلا عن أن يفعل ذلك لغيره؟! ومثله قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ الرعد: ١٦، فإذا كانت الربوبية لله سبحانه وتعالى وحده؛ فمن الذي يزاحم قضاء الله بقضائه، أو يعاكس أمره بأمره،

أو يدفع حكمه بحكمه، أو يصرف عن أحد ما كتبه لـه أو عليه، أو يجلب إليه ما منعه منـه؟! وإنما العقول إذا زاغـت، والبصائر إذا أظلمـت، خفيت عليها البدائه، والتبسـت عليها الحقائق، كما يجادل أعمى البصر في إشراق الشمس برابعة النهار، وهي لا يحجبها سحاب ولا قتر.

وقد تكررت مجادلة القرآن الكريم لهـؤلاء الذين عطلوا كل ما آتاهم الله تعالى من إدراك وأطفأوا كل ما أناره لهم من بصيرة كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ الزمر: ٣٨، واحتج عليهم بسؤالهم عما عسى أن يكون أولئك الذين يدعونهم من دونه تعالى يملكونه في ملكوت الله تعالى الواسع، أو يشـاركونه فيه كما في قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ سـبأ: ٢٢، وقولـه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ فاطر: ٤٠، وأتبعه بأن حفظ هذا الكون علويه وسفليه إنما هو إلى الله وحده، فلو تخلى عنه في أقل مـن لحظة لهوى إلى غير قرار، وذلـك في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ فاطر: ٤١.

ومثل ذلك قـول الله تعالـى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ۖ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ الأحقاف: ٤، وأتبعه تسجيل الضلال المبين على أولئك الذين يؤمون غير الله تعالى بدعائهم! وهم لا يسـتجيبون لهم بشيء إلى يوم القيامة، بل لا يسـمعون لهم دعاء ولا يدركون لهم مطلبا، فقد أتبع ما سبق

قوله: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴾ الأحقاف: ٥، فقد يدعون أوثانا منحوتة من الصخر، أو مصنوعة من الخشب، وقد يدعون بشرا هم أنفسهم أحوج إلى عناية الله ولطفه، وقد يكونون أمواتا طواهم الزمن، وأبلتهم الأرض، فأنى لهم أن يسمعوا لهم دعاء فيكشفوا عنهم ضرا أو يجلبوا لهم نفعا؟! ثم أتبعه أن أولئك عندما يحشرون يوم القيامة يتبرأون إلى الله سبحانه من هؤلاء الذين دعوهم من دونه، فيكونون لهم أعداء، وقد تخيلوهم في حياتهم الدنيا أولياء! إذ قال بعد ذلك: ﴿ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ الأحقاف: ٦.

العجب كيف انحدرت هذه الأمة مع ما أوتيت إلى حضيض الجاهلية:

إن الإنسان ليمتلكه العجب عندما يقارن بين ما أتى هذه الأمة من عند الله تعالى من الآيات البينات؛ التي تفتح منهم المدارك، وتنور منهم البصائر، وتشرح منهم الصدور للحق، وما ربَّاها عليه رسول الله ﷺ من التربية الإيمانية، التي ارتقت بها عن حضيض الجاهلية، وعرجت بها إلى ملكوت الله الأعلى، وبين ما آلت إليه الأمة من ضلال العقول وانطماس البصائر، والارتكاس في هوة الجاهلية الأولى، والانغماس في أوحالها، فكم يرى الناظر من بون سحيق بين ما أوتيت هذه الأمة من الهدى والنور، وبين ما تعيش فيه من الضلال والظلام، فإذا كان الله تعالى يُقَرِّع بني إسرائيل على إهمالهم التوراة، ويضرب فيهم أسوأ الأمثال عندما يقول: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ الجمعة: ٥، فإن الأمة التي أوتيت القرآن ثم أهملته وضيعته هي أولى بهذا المثل، وما يشاكله من أمثال، ناهيك أن الله سبحانه حفظ لهذه الأمة قرآنها، فهو في كل زمان تبزغ شمسه، ويسطع ضياؤه، وينتشر هداه، فكيف تعمى أمة القرآن عن هذا كله وهي تتلوه ويتلى عليها غضا طريا كما أنزله الله

على قلب عبده ورسوله ﷺ، مصونا محفوظا من أن تعدو عليه عوادي الدهر، أو تغير شيئا من رســـمه حوادث الزمن، فكيف لا تتدبره فتميز به بين الهدى والضلال، والحق والباطل، والإيمان والإلحاد، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ محمد: ٢٤.

فليت شعري؛ هل على شيء من الآيات التي سقتها غيم أو قتر يحجب دلالتها على تلك المعاني، أو يَلْبِسُ شـــيئا منها؟ وكم ترى في أحوال الأمة وتصرفاتها ممـــا يناقض القرآن وينأى بها عن هديـــه، لا في جزئيات الأمور وحدها، بل في كليات العقيدة وأسس الإيمان، أولا تعجب كيف أنهم نسوا الله ســـبحانه فقصدوا غيره بالأمل والرجاء والتضرع والدعاء، كأنما أغلقت أبوابه دونهم، أو حجبوا عن عطائه وآلائه، أولا ينظرون إلى ما يســـاق إليهم من رزق، وما يكتنفهم من ألطاف، وما يغشـــاهم من رحمات، أوَأتاهم ذلك من غيره تعالى، فكم كشـــف عنهم من ضـــر، وكم أغدق عليهـــم من نفع لا يملك منه الخلق شـــروى نقيـــر، فكيف ينســـونه ويذكـــرون غيره ممن لا يملكون ضرا ولا نفعا، ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا؟؟!.

ضلال دعاء الجن من دون الله:

كثير من أولئك تستبد بهم الأوهام، حتى يتسارعوا عند كل ملمة أو رجاء إلى دعاء الجن، والتقرب إليهم بالقرابين، مـــع أن الله تعالى حكى عن الجن أنفســـهم أنهم قالوا عندما أدركتهم عناية الله فآمنوا، واتبعوا الحق الذي أنزل: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ الجـن: ٦، وكـــم تفنن الجهال في ابتكار أنواع الضلال في هذا، فقد أدركنـــا من الذين غرقوا في الجهـــل والعمى إلى أذقانهم مـــن يذهب ببخوره إلى الخرابـــات أو غيرها ليشكو إلى الجن ما أصابه، ويعرض عليهم أن يمنحوه الخير ويكشفوا عنه الضر، استجابة لدعائه، وتقديرا لوســـيلته، وأنه إن كان السخط من قبل غير

هؤلاء المدعوين، فهم يطالبونهم أن ينقلوا هذه الوسيلة إلى أولئك الساخطين ليرفعوا عنهم الضر؟!.

فليت شعري؛ أولا يدرك هؤلاء أن الجن أنفسهم لا يعلمون الغيب، ولا يملكون ذرة من أمر هذا الكون، فأنى لهم أن يسمعوا دعاء أو يدفعوا ضرا، أو يجلبوا نفعا، وأن هذا الدعاء نفسه لن ينتج عنه إلا زيادة الرهق الذي يأتي من قبل الجن، كما حكى الله عنهم؟؟!.

فيا ترى؛ هل يعد من تردى في هذا الحضيض من الضلال من الإيمان في شيء؟ فإن الإيمان تصديق وطمأنينة وسكينة، فهو لا يتزعزع بما يلم بالمؤمن من زعازع القدر، وإنما يدفعه ذلك إلى التوجه إلى الله الذي بيده كل شيء، ومحاسبة النفس وردها إلى جادة الحق إن زاغت، فالمحن والمنح تزيد المؤمن إيمانا وتصقل مرآة قلبه، فيشرق عليها من أنواره القدسية ما يزكيه، ويقوي صلته بالله عز وجل.

توهم أن كل ما يصيب الإنسان إنما هو بسبب من الخلق:

إن مما يزعزع الإيمان وينقض أسس اليقين؛ أن يعتقد الإنسان أنه لن يصيبه شيء مما يكدر صفو عيشه إلا بسبب من الخلق، فيرد كل سقم يلم به أو بلوى تصيبه أو محنة يكابدها إما إلى سحر ساحر، أو حسد حاسد، أو سطو من الجن، حتى الأمراض المعهودة كالحمى وأوجاع المفاصل والرأس والأسنان، بل جميع الأوجاع التي تلحق الأبدان لا يتصورونها أنها تكون إلا بسبب من هذه الأسباب، كأنما الدنيا هي جنة الخلد التي لا يعتري الإنسان فيها نصب ولا لغوب، فلا يكاد من أصيب بهذه اللوثة يصدق أن هذا هو ابتلاء من الله، وهو من طبيعة هذه الحياة، فقد ابتلي النبيون من قبل بالأمراض والأسقام والبلاوى، وما كانوا يعلقون أملهم في كشف الضر عنهم إلا على الله وحده، كما حكى الله تعالى عن الخليل إبراهيم عليه السلام قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ الشعراء: ٨٠،

ومن هو الذي يعيش حياته سليما مما ينغصها عليه من الأسقام والأوجاع والبلاوى؟ مع أن الكدر هو جبلة هذه الحياة كما قال الشاعر:

طُبِعَت عَلى كدرٍ وَأَنتَ تُريدُها صَفواً مِنَ الأَقذاءِ وَالأَكدارِ
وَمُكَلِّف الأَيامِ ضِدَّ طِباعِها مُتَطلِّب في الماءِ جَذوة نارِ
وَإِذا رَجَوتَ المُستَحيل فَإِنَّما تَبني الرَجاءَ عَلى شَفيرٍ هارِ

على أن محن الحياة لا تلبث أن تتحول إلى منح عندما تقابل بالصبر والرضا والتسليم لأمر الله، فعن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ، قال: «**ما من مصيبة يصاب بها المسلم، إلا كفر بها عنه حتى الشوكة يشاكها**»[(١)]، وعنها: «**ما يصيب المؤمن يكفر الله عنه من سيئاته حتى الشوكة تشوكه**»[(٢)]، وعنها أيضا: «**لا يصيب العبد المؤمن حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها أو شدة الكظم حيث يوجد به إلا كفر الله به عنه**»[(٣)]، وعن أبي سعيد، وأبي هريرة أنهما سمعا رسول الله ﷺ، يقول: «**ما يصيب المؤمن من وصب، ولا نصب، ولا سقم، ولا حزن حتى الهم يهمه، إلا كفر به من سيئاته**»[(٤)].

وتجد الناس يتصورون أن الحياة الدنيا خالية من المنغصات، وأن الإنسان فيها يتمتع بكامل قواه البدنية والذهنية في جميع مراحل عمره، من غير أن يطرأ عليه ضعف بعد قوة، فتجد أحدهم قد بلغ من العمر ثمانين عاما أو

(١) أخرجه أحمد (٦/٨٨، رقم ٢٤٦١٧)، والبخاري (٥/٢١٣٧، رقم ٥٣١٧)، ومسلم (٤/١٩٩٢، رقم ٢٥٧٢).

(٢) أخرجه الحاكم (١/٣٨٥، رقم ٩٣٦) وقال: صحيح على شرط مسلم. والبيهقي في شعب الإيمان (١/٢٥٢، رقم ٢٧٠). وإسحاق بن راهويه (٢/٣٦٧، رقم ٩٠٩)، وأحمد (٦/٤٨، رقم ٢٤٢٦١)، وابن خزيمة (٢/٣٠، رقم ٨٤٩)، وابن حبان (١٦/٣٧٢، رقم ٧٣٧٢).

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧/١٥٧، رقم ٩٨٢٨).

(٤) أخرجه مسلم (٤/١٩٩٢، رقم ٢٥٧٣) وأخرجه بلفظ قريب: أحمد (٢/٣٠٣، رقم ٨٠١٤)، وعبد بن حميد (ص ٢٩٨، رقم ٩٦١)، والبخاري (٥/٢١٣٧، رقم ٥٣١٨).

تسعين عاما يشكو من ضعف سمعه أو بصره أو جوارحه ويعزو ذلك إلى سحر ساحر، أو حسد حاسد، متجاهلا أن الحياة تبدأ بضعف، وتنتهي إلى ضعف إذا أنسئ للإنسان في أجله، فقد قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ الروم: ٥٤، وقال تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ يس: ٦٨، فكيف يرجو ابن التسعين أن يكون كما كان في شبابه عندما كان ابن عشرين أو ابن ثلاثين، وإنما هي الأوهام تدع الإنسان يتجاهل سنن الحياة، التي تدل عليها الطبيعة، وينص عليها الوحي، مع أن الإنسان عندما يتجاوز سني القوة في عمره، ويبدأ في الانتكاس إن حاول معالجة أسقامه فلا يعدو ذلك أن يكون كترميم البيت المتداعي، وإلا فخير علاج له رضاه بقضاء الله وقدره، واحتساب أجره على ما يلقاه من عنت ومشقة عند الله، إذ لا يكون تأثير العلاج عليه في شيخوخته كما كان إبان شبابه وقوته، وقد أحسن من قال:

إذا كانَتِ السَّبعونَ أمَّكَ لَم يَكُن ... لِدائِكَ إلّا أَن تَموتَ طَبيبُ

وَإِنِ اِمرَءاً قَد سارَ سَبعينَ حِجَّةً ... إِلى مَنهَلٍ مِن وِردِهِ لَقَريبُ

إذا ما اِنقَضى القَرنُ الَّذي أَنتَ مِنهُمُ ... وَخُلِّفتَ في قَرنٍ فَأَنتَ غَريبُ

وهذا لا ينافي أن يأخذ الإنسان بالأسباب، ويسعى في علاج أسقامه وأمراضه ما دام حيا، عملا بوصية النبي ﷺ الذي قال: «**إن الله حيث خلق الداء خلق الدواء فتداووا**»[1]، وعنه ﷺ: «**ما أنزل الله من داء إلا وقد أنزل معه شفاء علمه من علمه وجهله من جهله**»[2]، وعنه ﷺ: «**ما وضع من داء في الأرض إلا**

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٦/٣، رقم ١٢٦١٨)، والضياء (٣٣٠/٦، رقم ٢٣٥٢)، وابن أبي شيبة (٣١/٥، رقم ٢٣٤١٥)، وأبو يعلى كما في إتحاف الخيرة (٥٠١/٥، رقم ٥٢٧٦) وقال: هذا إسناد حسن.

(٢) أخرجه أحمد (٣٧٧/١، رقم ٣٥٧٨)، والحكيم (٤٠٢/١)، والحاكم (٢١٨/٤، رقم ٧٤٢٤)، والبيهقي (٣٤٣/٩، رقم ١٩٣٤٤).

وقد جعل له شـفاء علمه من علمـه وجهله من جهله»[(١)]، فـلا عتب على من تداوى مما ألم به بما جعل الله من دواء للأسـقام، وإنما العتب على من ترك العلاج بما جعله الله سـببا للشـفاء، وعدل إلى العلاج بما يزيد الأسقام قوة ورسـوخا عندما يصدق الأوهام فترسـخ في نفسـه حتى تصبح نفسـها داء يستعصي على العلاج، ولا يجد المصاب به إلى الشفاء سبيلا، فعندما ترسخ هذه المفاهيـم الباطلة والأفكار الزائغة تروج تجارة الدجالين والمشـعوذين، الذين لا يألون جهدا في إضلال العقول، وطمس البصائر، وترك الناس يعيشون في أوهام لا يجدون إلى الخلاص منها سـبيلا، فلا يكاد يأتيهم مستشف من أمراضه إلا ويضاعفون من مرضه بدعواهم أنه أصيب بسحر ساحر، أو حسد حاسـد، فيتعمق الوهم فـي نفسـه، ولا يبالي أن يخسـر مالـه للدجاليين المشعوذين، الذين يعيشون على ما يأخذونه بالباطل من أموال ذوي الأوهام، الذين فقدوا الإيمان فتجاهلوا سنة الله في خلقه.

ولا تسـأل عن حال هؤلاء عندما يصاب لهم مولود بشـيء من الأسقام، فإنهم لا يكادون يصدقون أن هذه سـنة من سـنن الحياة، وأن كل إنسان منذ ولادته يسـتقبل الحياة بحلوها ومرها وسـعدها ونحسـها، كما صوَّر بعض الشعراء ما يواجه كل مولود من نذر لأواء الحياة ساعة ولادته، فيصرخ باكيا من أول وهلة بقوله:

لِمَا تُؤذن الدنيا به من صروفها	يكون بكاءُ الطفل سـاعةَ يُولَدُ
وإلا فمـا يبكيـه منهـا وإنها	لأفْسَـحُ ممَّا كان فيـه وأرْغَدُ
إذا أبصـرَ الدنيا اسْـتَهلَّ كأنه	بما سوف يلقى من أذاها يُهَدَّدُ

فإن هؤلاء لحرمانهم من العقل الهادي، وبعدهم عن الإيمان بالله وقدره، وجهلهم بسنته في الحياة، لا يكادون يصدقون أن ما يصاب به الأطفال إنما هو

(١) أخرجه الطبراني (١٠/١٦٣، رقم ١٠٣٣١). قال الهيثمي (٥/٨٤): رجاله ثقات.

ابتلاء من الله تعالى لآبائهم وأمهاتهم، وإنما يستبد بهم الجزع، فيهرعون إلى الدجالين، طالبين منهم كشف الضر عن أطفالهم، وينسون الله تعالى فلا يدعونه لكشف الضر، كما ينسون سنته في الحياة في وصل المسببات بأسبابها، وما شرعه لعباده من علاج الأدواء بدوائها، وهم إن سعوا إلى العلاج الطبيعي فإنهم يسعون إليه ونفوسهم خالية من الرجاء بنجاحه، وإنما يعلقون النجاح على دجل الدجالين وشعوذة المشعوذين، فكم أغنوا من دجال بما يمطرونهم به من أموالهم التي هم شحاح بها إلا في هذا السبيل.

ولا يبالي الدجالون المشعوذون أن يستغلوا هذه العقلية الضالة أسوأ استغلال، فيستحوذوا على آخر ما عسى أن يتبقى عندهم من مال، ولا يكفيهم ذلك، بل يضاعفون من إضلال عقولهم حتى يغرسوا فيهم عداوة من هم أحب الناس لهم، وأكثرهم صفاء، وأعظمهم حقا، وأبرهم قلبا، فقد نمى إلى سمعي منذ عقود من السنين أن رجلا من هؤلاء البله المغفلين مرض له طفل، فذهب به إلى أحد المشعوذين، فما كان منه إلا أن أجابه بأن امرأة عجوزا ساحرة هي مصدر ضره وسبب بلائه، فخيل إليه الشيطان أن تلك العجوز هي أمه، وعندما عاد إلى بيته حاملا طفله كانت الأم المسكينة أول من يستقبله بشفقتها وحنانها، وعطفها على حفيدها الطفل المصاب، فما كان منه إلا أن قابلها بأشد قسوة وأعظم جفاء، إذ دفعها بيده بكل ما يملك من قوة، فوقعت على الأرض وهوت في حفرة كانت بجنبها، وكال لها من الشتائم والكلام القاذع ما لو خوطبت به الجبال لتصدعت، ولو وزع على أهل الأرض لملأ صدورهم أسى وقلوبهم حزنا.

فيا ترى؛ هل كان هذا التصرف الأحمق الأرعن إلا ثمرة للجهل، وانحسار الإيمان، وتصديق الأوهام، وتكذيب الحق اليقين؟ فلو أن هذا الرجل كان على خوف من ربه، وبصيرة في دينه، لما صدق هذا الإفك الذي انتحله الدجال ليفرق بينه وبين أمه، وهي أحب الناس له وأبرهم به وأشفقهم عليه، ولكن ما تراكم على عقله وقلبه من الضلال والجهل أنساه قول الله تعالى:

﴿ قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴾ النمل: ٦٥، وأعماه عن قول النبي ﷺ: «**من أتى كاهنا فصدقه بما يقول... فقد برئ مما أنزل على محمد**»(١)، وأنى يكون مؤمنا بما أنزل على محمد ﷺ، وهو يصدق من يدعي علم الغيب الذي استأثر الله به وحده، فلم يجعل منه نصيبا لأحد من خلقه، حتى أنبيائه المصطفين الأخيار إلا أن يكون ذلك وحيا أوحاه الله إليهم؟! كما قال تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴾ الجن: ٢٦ ـ ٢٧.

وإذا كان النبي الأكرم محمد عليه الصلاة والسلام لا يعلم من الغيب شيئا إلا ما أوحي إليه، كما أمره الله تعالى أن يعلنه للناس بقوله: ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ﴾ الأعراف: ١٨٨، فكيف بهؤلاء الجهلة الحمقى الذين يتطاولون على الله تعالى فيدعون أنهم مشاركون له فيما استأثر به دون خلقه؟! تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

ووا أسفا على هؤلاء الجهلة الضالين المضلين، الذين لا يبالون أن يغرسوا في صدور الناس من الضلال ما يفرق بينهم وبين والديهم، الذين هم أحب الناس لهم وأبرهم بهم، كل ذلك ليحتالوا على ما بأيديهم من المال، فهم يجمعون بين أكل السحت والتفريق بين المرء وزوجه، أو بين الوالد وولده، فما أتعسهم وأعماهم عن الحق وأنساهم لعهد الله تعالى.

ووا أسفا على هذه العقول الزائغة الضالة؛ التي تستسيغ هذا الإفك وتتهيأ لقبول كل ما يلقى إليها من شياطين الإنس، الذين يستوحون ما يبثونه من شر من إخوانهم شياطين الجن، ﴿ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ﴾ الأنعام: ١١٢، فكيف يرد الإنسان ما قاله الله تعالى، ويتقبل ما تقوله الشياطين؟! إن هذا لهو الضلال المبين.

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/١٥، رقم: ٣٩٠٤).



المحور الثاني

فيما يتعلق بتعظيم كتاب الله وتوقير العلم

لا يخفى على المؤمن ما لكتاب الله تعالى وآياته وأسـمائه سـبحانه من حرمات عظيمة تفوق كل تصور، فإن القرآن الكريم هو خطاب الله سبحانه الحق الذي وجهه إلى عباده، ليهديهم من الضلالة ويبصرهم من العمى ويخرجهم من الظلمات إلى النور، وليصلهم بنفسه وبملكوته حتى يكونوا قائمين في أرض الله بعهده، وعامريها بشرعه، ومسخريها بحكمته، مدركين لمبدئهم ومعادهم وما يجب عليهم أن يقوموا به بين المبدأ والمعاد ـ وهم في هذه الرحلة المحدودة على ظهر هذا الكوكب المظلم ـ بحيث يستلهمون من كتاب الله تعالى ما يأتونه وما يذرونه، فلا يكون منهم إقدام على أمـر، أو إحجام عنه إلا ببينة من ربهم سبحانه، وقد بين ﷻ عظم شـأن هذا الكتاب وأثره في حياة الناس في العديد من الآيات، كما في قوله: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۞ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ إبراهيم: ١ ـ ٢.

وناهيك بهذا بيانا لقدر هذا الكتـاب وأثره في الخلق، ووصله بين العباد وربهم الذي له ما في السماوات وما في الأرض، وسعة عطائه وإشراق سناه، وإغداق خيره، فهو النور المبين الذي لا يأفل، وهو الصراط المسـتقيم الذي لا يزيغ، وهو النبع المغدق الذي لا ينضب، جمع بيـن خير الدنيا والآخرة، وضمن لمن اتبعه سلامة المسير وسعادة المصير، وقد أنزله الله بعلمه، واختص

به هذه الأمة، وجعله خاتم الكتب، كما أنزله على خاتم الرسل وجعلها خاتمة الأمم، فما أجدره بالتوقير والتعظيم.

وكل آية من آياته بل كل كلمة من كلماته هي شعاع من هذا النور الساطع، ولمعة من هذا البيان الهادي، فهي حقيقة بالتعظيم والتكريم، ولذلك توعد الله سبحانه جميع الذين يلحدون في آياته، كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فصلت: ٤٠، فالوعيد واقع على كل من ألحد فيما أنزله الله، ولو في كلمة من كلماته تعالى.

أما أسماؤه تعالى الحسنى فهي دالة على ذاته المتصفة بجميع الكمالات، وإذا كان مدلولها هو الله سبحانه فإن تعظيمها وتسبيحها وتقديسها هو تقديس له تعالى، ولذلك أمرنا بتسبيح أسمائه تعالى كما في قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ الواقعة: ٧٤، وقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ الأعلى: ١، وهذا كما أمرنا بتسبيح ذاته العظيمة في نحو قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ ق: ٤٠، وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ الطور: ٤٩، وكذلك أسند التبارك إلى اسمه تعالى كما في قوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ الرحمن: ٧٨، وأسنده إلى نفسه في نحو قوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ الفرقان: ١، وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ الفرقان: ١٠، وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ الفرقان: ٦١، وقوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ الملك: ١، وهذا الذي جعل بعض الناس يقولون بأن أسماءه تعالى هي عين ذاته، والصواب أن مدلول أسمائه هو الذات العلية كما بينته في غير هذا الموضع.

وإنما تدل الآيات المذكورة وأمثالها على أنه يجب أن تقدس أسماء الله الحسنى كما تقدس ذاته العلية، فلا يجوز بحال أن يصدر من مسلم ما يمكن



أن يفسر بأنه إهانة لأسمائه تعالى، سواء كان ذلك بفعله أو بقوله، ففي المنار ما نصه: «فكما يعظم الله يعظم اسـمه الكريم، فيذكر مقرونا بالحمد والشكر والثناء والتقديس. وقد صرحوا بـأن تعمد إهانة أسـماء الله تعالى في اللفظ والكتابة كفر؛ لأنه لا يمكن أن يأتي من مؤمن»[١].

وقد توعد الله الذين يلحدون في أسمائه كما توعد الذين يلحدون في آياته، فقـد قـال تعالـى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ الأعراف: ١٨٠، وقد بين المفسرون أن الإلحاد في آياته يدخل فيه كل ميل بها عما جاءت به مـن الهدى والبينات، فقد ذكر الطبري أقوال المفسرين القدامى في معنى الإلحاد في آياته ثم أتبع ذلك قوله: «وكل هذه الأقوال التي ذكرناها في تأويل ذلك هي قريبات المعاني، وذلك أن اللحـد والإلحاد: هو الميـل، وقد يكون ميـلا عن آيـات الله، وعدولا عنها بالتكذيب بها، ويكون بالاسـتهزاء مكاء وتصدية، ويكون مفارقة لها وعنادا، ويكون تحريفا لها وتغييرا لمعانيها»[٢].

وقال الرازي: «يقال ألحد الحافر ولحد إذا مال عن الاستقامة فحفر في شق، فالملحد هو المنحرف، ثم بحكم العرف اختص بالمنحرف عن الحق إلى الباطل»[٣].

وقال القرطبي: «أي يميلون عن الحق في أدلتنا. والإلحاد: الميل والعدول. ومنه اللحد في القبر لأنه أميل إلى ناحية منه. يقال: ألحد في دين الله أي حاد عنه وعدل. ولحد لغة فيه. وهذا يرجع إلى الذين قالوا: «لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه» وهم الذين ألحدوا في آياته ومالوا عن الحق فقالوا: ليس القرآن من

(١) محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ٣٦/١.
(٢) الطبري: جامع البيان، ٤٧٨/٢١.
(٣) الرازي: مفاتيح الغيب، ٥٦٨/٢٧.

عند الله، أو هو شعر أو سحر، فالآيات آيات القرآن. قال مجاهد: «يلحدون في آياتنا» أي عند تلاوة القرآن بالمكاء والتصدية واللغو والغناء. وقال ابن عباس: هو تبديل الكلام ووضعه في غير موضعه. وقال قتادة: «يلحدون في آياتنا» يكذبون في آياتنا. وقال السدي: يعاندون ويشاقون. وقال ابن زيد: يشركون ويكذبون. والمعنى متقارب»[١].

وقال قطب الأئمة: «وألحد مال وحفر في جنب استعير للانحراف في تأويل القرآن عن جهة الصحة وعن موضعه قاله ابن عباس ومنه اللحد في القبر [فِي آيَاتِنَا] بالتكذيب والعناد والمشاقة وقال مجاهد بالمكاء والتصدية واللغو وربما في إرادة جميع ذلك»[٢].

وقال صاحب **المنار** في تفسير الإلحاد في أسمائه تعالى: «واتركوا وأهملوا بلا مبالاة جميع الذين يلحدون في أسمائه بالميل بألفاظها أو معانيها عن منهج الحق الوسط، إلى بنيات الطريق ومتفرق السبل، من تحريف أو تأويل، أو تشبيه أو تعطيل، أو شرك أو تكذيب، أو زيادة أو نقصان، أو ما ينافي وصفها بالحسنى وهو منتهى الكمال، ذروا هؤلاء الملحدين، ولا تبالوا بهم، وكأن قائلا يقول: ولماذا نذرهم في خوضهم يعمهون؟ فأجاب بقوله تعالى: ﴿ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ الأعراف: ١٨٠، أي: سيلقون جزاء عملهم عن قريب، بعضهم في الدنيا قبل الآخرة، وإنما يعمهم جميعهم عقاب الآخرة، إلا من تاب منهم قبل الموت»[٣].

وقال العلامة ابن عاشور في تفسير الإلحاد: «الميل عن وسط الشيء إلى جانبه، وإلى هذا المعنى ترجع مشتقاته كلها، ولما كان وسط الشيء يشبه به

(١) القرطبي: جامع أحكام القرآن، ١٥/٣٦٦.
(٢) إطفيش: هميان الزاد إلى دار المعاد، ١٢/٢٢٠.
(٣) محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ٩/٣٦٨.

الحق والصواب، استتبع ذلك تشبيه العدول عن الحق إلى الباطل بالإلحاد، فأطلق الإلحاد على الكفر والإفساد، ويعدى حينئذ ب (في) لتنزيل المجرور بها منزلة المكان للإلحاد، والأكثر أن يكون ذلك عن تعمد للإفساد، ويقال: لحد وألحد، والأشهر ألحد»[١].

وإذا كان الإلحاد لغة بمعنى الميل وفي الاصطلاح الشرعي هو الميل بالحق الذي أنزله الله عن نهجه السوي، أَوَيَكونُ بمنأى عنه من تصرف بفعله في آيات الله تعالى المنزلة أو أسمائه الحسنى تصرفا يمكن أن يوحي بإهانة هذه الآيات أو هذه الصفات أو هذه الأسماء، أو إهانة العلم الذي تضمنته والحق الذي قدسته؟ فإن الله تعالى بين في كتابه مكانة العلم ومنزلة أهله، وأنه هو الفلك الذي تدور عليه رسالات جميع المرسلين، لا سيما خاتمهم عليه أفضل الصلاة والسلام، فقد امتن به على المؤمنين في قوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ آل عمران: ١٦٤، وامتن بهذا على العرب الأميين في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ الجمعة: ٢، وبين التفاوت بين من يعلم ومن لا يعلم في قوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ الزمر: ٩، وقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ فاطر: ٢٨، وبين مكانة العلم والتعليم في أول ما أنزله على نبيه ﷺ، إذ قال في فاتحة وحيه إليه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۞ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۞ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۞ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ العلق: ١ ـ ٥.

وكم ترى في كتاب الله تعالى ما يدلك على عظم حرمات أسماء الله تعالى الحسنى، ناهيك أن الله سبحانه جعل للأماكن المختصة بعبادته وذكر أسمائه

---

(١) ابن عاشور: التحرير والتنوير، ١٨٩/٩.

من الحرمات ما يفوق كل تصور ويربو على كل حساب، فالمساجد التي هي مئنة ذكره تعالى قدست في شرع الله تعالى تقديسا لأجل ما يذكر فيها من أسمائه ويُسَبَّح فيها بحمده، ولذلك لا يسوغ فيها إلا ما أذن الله به فيها من رفعها وذكر أسمائه، كما هو صريح قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۝ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ النور: ٣٦ ـ ٣٧، وقد شدد النبي ﷺ في أي عمل يخرج عن تعظيم الله تعالى والتسبيح بحمده وتقديس أسمائه في هذه المساجد، فعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «**طهرت المساجد من ثلاث من أن ينشد فيها بالضوال أو يتخذ فيها طريق أو يكون فيها سوق**»[(١)]، وعن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد، فقولوا: لا أربح الله تجارتك، وإذا رأيتم من ينشد فيه ضالة، فقولوا: لا رد الله عليك**»[(٢)]، وقد شدد العلماء في دخول الجنب والحائض المسجد، وروي في ذلك عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن المسجد لا يحل لجنب ولا حائض**»[(٣)].

وإذا كانت هذه الحرمات لمباني تقام مما يقام به البناء من مواد العمران وقد استحقت هذا التقديس والتقدير لأجل ما يذكر فيها من أسماء الله، فما بالك بحرمات تلك الأسماء نفسها، وقد نص الله تعالى في كتابه على مشروعية القتال من أجل الحفاظ على المباني التي تعمر لذكر الله تعالى، فقد قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ الحج: ٤٠،

---

(١) أخرجه الربيع (ص١٠٩ رقم: ٢٦٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٦١٠/٣ رقم: ١٣٢١) والحاكم (٦٥/٢، رقم ٢٣٣٩) وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، والبيهقي (٤٤٧/٢، رقم ٤١٤٢).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢١٢/١، رقم ٦٤٥).

وحسبك ذلك دليلا على عظم حرمات أسماء الله تعالى، فأنى يسوغ مع ذلك أن يتجاهل أحد ما عسى أن يكون في أي كتاب كان من ذكر أسمائه تعالى أو شيء من آياته؟!.

تعظيم القرآن يفضي إلى تعظيم العلوم النافعة التي نوه بها:

لا يخفى ما في هذا الذي ذكرناه من التنويه بقدر مطلق العلم والحط من مكانة الجهل لا سيما العلم المستوحى مما أنزله الله تعالى في كتابه المبين وذكره الحكيم، فضلا عن مكانة نفس الآيات البينات التي تستوحى منها هداية الله لخلقه ومكانة أسمائه الحسنى التي لا مدلول لها إلا ذاته العلية المتصفة بجميع صفات الكمال، فإنها ـ بلا ريب ـ يجب تعظيمها وتجنيبها كل ما يشي بعدم المبالاة بها.

وكم رأينا ـ مع الأسف الشديد ـ فيما يصدر من الناس من تصرف يتنافى مع قدسية آيات الله تعالى البينات، وأسمائه الحسنى، ومع احترام العلم وتقديره وتوقيره، ولربما كان ذلك حتى بالنسبة إلى الكتاب العزيز كله، فكم رأينا الناس في المساجد يتركون المصاحف على الأرض!! غير مبالين بما تحتويه من كلام الله المصون وخطابه المقدس، ولربما دخل أحدهم المسجد وأتى بالمصحف فتركه على الأرض من بين يديه أو عن جانبه حتى يفرغ من تحية المسجد، ثم يقرأ منه، وليت شعري ما الذي يمنع هذا الداخل أن يدع المصحف في مكانه المخصص له ثم يتناوله بعد فراغه من تحية المسجد؟! وكذلك إذا عارضته في تلاوته سجدة ترك المصحف على الأرض، ولم يتركه في مكان رفيع حتى يؤدي السجدة، وقد كان الواجب عليه أن يتركه في مكان عالٍ، وإن لم يجد فليحمله في سجوده تحت إبطه، ولا يجعله في مكان تدوسه الأقدام، لأن ذلك يتنافى مع مراعاة قدسيته.

وقد نص العلماء على أن من حرمة القرآن أن لا يترك على الأرض كما قال القرطبي: «ومن حرمته أن يضعه في حجره إذا قرأه أو على شـي بين يديه ولا يضعه بالأرض»[١]، لكن الناس في غفلة عن رعاية هذه الحرمات، فكم انتهكت على مسـمع ومرأى من جماهيرهم، فكأين رأينا في أيـام الجمع المصاحف مبثوثة على الأرض في المساجد أمام صفوف المصلين!! ليتناول من شاء منهم مصحفا متى أراد، كأن هذه المصاحف مجرد أدوات تلقى في أي مكان كان، أو كأنها أعلاف تلقى على الأرض أمام الماشية!!.

ولا تسأل كيف يتصرف مع كتب العلم ـ سواء كتب التفسير أو الحديث أو الفقه أو غيرها ـ كأنها مسـتودعات لإلقاء الأشـياء فيها، فترى أحدهم يخرج هاتفه النقال ويدعه فوق الكتاب، وكذلك إن خلع نظارته عن عينيه تركها على الكتاب الذي بين يديه، فضلا عن آلات الكتابة، وقد انتشرت هذه العادة بين الناس حتى تخالهم أنهم تواصوا بها، ناهيك أن الخاصة والعلماء لا يتأففون منها ولا يستنكفونها، بل يقعون فيها، وقد نبهت أحدهم على ذلك المرة بعد المرة، وكان يسلم بأن هذا التصرف خطأ، ولكن لا يلبث أن يعود إليه.

ولا أزال أذكر قبل ما يقرب من نصف قرن من الزمن، أن جماعة من الناس جاؤوا من مكان بعيد ونزلوا بمنزلي في مجلس استقبال الزوار، وكانوا يبيتون هنالك، وكنت في كل صباح أجدهم قد وضعوا ساعتهم المنبهة فوق كتاب من كتب التفسير التي كانت في رفوف المجلس، فعجبت من هذا التصرف مع أنه كان من بينهم من يوسم بالفضل والعلم!.

ومن العجيـب أن يألف النـاس هذه العـادة كأنهم لا يجدون مسـتقرا ومسـتودعا لأدواتهم إلا ظهور الكتب أو بطونها، وأن يسكت عن ذلك أهل العلم بل هم يشاركون فيه الجهلة! كأنما لم يعرفوا قط أن لتلك الكتب حرمة،

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ٢٨/١.

ناهيك بما فيها من أسـماء الله تعالى وآياته، ولو لم يكن فيها إلا البسملة في أولها لكان ذلك كافيا لوجوب مراعاة حرماتها.

ومنذ عقود من السنين اجتمعت بأحد المتخصصين في العلوم الدينية، وإذا به يعمل عمل العوام في هذا، بل وجدته يضع آلة التصوير على الكتاب، ولما أنكرت عليه ذلك طالبني بالدليل الشرعي على المنع غير مكتفٍ بكل ما سبق ذكره، وإنما كان يطالب بدليل نصي على ذلك!! فعجبت من هذا الجمود في التفكير والضيق في النظر، فليت شـعري؛ هل يسـوغ لنفسـه أن يقعد على المصحف الشريف بسـبب أنه لم يأت دليل نصي يمنع من القعود عليه، ولم تكفه الأدلة الواضحة على وجوب رعاية حرمات آيات الله تعالى وأسمائه؟!.

ومن أعجب ما بلغني أن كثيرا من الطلاب ـ في المدارس والجامعات ـ عندما لا يجـدون ما يقعدون عليـه ويريدون أن يقوا ثيابهـم غبار الأرض وأدرانها يقعدون على كتب الدراسـة!! والكيس منهم من ينزع منها كتاب التربية الإسلامية، وهم لم يفكروا في أن كثيرا من تلك الكتب تحتوي على آيات من كتاب الله، وعلى العديد من أسـمائه الحسـنى، فكيف تصل بهم الوقاحة وقلة الأدب إلى القعود عليها؟ بل لو لم تكن تحتوي على شيء من ذلك، فإن العلم مهما كان يجب أن يقدر ويعظَّم، ولا يستهان به، فكيف يقعد طالب على كتاب يستفيد منه علما، وقد علمت كيف نبه القرآن على مكانة العلم وقدره؟؟.

وذكر برهان الدين الزرنوجي في كتابه **تعليم المتعلم طريق التعلم** ما يجب من مراعاة حرمات العلم والكتاب ـ وقد كنت أحضـر حلقة يدرس فيها هذا الكتاب في أيام الصبا ـ ومما جاء فيه قوله: «قيل ما وصل من وصل إلا بمراعاة الحرمة وما سقط من سقط إلا بترك الحرمة»[١].

(١) الزرنوجي: تعليم المتعلم طرق التعليم، ص ١٠ نسخة مصورة من مخطوطة.

وقوله: «ومن تعظيم العلم تعظيم الكتاب، فينبغي لطالب العلم أن لا يأخذ الكتاب إلا بالطهارة، وحكي عن الشيخ الإمام الأجل شمس الأئمة الحلواني أنه قال: إنما نلت هذا العلـم بالتعظيم، فإني ما أخـذت الكاغد إلا بطهارة، والإمام السرخسي كان مبطونا في ليلة وكان يكرر درس كتابه فتوضأ في تلك الليلة سـبع عشـر مرة، لأنه كان لا يكرر إلا بالطهارة، وهـذا لأن العلم نور والوضوء نور، فيزداد نور العلم به، ومن التعظيم الواجب أن لا يمد الرجل إلى الكتاب، ويضع كتب التفسير فوق سـائر الكتب، ولا يضع على الكتاب شيئا آخر، وكان أستاذنا شيخ الإسلام برهان الدين يحكي عن شيخ من المشايخ أن فقيها كان وضع المحبرة على الكتاب، فقال له: برنيابي برنيابي». اهـ[(١)]

وأذكر أن كلمة **بَرْنَيَابِي** فسرت في الحلقة التي كان يُدرس فيها هذا الكتاب بأنها كلمة فارسية تدل على أن من فعل هذا لا يبارك له في علمه.

وأنت ترى في هذا الكلام أن كتب العلم يجب التمييز بينها في أقدارها، فالأفضل منها هو الذي يترك فوقها جميعا، ولما كان تفسـير القرآن هو أفضل العلوم على الإطلاق لأنه تفسير كلام الله تعالى وجب أن تكون كتب التفسير فوق سـائر الكتب، وإذا كان هذا في ترتيب وضع الكتب بعضها فوق بعض، فما بالك بمن يضع شـيئا من أدواته على الكتاب كالقلم أو الهاتف النقال أو الساعة أو المحبرة؟!.

ونجد في فتاوى الفقهاء السابقين التشديد في أي عمل يوحي بالاستهانة بما يتشـابه مع صورة شـيء يمكن أن يتركب منه علم، فعندما سـئل الإمام السبكي عن وضع القدم على بسـاط مفروش وقد ارتسـمت في النسج في البساط أشـكال حروف من حروف المعجم، وانتظمت منها كلمات مفهومة المعنى مثل بركة وسـعادة والعز الدائم ونحو ذلك، هل يجوز وطء الإنسان

(١) المرجع السابق، ص١١.



مواضع هذه الكلمات من البساط؟. شدد في الجواب بسبب حرمة هذه الكلمات والحروف التي يمكن أن تستخدم في نشر العلم، ونص على حرمة ذلك في رأيه. وعلل ذلك بأن حروف المعجم أوجدها الله تعالى لينتظم منها كلامه وكلام رسوله ﷺ والأذكار المقربة إلى الله، وما يبث وينشر من العلم النافع، فلا تسوغ إهانتها بحال.

ومما قاله في ذلك: «وقد قال الفقهاء: إن الورقة التي فيها اسم الله تعالى لا يجوز أن تجعل كاغدة يجعل فيها قصة ونحوها، فالتحريم هنا لا شك فيه لأجل اسم الله تعالى فحيث لا يكون اسم الله ولكن حروف يمكن أن يركب منها اسم من أسماء الله أو غيره إن لم نقل بالتحريم لكان له وجه بالقياس عليه فإن الفرع لا يشترط فيه مساواة الأصل بل يكفي اشتراكهما في علة الحكم».

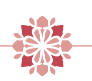
ثم أضاف إلى ذلك بأنه لو اعترض معترض بأن هذه الحروف نفسها قد تركب تركيبا آخر فتكون دلالتها على عكس هذه الدلالة على الخير، كما لو اتخذت في تأليف كلام فيه إشراك بالله تعالى أو جحده أو وصفه بالقبائح تعالى الله عن ذلك، أو تسفيه الحق وتأييد الباطل، فكيف تكون لها حرمة على الإطلاق؟.

وأجاب عن ذلك: «نعم ولكنها لم تخلق لها إنما خلقت للأول وكذلك جميع الأشياء خلقت لغرض ومكن الإنسان من استعمالها في ذلك الغرض وفي ضده فإن استعمله فيه كان قد وضع الشيء في موضعه وعدل وإن استعمله في غير موضعه فقد جار وقسط، والجور والقسط ظلم وحرام بخلاف العدل والإقساط، وقد كان بعض العلماء لا يمس الورق إلا على وضوء وإن كان الورق محتملا؛ لأن يكتب فيه هذا وهذا لكن الذي خلق لأجله هو أن يكتب فيه القرآن والحديث والعلم النافع فيعظم لذلك، فلو جاء إنسان يدوس ورقة عمدا وهي بياض وقد بلغه ما يجب من تعظيمها لا يمتنع

أن يقال بالتحريم عليه فكذلك الحروف لا يجوز دوسها لمن بلغه ما ذكرناه من المعنى الذي خلقت له»[١].

وإذا كان الفقهاء يشـددون في وطء الورقة الخالية من الكتابة لما لها من الحرمة، لأنها مهيـأة لأن يكتب فيها علم نافع للعباد، فمـا بالك بما دُوِّن فيه العلم؟ مع أن العلوم كلها ولو كانت دنيوية لها حرماتها، ناهيك أن كل علم من هذه العلوم فيه دلالـة على الله سبحانه وتعالى وإقامـة الحجة على جاحـده، ويمكن أن يستظهر منها ما يعضد رسالاته التي جاءت بها رسله إلى عباده مع ما فيها من المنافع لخلقه، وقد نص العلماء على وجوب صـون الكتب واحترامها، وأن ذلك يتفاوت بتفاوت أقدارهـا وأقدار مؤلفيها، كما نـص عليه الأمير العلامة الحسين بن الإمام القاسـم بن محمد بن علي من فقهاء الزيدية حيث قال في كتابه **آداب العلماء والمتعلمين**: «إذا نسخ من الكتاب أو طالعه، فلا يضعه على الأرض مفروشاً منشوراً، بل يجعله بين شيئين أو كرسي الكتب المعروف، كيلا يسرع بقطع حبكه، وإذا وضعها في مكان مصفوفة، فلتكن على كرسي أو تخت خشب أو نحوه، والأولى أن يكون بينه وبين الأرض خلوا كيلا تندى أو تبلى، وإذا وضعها على خشب أو نحوه، جعل فوقه وتحتها ما يمنع تآكل جلودها به، وكذلك يجعل ببينها وبين ما يصادفها أو يسـتندها من حائط أو غيره، ويراعي الأدب في وضع الكتب باعتبار علومها وشرفها ومصنفيها أو جلالتهم، فيضع الأشراف أعلى الكل. ثم يراعي التدريج، فإن كان فيها المصحف الكريم جعله أعلى الكل، والأولى إن يكون في خريطة ذات عروة في مسـمار، أو وتد في حائط طاهر نظيف في صدر المجلس، ثم كتب الحديث الصرف، ثم تفسـير القرآن ثم تفسـير الحديث، ثم أصـول الدين، ثـم أصول الفقـه، ثم النحو والتصريف، ثم أشعار العرب، ثم العروض. فإن اسـتوى كتابان في فن أعلى

(١) ينظر السبكي: فتاوى السبكي، ٥٦٣/٢ ـ ٥٦٤.



أكثرهما قرآناً أو حديثاً فإن استويا فبجلالة المصنف، فإن استويا، فأقدمهما كتابة وأكثرهما وقوعاً في أيدي العلماء والصالحين، فإن استويا فأصحهما»[١].

وقال أيضا: «ولا يجعل الكتب خزانة الكراريس أو غيرها، ولا مخدة ولا مروحة، ولا مكنساً ولا مسنداً، ولا متكأ، ولا مقتلة للبق وغيره، ولا سيما في الورق فهو على الورق أشد، ولا يطوي حاشية الورقة أو زاويتها، ولا يعلم بعود أو شيء جاف، بل بورقة أو نحوها». اهـ[٢].

وإذا كان التعليم بعود أو نحوه من الأشياء الجافة مما يؤمر بتجنبه في الكتاب، فما بالك بوضع النظارة أو القلم أو المحبرة أو الساعة أو الهاتف فوقه، أليست هذه إهانة للعلم وإهانة لما يحتويه الكتاب من آيات الله تعالى البينات وأسمائه الحسنى، وقد رأيت أن الأدب في التصرف مع الكتاب يقتضي أن تراعى الكتب في وضعها وترتيبها بحسب مقامات العلوم التي فيها وتفاوتها، وذلك بحسب أُوْلَيَاتِها وأَوْلَوِيَاتِها، مع أنها كلها تحتوي على علم نافع، فكيف يتسامح أن يوضع فوق الكتاب ما اعتادوا أن يتركوه عليه من الأدوات من غير التفات إلى ما يحويه الكتاب من العلم النافع فضلا عما يشتمل عليه من أسماء الله تعالى وآياته؟.

هذا؛ ومن أسوأ العادات المنتشرة بين الناس عدم المبالاة بحرمات القرآن في تلاوته، فتجد الداخل على التالي لا يبالي أن يقطع تلاوته بالسلام والكلام، مع أن التالي يتلو كلام الله سبحانه الذي هو ليس ككلام الخلق، فهو أحسن الحديث كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ الزمر: ٢٣،

---

(١) الحسين بن المنصور بالله: آداب العلماء والمتعلمين، ص٢٢.

(٢) المرجع السابق.

وبين سبحانه كيف أثره على مخلوقات الله تعالى بحسب ما فطرها الله تعالى عليه من تعظيمه سبحانه وهيبته عندما قال: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ الحشر: ٢١.

وبين سبحانه وجوب قطع الحديث عند تلاوته، إذ قال: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ الأعراف: ٢٠٤، ولكن الناس لألفتهم مخالفة الأوامر الشرعية واستجابتهم لأهواء نفوسهم لا يلتفتون إلى ما يجب من الاستماع والإنصات حال تلاوته، فالتالي للقرآن تلاوته عرضة للقطع ممن يدخل عليه بالسلام والكلام، وإذا كان التسليم يمنع عندما يكون المقصود به مشغولا بأي شيء كما قال الإمام الثميني رضي الله عنه : «ولا يسلم على مشغول عن رده بكصلاة أو تطهر لها أو أكل أو شرب أو في خلاء أو بأذان أو إقامة أو بذكر أو قراءة أو في مسجد، أو بجنازة أو حفر قبر أو دفنه»[1].

فكيف يُسلَّم على قارئ القرآن وهو يجب عليه أن يكون غارقا في تدبره للقرآن كأنما يتلقاه من الله تعالى مباشرة؟! وهب أن أحدا دخل على غيره فوجده في حديث مع أحد الملوك أو الرؤساء، أيتجرأ أن يقطع عليه حديثه؟ أولا يعد ذلك استخفافا بالحاكم الذي يتحدث إليه؟!.

وقد مضى سلفنا الصالح وهم يتشددون أيما تشدد على قطع التلاوة بالتسليم أو الكلام، وقد أدركنا من أدرك الإمامين العدلين الصالحين سالم بن راشد الخروصي ومحمد بن عبد الله الخليلي رحمهما الله تعالى، وحدثونا عنهما أنهما كانا لا يتساهلان في هذا الأمر، بل حدثت عن الإمام الخليلي رحمه الله أنه يترك في أثناء تلاوة القرآن بعض رجاله على المدخل ليمنعوا كل داخل من التسليم إلا أن يأتي إلى الحلقة فينضم إليها من غير سلام ولا كلام.

(١) قطب الأئمة: شرح النيل، ٤٨٩/٩.

وهكذا كان علماء زمانهما وعلى رأسهم الإمام المجدد العلامة المحقق نور الدين السالمي رحمه الله تعالى، بل كانوا يشتدون على من يتحدث في أثناء مذاكرة العلم ومدارسته أو تلاوة كتاب ولو بسلام أو سؤال عن حال.

وقد أخبرني شيخنا العلامة إبراهيم بن سعيد العبري أن الإمام نور الدين السالمي ـ عندما زار شيخ المشايخ العلامة الرضي الذي كان يعد بقية السلف الصالح ماجد بن خميس العبري ومن معه من الصالحين ببلدة الحمراء من الحوزة الكُدَمِيَّة رحمهم الله جميعا ـ كان في مجلسه لا يفتر عن الاستماع إلى قارئ يقرأ له من مدونات العلم النافع، وكان شيخنا العبري آنذاك صغير السن، ولما سمع الإمام السالمي قراءته استحسنها، وأمره بأن يكون دائما في تلك الزيارة هو القارئ الذي يقرأ له، وبينما هو شارع في القراءة له إذ سمع الإمام السالمي همسا من بعيد من بعض مرافقيه، ولعله كان يسأل الأخ الأكبر لشيخنا العبري عن دراسته، فاستشاط الإمام السالمي غضبا أن يكون في حلقة يتلى فيها العلم حديث جانبي، وضرب بعصاه السوداء المعهودة الأرض ثلاث ضربات ثم قال بصوته الأجش الجهوري المهيب: «لا بورك في مجلس علم يتحدث فيه بأمر الدنيا، لا بورك فيه لا بورك فيه... اسكت» فوجفت قلوب الحاضرين جميعا من هيبته، وأطبق الصمت على المجلس كله.

وإذا كان الإمام السالمي رحمه الله تعالى استشاط غضبا بسبب سماعه همسا من بعيد في مجلس يتلى فيه العلم، فما بالك بأولئك الذين تتعالى أصواتهم في مجالس مذاكرة العلم حتى لا يبقى للمتحدث بالعلم أو ممليه ذهن يستحضر، ولا لمستمعه ذهن يعي أو سمع يتلقى؟!.

وإذا كان النبي ﷺ قال فيمن انصرف عن حلقة يستفاد منها علم من غير أن يضج بحديث يزعج الحاضرين ويشوش عليهم بأنه «**أعرض فأعرض الله عنه**»، كما ثبت «عن أبي واقد الليثي، أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد

والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد، قال: فوقفا على رسول الله ﷺ، فأما أحدهما: فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر: فجلس خلفهم، وأما الثالث: فأدبر ذاهبا، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: «**ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيى فاستحيى الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه**»[1].

فما بالك بمن يجلس في حلقة العلم فلا يصدر منه إلا الضجيج الذي يطير بألباب الحاضرين، ويشوش عليهم حتى لا يفقهوا ما يدور في الحلقة؟!.

وبالجملة؛ فإن لتلاوة القرآن آدابا وحرمات أصبحت لا تراعى من قبل الناس، وكذلك لحضور مجالس العلم آداب تمسك بها السلف الصالح، فكان لهم الحظ الأوفر من العلم اللدني، وقد أدرك العلماء ما يكون من الجهلة عندما يدخلون المجالس التي يتلى فيها القرآن من التشويش على التالي بالتسليم عليه والتحدث إليه، فلذلك استحب من استحب منهم أن تكون تلاوة القرآن في خلوة لتفادي شغب الداخلين، كما قال القرطبي: «ومن حرمته أن يخلو بقراءته حتى لا يقطع عليه أحد بكلام فيخلطه بجوابه، لأنه إذا فعل ذلك زال عنه سلطان الاستعاذة الذي استعاذ في البدء»[2].

وكم رأينا تاليا يتلو القرآن في المسجد لا يبالي أن يقطع تلاوته ليتحدث إلى من حوله بما شاء من حديث الدنيا، وقد لا يخلو حديثه أحيانا من ضحك أو قهقهة، ثم يعود إلى التلاوة حتى يعرض له حديث آخر!!.

وعندما يدخل على قارئ القرآن داخل ممن يرى له تعظيما وقدرا لا يبالي أن يقطع قراءته ويقوم إجلالا لهذا الداخل، وينسجم معه في الحديث، ولا

(١) أخرجه البخاري (٢٤/١ رقم: ٦٦) ومسلم (١٧١٣/٤ رقم: ٢١٧٦) وابن حبان (٢٨٦/١ ـ ٢٨٧ رقم: ٨٦) وأخرجه الربيع عن جابر بن زيد مرسلا (ص٣٣ رقم: ٣١).

(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ٢٧/١.



يبالي بما لـكلام الله تعالى من حق وحرمة تجب مراعاتهما، وماذا عسى أن يكون حق هذا الداخل حتى تقطع من أجله قراءة القرآن، ويقوم القارئ والمصحف في يديه؟! مع أنه لو دخل رسول الله ﷺ على من يقرأ القرآن لما رضي منه أن يقطع من أجل دخوله تلاوته، وأن يقوم له، ويشتغل بدخوله عليه عما كان مقبلا عليه من كلام الله تعالى، فكيف بسائر الناس؟!.

وكم يزعجني عندما أدخل مسجدا أو مجلسا يتلى فيه القرآن، فيقطع التالون تلاوتهم من أجل دخولي، ويقومون لي، مع أن الداخل لو كان هو النبي ﷺ لما رضي بقطع تلاوتهم من أجل دخوله وقيامهم له، فكيف يكون ذلك لأمثالي ممن لا يسوون شيئا بجانب قدر النبي ﷺ وحقه، أو قدر أصحابه رضي الله عنهم، وعندما عاتبت أحدهم على قطع تلاوته وقيامه، رد علي: بأن هذا لا يضير شيئا، فسألته: أرأيت لو أنك كنت قاعدا بين يدي حاكم من حكام الدنيا تحدثه ويحدثك، فدخلت عليك، أكنت تقطع حديثك معه وتقبل علي، فكيف وأنت تتلقى عن الله بتلاوة كلامه كأنك تسمع قوله، فما بالك تترك ما أنت عليه وتقبل علي، فهل هذا هو حسن التأدب مع الله تعالى عند تلاوة كلامه الهادي إلى الحق المبين؟؟!.

وهذه الغفلة عن حرمات القرآن وحقوقه هي التي أقصت الناس عن تدبره كأنما قلوبهم غلف عن ذلك، فلم ينتبهوا لأوامره وزواجره ووعده ووعيده ووعظه وأمثاله، مع أن تدبره هو الطريق الأوحد للوصول إلى حقائق معانيه ودقائق مراميه، وقد نعى الله تعالى على الذين لا يتدبرونه بقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ محمد: ٢٤، وقد قست بسبب ذلك القلوب وتحجرت حتى لم تعد تتأثر بالقرآن وإن تكررت تلاوته، مع أنه لو خوطبت به الجبال الشم كما خوطبوا لتدكدكت، ولو خوطبت به البحار الزاخرة لتبخرت، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الحشر: ٢١.

كلمة إلى المؤسسات العلمية:

وأخيرا وليس آخرا، إن على جميع المؤسسات العلمية من رياض الأطفال وكتاتيب القرآن إلى مؤسسات الدراسات العليا أن تربي الناشئة على تعظيم القرآن، وتوقير العلم، ورعاية حرماتهما لتشرق على قلوبهم أنوار القرآن، وتستبصر بصائرهم به، وتغمرهم بركات العلم، وتقوى في نفوسهم داعية العمل به، فبهذا تتأهل الناشئة لحمل أمانة الله تعالى وتبليغها إلى من بعدها، وتقوى على مراعاة حرمات الله تعالى، وحرمات ما أنزل من الحق، وما شرع من الدين، والله ولي التوفيق.



المحور الثالث

فيما يتعلق بحسن أداء العبادات المشروعة

إن للعبادات آثارا عظمى في حياة الناس، الشخصية والنوعية، وفي علاقاتهم الخاصة والعامة، وهي تختلف في مشروعيتها بحسب اختلاف حاجة النفوس إليها، وإلى ممارستها، وللناس غفلة عن كثير من أحكامها، ولست الآن بصدد إحصاء أخطائهم فيها، فإن ذلك يستوجب إفراد تلك الأخطاء بمؤلف خاص، ولكنني أنبه على أهم العبادات وأقدسها وأعمقها أثرا وأبلغها تأثيرا، وهي الصلوات الخمس التي فرضت على كل مسلم ومسلمة متكررة في كل يوم وليلة، وما ذلك إلا لأهميتها وضرورة حياة الناس إليها.

وكم تُرْتَكب فيها من أخطاء من قبل مؤديها، ولذلك فُقِدَ تأثيرها في النفوس لأنها أصبحت عادة من العادات تتوارثها الأجيال، فيرثها الولد عن والده، وقد بين ﷺ أنها إن لم تؤد على الوجه المشروع صارت كأنها لم تؤد، فقد ثبت عن جماعة أن رسول الله ﷺ دخل المسجد، فدخل رجل، فصلى، فسلم على النبي ﷺ، فرد وقال: «**ارجع فصل، فإنك لم تصل**»، فرجع يصلي كما صلى، ثم جاء، فسلم على النبي ﷺ، فقال: «**ارجع فصل، فإنك لم تصل**» ثلاثا، فقال: والذي بعثك بالحق ما أحسن غيره، فعلمني، فقال: «**إذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعا، ثم ارفع حتى تعدل قائما، ثم اسجد**

حتى تطمئن ساجدا، ثم ارفع حتى تطمئن جالسا، وافعل ذلك في صلاتك كلها»[(١)].

فأنت ترى أن النبي ﷺ أمر الرجل الذي صلى أن يعيد صلاته لأنه لم يصل، أي لأنه لم يأت بالصلاة المشروعة على وجهها الشرعي، وما ذلك إلا لأنه أضاع فيها ما كان يجب عليه من الطمأنينة في ركوعه وسجوده، وفيما بينهما وبين السجدتين، إذ الصلاة يجب أن يقبل عليها المسلم وقد قطع علاقاته عن الدنيا وأقبل بكله على الله، فلا يشغل ذهنه عن الله شاغل، ولا يصده عن التوجه إليه صاد، فلا يعجله أمر أن يراعي ما يجب عليه في صلاته من السكينة والطمأنينة وعدم العجلة في أدائها، فهو عليه أن يكون في وقوفه بين يدي الله تعالى مطمئنا وكذلك في ركوعه وسجوده، وفي رفعه من الركوع أو السجود، فلا ينقر نقر الديكة كما لا يلتفت التفات الثعالب.

وكما أن النبي ﷺ أكد على الطمأنينة في الصلاة في ركوعها وسجودها، وفيما بينهما وبين السجدتين، فإنه بنفسه كان قدوة للمصلين في الحفاظ على هذه الطمأنينة، فعن ثابت، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: إني لا آلو أن أصلي بكم، كما رأيت النبي ﷺ يصلي بنا ـ قال ثابت: كان أنس بن مالك يصنع شيئا لم أركم تصنعونه ـ «كان إذا رفع رأسه من الركوع قام حتى يقول القائل: قد نسي، وبين السجدتين حتى يقول القائل: قد نسي»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري (١٥٢/١ رقم: ٧٥٧)، (١٥٨/١ رقم: ٧٩٣) ومسلم (٢٩٧/١ رقم: ٣٩٧)، والترمذي (٣٩٣/١ رقم: ٣٠٣) وأبو داود (٢٢٦/١ رقم: ٨٥٦) والنسائي (١٢٤/٢ رقم: ٨٨٤).

(٢) أخرجه البخاري (١٦٤/١ رقم: ٨٢١)، ومسلم (٣٤٤/١ رقم: ٤٧٢) وأحمد (٧٤/٢١ رقم: ١٣٣٦٩)، والبيهقي (١٤١/٢ رقم: ٢٦٢٥) و(١٧٤/٢ رقم: ٢٧٤٤) وأبو يعلى (١٠٢/٦ رقم: ٣٣٦٣)، وابن حبان (٢٠٤/٥ رقم: ١٨٨٥)، وأبو عوانة (٤٩٤/١ رقم: ١٨٤٢) وابن خزيمة (٣٠٨/١ رقم: ٦٠٩).

وعن حماد، أخبرنا ثابت، وحميد، عن أنس بن مالك، قال: «ما صليت خلف رجل أوجز صلاة من رسول الله ﷺ في تمام وكان رسول الله ﷺ إذا قال: سمع الله لمن حمده، قام حتى نقول: قد أوهم، ثم يكبر، ويسجد، وكان يقعد بين السجدتين حتى نقول: قد أوهم»(١).

وهكذا نص علماؤنا الأسبقون، ففي مدونة أبي غانم بشر بن غانم الخراساني رَحِمَهُ الله: «بلغنا أن رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركعة قام حتى يقال أوهم، وإذا رفع رأسه من السجدة قعد حتى يقال أوهم»، قال مرتبها قطب الأئمة رَحِمَهُ الله: يرفع رأسه من الركوع فيستوي في القيام يمكث في القيام مدة، وكذا يمكث بين السجدتين.(٢)

وذكر علّامة الشريعة والأدب أبو مسلم رَحِمَهُ الله حديث أنس رَضِيَ الله عَنْهُ وأتبعه قوله: «فهذا مما أنكره أنس على الأئمة حيث كانوا يقصرون هذين الركنين كما أنكر عليهم تقصير الركوع والسجود»(٣).

ومثل ذلك إهمال كثير من الأئمة الترتيل خصوصا في قراءة السرِّ، فلربما رتل أحدهم إن جهر، ولكن إن أَسَرَّ تسارع حتى لا يكاد المأموم يدرك إلا قليلا من الفاتحة، مع أن النبي ﷺ كان يرتل في قراءة السر كما يرتل في قراءة الجهر، فعن «أبي سعيد الخدري رَضِيَ الله عَنْهُ، قال: «لقد كانت صلاة الظهر تقام فيذهب الذاهب إلى البقيع فيقضي حاجته. ثم يتوضأ. ثم يأتي ورسول الله ﷺ في الركعة الأولى مما يطولها»»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم (٣٤٤/١ رقم: ٤٧٣) وأبو داود (٢٢٥/١ رقم: ٨٥٣)، وأحمد (٣٧٥/٢٠ رقم: ١٣١٠٤)، وأبو يعلى (٩٩/٦ رقم: ٣٣٦٠).

(٢) أبو غانم الخراساني: المدونة الكبرى، ٥٨/١، ط: وزارة التراث القومي والثقافة.

(٣) أبو مسلم البهلاني: نثار الجوهر: ٣٠٥/٢، مكتبة مسقط ـ مسقط ـ عُمان.

(٤) أخرجه أحمد (٤٠٨/١٧ رقم: ١١٣٠٧) ومسلم (٣٣٥/١ رقم: ٤٥٤) والنسائي (١٦٤/٢ رقم: ٩٧٣) وابن ماجه (١٨/٢ رقم: ٨٢٥) وابن حبان (١٦٤/٥ رقم: ١٨٥٤).

وذلك أنه عليه الصلاة والسلام كان يحرص في صلاته على تدبر ما يتلوه من القرآن، كما قال العلامة أبو مسلم: «ونأخذ من هذا الحديث تطويل صلاة العصرين منه ﷺ لكثرة تدبره الخاص به في الاستعاذة والتوجيه والفاتحة»(١).

ولا يخفى أن التدبر إنما هو ناتج عن الترسل في القراءة لا الاستعجال فيها، وينشأ عن التدبر الخشوع في الصلاة الذي هو روحها، كما دل عليه حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «**لكل شيء عمود وعمود الدين الصلاة وعمود الصلاة الخشوع وخيركم عند الله أتقاكم**»(٢).

ولقطب الأئمة رحمه الله كلام نفيس في قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ المزمل: ٤، جاء فيه ما نصه: «اقرأه على مهل بتبيين الحرف وإشباع الحركات المشبعة حتى يجيء المتلو منه شبيهاً بالثغر المرتل وهو الفلج المشبه بنور الأقحوان ولا يسرده سرداً، قال عمر: «شر السير الحقحقة وشر القراءة الهذرمة»(٣) وسئلت عائشة رضي الله عنها عن قراءة رسول الله ﷺ، فقالت: «لا كسردكم هذا لو أراد السامع أن يعد حروفه لعدها»(٤)، وترتيلا مصدر مؤكد لايجاب الترتيل وعن محمد بن عبد الرحمٰن كان ﷺ إذا قرأ يرتل ويفسر، وكان ابن عباس يقرأ الآية ثم يسكت ثم يقرأ الأخرى وقال له جاره صالح مولى التومة: لم كنت تفعل هذا؟ فقال: من أجل تأويل القرآن(٥)، وقال رجل لابن عباس:

---

(١) أبو مسلم البهلاني: نثار الجوهر: ٣٠٥/٢.

(٢) أخرجه الربيع (ص ١٢٠ رقم: ٢٨٥).

(٣) لم نجده بهذا اللفظ مسندا، وإنما ذكره الزمخشري: الكشاف، ٦٣٨/٤، والأبي: نثر الدرر، ٦٧/٧، وروي الجزء الأول منه وهو (شر السير الحقحقة) عن بعض السلف، ورواه ابن عدي في الكامل مرفوعا من طريق أبي هريرة، ٣٠٠/٢ ترجمة الحسن بن دينار، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٩٦/٥) عن معبد الجهني، عن بعض أصحاب النبي ﷺ، ولم يسمه.

(٤) لم نجده مسندا، وإنما ذكره الزمخشري في الكشاف، ٦٣٨/٤ وقال الزيلعي في **تخريج الأحاديث والآثار**، ٤٥٩/٢: «غريب».

(٥) لم نجده مسندا.

إني رجل خفيف القراءة أهذرم القراءة، فقال: لأن أقرأ سورة البقرة وأترسل فيها وأتدبرها أحب ألي أن أقرأ القرآن أجمع هذرمة، ولأن أقرأ إذا زلزلت والقارعة بتدبر أحب أليَّ من أن أقرأ البقرة وآل عمران تهديـرا[(١)]، لو كان يأمر بقراءته ثلاث آيات أو أربعا أو خمساً»[(٢)].

ثم قال: «وفائدة الترتيل في الصلاة أو غيرها استشعار العظة عند ذكر الله وحصول الرجاء والخوف عند الوعد والوعيد والاعتبار عند القصص والأمثال فيستنير القلب عند ذلك بنور المعرفة، فالمقصود حضور القلب ولا يتحصل إلا بترتيل وفي ترتيله احترام له» اهـ[(٣)].

وقال الإمام السالمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الترتيل: «وهو: أن يذكر الْحُرُوف والْكَلِمات مبيَّنة ظاهرة. وَقِيلَ: يقرؤه عَلَى مهل بتبيين الْحُرُوف وإشباع الْحَرَكات الْمشبعة»[(٤)].

وقال أيضا: «والفائدة في الترتيل: أَنَّه يفهم الْمرتِّل من نفسه معاني تلك الألفاظ، ويُفهِم غيره تلك الْمَعَانِي. وإذا قرأها بِسرعة لَمْ يَفهم وَلَم يُفهِم. وإذا فهم الْمَعَانِي استشـعر العظمة عند ذكر الله، وحصول الرجاء والْخَوف عند الوعد والوعيد، والاعتبار عند القصص والأمثال فيستنير القلب عند ذَلِكَ بنور الْمَعرِفَة»[(٥)].

وتحدث علامة الشـريعة والأدب عن ترتيل القراءة وما ينشأ عنه من تدبر مضامينها عندما قال: «وهو واجب عيني حيث تتعين القراءة وما أدري ما وجه تنزيله منزلة المستحب في قول (القواعد) و(حاشية الوضع) مع نص القرآن بالأمر به؟! وعلى كلا الوجهين فهو مشروع بشـرط أن لا يخرج المرتل إلى

(١) لعل المراد بذلك أنه كتهدير البعير إذا ردد صوته في حنجرته.

(٢) لم نجده بهذا اللفظ.

(٣) قطب الأئمة: هميان الزاد، ٤٣٢/١٤.

(٤) نور الدين السالمي: معارج الآمال، ١٠٦/٨.

(٥) المرجع السابق.

اللحن بتمطيط الحروف، فإن للمد حــدا محدودا، وأن لا يباعد بين الحروف مباعدة تخرج القراءة عن حد الترتيل والتبيين إلـــى التقطيط والتفكيك، وأن يتجنب الســـرعة المولدة للتعمية وعدم التمكن من إفراد الحروف وتجويدها، وإخراجها من مخارجهــا المخصوصة لها بصفاتها المعينــة في علم التجويد المفضية إلى عدم التبين والتفكر والوقوع على حقائق المعاني ومقاصد كلام الله من القارئ وسامعه.

مع أن الســـامع مفروض عليه الإنصات لكلام الله لأخذ معانيه والحصول على فهمه مع التزام استشــعار الرجاء لرحمة الله عند آيــات الرحمة ممزوجا بالخوف منه، واستشعار الخوف من الله عن آيات الغضب ممزوجا بالرجاء منه، وكل هذه المقامات الشريفة لا يتمكن منه القارئ والسامع إذا قرأ وهو يهذرمه كسقط الكلام، ويصبه صبا لا يبالي بسقوط حرف ولا بإخراجه من غير مخرجه وبغير صفته، ولا يكترث بعزوب فهمه للمعاني وعدم تدبره فيها، وأين حصول الهيبة والخشية وبشاشــة الإيمان والخشــوع من قراءة كهذه؟! وكلها ثمرات التدبر فيه والتجول بين رياضه.

فمن حيث إن مقصد الشــرع بالقراءة العثور على كنــوز كلام رب العزة والوقوع على مكنون خزائنه، والتطلع إلى فهم أسراره، وهو غير حاصل له هذا المطلب الرفيع إلا بالتدبر وهــو مظنته الترتيل، فالتدبــر دليل تلك الخزائن ومفتاح تلك الكنوز، لا جرم شــرع في القراءة، إذ القراءة في الحقيقة ليست مقصودة بالذات، ولكن المقصــود التدبر في معاني المقــروء، والتلذذ بها، لتستكمل الصلاة أكمل أنواع العبادة وأحب ضروب التزلف إلى من لم يرض منا بالخشــوع حتى ننصرف إلى وجهه الكريم بلباب الإخلاص، وهو الغني المطلق عن كل شيء، ولكنها آداب سَنِيَّة أدبنا بها لنصلح للحضرة، فمن انسلخ من آداب الله التي اختارها لعباده كان خسيســا رديئا لا يصلــح لمقابلة أبناء جنســه، فما ظنك بمقابلة ملك الملــوك ومدبر الموجــودات؟ وهذا الأدب

الصالح لمقابلته مصدره الأول القــرآن العزيز، وهو غير متناول منه إلا بفهم، والترتيل ـ لا شك ـ أكبر وسيلة للفهم.

ثم إن الترتيل قشر لبابه الحضور، وإنما شرع لتكمل به حقيقة الحضور، إذ الحضور مع المعانـــي مع هذرمة الألفاظ وتهريمهـــا لا يتصور، فضلا عن أن يكون كاملا، فتأمل هذا المقام فإنه عظيم» اهـ[1].

هذا؛ وقد نعى الله سبحانه على الذين لا يتدبرون القرآن، ولا يمعنون فيه أبصارهم وبصائرهم ليستجلوا أنواره ويستفتحوا خزائنه ويكتشفوا غرائبه، فقد قال تعالـــى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ محمـــد: ٢٤، وإذا لم يكن هذا من الإنسان في ســـاعة وقوفه بين يدي الله في صلاته، وانخراطه في ســـلك أهل الله في ملكوته الأعلى، الدائبين على الذكر، الغارقين في الشعور بعظمة الله تعالى، فمتى يتسنى له أن يقوم بهذا الواجب، ويؤدي هذه الضريبة المفروضة على عبوديته لربوبية الله تعالى؟! فإن الصلاة هي تجرد من العبد عن كل ما يشغله في دنياه عن الله، وإقبال منه على الله سبحانه بقلبه وقالبه، وروحه وجسمه، ومشاعره وأحاسيســـه، حتى تكون كل كلمة ينطق بها إبان صلاته أو يسمعها من إمامه تفتح له آفاقا من الفكر، وتعرج به إلى أبعاد من ملكوت الله، وتقوده إلى الحضرة القدسية بين يدي الله تعالى حتى ينسى نفسه وأهله، وكل ما يشغله في حياته، فلا يستشعر إلا بنعمة هذا الوقوف بين يدي من تسبح له الســـماوات الســـبع والأرض ومن فيهن، وتســـجد لجلاله كل ذرة من ذرات الوجود، وكل جزيئة في جنبات الكون.

وأي لذة يجدها الإنســـان كلذة مناجاة الجناب الأقـــدس الذي تعرج إليه الملائكة والروح، وأي شـــرف أعظم له من شرف المثول بين يديه، والإفضاء بما في نفسه إليه، وتهذيب هذه النفس بالتلقي عنه مباشرة، بحيث يعرج إليه

(١) أبو مسلم البهلاني: نثار الجوهر: ٣٠٨/٢ ـ ٣٠٩.

في مدارج العبادة والذكر ومعارج التبتل والخشـــوع إلـــى أن يصل إلى درجة الإحســـان التي عبر عنها النبي ﷺ بقوله: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[(١)] ؟؟!.

وأين هذا كله ممن تخاله إذا كان في صلاته أنه من سرعته هارب من سبع ضارٍ يطارده أو عدو متربص يلاحقه لا يكاد يطمئن في ركوعه أو ســـجوده أو بينهما أو بين الســـجدتين أو في قيامه وقعوده، وإنمـــا كل همه أن ينفلت من صلاته بسرعة كأنه فيها في ســـباق مع غيره وهو حريص أن لا يفوز بقصبات السبق سواه؟!.

وأنت ترى أن النبي ﷺ عندما عاب صلاة المسيء وأمره بإعادتها نبهه على أنه لم يصل، فمعنى ذلك أن صلاته ليست بشيء في موازين الشرع، فتسميتها صلاة مغالطة للحقيقة، وقد بين له عندما علمه ماذا يفعل، وكان مما علمه إياه الطمأنينة، وفي هذا ما يدل على أن تركها هادم للصلاة ومسقط لقيمتها.

ولربما جادل الذين تســـتهويهم الســـرعة في الصلاة زاعمين أنهم بذلك متبعون للسنة ومستمسكون بإرشاد النبي ﷺ عندما قال: «**أيكم صلى بالناس فليخفف**»، وقال لمعاذ رضي الله عنه: «أفتان أنت يا معاذ؟»[(٢)] وأمثالها، وقد أجاب عن هذا العلامة أبو مســـلم بقوله: «صدق رســـول الله ﷺ، لكنه قال هذا ليوضع موضعه حيث يريد الشرع، لا حيث تريد الشهوات، على أن هذا القول ينبغي

---

(١) أخرجه الربيع من حديث أنس رضي الله عنه (ص٤٢ رقم: ٥٦) والبزار كما في مجمع الزوائد (٤٠/١)، ومن حديث ابن عباس أخرجـــه أحمد (٣١٩/١، رقم ٢٩٢٦)، ومـــن حديث ابن عمر: أخرجه الطبراني (٤٣٠/١٢، رقم ١٣٥٨١)، ومن حديث أبـــي عامر وأبي مالك: أخرجه أحمد (١٢٩/٤، رقم ١٧٢٠٧). ومن حديث عبد الرحمٰن بن غنم: أخرجه ابن عساكر (٣١١/٣٥).

(٢) أخرجه أحمـــد (١٢٤/٣، رقم ١٢٢٦٩) وأخرجه البزار كما في كشـــف الأســـتار (٢٣٥/١ ـ ٢٣٦، رقم ٤٨١) من حديث أنس، ومن حديث جابر أخرجه النسائي (١٠٢/٢، رقم ٨٣٥). وأبو عوانة (٤٧٨/١، رقم ١٧٧٥)، ومن حديث جابر بن عبد الله أخرجه ابن أبي شيبة (٣١٥/١، رقم ٣٦٠٥).

الالتفات إلى ما قبله وبعده، نعم ما أنسب هذا الحديث بمن لم تكن الصلاة قرة لعينه ولذة لروحه، بل لا يناسب السراق والنقارين إلا نقرة الغراب تباعدا من استفراغ الوسع لله لئلا يكون فتانا منفراً، وهل الفتنة والنفرة إلا صنيعه وما يأتي به؟.

فهذان الحديثان بظاهرهما أولى بهؤلاء اللصوص من حديث: «كانت صلاة الظهر تقام، فينطلق أحدنا إلى البقيع فيقضي حاجته، ثم يأتي أهله فيتوضأ، ثم يدرك رسول الله ﷺ في الركعة الأولى»، وحديث: «صلاته ﷺ المغرب بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ الإخلاص: ١، و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ الكافرون: ١، الذي انفرد ابن ماجه بروايته، أولى بهم من الحديث بأنه عليه السلام قرأ فيها بطولى الطوليين وهي الأعراف، كل هذا ميل إلى المناسب من السنة، وأخذ بالموافق طاعة للأغراض، وانقياداً للشهوات، وهيهات هم بوادٍ والسنة بواد، نسأل الله العافية.

ثم قال: أيها اللبيب الحازم، دِنْ لله بما صح عن رسول الله ﷺ، ولا تتخذ بعضه لك وبعضه عليك، فتأخذ مما لك بالقشر وتتأول ما عليك بخلاف الظاهر، ألا إن الكل لك لا تفرق بين شيء من سننه، فليست هي بالسنن المظلمة المتناقضة المتغايرة، بل كلها شرع نير متوافق، عليك أن تتلقاه بالقبول، وتقابله بالسمع والطاعة، وتتبعه أين توجهت ركائبه، وتنزل حيث نزلت مضاربه، ولا تحسب أن الشأن الأخذ ببعضه والترك للبعض، بل الجملة خطاب، فأنزل كل شيء منه منزلته وضعه بموضعه.

أيها الحازم؛ أنصف نبيك المؤدي إليك رسالة ربه الحق بحذافيرها، واحمل سنته الواضحة على محملها، وسر في دربها على خط استقامتها، فإن واجهتك في عمل واحد بإيجاز وتخفيف مأمور به، وتطويل وتثقيل منهي عنه، فهنا يجب أن تتحقق عدم إمكان الرجوع فيه إلى عادات العباد والبلاد، أو إلى مذْهب متأول بباطل، أو إلى شهوة مأموم ورضاه، ولا إلى اجتهاد إمام ورأيه،

إنما هي سنة متبعة، إليها المصير والتحاكم، قالها الشارع وفعلها وقررها، وجاء بها من عند الله وعلم المكلفين حقوقها وحدودهـا وهيآتها وأركانها، أما كان يصلي وراءه الضعيف والكبير وذو الحاجة والصغير، ووقتئذ لا إمام بالمدينة غيره صلوات الله وسـلامه عليه، فالذي كان يفعلـه ﷺ لا يخالف ما أمر به وما نهى عنه، لم يكن ليفعله اللهم إلا أن يكون في حكم خاص به، وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه» اهـ[(١)].

وقال أيضا: «قد اتفـق الصحابة على أن صلاتـه ﷺ كانت معتدلة فكان ركوعه ورفعه منه وسجوده ورفعه منه مناسبا لقيامه، ومن أمعن النظر في قوله عليه أشرف الصلوات والتسليم: «صلوا كما رأيتموني أصلي»[(٢)]، رأى أن حقيقة الخطاب فيه للأئمـة وإن ورد عاما، فإذا جمع هذا الحديـث إلى فعله وأمره بالتخفيف علم أن ما كان يفعله هو عين ما كان يأمر به، إذ يعلم بالضرورة أنه ما من فعل في الغالب إلا وقد يسمى خفيفا بالنسبة إلى ما فوقه، ويسمى طويلا بالنسـبة إلى ما هو أخف منه، فلا حد فـي اللغة يرجع فيـه إليه، وليس من الأفعال العرفية التي يرجع فيه إلى العرف كالحرز والقبض وإحياء الموات.

فإن العبادات يرجع فيها إلى الشـارع في مقاديرها وصفاتها وهيئاتها كما يرجع إليه في أصلها، فلو كان مسـمى التخفيف والإيجـاز يرجع إلى عرف الناس وعاداتهم فيـه إذا لاختلفت أوضاع الصلاة ومقاديرهـا اختلافا متباينا لا ينضبط، ونحن نعترف بأنه ﷺ كان يخفف بعـض الصلاة كما كان يخفف سنة الفجر حتى تقول عائشـة رضي الله عنها: «هل قرأ فيها بأم القرآن؟!»، وكان يخفف الصلاة في السـفر حتى كان ربما قرأ في الفجر بالمعوذتين، وكان يخفف إذا

---

(١) أبو مسلم البهلاني: نثار الجوهر: ٣٠٣/٢ ـ ٣٠٥.

(٢) أخرجه ابن حبان (٥٤١/٤ رقم: ١٦٥٨)، والدارمي (ص٣٢١ رقم: ١٣٨٤)، وابن خزيمة (٢٠٦/١ رقم: ٣٩٧)، والبيهقي (٤٨٦/٢ رقم: ٣٨٥٦)، والبغوي (٢٩٥/٢ رقم: ٤٣٢)، والدارقطني في سننه (١٠٦٩/٢).

سمع بكاء الصبي، فالسنة التخفيف حيث خفف، والتطويل حيث أطال، والتوسط غالبا، فالذي أنكره أنس هو التشديد الذي لا يخفف صاحبه على نفسه مع حاجته إلى التخفيف، ولا ريب أن هذا خلاف سنته.

وأما حديث معاذ وقوله له: «أفتان أنت يا معاذ» فلم يتعلق لصوص الصلاة إلا بمجرد هذه اللفظة وتغافلوا وتجاهلوا في أول الحديث وآخره، وأصل قصة معاذ هو ما رواه جابر بن عبد الله قال: أقبل رجل بناضحين وقد جنح الليل، فوافق معاذا يصلي، فترك ناضحيه وأقبل إلى معاذ، فقرأ سورة البقرة أو النساء، فانطلق الرجل وبلغه أن معاذا نال منه، فأتى رسول الله ﷺ يشكوا إليه معاذا، فقال النبي ﷺ: «**أفتان أنت؟**» أو قال: «**أفاتن أنت؟** ـ ثلاث مرات ـ **فلولا صليت بسبح اسم ربك الأعلى والشمس وضحاها والليل إذا يغشى فإنه يصلي وراءك الكبير والضعيف وذو الحاجة**».

وجاء هذا الخبر من طريق أنس بن مالك، قال: «كان معاذ بن جبل يؤم قومه، فدخل حزام وهو يريد أن يسقي نخله، فدخل المسجد مع القوم، فلما رأى معاذا طول تجوز في صلاته ولحق بنخله يسقيه، فلما قضى معاذ الصلاة قيل له ذلك، قال: إنه لمنافق، أيعجل عن الصلاة من أجل سقي نخله؟! فقال: فجاء حزام النبي ﷺ ومعاذ عنده، فقال: يا نبي الله إني أردت أن أسقي نخلا لي فدخلت المسجد لأصلي مع القوم، فلما طول تجوزت في صلاتي ولحقت بنخلي أسقيه، فزعم أني منافق. فأقبل النبي ﷺ على معاذ، فقال: «**أفتان أنت؟ لا تطول بهم، اقرأ سبح اسم ربك الأعلى والشمس وضحاها ونحوها**»».

وعن معاذ بن رفاعة الأنصاري عن سليم رجل من بني سلمة، أنه أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن معاذ بن جبل يأتينا بعدما ننام ونكون في أعمالنا في النهار، فينادي بالصلاة، فنخرج إليه فيطول علينا، فقال رسول الله ﷺ: «**يا معاذ بن جبل لا تكن فتانا، إما أن تصلي معي وإما أن**

تخفف على قومك»[١]، ثم قال: «يا سليم ما معك من القرآن؟» قال: إني أسأل الله الجنة، أو قال: أســأل الجنة وأعوذ به من النار، والله لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ، فقال رسول الله ﷺ: «**وهل تصير دندنتي ودندنة معاذ إلا أن نسأل الله الجنة ونعوذ به من النار؟!**» قال سليم: سترون غدا إذا التقى القوم إن شاء الله، قال: والناس يتجهزون إلى أحد، فخرج فكان في الشهداء رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فقد ظهر أن التعمق والتنطع والتشــديد الذي نهانا عنه رسول الله ﷺ هو المخالف لهديه، وهدي أصحابه وما كانوا عليه، وأن موافقته في فعله وموافقة خلفائه من بعده هو محض المتابعة، فكن أيها العبد بين الغالي والجافي، فهي الطريقة المثلى والمنهج القويم والمحمدية الخالصة.

وعن علي: «خير الناس النمط الأوسط، الذي يرجع إليهم الغالي ويلحق بهم التالي» اهـ[٢].

والخلاصة؛ أن المحافظة على ترتيل القراءة والتدبر فيها لا بد منهما في الصلاة السرية والجهرية، ليتحقق الخشــوع المطلوب الذي هو روح الصلاة، كذلك الطمأنينة في الركوع والســجود وفي حال الرفع مــن كل منهما وبين الســجدتين من ضرورات الصــلاة التي لا بد مــن رعايتها، وهــذا لا ينافي التخفيف في الصلاة مراعاة لحال المريض والضعيف وذي الحاجة، إذ لا يعني التخفيف أن يُخْرَم شيء من أعمال الصلاة، أو يهمل شيء من هيئاتها.

لا يجوز أن تزاحم جماعة أقيمت بجماعات أخرى:

هذا؛ ومن العادات المتفشية في الصلاة تزاحم الجماعات، فكم تجد في المسجد الواحد من تعدد الجماعات في الوقت الواحد! ولربما تعللوا لذلك باختلاف الصلاتين بحيث تكون إحدى الجماعتين تصلي الظهر أو المغرب،

---

(١) أخرجه أحمد (٧٤/٥، رقم ٢٠٧١٨).

(٢) المرجع السابق، ٣٠٦/٢ ـ ٣٠٨.

والأخرى تصلي العصر أو العشاء، وهذه التعلة ليست مجدية شيئا، إذ لا يسوغ بحال أن تقام صلاة أخرى إذا أقيمت الصلاة في جماعة لما ثبت من طريق أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة**»(١)، أي التي أقيمت، وليس لأحد أن ينشئ صلاة أخرى ولا أن يقيم تلك الصلاة في جماعة أخرى، والحديث جاء بألفاظ متعددة تؤكد هذا المعنى منها: «إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا التي أقيمت»(٢)، ومنها: «إذا أخذ المؤذن في الإقامة فلا صلاة إلا المكتوبة»(٣).

وقد شدد العلماء في هذا فقالوا لا تقام فريضة ولا نافلة بعد إقامة المؤذن لصلاة مكتوبة، حتى أن منهم من قال بأن المستدرك في الظهر إن قام للاستدراك وأقيمت صلاة العصر عند المسافرين فسدت صلاته.

وإذا كان التشديد في هذا يصل إلى هذا الحد فما بالك بأولئك الذين لا يبالون أن ينشئوا جماعات أخرى حال إقامة الصلاة في الجماعة؟!! وقد بلغني أن الاستخفاف بالعبادة في هذا قد يصل ببعضهم إلى أن تتعدد الجماعات عندهم في مسجد واحد فتصل إلى ست جماعات في الوقت نفسه!!! وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الصلاة عند هؤلاء هي أهون شيء، فلا يبالون بها أن تؤدى كيفما كانت من غير مراعاة لأحكامها الشرعية، وضرورة أدائها كما أمروا بها، وإنما يؤثرون هواهم - واستعجالهم من أجل

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٤٣٦/٢، رقم ٣٩٨٧)، ومسلم (٤٩٣/١، رقم ٧١٠)، وأبو داود (٢٢/٢، رقم ١٢٦٦)، والترمذي (٢٨٢/٢، رقم ٤٢١)، والنسائي (١١٦/٢، رقم ٨٦٥)، وابن ماجه (٣٦٤/١، رقم ١١٥١).

(٢) أخرجه أحمد (٣٥٢/٢، رقم ٨٦٠٨)، والطبراني في الأوسط (٢٨٦/٨رقم ٨٦٥٤)، والطحاوي (٣٧٢/١).

(٣) أخرجه الديلمي (٣٢٠/١، رقم ١٢٦٦). وأخرجه أيضا: ابن حبان (٥٦٤/٥، رقم ٢١٩٠)، والجرجاني في تاريخ جرجان (٣٣٤/١، رقم ٦١١).

دنياهم ـ على أدائها وفق أوامر الله سبحانه، وهو مما يرجع إلى ضحالة إيمانهم وضعف يقينهم باليوم الآخر، وإلا لفكروا في مصيرهم وكيف يستعدون له في الدنيا بفعل الواجبات على الوجه المشروع واجتناب المنهيات.

وليت شعري؛ ما الذي يدفع هؤلاء إلى مثل هذا التصرف الأهوج المقيت غير الجهل بالدين، وأن العبادات لا تعدو عندهم أن تكون عادات أَلِفوها، فلا يبالون كيفما أدوها؟.

إهمال تسوية الصفوف:

من العادات المتفشية في الجماعات عدم مراعاة تسوية الصفوف، مع أن تسويتها من تمام الصلاة، كما نص على ذلك حديث رسول الله ﷺ، فعن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يمسح عواتقنا ويقول: «**استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم، وليليني منكم أولو الأحلام والنهى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»[(١)]، وهو دليل على وجوب تسوية الصفوف وتحريم اختلافها، أما وجوب تسويتها فلأن النبي ﷺ كان يأمرهم بأن يستووا، والأمر للوجوب ما لم تصرفه قرينة عنه، وأما تحريم اختلافها فدليله النهي عن الاختلاف والنهي هو للتحريم إلا لقرينة صارفة عنه إلى غيره، وقد تعزز هذا الحكم بتعليله أن الاختلاف يترتب عليه اختلاف القلوب، وأوامر الشرع ونواهيه تدور على تأليف القلوب وعدم اختلافها.

وقد تعزز هذا بكثير من الروايات منها عن أبي مسعود أيضا: «ليليني منكم أولو الأحلام والنهى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ولا تختلفوا

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٠٨/١، رقم ٣٥٢٧)، وأحمد (١٢٢/٤، رقم ١٧١٤٣)، ومسلم (٣٢٣/١، رقم ٤٣٢)، وابن حبان (٥٤٥/٥، رقم ٢١٧٢).

فتختلف قلوبكم وإياكم وهيشات الأسواق»[(١)]، ومثله عن ابن مسعود[(٢)] رضي الله عنه، وعن النعمان بن بشير: «أقبل رسول الله ﷺ على الناس بوجهه، فقال: «**أقيموا صفوفكم**» ثلاثا، «**والله لتقيمن صفوفكم أو ليخالفن الله بين قلوبكم**» قال: فرأيت الرجل يلزق منكبه بمنكب صاحبه، وركبته بركبة صاحبه، وكعبه بكعبه»[(٣)]، وجاء بلفظ: «**لتقيمن صفوفكم أو ليخالفن الله بين وجوهكم**»[(٤)]، وبلفظ آخر: «كان رسول الله ﷺ يسوي صفوفنا حتى كأنما يسوي بها القداح حتى رأى أنا قد عقلنا عنه، ثم خرج يوما فقام، حتى كاد يكبر فرأى رجلا باديا صدره من الصف، فقال: «**عباد الله لتسون صفوفكم، أو ليخالفن الله بين وجوهكم**»[(٥)]، وعنه بلفظ: «**عباد الله المسلمين لتقيمن صفوفكم أو ليخالفن الله بين وجوهكم**»[(٦)].

وكم تجد في هذه الروايات من عناية النبي ﷺ وأصحابه بتسوية الصفوف في الصلاة، حتى لا يتقدم أحد أو يتأخر، وما ذلك إلا لأن عدم تسويتها مخل بصلاة المصلين، ويؤكد ذلك ما جاء «عن أنس بن

(١) أخرجه عبد الرزاق (٤٥/٢، رقم ٢٤٣٠)، ومسلم (٣٢٣/١، رقم ٤٣٢) وأبو داود (١٨٠/١، رقم ٦٧٤)، والنسائي (٢٨٦/١، رقم ٨٨١)، وابن ماجه (٣١٢/١، رقم ٩٧٦).

(٢) أخرجه أحمد (٤٥٧/١، رقم ٤٣٧٣)، وابن حبان (٥٤٥/٥، رقم ٢١٧٢)، والطبراني (٨٨/١٠، رقم ١٠٠٤١)، والحاكم (١٠/٢، رقم ٢١٥٠) وقال: صحيح على شرط الشيخين. والترمذي (٤٤٠/١، رقم ٢٢٨)، وقال: حسن صحيح غريب.

(٣) أخرجه أبو داود (١٧٨/١، رقم ٦٦٢)، والبيهقي (٧٦/١، رقم ٣٦٢)، وابن حبان (٥٤٩/٥، رقم ٢١٧٦). وأحمد (٢٧٦/٤، رقم ١٨٤٥٣)، وابن خزيمة (٨٢/١، رقم ١٦٠)، والبزار (٢٢٨/٨، رقم ٣٢٨٥).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٠٨/١، رقم ٣٥٢٥)، والنسائي (٨٩/٢، رقم ٨١٠).

(٥) أخرجه البخاري (٢٥٣/١، رقم ٦٨٥)، ومسلم (٣٢٤/١، رقم ٤٣٦)، وأبو داود (١٧٨/١، رقم ٦٦٣)، والترمذي (٤٣٨/١، رقم ٢٢٧) وقال: حسن صحيح. وابن حبان (٥٤٩/٥، رقم ٢١٧٥). والطيالسي (ص١٠٧، رقم ٧٩١)، وأحمد (٢٧١/٤، رقم ١٨٤١٣).

(٦) أخرجه عبد الرزاق (٤٤/٢، رقم ٢٤٢٩).

مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**سووا صفوفكم، فإن تسوية الصفوف من إقامة الصلاة**»[(١)].

وهذا يعني أن صلاة المأمومين لا تتم إلا بتسوية الصفوف، كما جاء في رواية أخرى عنه بلفظ: «**أقيموا صفوفكم فإن تسوية الصف من تمام الصلاة**»[(٢)]، وعنه قال: أقيمت الصلاة فأقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه، فقال: «**أقيموا صفوفكم، وتراصوا، فإني أراكم من وراء ظهري**»[(٣)]، وعنه أن النبي ﷺ قال: «**رصوا صفوفكم وقاربوا بينها وحاذوا بالأعناق فوالذي نفسي بيده إني لأرى الشياطين تدخل من خلل الصفوف كأنها الحذف**»[(٤)]، وعنه: «**استووا استووا واستقيموا فوالذي نفسي بيده إني لأراكم من خلفي كما أراكم من بين يدي**»[(٥)]، وعنه عن النبي ﷺ: «**استووا وعدلوا صفوفكم**»[(٦)]، وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «**أقيموا الصفوف فإنما يصفون بصفوف الملائكة وحاذوا بين المناكب وسدوا الخلل ولينوا بأيدي إخوانكم ولا تذروا فرجات الشيطان ومن وصل صفا وصله الله ومن**

---

(١) أخرجه الطيالسي (ص٢٦٦، رقم ١٩٨٢)، وأحمد (١٧٧/٣، رقم ١٢٨٣٦)، والدارمي (٣٢٣/١، رقم ١٢٦٣)، والبخاري (٢٥٤/١، رقم ٦٩٠)، ومسلم (٣٢٤/١، رقم ٤٣٣)، وأبو داود (١٧٩/١، رقم ٦٦٨)، وابن ماجه (٣١٧/١، رقم ٩٩٣)، وابن خزيمة (٢١/٣، رقم ١٥٤٣)، وابن حبان (٥٤٨/٥، رقم ٢١٧٤). وأبو يعلى (٣٥٤/٥، رقم ٢٩٩٧).

(٢) أخرجه ابن حبان (٥٤٥/٥، رقم ٢١٧١).

(٣) أخرجه البخاري (٢٥٣/١، رقم ٦٨٧)، والنسائي (٩٢/٢، رقم ٨١٤)، وابن حبان (٥٤٧/٥، رقم ٢١٧٣) وأحمد (١٠٣/٣، رقم ١٢٠٣٠)، والبيهقي (٢١/٢، رقم ٢١٢٢.

(٤) أخرجه أحمد (٢٦٠/٣، رقم ١٣٧٦١)، وأبو داود (١٧٩/١، رقم ٦٦٧)، والنسائي (٩٢/٢، رقم ٨١٥)، وابن خزيمة (٢٢/٣، رقم ١٥٤٥) وابن حبان (٢٥١/١٤، رقم ٦٣٣٩) والضياء (٤٠/٧، رقم ٢٤٣٢) وقال: إسناده صحيح.

(٥) أخرجه النسائي (٩١/٢، رقم ٨١٣)، وأبو يعلى (٤٦/٦، رقم ٣٢٩١)، وأبو عوانة (٣٨٠/١، رقم ١٣٧٦). وأحمد (٢٦٨/٣، رقم ١٣٨٦٥).

(٦) أخرجه أبو داود (١٧٩/١، رقم ٦٦٩)، والبيهقي (٢٢/٢، رقم ٢١٢٧).

قطع صفا قطعه الله»[١]، وعن البراء بن عازب رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ يتخلل الصف من ناحية إلى ناحية يمسح صدورنا ومناكبنا ويقول: «**لا تختلفوا فتختلف قلوبكم**» وكان يقول: «**إن الله وملائكته يصلون على الصفوف الأول**»[٢].

والأحاديث في هذا أكثر من أن يمكننا إحصاؤها، وهي جميعا تدل على ضرورة إقامة الصفوف في الصلاة وتجنب اعوجاجها، ناهيك ما فيها من التنصيص على أن تسويتها من إقام الصلاة وعلى أن تخالفها يؤدي إلى تخالف القلوب وهو مما يؤدي إلى الفرقة والشقاق، وقد حذر الله تعالى من ذلك في العديد من الآيات كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ۝ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ آل عمران: ١٠٢ ـ ١٠٣، وما تبعه من الامتنان على الذين آمنوا اجتماعهم بعد الفرقة وألفتهم بعد الشقاق وإنقاذهم من هلكة كانوا يتدافعون إليها بما كان بينهم من نزاع وصراع، وذلك في قوله: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَا﴾ آل عمران: ١٠٣، وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ آل عمران: ١٠٥، وقوله: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾ الأنفال: ٤٦.

التخلف عن الصلاة في الصفوف الأول:

مما شاع عند الناس في الصلاة تباطؤهم عن الصف الأول وإنشاؤهم صفوفا جديدة قبل أن تكتمل الصفوف المقدمة، وقد علمت من بعض ما تقدم ما في الصفوف الأولى من الفضل، وقد وردت بهذا روايات عديدة منها حديث

---

(١) أخرجه أحمد (٩٧/٢، رقم ٥٧٢٤)، وأبو داود (١٧٨/١، رقم ٦٦٦)، والبيهقي (١٠١/٣، رقم ٤٩٦٧).

(٢) أخرجه الطيالسي (ص١٠٠، رقم ٧٤١)، وأحمد (٢٩٧/٤، رقم ١٨٦٤٤)، وأبو داود (١٧٨/١، رقم ٦٦٤)، والنسائي (٨٩/٢، رقم ٨١١)، والروياني (٢٦٩/١، رقم ٣٩٧) والبيهقي (١٠٣/٣، رقم ٤٩٧٧).

أبي هريرة ﵁ عند الربيع ﵀ عن النبـــي ﷺ أنه قال: «**لو يعلم الناس ما في الصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يتساهموا عليه لتساهموا، ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إليه، ولو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبوا**»[١]، وهو عند غير الربيع بلفظ: «لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إليه ولو يعلمون ما فـــي العتمة والصبـــح لأتوهما ولو حبـــوا»[٢]، ومن طريقه أن رســـول الله ﷺ قال: «**لو تعلمون ـ أو يعلمون ـ ما في الصـــف المقدم لكانت قرعة**»[٣]، وعن عائشـــة ﵂ قالت: قال النبي ﷺ: «**لا يزال قوم يتخلفون عن الصف الأول حتى يخلفهم الله في النار**»[٤]، وفي لفظ: «**لا يزال قوم يتأخرون عن الصف الأول حتى يؤخرهـــم الله في النار**»[٥]، ولا يخفـــى ما في هذا من الوعيد على التخلف عن الصف الأول، وعن أبي أمامة ﵁ أن النبي ﷺ قال: «**إن الله وملائكته يصلون على الصف الأول ســـووا صفوفكم وحاذوا مناكبكم ولينوا في أيدي إخوانكم وسدوا الخلل فإن الشـــيطان يدخل فيما بينكم مثل الحذف**»[٦]، وعن العرباض بن سارية، عن رسول الله ﷺ أنه: «كان يصلي على الصف الأول ثلاثا وعلى الثاني واحدة»[٧]، وعنه بلفظ: «كان النبي ﷺ يصلي على الصف المقدم ثلاثا وعلى الثاني واحدة»[٨]، وعن أبي سعيد الخدري، أن

(١) أخرجه الربيع، ص١٢٢ رقم: ٢٩٢.

(٢) أخرجه مالك (٦٨/١، رقم ١٤٩)، وعبد الرزاق (٥٢٤/١، رقم ٢٠٠٧)، وأحمد (٢٣٦/٢، رقم ٧٢٢٥)، والبخاري (٩٥٥/٢، رقم ٢٥٤٣)، ومســـلم (٣٢٥/١، رقم ٤٣٧)، والنســـائي (٢٦٩/١، رقم ٥٤٠)، وابن حبان (٥٢٧/٥، رقم ٢١٥٣).

(٣) أخرجه مسلم (٣٢٦/١ رقم: ٤٣٩).

(٤) أخرجه عبد الرزاق (٥٢/٢، رقم ٢٤٥٣). وابن حبان (٥٢٩/٥، رقم ٢١٥٦).

(٥) أخرجه أبو داود (١٨١/١، رقم ٦٧٩)، والبيهقي (١٠٣/٣، رقم ٤٩٧٩).

(٦) أخرجه أحمد (٢٦٢/٥، رقم ٢٢٣١٧) والطبراني (١٧٤/٨، رقم ٧٧٢٧).

(٧) أخرجه النسائي (٩٢/٢، رقم ٨١٧).

(٨) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٣٢/١، رقم ٣٨١٣).

رسول الله ﷺ رأى في أصحابه تأخرا فقال لهم: «**تقدموا فأتموا بي، وليأتم بكم من بعدكم، لا يزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله**»(١)، وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**أتموا الصف المقدم ثم الذي يليه فما كان من نقص فليكن في الصف المؤخر**»(٢)، وعن جابر بن سمرة، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «**ما لي أراكم رافعي أيديكم كأنها أذناب خيل شمس؟ اسكنوا في الصلاة**» قال: ثم خرج علينا فرآنا حلقا فقال: «**ما لي أراكم عزين**» قال: ثم خرج علينا فقال: «**ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟**» فقلنا يا رسول الله، وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: «**يتمون الصفوف الأول ويتراصون في الصف**»(٣)، وفي مدونة أبي غانم رحمه الله: «والسنة أن تتم الصفوف الأولى ولا يتركوا فيها خللا، فإن للصلاة حقوقا منها إقامة الصفوف، وتمامها التسوية بالمناكب»(٤).

التأخر عن الصفوف الأولى في الجمعات يؤدي إلى اضطرار الآتين من بعد إلى تخطي الرقاب مع أنه مشدد فيه:

كثيرا ما نرى المبكرين إلى الجمعة يتركون الصفوف الأولى، ويتنافسون على الصف في مؤخرة المساجد، ويبقى الفراغ في الصفوف الأولى، فإذا

---

(١) أخرجه مسلم (٣٢٥/١ رقم: ٤٣٨)، وأبو داود (١٨١/١ رقم: ٦٨٠) وابن ماجه (٣١٣/١ رقم: ٩٧٨)، والنسائي (٨٣/٢ رقم: ٧٩٥).

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٣/٣، رقم ١٣٤٦٤)، وأبو داود (١٨٠/١، رقم ٦٧١)، والنسائي (٩٣/٢، رقم ٨١٨)، وابن خزيمة (٢٢/٣، رقم ١٥٤٦)، وأبو يعلى (٤٥٠/٥، رقم ٣١٦٣)، وابن حبان (٥٢٨/٥، رقم ٢١٥٥)، والبيهقي (١٠٢/٣، رقم ٤٩٧٢)، والضياء (٣٥٠/٦، رقم ٢٣٧٩). والنسائي في الكبرى (٢٨٩/١، رقم ٨٩٢).

(٣) أخرجه مسلم (٣٢٢/١ رقم: ٤٣٠) وأخرجه أيضا: أخرجه عبد الرزاق (٤٦/٢، رقم ٢٤٣٢) وابن أبي شيبة (٣٠٩/١، رقم ٣٥٣٩)، وأحمد (١٠١/٥، رقم ٢١٠٠١)، وأبو داود (١٧٧/١، رقم ٦٦١)، والنسائي (٩٢/٢، رقم ٨١٦)، وابن ماجه (٣١٧/١، رقم ٩٩٢)، وابن خزيمة (٢١/٣، رقم ١٥٤٤)، وابن حبان (٥٢٧/٥، رقم ٢١٥٤).

(٤) أبو غانم الخرساني: المدونة الكبرى، ١١٨/١.



امتلأت المؤخرة لم يجـد الناس مكانا للصـلاة إلا أن يتقدموا إلى الأمام، حيث ترك الفراغ، فيضطرون إلى تخطي الرقاب، وهو منهي عنه، بل شدد فيه رسول الله ﷺ فعن عبد الله بن بسر، قال: كنت جالسا إلى جانبه يوم الجمعة، فقال: جاء رجل يتخطى رقاب الناس، فقال له رسول الله ﷺ: «**أي اجلس فقد آذيت**»[(١)]، وعن «جابر بن عبد الله رضي الله عنه، أن رجلا دخل المسجد يوم الجمعة، ورسول الله ﷺ يخطب، فجعل يتخطى الناس، فقال رسول الله ﷺ: «**اجلس، فقد آذيت وآنيت**»»[(٢)]، وعن الحسن مرسلا أن رجلا جاء يتخطى رقاب الناس والنبي ﷺ يخطب فلما قضى النبي ﷺ خطبته وصلاته قال يا فلان أجمعت اليوم قال أما رأيتني يا رسـول الله قال: «**قد رأيتك وآذيت وآنيت**»[(٣)]، و«عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ كان يخطب يوم الجمعة، فدخل رجل يتخطى رقاب الناس، فقال رسـول الله ﷺ: «**يبطئ أحدكم، ثم يتخطى رقاب الناس ويؤذيهم**». فقال: ما زدت على أن سـمعت النداء فتوضـأت. قال: «أو يوم وضوء هو؟»»[(٤)]، وروي بسند ضعيف عن «عثمان بن الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي عن أبيه وكان من أصحـاب النبي ﷺ قال: إن النبي ﷺ قال: «**إن الذي يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة ويفرق بين الإثنين بعد خروج الأمام كالجار قصبه في النار**»»[(٥)]، و«عن أبي هريرة أنه كان يقول لأن يصلي أحدكم

---

(١) أخرجه أحمـد (٤/١٨٨، رقم ١٧٧١٠)، وأبـو داود (١/٢٩٢، رقم ١١١٨)، والنسـائي (٣/١٠٣، رقم ١٣٩٩)، وابـن خزيمـة (٣/١٥٦، رقم ١٨١١)، وابن حبـان (٧/٢٩، رقم ٢٧٩٠)، والحاكم (١/٤٢٤، رقم ١٠٦١) وقال: صحيح على شـرط مسـلم، ووافقه الذهبـي. والبيهقي (٣/٢٣١، رقم ٥٦٧٨)، والضياء من طريق الطبراني (٩/٤٧، رقم ٢٢)، والبزار (٨/٤٣٢، رقم ٣٥٠٦)، وابن الجارود (ص٨٢، رقم ٢٩٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١/٣٥٤، رقم ١١١٥).

(٣) أخرجه عبد الرزاق (٣/٢٤٠ رقم: ٥٤٩٨).

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨/٧٣ رقم: ٨٠٠١).

(٥) أخرجه أحمد (٣/٤١٧ رقم: ١٥٤٨٥).

بظهر الحرة خير له من أن يقعد حتى إذا قام الإمام يخطب جاء يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة»[١].

ولو أن المبكرين إلى الجمعة أخذوا بالسنة في ملء الصفوف الأولى لما كان داع لمن أتى من بعدهم أن يقع في مخالفة السنة بتخطي الرقاب، ولكن الجهل بالسنة هو الذي أدخل الناس في هذه المضايق.

الصفوف تبدأ من الوسط خلف الإمام:

ومما شاع في عادات الناس عدم مبالاتهم من أين بدأوا الصف الذي يلي الصف الأول، مع أن الصفوف يجب أن تكون منتظمة، فكما أن الصف الأول لا يمكن أن يكون جانبا عن الإمام فكذلك الصفوف التي تليه، مع الحرص على تعادلها وإن ترجح جانب على جانب فليكن جانب اليمين هو الأرجح لفضل الميامن على المياسر، ولما ثبت عن النبي ﷺ من حبه التيامن، وجاء عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**وسطوا الإمام وسدوا الخلل**»[٢]، ومهما قيل في إسناده بأنه رواه يحيى بن بشير بن خلاد وهو مجهول عن أمه ولم يرو عنها غيره، فإنه يعتضد ذلك بأن السنة الثابتة في صلاة النبي ﷺ أن كان يتوسط المأمومين خلفه، وهذا الذي جرى عليه الصحابة والتابعون ومن تبعهم بإحسان، فلا يعدل عنه إلى غيره.

فضل ميامن الصفوف:

وأما ترجيح الميامن على المياسر فيدل عليه ما عهد من سنة النبي ﷺ من حبه للتيامن، على أنه جاء من رواية عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله وملائكته يصلون على ميامن الصفوف**»[٣]، ومهما قيل من ضعفه فإنه

---

(١) أخرجه مالك (١/١١٠ رقم: ٢٤٤).

(٢) أخرجه أبو داود (١/١٨٢، رقم ٦٨١).

(٣) أخرجه أبو داود (١/١٨١، رقم ٦٧٦)، وابن ماجه (١/٣٢١، رقم ١٠٠٥)، وابن حبان (٥/٥٣٣، رقم ٢١٦٠)، والبيهقي (٣/١٠٣، رقم ٤٩٨٠).



يعتضد بالقاعدة العامة وهي ما علم من هديه ﷺ من حب التيامن، على أن المنذري في **الترغيب والترهيب** ذكر أن إسناده حسن[(١)]، وكذلك الحافظ ابن حجر في **الفتح**[(٢)]، ويعضده ما ثبت عن البراء رضي الله عنه، قال: «كنا إذا صلينا خلف رسول الله ﷺ، أحببنا أن نكون عن يمينه، يقبل علينا بوجهه»[(٣)]، فإنه يعني أن الصحابة رضي الله عنهم استقر عندهم حب التيامن لما ألفوه من هدي النبي ﷺ في ذلك، ويفهم هذا من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قمت ليلة أصلي عن يسار النبي ﷺ فأخذ بيدي ـ أو بعضدي ـ حتى أقامني عن يمينه، وقال بيده من ورائي»[(٤)]، إذ لو كانت الميسرة كالميمنة لتركه النبي ﷺ حيث قام، ولهذا ترجم البخاري في صحيحه بقوله: «باب ميمنة المسجد والإمام» وذكر بعده حديث ابن عباس.

وإذا أدركت هذا فاعجب لأولئك الذين يتسابقون إلى مياسر الصفوف ويدعون ميامنها، حتى أنك تجد في الجوامع الكبرى ميمنة المسجد لم يكتمل فيها الصف الأول، بينما ميسرته امتلأت إلى الصف الرابع أو الخامس!! وكثيرا ما يبدأون الصف من طرفه لا من وسطه، خصوصا الجانب الأيسر منه، وهذا كله إمعان في مخالفة هدي النبي ﷺ وعدم المبالاة في إقامة الصلاة على أي وجه كانت.

وكثيرا ما تجد المصلي يصف وحده خلف الصف مع أن الصف الذي أمامه فيه فراغ، وقد شدد النبي ﷺ في صف المصلي وحده، فعن علي بن

---

(١) المنذري: الترغيب والترهيب، ١٨٩/١.

(٢) ابن حجر: فتح الباري، ٢١٣/٢.

(٣) أخرجه أحمد (٥٢٢/٣٠ رقم: ١٨٥٥٣)، ومسلم (٤٩٢/١ رقم: ٧٠٩)، وأبو داود (١٦٧/١ رقم: ٦١٥)، والنسائي (٩٤/٢ رقم: ٨٢٢)، والبيهقي (٢٤٧/١ رقم: ٦٥٣)، وابن ماجه (٣٢١/١ رقم: ١٠٠٦)، وابن خزيمة (٢٨/٣ رقم: ١٥٦٣) وأبو عوانة (٥٥٩/١ رقم: ٢٠٩٠).

(٤) أخرجه البخاري (١٤٦/١ رقم: ٧٢٨).

شـيبان، قال: «خرجنا حتى قدمنا على النبي ﷺ، فبايعناه، وصلينا خلفه، ثم صلينا وراءه صـلاة أخرى، فقضى الصـلاة، فرأى رجلا فـردا يصلي خلف الصف، قال: فوقف عليه نبـي الله ﷺ حين انصرف قال: «**اسـتقبل صلاتك، لا صلاة للذي خلف الصف**»[(١)]، وجاء عنه بألفاظ متعددة[(٢)].

وعن وابصة بن معبد أنه ﷺ قـال: «**أيها المصلي وحـده ألا وصلت إلى الصف فدخلت معهم أو جررت إليك رجلا إن ضاق بك المكان فقام معك أعد صلاتك فإنه لا صلاة لك**»[(٣)]، وجاء عن ابن عباس بلفظ: «أيها المنفرد بصلاتك أعد صلاتك»[(٤)].

وكم تجد يـوم الجمعة أفرادا من الناس يصـف أحدهم في جانب خارج المسجد الجامع ليصلي بصلاة الإمام وحده، مع أن في داخل المسجد فراغا يسع كثيرا من الناس.

وهذا المخالفات كلها راجعـة إلى الجهل بفقه الصـلاة وأحكامها، وأن الناس لا يرونها إلا عادة ألفوها فلا يبالون أن تكون إقامتها كيفما كانت.

رص الصفوف وسد فرجها:

هذا؛ وقد رأيت فيما سـبق من الروايات كيـف كان النبي ﷺ يأمر برص الصفوف، وعدم إيجاد الفرج بينها، ويحذر من أن يدخل الشـيطان من خلل الصفوف فيفسد على المصلين دينهم وعبادتهم، ومع هذا كم يكون في الصلاة من الفجوات التي لا يبالي الناس بها مع أن النبي ﷺ كان يأمر بسد الفرج في

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٣٠/١ رقم: ١٠٠٣).

(٢) ينظر أحمد (٢٢٤/٢٦ رقم: ١٦٢٩٧) وابن حبان (٥٨٠/٥ رقم: ٢٢٠٢)، وابن خزيمة (٧٥٤/١ رقم: ١٥٧٠)، والبيهقي (١٩٣/١ رقم: ٤٩٨).

(٣) أخرجه الطبراني (١٤٥/٢٢، رقم ٣٩٤).

(٤) أخرجه ابن عساكر (١٤١/٤٣).

الصفوف حتى بعد الإحرام ومن ذلك ما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه ﷺ قال: «**من وصل صفا وصله الله ومن قطع صفا قطعه الله**»(١).

وكثيرا ما تخترم الصفوف حتى يكون في الصف الواحد فراغ واسع بين طرفيه خصوصا في الجوامع عندما يجمع بين الصلوات ويأبى كثير من المصلين إلا أن يجمعوا الصلاتين، فلا يبالون أن يتخلل الذين يصلون السنن الراتبة صفوفهم، فإذا أتم هؤلاء صلاتهم انسحبوا وبقي الفراغ في مكانهم فلا يوجد من يسده، وهو من مشكلات الجمع بين الصلوات لغير ضرورة ولا حاجة، ولكن لألفة الناس الجمع وارتياحهم له ـ حتى يتخيل كثير منهم أن المسافرين لا تحل صلاتهم إلا بالجمع بين الظهرين وبين العشاءين ـ تنجم هذه المشكلات، وقد ذكرت في غير هذا الموضع ما يترتب على الجمع من مشكلات متعددة لا أرى لها حلا إلا بترك الجمع لغير ضرورة أو حاجة، إلا أن يكون في غير المساجد أو في مساجد لا تزدحم بالمصلين ولا تتعاقب عليها الجماعات بغير انتظام.

تعمد الصلاة بين السواري، وترك الصفوف الخالية منها:

زين للناس أن يصلوا بين سواري المسجد ولو كانت في المسجد سعة بحيث يمكنهم تفاديها بل من الناس مَنْ تَخَالُهم من حرصهم على ذلك أنهم يعتقدون أن الصلاة لا تصح إلا أن تكون بين السواري!! مع ما يؤدي إليه ذلك من قطع الصفوف وعدم اتصالها، وقد يترتب عليه وجود فراغ بين السارية ومن يصلي قربها، وقد جاء النهي عن ذلك، وكان السلف رحمهم الله تعالى حراصا على تفاديه، ولكن الجهل بالدين هو آفة الآفات، وإليك بعض ما روي عنهم في ذلك، فعن «عبد الحميد بن محمود قال: كنت مع أنس بن مالك فوقفنا بين

---

(١) أخرجه النسائي (٢/٩٣، رقم ٨١٩)، والحاكم (١/٣٣٣، رقم ٧٧٤) وقال: صحيح على شرط مسلم. وابن خزيمة (٣/٢٣، رقم ١٥٤٩).

السواري فتأخرنا فلما صلينا قال أنس إنا كنا نتقى هذا على عهد رسول الله ﷺ»[(١)]، وروى الحاكم بإسناد صححه ووافقه عليه الذهبي عن معاوية بن قرة، عن أبيه، قال: «كنا ننهى عن الصلاة بين السواري، ونطرد عنها طردا»[(٢)]، وفي رواية عنه: «كنا على عهد النبي ﷺ نطرد طردا أن نقوم بين السواري في الصلاة»[(٣)]، وعن ابن مسعود أنه قال: «لا تصفوا بين السواري»[(٤)]، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «عليكم بالصف الأول، وعليكم بالميمنة، وإياكم وما بين السواري»[(٥)].

تعمد الصلاة إلى غير سترة في أماكن يمر بها الناس:

كم فرض الله تعالى من احترام الصلاة وتقديرها، لأنها مناجاة للخالق تعالى، فلا ينبغي للإنسان أن يؤديها إلا بحضور قلب وهدوء بال، واستقرار فكر، لذلك شدد النبي ﷺ في مرور الإنسان بين يدي المصلي أثناء صلاته، لما في ذلك من تشويش فكره وطرد الخشوع عنه، ففي **مسند الربيع**: عن جابر بن زيد رحمه الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو يعلم المار بين يدي المصلي ماذا عليه لوقف أربعين خيرا له من أن يمر بين يديه**»، قال جابر: قال بعض الناس: يعني أربعين خريفا، وقال آخرون: أربعين شهرا، وقال آخرون: أربعين يوما»[(٦)].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٦٠/٢، رقم ٢٤٨٩)، وأبو داود (١٨٠/١، رقم ٦٧٣)، والترمذي (٤٤٣/١، رقم ٢٢٩) والنسائي (٩٤/٢، رقم ٨٢١)، والحاكم (٣٣٩/١ رقم: ٧٩٣).

(٢) أخرجه الحاكم (٣٣٩/١ رقم: ٧٩٤).

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (١٤٨/٣ رقم: ٥٢٠٥)، والطيالسي (٤٠٠/٢ رقم: ١١٦٩).

(٤) أخرجه النسائي في الكبرى (١٤٨/٣ رقم: ٥٢٠٦).

(٥) أخرجه الطبراني (٣٥٧/١١، رقم ١٢٠٠٤)، والديلمي (١٩/٣، رقم ٤٠٣٢).

(٦) أخرجه الربيع بن حبيب (ص ١٠٣ رقم: ٢٤٢) وأخرجه من طريق أبي جهيم: مالك (١٥٤/١، رقم ٣٦٢)، وأحمد (١٦٩/٤، رقم ١٧٥٧٥)، ومسلم (٣٦٣/١، رقم ٥٠٧)، وأبو داود (١٨٦/١، رقم ٧٠١)، والترمذي (١٥٨/٢، رقم ٣٣٦)، وقال: حسن صحيح. والنسائي (٦٦/٢، رقم ٧٥٦)، وابن ماجه (٣٠٤/١، رقم ٩٤٥).

وفي **مصنف** ابن أبي شيبة عن عبد الرحمٰن بن يزيد بن جابر، قال: سمعت عبد الحميد بن عبد الرحمٰن، عامل عمر بن عبد العزيز، ومر رجل بين يديه وهو يصلي، فجبذه حتى كاد يخرق ثيابه، فلما انصرف، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو يعلم المار بين يدي المصلي لأحب أن ينكسر فخذه ولا يمر بين يديه**»(١)، وقد بلغ التشديد في المرور بين يدي المصلي أن النبي ﷺ أمر بمقاتلته إن أصر على المرور، وسماه شيطانا، فعن جابر بن زيد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أحدكم إذا كان في الصلاة فلا يدع أحدا يمر بين يديه وليدرأ ما استطاع فإن أبى فليقاتله فإنما هو شيطان**»(٢)، وجاء من طريقه بلفظ: «إذا صلى أحدكم فليصل إلى سترة وليدن منها ولا يدع أحدا يمر بين يديه فإن جاء أحد يمر فليقاتله فإنه شيطان»(٣).

وأنت ترى في هذه الحديث الأمر بالصلاة إلى سترة والأمر بالدنو منها لتفادي مرور المارين بين يدي المصلي، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يبتدرون السواري ليصلوا إليها، لتكون واقيا لصلاتهم من أثر مرور المارين بين أيديهم، فعن أنس رضي الله عنه قال: «كنا بالمدينة إذا أذن المؤذن ابتدر القوم إلى السواري فركعوا الركعتين حتى يأتي الرجل الغريب ليدخل المسجد، فيحسب أن الصلاة قد صليت من كثرة من يصليهما»(٤)، وفي رواية عنه قال: «لقد رأيت كبار أصحاب النبي ﷺ يبتدرون السواري عند المغرب»(٥).

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٢٥٣/١ رقم: ٢٩١١).

(٢) أخرجه الربيع بن حبيب (ص١٠٣ رقم: ٢٤٢).

(٣) أخرجه أحمد (٤٣/٣، رقم ١١٤١٢)، والبخاري (١٩١/١، رقم ٤٨٧)، ومسلم (٣٦٢/١، رقم ٥٠٥)، وابن أبي شيبة (٢٥٠/١، رقم ٢٨٧٥)، وأبو داود (١٨٦/١، رقم ٦٩٨)، وابن ماجه (٣٠٧/١، رقم ٩٥٤)، وابن حبان (١٣٣/٦ رقم ٢٣٦٨)، والبيهقي (٢٦٧/٢، رقم ٣٢٥٨).

(٤) أخرجه الدارقطني (٥٠٤/١ رقم: ١٠٥١).

(٥) أخرجه البخاري (١٠٦/١ ـ ١٠٧ رقم: ٥٠٣).



وقد بالغ الجهلة في مخالفة هذه التوجيهات النبوية في أمر صلاتهم، فتجد أحدهم إذا دخل المسجد لا يهنأ له أن يصلي إلا حيث يمر الناس، ويتفادى السواري أن يصلي إليها، كأنهم يظنون أنهم إذا تعرضوا لمرور المارة بين أيديهم في صلاتهم كان ذلك أعظم لأجرهم، وقد يصلي أحدهم قريبا من السارية، ولكنه لا يتركها بينه وبين قبلته، فتارة يجعلها خلفه، وتارة يجعلها عن يمينه أو عن شماله، هكذا زين لهم الشيطان ذلك، وحببه إلى قلوبهم إمعانا في مخالفة الأوامر الشرعية وعدم مبالاتهم بالصلاة، كأن الصلاة هي أقل ما يمارسونه من الأعمال قيمة، وهو إن دل على شيء فإنما يدل على أنهم اتخذوا الصلاة عادة ورثوها من آبائهم وأجدادهم، وليست عبادة تقيهم عذاب الله وسخطه، وتبلغهم ثوابه ورضوانه إن أدوها على الوجه المشروع.

ومما يؤسف له أن يستهين الفقهاء بتوعية الناس في هذا، فلا يهتموا بتبصيرهم بالحق وردهم إلى الرشد، بل تركوا حبلهم على غاربهم، يتصرفون كما يملي عليهم هواهم، ويرضون به شيطانهم.

الصلاة أول ما يحاسب عليه العبد:

هذا؛ ولا أعجب إلا ممن يفرط في صلاته وهي عمود دينه وأم عباداته فلا يبالي أن يؤديها كيفما كانت، مع أنها هي أول ما يحاسب عليه العبد بين يدي الله تعالى يوم القيامة، فعن تميم الداري، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أول ما يحاسب به العبد، الصلاة، ثم سائر الأعمال**»[١]، وفي رواية: «إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر»[٢].

(١) أخرجه الطبراني (٥١/٢، رقم ١٢٥٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٥٣٥/١ رقم: ٤١٣).

وكم في الصلاة من أخطاء ترتكــب وحرمات تنتهك من غير أن يتفطن لها الناس، وقد تعرضت لبعض ذلك في غير هذا الموضع، ولا تســأل عن بقية العبادات وما يقع فيها من أخطاء تذهب بما تثمره في نفس العابد من إصلاح وتهذيب، وتؤدي في الآخرة إلى خســران ثوابهــا والعياذ بالله، ولا يتسع المقام لتتبعها.

التفريط في الطهارات إخلال بأداء الصلوات:

لا ريب أن الطهارة شرط من شــروط صحة الصلاة، فلا تصح صلاة من تلبس بنجاسة في بدنه أو ثوبه أو البقعة التي يصلي فيها، وقد أثنى الله تعالى على الذين يحبون أن يتطهروا في قوله: ﴿...لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ التوبة: ١٠٨، ففي هذه الآية هذا الثناء العاطر الــذي خلده الله تعالى لعباده الذين يحبون التطهر، لأن الله يحب المطهرين، وقد اشتهر أنهم كانوا يجمعون ما بين التطيب بالحجارة والاستنجاء بالماء.

قال القرطبي: «أثنى الله ﷻ في هــذه الآية على من أحــب الطهارة وآثر النظافة وهي مروءة آدمية ووظيفة شرعية، وفي الترمذي عن عائشة رضوان الله عليها أنها قالت: مرن أزواجكن أن يستطيبوا بالماء فإني أستحييهم قال: حديث صحيح وثبت أن النبي ﷺ كان يحمل الماء معه في الاستنجاء فكان يستعمل الحجارة تخفيفا والماء تطهيرا، ابن العربي: وقد كان علماء القيروان يتخذون في متوضآتهم أحجارا في تراب ينقون بها ثم يستنجون بالماء»[١].

وقال قطب الأئمة: «لما نزلت مشى رســول الله ﷺ ومعه المهاجرون، حتى وقف على باب مســجد قباء، فإذا الأنصار جلــوس، منهم عويم بن

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ٢٦٢/٢.

ساعدة، فقال: «أمؤمنون أنتم؟» فسكتوا، ثم أعادها فقال عمر: يا رسول الله إنهم لمؤمنون وأنا معهم، فقال ﷺ: «**أترضون بالقضاء؟**» قالوا: نعم، فقال: «**أتصبرون على البلاء؟**» قالوا: نعم، قال: «**أتشكرون في الرخاء؟**» قالوا: نعم، قال ﷺ: «**مؤمنون ورب الكعبة**» فجلس ثم قال: «**يا معشر الأنصار إن الله عز وجل قد أثنى عليكم في الطَّهور فما الذي تصنعون عند الوضوء وعند الغائط؟**» فقالوا: يا رسول الله نتبع الغائط الأحجار الثلاثة، ثم نتبع الأحجار الماء، فتلا عليهم الآية».

فمن ذلك وغيره أخذنا معشر المغاربة الإباضية الاستنجاء بالحجارة، ثم الماء، وعليه فرقة من قومنا، وبعض علماء القيروان، وعن بعض: أن الثناء على مخلوق بصفة إيجاب لتلك الصفة، ولا يجزى الاستنجاء بالماء وحده للزُوجَة الغائط، ولا بالحجارة وحدها، فإن ذلك المحل لا يطهر بالمسح فبلله نجس قبل الاستنجاء بالماء» اهـ[١].

وهذا الرأي عندي هو الأصح، وقد اعتمدته في العمل والفتيا، فإن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وقد أوجب الله تعالى الطهارة من الأنجاس وجعلها شرطا لصحة الصلاة، فلا تصح إلا بطهارة البدن والثوب والموضع، وقد أمر الله تعالى بطهارة الثياب بقوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ المدثر: ٤، فلا ريب أن البدن آكد في وجوب تطهيره، لأن تطهير الثياب لأجل ملابستها البدن، فعلى الإنسان أن يحسن طهارة بدنه من آثار ما يفرزه من فضلات الطعام والشراب، وإنه ليعسر أن يتحقق التطهير إلا بالجمع بين التنشيف بالحجارة أو ما يشبهها وبين استعمال الماء، ففضلات الطعام كما قال القطب رحمه الله لُزُوجَتها تمنع الماء من القضاء على آثارها، وبجانب ذلك فإن لمخرجها تضاعيف تبقى فيها النجاسة إن لم يتم تنظيفها بالمنشفات قبل استعمال الماء.

(١) امحمد بن يوسف إطفيش: هميان الزاد، ٦/٩٩.

وأما البول فالطهارة منه أشد عسرا، لأن له مددا، فلذلك يحتاج الإنسان إلى الاستبراء منه بنتر الآلة وتنشيف مخرجه بالمنشفات مع الحركة إلى أن يتأكد عدم وجود بقايا في مجراه، ليكون استعمال الماء بعد ذلك قاضيا على كل أثر له، وقد نبه النبي ﷺ على ضرورة التوقي من البول كما جاء في حديث «أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**أكثر عذاب القبر من البول**»»(١)، وعن «جابر قال: بلغنا عن رسول الله ﷺ أنه مر برجلين يعذبان في القبر، فقال: «**يعذبان وما يعذبان بكبيرة، أما أحدهما فقد كان لا يستبريء من البول، وأما الآخر فقد كان يمشي بين الناس بالنميمة**»»(٢).

ومراده بقوله: «**وما يعذبان بكبيرة**» أن ما يعذبان بسببه ليس هو أمرا كبيرا يشق عليهما اجتنابه، وإلا فلا يخفى أن النميمة ليست صغيرة، فإنها من السعي بالفساد بين الناس، ولذلك حذر الله تعالى من الإصغاء إلى المشائين بها في قوله: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ القلم: ١٠ ـ ١١، وكم من فتنة أوقدت

---

(١) أخرجه أحمد (٣٨٩/٢، رقم ٩٠٤٧)، وابن ماجه (١٢٥/١، رقم ٣٤٨)، وقال البوصيري (٥١/١): هذا إسناد صحيح رجاله عن آخرهم محتج بهم في الصحيحين. وابن أبي شيبة (١١٥/١، رقم ١٣٠٦)، والحاكم (٢٩٣/١، رقم ٦٥٣) وقال: صحيح على شرط الشيخين. والبيهقي (٤١٢/٢، رقم ٣٩٤٤)، ولدارقطني (١٢٨/١) وقال: صحيح. وقال العجلوني (٢٠١/١): رواه الإمام أحمد وابن ماجه وسنده حسن.

(٢) من طريق جابر بن زيد أخرجه الربيع (ص ١٩٧ رقم: ٤٨٧) وأخرجه أيضا: من طريق أبي بكرة الطيالسي (ص ١١٧، رقم ٨٦٧)، وابن أبي شيبة (٥٢/٣، رقم ١٢٠٤٣)، وأحمد (٣٥/٥، رقم ٢٠٣٨٩)، وابن ماجه (١٢٥/١، رقم ٣٤٩)، وأخرجه بلفظ قريب من طريق ابن عباس: أخرجه ابن أبي شيبة (١١٥/١، رقم ١٣٠٤)، وأحمد (٢٢٥/١، رقم ١٩٨٠)، والبخاري (٨٨/١، رقم ٢١٥)، ومسلم (٢٤٠/١، رقم ٢٩٢)، وأبو داود (٦/١، رقم ٢٠)، والترمذي (١٠٢/١، رقم ٧٠)، والنسائي (١٠٦/٤، رقم ٢٠٦٩)، وابن ماجه (١٢٥/١، رقم ٣٤٧)، ومن طريق أبي أمامة أخرجه الطبراني (٢١٦/٨، رقم ٧٨٦٩). وأخرجه أيضا: أحمد (٢٦٦/٥، رقم ٢٢٣٤٦)، ومن طريق يعلى بن مرة: أخرجه الطبراني (٢٧٥/٢٢، رقم ٧٠٥) ومن طريق أم المؤمنين عائشة: أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٣٧/٦، رقم ٦٥٦٥).

النميمة نارها فشبت، والتهم ضرامها الأخضر واليابس، وأتى على الحرث والنسل، فلا يتصور أن تكون صغيرة، وكذلك عدم الاحتراز من البول لأنه قرن بالنميمة في النتيجة والحكم، وقد جاء الحديث بلفظ: «**إنهما ليعذبان وما يعذبان من كبير، ثم قال: بلى**»[(١)]، ويحتمل أن يكونا غير مكترثين بما كان منهما مما أدى إلى تعذيبهما، ويؤكد ذلك قوله ﷺ: «**بلى**»، وفي رواية «**وإنه لكبير**»[(٢)].

وقد تهاون الناس في الحرص على الجمع بين الطهارتين، وهذا أمر فيه خطورة، وحسب اللبيب ما في هذه الروايات تحذيرا وتنفيرا من ذلك، ولكن بحمد الله بدأ وعي الناس بهذا، وكثير منهم يوفرون في دورات المياه في بيوتهم المنشفات الورقية، وليتهم يعممون ذلك في الدورات التابعة للمساجد، وإن كان الحريصون على هذه الطهارة يتزودون الأوراق المنشفة في مخابئ ثيابهم.

بناء المساجد بين التزام الحق واتباع الهوى:

المساجد هي بيوت الله في أرضه، ومرتع أرواح أوليائه وأصفيائه من الناس، ومتنزل رحماته عليهم، فلا يخفى أن بناءها وجميع أنواع عمارتها الحسية والمعنوية هي من القربات إلى الله تعالى، وهي رمز الإيمان بالله واليوم الآخر، كما بينه تعالى في قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ التوبة: ١٨، وقد تضافرت أدلة السنة النبوية على ما يحرزه عمارها من الفضل العظيم، والثواب الجزيل، فعن النبي ﷺ أنه قال: «**من بنى مسجدا يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة**»[(٣)]، والروايات في ذلك كثيرة.

---

(١) أخرجه البخاري (٩٩/٢ رقم: ١٣٧٨)، ومسلم (٢٤٠/١، رقم ٢٩٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٧/٨ رقم: ٦٠٥٥).

(٣) أخرجه أحمد (٦١/١، رقم ٤٣٤)، والبخاري (١٧٢/١، رقم ٤٣٩)، ومسلم (٢٢٨٧/٤، رقم ٥٣٣)، والترمذي (١٣٤/٢، رقم ٣١٨) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (٢٤٣/١، رقم ٧٣٦)، وابن حبان (٤٨٨/٤، رقم ١٦٠٩).



وإذا كان بناء المساجد قربة إلى الله تعالى فإنه لا بد أن يتوافر في بنائها أمران:

أولهما: خلوص النية لله تعالى.

ثانيهما: أن لا يخرج بناؤها عن هدي الإسلام.

وإذا كان لا بد من توافر هذين الأمرين، فإن بناءها يجب أن لا يكون لدافع دنيوي، وأن لا يكون مؤديا إلى مخالفة مقاصد الشريعة الإسلامية، فالمساجد هي أمكنة العبادة، بل تقام فيها أقدس العبادات وأعمقها تأثيرا وأقواها أثرا في النفس وفي المجتمع، ففيها تقام شعائر الصلاة التي جعلها الله ﷻ مصدر النور الذي يشرق على النفس، فيزكي أعمالها ويهذب طباعها، ويصلها بالله ﷻ، ويربط بين قلوب مقيميها.

ولا يخفى ـ على كل ذي لب ـ أن جميع العبادات تؤدي إلى هذا الغرض النبيل، وتقوم إعوجاج الحياة، وتشد المؤمنين بعضهم إلى بعض عندما تجمعهم في ظل العبودية لله سبحانه، فلا تكون العبادة إلا مصدر وفاق وألفة ومودة ووئام، والصلاة هي في مقدمتها، وسيأتي ـ إن شاء الله ـ بيان علاقة العبادات جميعا بالأخلاق الحسنة التي تشد المؤمنين بعضهم إلى بعض، وتوحد كلمتهم، وتستأصل ما عسى أن يعتمل بين حنايا صدورهم من الحقد والكراهية والحسد، حتى تصفو نفوسهم، وتغدو قلوبهم كقلب الرجل الواحد، ومن المستحيل أن تكون العبادة المشروعة في الإسلام مؤدية إلى الصراع والخلاف والتنافس على مظاهر الحياة الدنيا وزخرفها.

لهذا كانت المساجد التي هي مقر أم العبادات جميعا تقام من أجل جمع الشمل، وتأليف القلوب، وتوحيد الكلمة، ففي المسجد الواحد يلتقي أهل الحي ليتوجهوا إلى الله بقلوب ملؤها حب الله تعالى وخوفه ورجاؤه، ومع ذلك هي ملأى بما يجب أن تكون عليه قلوب المؤمنين؛ من التعاطف والتراحم

والتلاحم والألفة والحنان، فهم يلتقون لأجل أن يتوجهوا إلى الله، الذي يرضى منهم أن يأتلفوا ويتوحدوا ويخلص بعضهم لبعض، ويكره منهم التنافر والشقاق والبغضاء والحسد، وكل ما يفرق كلمتهم ويصدع وحدتهم.

وفي تلاقي أهل الحي في اليوم والليلة خمس مرات، مع ارتمائهم جميعا في نهر الطهر والبر؛ لأجل تنظيف نفوسهم من أدران الحياة ما يضمن لهم الوحدة والوئام، ويقيهم الفرقة والشتات، فلو حاول الشيطان أن يغري بين اثنين منهم لكانت المجموعة له بالمرصاد، ترد كيده وتُفْشِل وساوسه، فباجتماعهم من أجل طاعة الله تعالى يظلون مؤتلفين حريصين على كل ما فيه مصلحتهم جميعا.

وبجانب ذلك يلتقي أهل الأحياء المتعددة في المسجد الجامع مرة في الأسبوع لقاء أوسع ساعين إلى ذكر الله، فيجلجل في آذانهم صوت الخطيب مذكرا لهم بالله واليوم الآخر، ووجوب طاعته فيما بينهم وبينه وفيما بينهم وبين أنفسهم، فيتجدد فيهم جميعا الإيمان ويقوى فيهم اليقين، وتتمتن الصلة بين أهل المدينة، فيتجدد إخاؤهم في كل جمعة، ويتوجهون جميعا إلى الله خاشعين مخبتين.

وإذا كان دور المسجد هو إحياء هذه المشاعر الطيبة بين المؤمنين، وتقوية هاجس الإخاء بينهم، فإنه ـ بلا ريب ـ يجب أن يتفادى في بناء المساجد ما ينافي هذه الحكمة البالغة، والهدف الأسمى من بنائها، وعمارتها بالذكر، وإقامة شعائر الله تعالى فيها، فيجب تجنب ما يؤدي إلى التشتيت والتفريق بين جماعاتها، أو يكون معاكسا لمقاصد الشريعة وحكمها في التشريع.

فلذلك كان بناء المسجد من أول الأمر يجب أن يكون قربة إلى الله وحده، لا يلتفت فيه إلى نزعة عصبية ولا إلى حمية حزبية، فلا يكون بباعث من تنافس قبلي أو مذهبي أو عنصري، وإنما يكون خالصا لوجه الله تعالى.

ومع ذلك فإنه يجب التزام شــرع الله تعالى فــي كل ما يلابس بناءه، فلا يكون في أرض مغصوبــة ولا بمال حــرام، ولا بكيفية تؤدي إلــى المباهاة والمفاخرة، وإنما تراعى فيه حاجة المســلمين إليه، ومع ذلك لا يكون سبيلا إلى إماتة سنة أو إحياء بدعة أو نشر ضلالة.

وهذا كله ظاهر من قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ التوبة: ١٠٧، فقد أنكر الله تعالى على هؤلاء الذين أنشأوا هذا المسجد ما قاموا به للأسباب التي كانت تحيط بإنشائه من الضرار والكفر والتفريق بين المؤمنين، والإرصاد لمن حارب الله ورسوله، وكل سبب منها يستقل بهذا الحكم، فمتى وجد أي سبب من هذه الأسباب في بناء مسجد من المساجد كان حقيقا أن يسلب وصف المسجد وحكمه عنه، ولا يلزم أن تجتمع جميعا، فلو كان في إقامته إضرار بأحد ماديا أو معنويا، أو كان بسببه تفرق بين جماعة المؤمنين، أو اشتمل على غرض مناف لهدي الإسلام، سواء كان مخرجا من الملة أو كان غير مخرج، أو أريد به الإرصاد لحرب الله ورسوله بحرب دينه أو عباده، كان بأي واحد من هذه الأسباب مسلوبا حكم المسجد، فلا تجوز الصلاة فيه، ولا يجوز إبقاؤه، والكفر المراد هنا أعم من أن يكون مليا أو يكون كفر نعمة.

وقد بيّن تعالى بعــد ذلك عدم جواز القيــام ـ أي الدخول للصلاة ـ فيما لابسه شيء من هذه الأسباب عندما قال: ﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ التوبــة: ١٠٨، وفــي هذا ما يــدل على أن المسجد الذي يعطى حكم المساجد ـ وتكون له قدســيتها، ويحق القيام فيه لأداء شعائر الله تعالى ـ هو المسجد الذي يؤسس من أول يوم على تقوى الله، وأنت تدري أن تقوى الله هي التزام حكمه فيما أمر به أو نهى عنه فعلا وتركا.

لا يقال: بأن مسجد الضرار المذكور في القرآن اجتمعت فيه الأسباب القاضية بمنع الصلاة فيه، وما وجد فيه سبب واحد لا يعطى حكمه.

لأنا نقول: كل سبب من هذه الأسباب كاف وحده لتأثير هذا الحكم، أرأيت أن لو كان بعيدا عن المساجد لا يضار شيئا منها، ولا يضر بأحد ماديا أو معنويا، ولكنه بني من أجل الكفر، بحيث كان فيه وثن يعبد، أيقال هو مسجد كالمساجد المشروعة، التي أذن الله برفعها وذكر اسمه فيها، أو يقال بأنه يحرم أن يعمر بالصلوات ويجب هدمه إنكارا للمنكر؟!.

ومثل ذلك؛ ما لو أريد به الإرصاد لمحاربة الدين والمؤمنين، أيقر على ذلك؟.

فكذلك عندما يؤدي إلى التفريق بين جماعة المؤمنين وتشتيتهم بعد الاجتماع من غير أن تكون هناك ضرورة داعية إلى إقامته، بحيث تكون البلدة مترامية الأطراف، ولا يمكن لسكانها أن يجتمعوا في مسجد واحد.

وقد أدرك السلف الصالح هذا البعد في هذا الحكم، فلذلك حكموا بهدم أي مسجد يقام بجوار مسجد يضاره، وأنه لا تحل الصلاة فيه، وكذلك لو بني في أرض مغصوبة أو بمال محرم أو لم تكن النية في بنائه خالصة لوجه الله تعالى.

وقد تواردت بهذا آراء فقهاء الأمة على اختلاف مذاهبها، قال ابن حزم: «ولا تجزئ الصلاة في مسجد أحدث مباهاة، أو ضرارا على مسجد آخر. إذا كان أهله يسمعون نداء المسجد الأول، ولا حرج عليهم في قصده، والواجب هدمه، وهدم كل مسجد أحدث لينفرد فيه الناس كالرهبان، أو يقصدها أهل الجهل طلبا لفضلها، وليست عندها آثار لنبي من الأنبياء عليهم السلام ولا يحل قصد مسجد أصلا يظن فيه فضل زائد على غيره إلا مسجد مكة، ومسجد المدينة، ومسجد بيت المقدس» إلى أن قال: «وعلى قدر ما بناها عليه السلام بالمدينة، لكل أهل محلة مسجدهم الذي لا حرج عليهم في إجابة مؤذنه للصلوات الخمس،

فما زاد على ذلك أو نقص مما لم يفعله عَلَيْهِ السَّلَامُ فباطل ومنكر، والمنكر واجب تغييره. وقد افترض عَلَيْهِ السَّلَامُ النكاح والتسري ونهى عن الرهبانية، فكل ما أحدث بعده عَلَيْهِ السَّلَامُ مما لم يكن في عهده وعهد الخلفاء الراشدين فبدعة وباطل وقد هدم ابن مسعود مسجدا بناه عمرو بن عتبة بظهر الكوفة ورده إلى مسجد الجماعة»(١).

وقال الزمخشري: «وقيل: كل مسجد بني مباهاة أو رياء وسمعة أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله أو بمال غير طيب، فهو لاحق بمسجد الضرار. وعن شقيق أنه لم يدرك الصلاة في مسجد بني عامر، فقيل له: مسجد بني فلان لم يصلوا فيه بعد، فقال: لا أحب أن أصلى فيه، فإنه بني على ضرار، وكل مسجد بني على ضرار أو رياء أو سمعة فإنّ أصله ينتهي إلى المسجد الذي بني ضراراً. وعن عطاء: لما فتح الله تعالى الأمصار على يد عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أمر المسلمين أن يبنوا المساجد وأن لا يتخذوا في مدينة مسجدين يضارّ أحدهما صاحبه»(٢).

وقال النيسابوري: «واعلم أنه سبحانه حكى أن الباعث لهم على هذا العمل كان أمورا أربعة: الأول الضرار وهو المضارة، والثاني الكفر بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبالإسلام وذلك أنهم أرادوا تقوية أهل النفاق، والثالث التفريق بين المؤمنين لأنهم أرادوا أن لا يحضروا مسجد قباء فتقل جماعتهم ولا سيما إذا صلى النبي في مسجدهم فيؤدي ذلك إلى اختلاف الكلمة وبطلان الألفة، والرابع قوله: وإرصادا لمن حارب الله ورسوله»(٣).

وقال القرطبي: «لا يجوز أن يبنى مسجد إلى جنب مسجد، ويجب هدمه، والمنع من بنائه لئلا ينصرف أهل المسجد الأول فيبقى شاغرا، إلا أن تكون

---

(١) ابن حزم: المحلى، ٣٦٣/٢ ـ ٣٦٤.
(٢) الزمخشري: الكشاف، ٣١٠/٢.
(٣) النيسابوري: غرائب القرآن، ٥٢٨/٣.

المحلــة كبيرة فلا يكفي أهلها مســجد واحــد فيبنى حينئــذ. وكذلك قالوا. لا ينبغي أن يبنى في المصر الواحد جامعان وثلاثة، ويجب منع الثاني، ومن صلى فيه الجمعة لم تجزه. وقد أحرق النبي ﷺ مسجد الضرار وهدمه. وأسند الطبري عن شــقيق أنه جاء ليصلي في مســجد بني غاضرة فوجد الصلاة قد فاتته، فقيل له: إن مسجد بني فلان لم يصل فيه بعد، فقال: لا أحب أن أصلي فيه، لأنه بني على ضرار. قال علماؤنا: وكل مســجد بني على ضرار أو رياء وسمعة فهو في حكم مسجد الضرار لا تجوز الصلاة فيه»[(١)].

ونص ما في تفسير الطبري في هذا: «حدثنا ابن حميد قال، حدثنا هارون، عن أبي جعفر، عن ليث: أن شقيقا لم يدرك الصلاة في مسجد بني عامر، فقيل له: مسجد بني فلان لم يصلوا بعد! فقال: لا أحب أن أصلي فيه، فإنه بني على ضرار، وكل مسجد بني ضرارا أو رياء أو سمعة، فإن أصله ينتهي إلى المسجد الذي بني على ضرار»[(٢)].

وقال قطب الأئمة في **التيسير**: «وعن عطاءٍ: لما فتح الله الأَمصار على عمر رضى الله تعالى عنه أَمر المسلمين أَن يبنوا المساجد وأَن لا يتخذوا في مدينة مســجدين يضار أَحدهما صاحبه، وروى عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه أَنه كتب إِلى عماله، وأَمرهــم أَن يهدموا كل مســجد ضار آخر، يعنى هدم المســجد الحادث الضار لسابقه»[(٣)].

وقال في **الهميان**: «وكل مســجد بنى ضرارا أو رياء وســمعة، أو لغير الله مطلقا فحكمه حكم مسجد الضرار»[(٤)]، ثم ذكر ما روي عن عمر.

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ٢٥٤/٨.
(٢) الطبري: جامع البيان، ٤٧٤/١٤.
(٣) امحمد بن يوسف إطفيش: تيسير التفسير، ٢٦/٤.
(٤) المرجع السابق، ٩٧/٦.

وعدد السيد محمد رشيد رضا أسباب تحريق مسجد الضرار، فذكر منها: «التفريق بين المؤمنين الذين هنالك، فإنهم كانوا يصلون جميعا في مسجد قباء، وفي ذلك من مقاصد الإسلام الاجتماعية ما فيه، وهو التعارف والتآلف والتعاون وجمع الكلمة، ولذلك كان تكثير المساجد وتفريق الجماعة منافيا لمقاصد الإسلام، ومن الواجب على المسلمين في كل بلد أن يصلوا في مسجد واحد إذا تيسر، فإن تفرقوا عمدا وصلوا في عدة مساجد ـ والحالة هذه ـ كانوا خاطئين، وذهب بعض الأئمة إلى أن الجمعة الصحيحة تكون حينئذ لأهل المسجد الذين سبقوا بالتجميع».

ثم قال: «وهذا يدل على أن بناء المساجد لا يكون قربة مقبولة عند الله إلا إذا كان بقدر حاجة المؤمنين المصلين، وغير سبب لتفريق جماعتهم، ومنه يعلم أن كثيرا من مساجد مصر القريب بعضها من بعض ـ وكذا أمثالها في الأمصار الأخرى ـ لم تبن لوجه الله تعالى، بل كان الباعث على بنائها الرياء، واتباع الأهواء، من جهلة الأمراء والأغنياء»[(١)]، وتابعه على كل ما قاله العلامة المراغي[(٢)] في تفسيره.

وقال الجصاص في **أحكام القرآن**: «قوله تعالى: ﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ التوبة: ١٠٨، فيه الدلالة على أن المسجد المبني لضرار المؤمنين، والمعاصي لا يجوز القيام فيه وأنه يجب هدمه: لأن الله نهى نبيه ﷺ عن القيام في هذا المسجد المبني على الضرار، والفساد وحرم على أهله قيام النبي ﷺ فيه إهانة لهم واستخفافا بهم، على خلاف المسجد الذي أسس على التقوى، وهذا يدل على أن بعض الأماكن قد يكون، أولى بفعل الصلاة فيه من بعض وأن الصلاة قد تكون منهية عنها في

(١) محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ١١/٣٢.
(٢) أحمد مصطفى المراغي: تفسير المراغي، ١١/٢٥.

بعضها ويدل على فضيلة الصلاة في المسجد بحسب ما بني عليه في الأصل، ويدل على فضيلتها في المسجد السابق لغيره لقوله: ﴿أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾؟ وهو معنى قوله تعالى: ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾: لأن معناه أن القيام في هذا المسجد لو كان من الحق الذي يجوز لكان هذا المسجد الذي أسس على التقوى أحق بالقيام فيه من غيره، وذلك أن مسجد الضرار لم يكن مما يجوز القيام فيه لنهي الله تعالى نبيه عن ذلك»[(١)].

وذكر حكمة ذلك العلامة ابن العربي عندما قال: «وهذا يدلك على أن المقصد الأكثر والغرض الأظهر من وضع الجماعة تأليف القلوب، والكلمة على الطاعة، وعقد الذمام والحرمة بفعل الديانة، حتى يقع الأنس بالمخالطة؛ وتصفو القلوب من وضر الأحقاد والحسد»[(٢)].

وقال الإمام السالمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وينهى عن تكثير المساجد وتقاربها في البلد الواحد؛ لما يؤول في ذلك من تشتت الجماعات، وتفرق الأصحاب، وتقليل العمارة للمساجد، وتفويت الأجر الحاصل بكثرة الجماعة. قال أبو قلابة: «غدونا مع أنس بن مالك إلى الزاوية فحضرت صلاة الصبح فمررنا بمسجد، فقال أنس: لو صلينا في هذا المسجد؟ فقال بعض القوم: حتى نأتي المسجد الآخر، فقال أنس: أي مسجد؟ قالوا: مسجدا حدث الآن، فقال أنس: إن رسول الله ﷺ قال: «**سيأتي على أمتي زمان يتباهون في المساجد ولا يعمرونها إلا قليلا**»[(٣)]»[(٤)].

وقال في موضع آخر ـ بعد أن ذكر أحاديث فضل بناء المساجد ـ: «ولعمري أن ذلك العموم مخصص فلا يصح إبقاؤه على ظاهره، إذ لو جاز

---

(١) أبو بكر الجصاص: أحكام القرآن، ٢٠١/٣.
(٢) ابن العربي: أحكام القرآن، ٥٨٢/٢.
(٣) أخرجه البغوي (٣٥١/٢ رقم: ٤٦٦)، وأخرجه أيضا: ابن خزيمة (٢٨١/٢، رقم ١٣٢١). والضياء (٢٢٤/٦، رقم ٢٢٣٩)، وأبو يعلى (١٩٩/٥، رقم ٢٨١٧).
(٤) نور الدين السالمي، معارج الآمال، ٦٦/٦.

ذلك للزم أن يجوز بناء المساجد على عدد البيوت في القرية ولا قائل بذلك، وما هو إلا منكر لو فعله أهل قرية وجب الإنكار عليهم، ولا يسمع تعللهم بأنهم لم يريدوا ضرارا»[١].

ولأجل تفادي الشقاق والخلاف في بناء المساجد اشترط علماؤنا أن يكون البناء برأي أهل العلم والصلاح الذين يضعون الأمور في مواضعها، ويدركون حكمة الشارع فيما أمر به أو نهى عنه، ففي **الإيضاح** ما نصه: «وإن أرادوا أن يبنوه فليشاوروا أهل دعوتهم بعد اتفاق من أهل المنزل على ذلك، وإن لم يتفق خيار أهل المنزل على بنيانه، فلا يبنوه حتى يتفقوا»[٢].

وفي النيل وشرحه: «(وإن أرادوا بناءه) (شاوروا فيه أهل) أي خيار أهل (دعوتهم وإن من غير منزلهم بعد اتفاق) خيار (أهله) أي أهل المنزل (عليه، لا إن لم يتفق عليه خيار أهله) ولا يعتبر غير الخيار»[٣]، وقال شيخنا ابن جميل:

يبنونه من بعد الائتمار على اتفاق الصلحا الأخيار[٤]

وبهذا تدرك أن بناء المساجد لا يكون في كل حال برا وقربة إلى الله، بل يكون بخلاف ذلك عندما يعرى من التزام الضوابط الشرعية، كبنائها متقاربة يضار بعضها بعضا، فالمساجد يجب أن تكون جامعة لقلوب المؤمنين، تؤلف بينهم وتوحد كلمتهم، لا أن تكون مثارا للعصبية والجدل، وتمزيق الكلمة والتفريق بين جماعتهم، وكم رأينا من أناس يبنونها لدواعي التفرق والاختلاف، وهو بعكس مقصد الشارع الحكيم، وتدخل في هذا المباهاة

(١) المرجع السابق، ٦/٦٨.
(٢) الشيخ عامر بن علي الشماخي، الإيضاح، ٢/٦٥٠.
(٣) قطب الأئمة أمحمد بن يوسف إطفيش، شرح النيل، ٥/٢٣٥.
(٤) العلامة خلفان بن جميل السيابي، سلك الدرر، ٢/٥٠.

والمفاخرة، وقد قطع الشـــارع وســـائل ذلك بما أمر به من تجنب كل ما يثير الظغائن ويؤجج الخلاف بين المؤمنين، فالنبي ﷺ عندما هاجر أسس مسجد قباء أولا، ثم أسس مسجده الشريف، وكان جيران المسجدين يأتيانهما للصلاة من أماكن متباعدة، ولو كانت هنالك رخصة لأن يتفرقوا في الجماعات ـ ولو مع إمكان الاجتماع ـ لتنافس أصحاب النبي ﷺ في إنشاء المساجد، ولو كان للتحزب القبلي مجال في هـــذا لكان كل حي من الأنصار يبنون مســـجدهم استقلالا، ويقيمون جماعتهم وحدهم، ولكن لم يكن ذلك، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد**»[١]، وفي روايـــة: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»[٢].

وقد اعتاد النـــاس ـ لجهلهم أو تجاهلهم وســـكوت العلمـــاء عنهم ـ أن يتنافسوا في بناء المساجد في أماكن تكتض بالمســـاجد، لا لشيء إلا لأجل التنافس لاعتبارات لا يقيم لها الشرع وزنا، كالتنافس بين الأسر أو بين الأفراد، بحيث لا تستحسن أســـرة أن تصلي في مسجد أسرة أخرى، أو تأنف قبيلة أن تصلي حيث تصلي قبيلة أخرى، ولهذه الاعتبارات قد تحرص العشيرة على أن تستقل بجمعتها، وترى من العار عليها أن تصلي حيث تصلي القبيلة الأخرى.

ومما يعجب منه أني وجدت قرية تسكنها قبيلة واحدة، وكلهم ينتسبون إلى جد واحد هاجر إلى هذه القرية وأسسها، ومع تكاثرهم توسعت القرية فانقسمت إلى حارتين متجاورتين، ومع كونهم جميعا نســـبهم واحـــدا، ودينهم واحدا،

---

(١) من طريق ابن عباس أخرجه الربيع (ص٣٩ رقم: ٤٩)، ومن طريق عائشة رضي الله عنها أخرجه أحمد (١٤٦/٦، رقم ٢٥١٧١)، ومســـلم (١٣٤٣/٣، رقم ١٧١٨)، أبو عوانـــة (١٧١/٤، رقم ٦٤٠٩)، والدارقطني (٢٢٧/٤).

(٢) أخرجه أحمد (١٥٧/٤٣ رقم: ٢٦٠٣٢)، والبخاري (١٨٤/٣ رقم: ٢٦٩٧)، ومسلم (١٣٤٣/٣ رقم: ١٧١٨)، وأبو داود (٢٠٠/٤ رقـــم: ٤٦٠٦)، وابن ماجه (٧/١ رقم: ١٤)، وابن حبان (٢٠٧/١ ـ ٢٠٨ رقم: ٢٦)، وأبو عوانة (١٧٠/٤ رقم: ٦٤٠٧)، والبيهقي (٢٠٤/١٠ رقم: ٢٠٣٧١).

ويتبعون مذهبا واحدا، إلا أنهم أثر عليهم الشيطان فتحزبوا حزبين، وقد ظل أثر ذلك ساريا في نفوس بعضهم حتى مع ما حصل من التلاحم ونسيان الخلافات القبلية، وكانت الجمعة تقام في أحدى الحارتين، ولكن مسؤول الحارة الأخرى كان مصرا على أن يستقلوا بجمعتهم!! فعجبت من هذا التنافس غير المحمود الذي يعمق الخلاف، ويؤصل الشقاق، ويجعل من العبادات وسيلة لذلك.

وأنت ترى أن علماء الأمة مع تعدد مذاهبهم الفقهية قالوا إن الجمعة لا تتكرر في المدينة الواحدة إلا لضرورة، بحيث يتعذر أن يجتمع السكان في جامع واحد، فقد اطلعت على تشدد ابن حزم في بناء مسجد جديد إن ضاق المسجد السابق، بحيث لم يبح ذلك إلا أن يكون المسجد الثاني لا يسمع فيه نداء المسجد الأول، فكيف بهذه المساجد المتجاورة، التي لا يؤمن أن يشوش الأئمة فيها بعضهم على بعض في قراءتهم؟!.

وقد كان حريا بالعلماء ـ وهم الذين أخذ منهم العهد أن يبينوا حكم الله ـ أن لا يسكتوا عن العوام، وأن يبصروهم بالحق، ويبينوا لهم الخطأ من الصواب، وأنت ترى كيف كان لسكوتهم وإقرارهم ما يَتَّبِعُه الناس من أثر في التباس الحكم الشرعي، حتى رأى الناس كثيرا مما أحدثوه صوابا مع كونه عين الخطأ، وقد رأيت كيف كان موقف العلماء الغابرين في هذه القضية، وتشددهم في الاستجابة لداعي الهوى، وابتغاء ما عند الناس من الشهرة والتباهي والتكثير من المساجد؛ التي تتفرق بها الجماعات، وتكون مصدرا للحمية الممقوتة في الإسلام، وأشد من ذلك حرص كل طائفة على الاستقلال بجمعتها!! مع أنها لم تسم جمعة إلا لأنها تجمع ولا تفرق.

هذا؛ وقد تجد الذين يحرصون على بناء المساجد بجوار أخرى إن عرض لهم أن يبنوها في أمكنة هي أحوج إلى المساجد لخلوها منها امتنعوا من ذلك وشحوا بأموالهم، وأبوا أن يبنوها إلا حيث يكون بينها التزاحم والتضار!!.



المحور الرابع

في طلب العلم ونشره

مكانة العلم في الإسلام:

إن الفطرة هادية إلى مكانة العلم في حياة الناس، فما أكثر أسباب التفاوت بين الناس في مقاماتهم، ولكن من أعظم هذه الأسباب تفاوتهم في المقامات العلمية، فكم للعلم من قدر رفيع لا يبلغ شـأوه، وكم يخفض الجهل صاحبه حتى يرديه في الحضيض، وقد جاء الإسلام الحنيف منوها بقدر العلم ومبينا مكانته، فقد قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ الرعد: ١٩، وقال سبحانه: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ الزمر: ٩، وقال سبحانه: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ سبأ: ٦، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ فاطر: ٢٨.

وبين تعالى أن ما أوتيه آدم من العلم كان سببا عند الله تعالى لاختياره لأن يكون خليفة في الأرض وأن يفضله على الملائكة الكرام حتى أمروا بالسجود له، وذلك في قوله: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ

قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ البقرة: ٣٠ ـ ٣٣.

وقد قرن الله شهادته لنفسه بالوحدانية بشهادة الملائكة والذين أوتوا العلم، عندما قال: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ آل عمران: ١٨.

العبادات والأعمال الصالحة لا تتحقق إلا بالعلم:

إن الله تعالى لم يهمل عباده ولم يتركهم سدى، وإنما أمرهم بعبادته وجعلها هي الغاية لخلقهم، كما نص عليه في قوله: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ الذاريات: ٥٦، وأمرهم بطاعته وطاعة رسوله ﷺ، المبلغ عن الله تعالى، فقد قال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ المائدة: ٩٢، ولا يتحقق شيء من ذلك إلا بالعلم، فإن العبادات لم توكل إلى استحسان الناس، فجميع عقولهم قاصرة عن تحديدها، وإنما تدرك بالعلم، وكذلك ما أمر الله به وما نهى عنه، فلا يتسنى لأحدٍ أن يعبد الله سبحانه كما أمره تعالى، إلا إن كان بصيرا بالعبادة خبيرا بكيفية أدائها، ولا غرو في هذا فإن العلم هو قوام الدين ونور الحياة، وهو الهادي إلى الحق وإلى الطريق المستقيم، ولهذا بعث الله تعالى رسله وأنزل كتبه لنشر العلم بين الناس، وتبصيرهم بالحق حتى يكونوا على بينة مما يأتون وما يذرون، وقد أجاد العلامة أبو مسلم في قوله:

ورافق دليل العلم يهدك إنه	طريق يحار العقل فيه وعير
وفعلك حد المستطاع من التقى	على غير علم ضيعة وغرور
فما زكت الطاعات إلا لمبصر	على نور علم في الطريق يسير
أتدخر الأعمال جهلا بوجهها	وأنت إلى علم هناك فقير
فيا طالب الله ائته من طريقه	وإلا فبالحرمان أنت جدير
فلست إذا لم تهتد الدرب واصلا	قبيلك في جهل السلوك دبير

طلب العلم عبادة تقرب العبد إلى الله:

إذا كان العلم بهذا القدر والدين موقوف عليه والعبادات كلها مرهونة به، وهو إمام للعبادات يبصر العابدين بكيفية أدائها، وصورة إتقانها، فإنه لا بد من الإخلاص في طلبه لوجـه الله تعالى، فلا يطلب لوجه مـن وجوه الدنيا، كما لا يصلى ولا يصـام ولا يزكى ولا يحـج لأجل غرض دنيوي، فهو وسـائر العبادات مندرج فيما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ الكهف: ١١٠، وقوله سبحانه: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ البينة: ٥، فمن طلبه لينال به مكانة بين الناس أو ليتوصل به إلى غرض من أغراض الدنيا كان والعياذ بالله من الهالكين، وقد نص على هذا حديث رسـول الله ﷺ فعن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «**من تعلم العلم ليباهي به العلماء أو ليماري به السـفهاء لقي الله يـوم القيامة وهو خائب من الحسـنات**»[(١)]، وعن جابر بن زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «**من تعلم العلم للعظمة والرفعة أوقفه الله تعالى موقف الـذل والصغار يوم القيامة وجعله الله عليه حسـرة وندامة حتى يكون العلم لأهله زينـا**»[(٢)]، وروي عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «من تعلم العلم ليباهي به العلماء أو ليماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه فهو في النار»[(٣)]، وعن أبي هريرة: «من تعلم العلم ليباهى به العلماء أو يماري به السـفهاء أو يصـرف به وجوه الناس إليـه أدخله الله جهنم»[(٤)]، ولعلماء الرعيل الأول في هذا بيان يأخذ بمجامع الألباب.

ومما يؤسف له أن نجد كثيرا من طلبة العلم يحرصون على جعل الشهادة العلميـة هي مبتغاهـم، وإذا كانت الشـهادة من ضرورات العلوم الإنسـانية

(١) أخرجه الربيع بن حبيب (ص ٣٤ رقم: ٣٣).
(٢) المرجع السابق (ص ٣٤ رقم: ٣٤).
(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٢/٦، رقم ٥٧٠٨)، والضياء (٧٢/٧، رقم ٢٤٨٠).
(٤) أخرجه ابن ماجه (٩٦/١، رقم ٢٦٠).

المشتركة، ليتسنى لحامليها أن يخدموا أمتهم بما تعلموه من العلم، فإن العلوم الشرعية ليســت موقوفة على ذلك، إلا أن تعقيدات الحياة المعاصرة جعلت العمل في المؤسســات العلمية الشــرعية كالعمل في المؤسســات الأخرى، فالمتخصص في العلوم الشــرعية قد لا يجد مجالا أن يقــوم بواجبه العلمي والعملي والدعوي إلا أن تكون بيده شهادة، وعليه فإن هذه الشهادة يجب أن تكون وسيلة لا غاية، فلا يحل لمؤمن أن يطلبه من أجلها، ولكن مع الأسف الشــديد وجدنا الكثير من حملة الشــهادات يفاخرون بما حملــوه، فلا يكاد أحدهم يحمل شهادة الدكتوراه إلا ويصر أن يصدر اسمه متى كتبه أو ذكره بهذا اللقب أو بحرف الدال الذي يرمز إليه، بل ويطالب أن يخاطب به وأن يتصدر اسمه عندما يذكر، وقد بلغني أن أحدا من الذين إيفوا بهذا الداء العضال اتصل بهاتف بيته أحد ليســأل عنه، وكان هو بنفســه الذي تلقى الاتصال، فســأله المتصل: هل هذا بيت فلان؟ فرد: عليه: لا. وأخذ يراجع رقم هاتفه فتأكد أنه لم يخطئ فيه، وأعاد عليه الاتصال مرة أخرى، فسأله: أليس هذا ببيت فلان؟ فرد عليه: لا. فقــال: لقد دللت علــى أن هذا هو رقم هاتــف منزله!! فكيف لا يكون هذا بيته؟! فرد عليه: «أنت تسأل عن فلان، وهذا بيت الدكتور فلان». فانظر كيف أورثنا أعداؤنا هذه العناية البالغة بتوافــه الأمور، بينما وجدناهم أنفسهم لا يكترثون بها، وإنما أرادوا بهذا أن يشغلونا بالسفاسف عن المعالي، وبالحرص على جمع التراب وإهمال التبر، واقتناء البعر وإضاعة الدرر، وقد انطلت حيلتهم على الأمة وراجت دعايتهم بينها، ويا للأسف.

على أن هذه الألقاب ليست مما يفرح به فإنها جاءتنا من مكان بعيد، فقد صدرها إلينا الغرب، فتقبلت عندنا بانشــراح صدر وسكينة نفس، بل قيل أن بعض هذه الألقاب مصدرها اليهود، فقد تلقاها منهم الغرب، ثم صدرها إلينا، كالدكتوراه التي تتزاحم من أجلها الأقدام وتتنافس في السبق إليها الهمم، فقد قيل بأن أصله كان يطلق على الحاخام الذي يقوم بتدريس الدين اليهودي، ثم



انتقل منهم إلى النصارى فكانوا يطلقونه على القس الذي يقوم بالتدريس في الكنيسة، وتطور بعد ذلك فأطلق على درجة علمية تخصصية في الدراسات العليا في الجامعات الغربية، ومنها صدر إلى البلاد الإسلامية.

وقد وجدت اثنين من حملة الدكتوراه يسجلان هذه الحقيقة:

أولهما: الشيخ عبد الرحمٰن عميرة، فقد ذكر ذلك في أحد مؤلفاته ولم يحضرني الآن، وقد نص فيه على أن هذا اللقب كان يطلق على الحاخام الواعظ في الكنائس اليهودية، ثم تطور طورا بعد طور حتى أطلق على رتبة علمية معينة، وكان ذلك في بلاد الغرب، ثم صدر إلى بلاد الإسلام، فانشرحت له الصدور وانبسطت له النفوس، وأصبح للناشئة الطموحة هدفا لا بد من تحقيقه.

ثانيهما: الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد في كتابه **تغريب الألقاب العلمية** وكان مما جاء في هذا قوله: «إن هذا اللفظ المستورد هو في أصل إطلاقه من عدو لنا في دنيانا وآخرتنا، وقد علم من نصوص الشريعة المطهرة: أن من مباني الإيمان بغض أهل الإشراك، وعدم موالاتهم، والبعد عن التشبه بأعداء الله الكفرة، حتى في الألفاظ، وهذا اللقب من هذا القبيل. وقد أبان جمع من الكاتبين عن ذلك ومنه ما جاء في كتاب **منهج البحث الأدبي** إذ قال: (كثير من الدرجات لدى الغربيين من أصل إغريقي، أو لاتيني ثم تبناها الاستعمال الديني فكانت من مصطلحات الكنيسة ورجالها.

فالليسانس تعني في الأصل: الإجازة التي تمنح صاحبها حق أن يكون محاميا أو معلما... ثم أطلقت على السنتين اللتين يمضيهما خريج الدراسة الثانوية في دراسة اللاهوت قبل أن يقبل للدكتوراه على مقاعد الدرس.

والدكتور في الأصل هو الذي يعلم علناً وأطلقه اليهود على الرباني أو الحاخام العالم بالشريعة، وأطلقه المسيحيون على الذي يفسر الكتب المقدسة.

ودخل اللقب الجامعات لأول مرة بجامعة بولونيا فـــي إيطاليا في القرن الثاني عشر ثم تبعتها جامعة باريس بعد قليل ـ إلى أن قال: ـ ولعله بعد يتضح أن في اســـتمراء هذا اللفظ والاعتزاز به ضربا من ضروب التشبه في الظاهر، ونوع ركون في الباطن، ولا يجمل بالمسلم تكثير سوادهم.

وعن أبي ذر رضي الله عنه «من كثر سواد قوم فهو منهم»[١]، رواه أبو يعلى، وغيره.

وأقل ما في هذا الوجه من المحاكاة أنه مـــن مظاهر الذلة والضعة وتبعية المغلوب للغالب، والمســـلم مطالـــب بالعزة والأنفة من التبعيات الماســـخة المجردة من العوائد النافعة)».

ثم قال: «وأيضا فإنه من مبناه (دكتور) غربي محدث لا يمت إلى اللسان العربي بصلة، فهو أتي لا أصله له.

ففي إطلاقه نبذ للغة العرب في ســـنن كلامها، ومناحي لغتها، وغض من شأنها، فهو إذا من مواطن التخذيل، والمسلم مطالب بإحياء لغة القرآن وشد الأمة إليها وتحريرها مما يشوبها، واللغة كما يقول ابن جني: (أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم) فهل نعبر عن أغراضنا بغير لغتنا؟؟.

ويقول ابن تيمية في **اقتضاء الصراط المســـتقيم** ص٢٠٣: (إن اللسان العربي شعار الإســـلام وأهله، واللغات من أعظم شـــعائر الأمم التي بها يتميزون)» اهـ.

وبعد أن جال فـــي هذا أتبع ذلـــك كله قولـــه: «إنها ســـموم إن تجرعها المســـلمون تبدلوا الدخيل بالأصيل، والهجين بالفصيح، وصار سقط الكلام حليفا للغة القرآن». اهـ[٢]

---

(١) أخرجه الديلمي (٥١٩/٣، رقم ٥٦٢١).

(٢) بكر بن عبد الله أبو زيد: تغريب الألقاب العلمية، ص ٢٣.

وقال أيضا بعد أن أشــار إلى وجود تباين الألقاب بحســب التخصصات العلمية: «أما هذا اللقب (دكتور) فهو مضطرب الدلالة إذ يستوي في إطلاقه كل من نال هذه الرتبة النظامية من طبيب وبيطــار ولغوي وأديب وفقيه ومحدث ومهندس، وهكذا مــن كافر أو مســلم، صالح أو غير صالــح، فالرؤوس به مستوية، وإذا استوت الرؤوس فعلى الطهر والصلاح العفاء.

والتســوية من هذا القبيــل مخالفة لســنن الفطرة، وقد علــم أن الألفاظ كالمعارض للمعاني فيجب أن يكون اللفظ ملائما لمعناه وبقدره، كما يجب أن يكون الثوب ملائما للجسم المعروض فيه وبقدره». اهـ[(١)].

ولا يغني الاعتذار عن هذا بأن هذه المعلومــة ربما تكون غير ثابتة، فإن العاقل يتوقى كل ما يعاب كما قيل: (إياك وما يســبق إلى القلوب إنكاره وإن كان عندك اعتذاره) وكما قال الشاعر:

قد قيل ما قيل إن صدقا وإن كذبا ... فما اعتذارك من قــول إذا قيلا

وإذا كنا لا نجد مناصا من قبول هذه الألقاب في التخصصات العامة التي يعبر عنها بالعلوم الإنسانية، لاشــتراك الناس كلهم فيها على اختلاف مللهم وتنوع ألسنتهم، فمالنا واللقب الذي استورد من اليهود، ما بال فقهائنا ـ وهم حملة الشــريعة وتراجمة القرآن، وربابنــة الأمة وربانيوهــا، وورثة الأنبياء ـ يتنافســون فيه، ويحرصون على أن يزينوا به أســماءهم في تآليفهم وفتاواهم وخطابهم إلى الناس..!! كم كنت أود أن يربأوا بأنفســهم عن ذلك، ويترفعوا عن هذه التبعية لأمة أخبر الله أنها أشد عداوة للذين آمنوا، ليت شعري ألم يكن فيما أطلق على فقهاء الإسلام الغابرين كالعالم، والعلامة، والفقيه، والحافظ، والمفسر، والمحدث، والمتكلم، ما يغني عن ذلك؟ وإذا لم يكن اكتفاء بهذه الأوصاف كلها فإنه بإمكانهم أن يضموا إليها الأوصاف الأخرى التي تنم عن

(١) المرجع السابق، ص ١٨ ـ ٢١.

مكانة الموصوفين بها، كشيخ الإسلام، والمحقق، والإمام، وأمثالها. فكم كنا نتمنى أن يعدل في الألقاب العلمية لا سيما العلوم الشرعية عن التغريب إلى التعريب، وما هو إلا إعجام يزال من أحد الحروف فتنتهي المشكلة، ولكن لقوة نفوذ الجهة المصدرة لهذه الألقاب صار الأكثرون مع الأسف يلهثون وراءها، كأنما الشهادة التي يدل عليها اللقب تفتح باب السعادة لحاملها على مصراعيه، فيتبوأ بسبب ذلك أعظم درجات الجنان.

مع أن المسلم عليه أن يرفع هامته بإسلامه فلا يطأطئها لما يأتيه من قبل الآخرين، وكم هو حميد أن يكون الاعتزاز بالإسلام ومواريثه ديدن المسلم حتى في أمور الحياة العادية، فضلا عما يتعلق بالدين، ولله در الشيخ علي بن خلفان البيماني(١) الذي كان بشرق أفريقيا، وكان من عادة أكثر الناس هنالك أن يلبسوا معاطف لحمل أغراضهم الضرورية في مخابئها، وقد ذهب إلى خياط ليخيط له معطفا، فسأله الخياط: أتريده على الطريقة الإنجليزية أم على الطريقة الألمانية؟ فرد عليه: أولا يوجد إلا ما هو على طريقة هاتين الفئتين؟! فقال له: لا. فقال: أخرت عن هذا. وذهب إلى أهله وهو يتحسر على هذه التبعية للأمم الأخرى من قبل أمة الإسلام، فأوصى بنيه أن لا يلبسوا معطفا قط، وحذرهم أنه لن يرضى عنهم إن خالفوا وصيته هذه، وقد عهدتهم وهم خلاف غيرهم من الناس في ذلك، فقد كان معظم الناس يلبسون معاطف، أما هم فما كانوا يرضون لبسها، وما كنت عارفا بسبب ذلك حتى حدثني بهذا أحد أبنائه.

وكم كنا نتمنى من كل مسلم أن تكون في نفسه هذه العزة الإيمانية، وهذا الإباء والرفض لكل دخيل، وأولى بهذا حملة الشريعة وأعلام الأمة.

---

(١) هو أحد العُمانيين الذين ولدوا بزنجبار وكانت منيته فيها، ولكنه أتى إلى عُمان وتلقى العلم عن الشيخ العلامة راشد بن سيف اللمكي بمدينة الرستاق ـ قصرى ـ ثم رجع إلى زنجبار.

على أن الألقاب كلها لا تقدم ولا تؤخر، فنحن نجد كيف هي منزلة أصحاب رسول الله ﷺ عند فئات الأمة، مع أنهم لم يكونوا معنيين بالألقاب، ولا تذكر أسماؤهم إلا مجردة من كل لقب، وكم يهتز الإنسان إجلالا وإكبارا عندما يقال له أو يقرأ في أثر هذا هو رأي أبي بكر، أو عمر، أو عثمان، أو علي، أو ابن مسعود، أو أبي هريرة، أو أنس، أو غيرهم من الصحابة رضي الله عنهم. وكذلك التابعون لهم بإحسان فإن أولئك لعظمهم وعلو مراتبهم لم يحتاجوا إلى ألقاب يرتقون بها، وإنما أسماؤهم نفسها دالة على رقيهم وأقدارهم، وما كانت الحاجة إلى الألقاب فيمن جاؤوا من بعدهم إلا لأنهم لم يبلغوا شأو أولئك، وقد عجزوا أن يشقوا غبارهم أو يقفوا آثارهم وما هو إلا كما قيل:

وما الحليُ إلا حيلة لنقيصةٍ — تتمّم من حسنٍ إذا الحسنُ قَصَّرا
وليس لحليٍ في الجميلة منظراً — جمالٌ ولكنْ في القبيحة منظرا

وقد وجدنا كثيرا من فقهاء الأمة يكرهون أن يذكروا بما شاع من ألقابهم، وينهون عن ذلك لما يخشونه من الفتنة في ذلك، نعوذ بالله منها.

وقد تندر كثير من فقهاء العصر حتى من حملة الدكتوراه بشيوع هذا اللقب بين الفقهاء، وعدولهم إليه عما كانوا يلقبون به من قبل، فقد حكى الشيخ بكر أبو زيد عن الشيخ أحمد بن عبد الله بن محمد بن حميد أنه قال:

استبدلوا لفظ الفقيه بغيره — ومن الغريب محدثون دكاترة
والله لو علم الجدود بفعلنا — لتناقلوها في المجالس نادره[١]

هذا؛ وكم تجد في الذين حُلُّوا بهذا اللقب ففاخروا به الدنيا، وظنوا أنهم اتسعت أذهانهم لخزائن العلوم، والتطمت في صدورهم بحار المعارف، فلم تفتهم شاردة ولا واردة، من هم في البلادة وقلة الإدراك، ونضوب المعرفة

(١) بكر بن عبد الله أبو زيد: تغريب الألقاب العلمية، ص ٣١٢.

بدرجة يحار فيه معاشروهم حتى يكادوا يشكون في إنسانيتهم، ولا أنسى أن أحد هؤلاء جاء من أرض بعيدة ليروي سلطنة عُمان في بداية نهضتها الحديثة ببحار علمه، وكان ذلك في شهر رمضان من عام ١٣٩٧هـ، وكنا نجتمع لصلاة التراويح بمسجد المعهد الإسلامي الثانوي، ومعظم الطلبة في مسقط يصلون في ذلك المسجد، وكذلك النخبة من المثقفين، وكنت بعد صلاة التراويح في كل ليلة ألقي درسا على المصلين، وقد أشعرنا من قبل الجهات المختصة أن الضيف الكريم سيشرفنا في إحدى الليالي، ويشنف أسماعنا بدرس يلقيه علينا، وكنا نتشوف إلى طلعته المباركة، فانقضت الصلاة ولم يشرق علينا محياه، فبدأت في إلقاء الدرس كعادتي وإذا بطلائع مقدمه الميمون تلوح لنا، فما كان مني إلا أن أمسكت عن الدرس وقعدت مع السامعين، لأحظى بنصيب مما ينثره على الحاضرين من فرائد الفوائد، ولكن يا للخيبة؛ ما كاد يشرع في الحديث إلا وكانت الأخطاء العربية تصحب كل كلمة يفوه بها، وكان لا يأتي على آية من كتاب الله إلا وينكس كلماتها بما يحرف معانيها!! حتى تلا قوله تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ المجادلة: ١١، فرفع الفعل المجزوم ونصب اسم الجلالة!!.

وبعد أقل من ثلاث سنوات من هذا التأريخ حضرت بمكة المكرمة مؤتمرا ثانيا لوزراء الأوقاف والشؤون الإسلامية في العالم الإسلامي، تعقده رابطة العالم الإسلامي، وقد اختير من بين الحاضرين أحد وزراء الأوقاف بدولة عربية ـ ذات تأريخ عريق في العلوم العربية والشرعية، وفي إدارة دفة سياسة الأمة في العالم الإسلامي ـ ليكون مقررا عاما للمؤتمر، وعندما صنفت قراراته وتوصياته تولى حسب النظام تلاوتها على أعضاء المؤتمر، فانهالت الأخطاء مع كل لفظة يتلوها، ولما جاء إلى قوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ النساء: ٦٥، تراسلت الأخطاء تباعا كما تتساقط قطرات الماء

عندما ينهمر القطــر، وكان من أخطائه فيه أنــه قال: (يَحْكُمُــوكَ) بفتح الياء وتســكين الحاء وضم الكاف المخففة!! فجعل النبــي ﷺ محكوما من قبل المخاطبين لا مُحَكَّما!! وعندما اعترض عليه الحاضرون اعتذر إليهم بما هو أقبح من صنيعه، إذ ادعى أن هذا خطأٌ في المصحف الشريف المنقول منه.

وقد جلست بعد هذا مع الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي ـ آنذاك ـ الشــيخ/ محمد بن علي الحركان، فعتبت عليه اختياره لمثل هذا الرجل ليكون مقررا عاما للمؤتمر، وهو لا يقيم كلمة من كتاب الله، فرد علي: إنه ـ مع الأسف ـ بجانب كونه المسؤول الأكبر عن الأمور الدينية في بلده هو دكتور أيضا. فليت شعري؛ علي أي شــيء تدل هذه المواقف التي تصدر ممن يحمل هذه الشهادة الكبرى؟!.

وإذا كان ممن يحمل هذه الشهادة من هو بهذا المستوى المتدني في العلم والفهم، فإنه يجدر بأولي الفطنة والكياســة أن يربأوا بأنفسهم أن يلز بها مع هؤلاء في قرن، فالأسد يأنف أن يشترك مع الثعلب في فريسة واحدة، وقد أجاد من قال:

إذا دبَّ الذبــابُ علــى طعــامِ	رفعتُ يدي وَنَفســي تَشــتَهيهِ
وَتجتنــب الأســود ورود ماءٍ	إذا كان الــكِلاب ولغــنَ فيــهِ

ولا أنســى حضوري ـ قبل أكثر من ربع قرن مــن الآن ـ اجتماعا لأمناء الجامعة الإسلامية العالمية بباكستان (إســلام أباد) وكنت عضوا في مجلس أمنائها، وقبل انعقاد المجلس تحدث إلي بعــض الطلبة في الجامعة، وطلبوا مني أن أؤكد علــى الاعتراف بشــهادة التخرج مــن هذه الجامعــة من قبل الجامعات الأخرى، ليتمكن المتخرج فيها من مواصلة دراسته في أي جامعة كانت، ولما عرضت هذا الطلب على أعضاء المجلس عند انعقاده رد علي أحد الشيخين عبد الفتاح بركة أو عبد الفتاح الشيخ بالآتي:

«هذه الجامعة إما أن تريدوها أن تخرج لكم علماء أو أن تخرج لكم حملة شهادات، فإن أردتم أن تكون مصنعا للعلماء فلا تشتغلوا بالشهادات، فقد كان الأزهر عندنا يربي العلماء من غير عناية بالشـــهادات، فخرج فحول العلماء، وبعد العناية بالشهادات صار يخرج حملة شهادات».

هذا؛ مع أن قائل هذا الكلام هو نفسه يحمل شهادة دكتوراه، ولكنه أدلى بشهادة الحق، وكلمة الصدق.

وقد بلغ الاعتداد بهذه الشـــهادة عند الذين اســـتهوتهم أن أحدهم ـ فيما بلغني ـ طلب منه أن يقدم لمحاضرة يلقيها أحد أساتذته في المرحلة الجامعية عندما كان طالبا، لكنه رفض ذلك بسبب أن الأستاذ لا يحمل هذه الشهادة وهو أصبح يحملها!! وهذا لا يدل إلا على غرور بالغ واعتداد بما لا وزن له.

نشر العلم من القربات إلى الله:

إذا كان طلـــب العلم عبادة يتقـــرب بها إلى الله ســـبحانه، وهو كغيره من العبادات في وجوب إخلاصها له سبحانه، من غير أن يكون للنفس فيها حظ، أو يبتغى بها أي غرض آخر، فكذلك نشـــر العلم هو قربـــة وعبادة بل هو من أعظم القربات إلـــى الله ﷻ لما فيه مـــن تعميم الخير، والدعـــوة إلى الحق، وتبصير العمي، وتذكير الغافلين، فلا يسوغ أن يبتغى بنشر العلم غرض دنيوي، كالتوصل إلى الثراء أو الجاه.

ولا يسوغ احتكار العلم لما فيه من الإضرار بالدين والدنيا معا، فقد ثبت عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من ســـئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة**»[1]، وعن ابن عبـــاس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**علماء**

(١) أخرجـــه أحمـــد (٣٤٤/٢، رقم ٨٥١٤)، وأبـــو داود (٣٢١/٣، رقم ٣٦٥٨)، والترمـــذي (٢٩/٥، رقم ٢٦٤٩) وقال: حسن. وابن ماجه (٩٨/١، رقم ٢٦٦)، والحاكم (١٨٢/١، رقم ٣٤٥)، والبيهقي =

هذه الأمة رجلان رجل آتاه الله علما فبذله للناس ولم يأخذ عليه طمعا ولم يشتر به ثمنا فذلك تستغفر له حيتان البحر ودواب البر والطير في جو السماء ويقدم على الله سيدا شريفا حتى يرافق المرسلين ورجل آتاه الله علما فبخل به عن عباد الله وأخذ عليه طمعا واشترى به ثمنا فذاك يلجم بلجام من نار يوم القيامة وينادي مناد هذا الذي آتاه الله علما فبخل به عن عباد الله وأخذ عليه طمعا واشترى به ثمنا وكذلك حتى يفرغ من الحساب»[(١)].

وإذا كان هذا وعيد الذي يكتم علما، فما بالك بالذي يحتكر علما أثره ولا يرى نشره إلا بطريقة يضمن بها أن عائده المادي يرجع إليه، فكم رأينا فيما ينشر من المؤلفات بأنه لا يسمح بطبعه ولا تصويره ولا نقل شيء منه إلا بإذن خاص من المؤلف! فليت شعري؛ متى كان العلم ملكا لأحد حتى يسوغ له أن يحتكره؟! وإذا كان من يحتكر بضاعة يملكها والناس محتاجون إليها متوعدا بأشد الوعيد، حتى أنه جاء في بعض الروايات التصريح بأنه ملعون، وفي بعضها ينتظر اللعنة، فكيف بمن احتكر علما نافعا لا يملكه أحد، وإنما هو حق لكل من ينتفع به؟! فاعجب من شأن أولئك الذين يتجاهلون هذا الأمر.

وقد أصبحت هذه ظاهرة منتشرة، ولربما تسرع إليها بعض أصحاب المطابع من غير أن يأخذوا في ذلك رأي المؤلف، وهذا الذي وقع لي، فقد قدمت بعض مؤلفاتي للطبع فإذا بي أجد في أوله هذا التحذير من طبعه أو تصوير شيء منه أو نقله!! فعجبت من ذلك وأمرت أن يسحب ذلك من الكتاب فورا، وكنت أمنع أن يذكر في شيء من مؤلفاتي بأن حقوق الطبع محفوظة، ولكن شكت إلي دور النشر بأن عدم التقييد بهذا يعرضها

= في شعب الإيمان (٢/٢٧٥، رقم ١٧٤٣). ومن طريق أنس رضي الله عنه: أخرجه ابن ماجه (١/٩٧، رقم ٢٦٤). ومن طريق قيس بن طلق عن أبيه: أخرجه الطبراني (٨/٣٣٤، رقم ٨٢٥١)، وابن عدي (١/٣٥٣، ترجمة أيوب بن عتبة)، والخطيب (٨/١٥٥).

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧/١٧١، رقم ٧١٨٧).

للخسارة عندما ينشرون كتابا فتنافسهم دور أخرى في نشره، فأذنت بأن تحفظ حقوق الطبع للناشر لا للمؤلف دفعا للضرر، إذ لا ضرر ولا ضرار في الإسلام.

وقد درج السلف الصالح على نقل العلم ونشره بدون استئذان من صاحبه، ناهيك بهذه القصة التي ذكرها البدر الشماخي رَحِمَهُ اللَّهُ في **السير** قال:

«لما وفد أبو غانم بشر بن غانم الخراساني على الإمام عبد الوهاب ومعه مدونته المشهورة في الفقه التي رواها عن تلامذة أبي عبيدة وجاز على جبل نفوسة استودع عمروسا نسخة منها، وأخذ في نسخها وأخته تملي عليه، ويلازم الموضع حتى تدركه الشمس فينتقل حرصا على إحياء العلم. فما رجع بِشْر إلا وقد استكمل نسخها وهو في اثني عشر جزءا، فوجد نقطة حبر على بعض الكراريس فقال: (سرقت هذه) قال: (سماني سارق العلم)»[(١)].

فترى أن صاحب الكتاب لم يعنف ناقله بأنه نقله بدون إذنه، وإنما قال له مداعبا: (سرقت هذه)، فأجابه بقوله: (سماني سارق العلم). يعني أن هذا وصف حميد، وليس هو مما يذم، وقد كانت لفعله هذا عاقبة حسنة، فإن الإمام أبا غانم رَحِمَهُ اللَّهُ أودع كتابه هذا مكتبة المعصومة بتيهرت، وعندما أتلف الغازون تلك المكتبة تلف هذا الكتاب فيما تلف من ذخائر العلم التي كانت تحتويها تلك المكتبة، ولم تبق إلا النسخة التي نسخها عمروس رَحِمَهُ اللَّهُ، وكانت هي الأم لما نقل عنها من نسخ[(٢)].

وما أجدر حملة العلم الشريف أن يترفعوا عن المطامع فيما يؤلفون وينشرون أو يقولون ويخطبون، وأن لا يريدوا بذلك إلا إصلاح الناس، وتبصيرهم بمسالك الحق، وردهم إلى الله تعالى اضطلاعا بمهمة وراثة النبوة،

---

(١) البدر الشماخي: السير، ص ٢٢٨، المطبعة البارونية. القاهرة. مصر، ١٣٠١هـ.

(٢) المرجع السابق.

وقياما بحق الدعوة، ونشرا لتعاليم الإسـلام بين الناس، فإن العلم هو أساس الصلاح والإصلاح، وبنشره يستقيم شأن الأمة، وينجبر كسرها ويستوسق أمرها، فقد وجدنا دعاة الإصلاح والرشد يتطلعون إلى فئة تقوم بهذا الأمر، لا يعنيها إلا رضى الله سبحانه وتعالى، من غير التفات إلى زخرف الحياة الدنيا، فهذا الإمام الرباني المحقق الخليلي رضي الله عنه ـ عندما كان يفتح عينيه فيرى ليلا موحشا من الجهل والظلم والفساد، وكان يتطلع إلى فجر مشرق بالعلم والعدل والصلاح والإصلاح يبزغ بطلعة شبيبة صالحة همها إقامة دين الله تعالى ـ صاغ أمانيه هذه في قالب شعري رصين، وصف فيه الشبيبة المنشودة بما وصفها به من صفات الزكاء وطهارة النفس وسموها، وترفعها عن حطام الدنيا، وكان مما قاله في ذلك:

ألا تنجلي يا ليل عن صبح فتية ... كرام بهم قد رد للعدل يوشعُ

تظاهر أنواع المعالي عليهم ... وألوية العز الجلاليّ ترفعُ

أشداء يوم البأس في حومة الوغى ... ذوو رحموت بينهم لا تقطعُ

شراة لدين الله بيعت نفوسهم ... وما لهم في غير ذلك مطمعُ

قد انتبدوا في نصرة الله فأعتلت ... بهم غرر الدين الحنيفي تسطعُ

وجوه هدى شم الأنوف مشايخ ... لربهم قد اخبتوا وتضرعوا

مخابيت أحبارٍ رواسي تبتلٍ ... نحورهم للحلم والعلم موضعُ

بهم تشرق الدنيا ويستوسق العلا ... وتستمطر الأنواء والغوث أجمع

كأن مثاني ذكرهم في تهجد ... مزامير داود بها قد تسجعوا

كأن بهم من نشوة أذن عاشق ... تتوق لما يشدوا حبيب ممنعُ

كأن الثكالى منهم في نياحةٍ ... وأوصالهم من خيفة تتخلعُ

كأن حطام الأرض من لحم ميتةٍ ... فهم عنه في عليائهم قد ترفعوا

كأن من الشهد المصفى لقاءهم ... لسيدهم يوماً ألحوا وأسرعوا

كأن المنايـا منيـةً لقلوبهـم ... فما كاد يثنى القوم بالحتف مصرع
تراهـم إذا ما كان يـوم كريهة ... أسود شرىً بالمرهفات تدرعوا
أساطين في يوم اللقا لا تهولهم ... بروق وغىً فيها الشجاع مروعُ
يخوضون دأماء المنايا بواسماً ... كأنهـم في جنـة الخلـد رتعُ
قد اطّرحوا لبـس الدروع كأنها ... لهم من زكيات المناصب أدرعُ

فانظر كيف وصفهم بأنهم ينظرون إلى حطام الأرض نظرتهم إلى جيفة عفنة، فهم يترفعون عنها إباء وشـمما، وقد سـلك هذا المسـلك تلميذه العملاق العلامة أبو مسـلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في دعوته الأمة إلى الصلاح والإصلاح، ووصفه رواد ذلك والسـعاة إليه بما وصفهم به من العـزوف عن الدنيا، ورغبتهم في الدار الآخرة، وبيعهم نفوسـهم رخيصة في سبيل الله تعالى، وكان مما قاله في ذلك:

إن يشرف الناس في الدنيا بثروتهم ... فثـروة القوم إخـلاص وإيقان
لله مـا جمعـوا لله مـا تركـوا ... لله إن قربـوا لله إن بانـوا
أزكى الصنيعين ما كان الهدى معه ... لديهم وله في الحـق رجحان
تراهم في ضمير الليل صيرهم ... مثل الخيالات تسـبيح وقرآن

ثم قال:

لم تلههم زهرة الدنيا وزخرفها ... إذ همهم صالـح يتلوه رضوان
باعـوا بباقية الرضـوان فانيهم ... كأن لـذة هـذا العيـش أوثان
وقف على السنة البيضاء سعيهم ... وفي الجهادين إن عزوا وان هانوا
ما زايلت خطوة المختار خطوتهم ... ولا ثنى عزمهم نفس وشيطان
فجاهدوا واستقاموا في طريقته ... عزومهم لصـروح الدين أركان
وسـلطوا بحـدود الله حكمهم ... حتى استقام لحكم الله سلطان

إلى أن قال:

في الذب عن حرمات الله شأنهم	لا شـــأن دنياهم نيـــل وحرمان
رضوا ببلغة محياهم على حذر	منهـــا كأنهـــم بالبلغـــة اختانوا
سيما التعفف تكسوهم جلال غنى	فالقلب في شبع والبطن خمصان
سمت الملوك وهدى الأنبياء على	أخلاقهم فـــكأن الفقـــر تيجان
تمثلت لهم الدنيـــا فما جهلوا	حقيقة الأمـــر أن العيش ثعبان
جازوا الجسور خفاف الحاذ وقرهم	زهد وخوف وإصبار وشـــكران
فاز المخفون من دار الغرور فلا	خوف عليهم ولا بالقوم أحزان
مضـــوا وآثارهم نـــور وذكرهم	رحمى ومضجعهم روح وريحان

وقد أبدع أمير البيان الشـــاعر الخليلي عندما وصف حامل الشـــريعة بما يجب أن يكون عليه من أوصاف، وكان مما وصفه به قوله:

لا ينظـــر الدنيا بعيـــن الطامع	ولا يدانيهـــا بقلـــب خاشـــع
ولا يهـــون لعزيـــز فيهـــا	لـــو أنـــه عـــز علـــى أهليهـــا
ترفعـــت عـــن الحطام نفســـه	فلـــم يرعـــه ســـعده ونحســـه

وعليه؛ فكم نتمنى أن يتحلى جميع حملة الشـــريعة بهذه الأوصاف، وأن يجعلوا معارفهم ينابيع متدفقـــة يردها كل الناس ليرووا بهـــا غلتهم من غير احتكار لشيء منها، حتى يعم الخير عندما ينهل كل أحد من هذه المناهل بيسر لا تســـدهم عنها حواجز تحول بينهم وبين الانتفاع بها، فبهذا ينتشـــر العلم ويتسلســـل في كل الأجيال يحمله الخلف عن الســـلف، كما قال النبي ﷺ: «**يحمل هذا العلـــم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريـــف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين**»[1]، وقد أمر النبي ﷺ بنقل العلم إلى من لم يكن

(١) من طريق إبراهيم بن عبد الرحمٰن العذري: أخرجه البيهقي (٢٠٩/١٠، رقم ٢٠٧٠٠)، وابن عساكر (٣٨/٧) وأخرجه أيضا: العقيلي (٢٥٦/٤، ترجمة ١٨٥٤ معان بن رفاعة السلامي). ومن طريق =

عنده، فقد قال: «**نضر الله عبدا سمع مقالتي فوعاها وحفظها ثم أداها إلى من لم يسمعها فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه**»(١)، وقال: «**بلغوا عني ولو آية**»(٢)، وكيف يتحقق البــلاغ عندما توضع الحواجز ويحجر على الإنسان أن ينقل ما يجده من العلم مدونا، ويحجر عليه حتى تصويره؟! والله المستعان.

= إبراهيم بن عبد الرحمٰن العذري: أخرجه البيهقي (٢٠٩/١٠، رقم ٢٠٧٠١)، وابن عساكر (٣٨/٧)، وعزاه الحافظ في اللسان (٧٧/١، ترجمة ٢١٠ إبراهيم بن عبد الرحمٰن) لابن عدي. ومن طريق أسامة: أخرجه ابن عساكر (٣٩/٧). ومن طريق أنس: أخرجه ابن عساكر (٢٢٥/٥٤). ومن طريق ابن عمر: أخرجه الديلمي (٥٣٧/٥، رقم ٩٠١٢). ومن طريق أبي أمامة: أخرجه العقيلي (٩/١).

(١) من طريق جبير بن مطعم: أخرجه أحمــد (٨٠/٤، رقم ١٦٧٨٤)، والدارمي (٨٦/١، رقم ٢٢٨)، وأبو يعلى (٤٠٨/١٣، رقم ٧٤١٣)، والطبراني (١٢٦/٢، رقم ١٥٤١)، والحاكم (١٦٢/١، رقم ٢٩٤) وقال: صحيح على شــرط الشــيخين. ومن طريق زيد بن ثابت: أخرجه أبــو داود (٣٢٢/٣، رقم ٣٦٦٠)، وابــن ماجه (٨٤/١، رقم ٢٣٠)، والطبرانــي (١٥٤/٥، رقم ٤٩٢٥). ومن طريق ابن مسعود: أخرجه الترمذي (٣٤/٥، رقم ٢٦٥٨)، وابن ماجه (٨٥/١، رقم ٢٣٢). والحميدي (٤٧/١، رقم ٨٨). ومن طريق أبي الدرداء: أخرجه الدارمي (٨٧/١، رقم ٢٣٠). ومن طريق أبي قرصافة: الطبراني في الأوسط (٢٥٦/٣، رقم ٣٠٧٢). وفي الصغير (١٨٩/١، رقم ٣٠٠). ومن طريق جابر: أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٧٢/٥، رقم ٥٢٩٢).

(٢) أخرجــه أحمــد (١٥٩/٢، رقم ٦٤٨٦)، والبخــاري (١٢٧٥/٣، رقم ٣٢٧٤)، والترمذي (٤٠/٥، رقم ٢٦٦٩) وقال: حســن صحيح. وابن حبان (١٤٩/١٤، رقم ٦٢٥٦). وأخرجه أيضا: الدارمي (١٤٥/١، رقم ٥٤٢)، والقضاعي (٣٨٧/١، رقم ٦٦٢)، والديلمي (٩/٢، رقم ٢٠٨١).



المحور الخامس

في العلاقات الاجتماعية وبناء الأسرة الصالحة

ما أحوج الإنسان إلى العلاقات الاجتماعية الحسنة، التي تشد الإنسان إلى غيره من بني جنسه، على أساس متين من تقوى الله تعالى واتباع وصاياه، وأساس النجاح في هذه العلاقات العفة والترفع عن الرذيلة والفحشاء، فإن الإنسان لم يخلق هملا ولم يترك سدى يلهو ويلعب ويرتع كما يهوى، وإنما خلق ليضطلع بأمانة وينوء بتكاليف ويسير على هدى في كل ما يأتي وما يذر.

وبما أن الإسلام هو دين الفطرة، فإن أحكامه وتعاليمه جميعا قائمة على المحافظة على الفطرة الزكية وتهذيبها وتخليصها وتنقيتها مما عسى أن يشوبها من شوائب الهوى، فلذلك يبني العلاقات كلها على العفة والطهارة، فإن الله يحب المطهرين، طهارة الظاهر والباطن والروح والجسم والحس والمشاعر، فلذلك شرع أحكاما شتى تتعلق بهذه الجوانب.

الاستئذان أنس وستر:

مما شرع لأجل هذا الاستئذان، فليس لإنسان أيا كان أن يندفع إلى مسكن غيره أو يرسل نظره إلى ما بداخله من غير استئذان؛ حتى تطمئن القلوب وتهدأ النفوس وتصان المشاعر والأحاسيس من أن تشاب بشائبة مما يكدر صفوها، وهو ينقسم إلى نوعين:



النوع الأول: الاستئذان العام

الذي يشمل عموم طبقات الناس على اختلاف أحوالهم، فإن هذا الاستئذان لا يتقيد بوقت ولا بحالة، فهو مطلوب من الصغير والكبير والذكر والأنثى في جميع الأحوال، وهو الذي يعنيه قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۞ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ النور: ٢٧ ـ ٢٨، فليس لأحد أن يغشى بيت غيره ولو كان جاره أو قريبه أو صديقه وحميمه إلا بهذا الاستئذان الشرعي الذي يترتب عليه الاستئناس، لأن الدخول بدونه لا يتبعه إلا الاستيحاش سواء من الداخل أو المدخول عليه.

أما الداخل: فإن الشعور بالوحشة يسري في نفسه بإحساسه أنه آذى وأزعج أهل الدار، بدخوله عليهم واطلاعه بدون إذنهم على ما يحرصون على ستره عن الأعين، فإن للبيوت عورات يجب أن تستر وتصان.

وأما المدخول عليه: فإن الوحشة تسري في نفسه بهذا الدخول المفاجئ، وكثيرا ما ينحرج باطلاع الداخل على ما يخبئه من أسراره بيته وخصوصيات أسرته.

النوع الثاني: الاستئذان الخاص

وهو الذي يستأذنه أطفال أهل البيت والذين ملكت أيمانهم، فإن هؤلاء يُتَسَامَح ـ لأجل الضرورة ـ أن يدخلوا البيوت التي يتربى فيها هؤلاء الأطفال، ويقوم فيها المماليك بخدمة أصحابها ولو لم يستأذنوا إلا في ثلاثة أوقات يشرع لهم الاستئذان فيها لأن دخولهم بدونه كثيرا ما تكون عاقبته حسرة وندامة، بسبب ما قد يترتب عليه من اكتشاف العورات والاطلاع على الأسرار الخفية بين الأزواج في البيوت، وقد بين الله تعالى ذلك في قوله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ النور: ٥٨، وفي هذه الأوقات الثلاثة لا يسوغ لملك اليمين الدخول على الملاك أصحاب البيوت إلا بالاستئذان الشرعي، وكذلك الأطفال يجب أن يلتزموا الاستئذان فيها من حين تفتح مداركهم واستيعابها لهذا الواجب الأُسْري.

وقد يتساهل بعض الناس في أمر الاستئذان بسبب علاقة القربى أو غيرها من العلاقات، أو إن كان الداخل من الخدم الذين يقومون بأعمال البيوت، وهذه مخالفة لشرع الله تعالى الذي فرض الاستئذان من أجل الطهر، طهر النفوس والبيوت والأحاسيس والمشاعر، وقد بين النبي ﷺ أن الاستئذان إنما شرع من أجل حفظ البصر، كما ثبت عن النبي ﷺ في قوله: «**إنما جعل الاستئذان من أجل البصر**»[(١)]، وبهذا يتبين أن من استأذن وهو مقابل لباب البيت فحكمه كمن لم يستأذن إذ قد يسبق بصره فيطلع من عورات البيوت على ما يحرص أصحابها على ستره، ولأجل هذا تسقط حرمة من فعل هذا، إذ لا فرق بينه وبين من اقتحم البيت بدون استئذان، فلو رماه صاحب البيت بشيء وأصاب منه ما أصاب لم يحاسب على ذلك كما هو واضح في حديث سهل بن سعد: أن رجلا اطلع من جحر في دار النبي ﷺ، والنبي ﷺ يحك رأسه بالمدرى فقال: «**لو علمت أنك تنظر، لطعنت بها في عينك، إنما جعل الإذن من قبل الأبصار**»[(٢)].

---

(١) أخرجه أحمد (٣٦٨/٥، رقم ٢٣١٧٦) قال الهيثمي (٤٣/١): رجاله كلهم ثقات أئمة. وأخرجه أيضا: البخاري في الأدب (٣٧٢/١، رقم ١٠٨٤)، وأبو داود (٣٤٥/٤، رقم ٥١٧٧)، والنسائي في الكبرى (٨٧/٦، رقم ١٠١٤٨).

(٢) أخرجه والبخاري (١٦٤/٧، رقم ٥٩٢٤) ومثله بلفظ آخر عند أحمد (٣٣٠/٥، رقم ٢٢٨٥٤)، ومسلم (١٦٩٨/٣، رقم ٢١٥٦)، والترمذي (٦٤/٥، رقم ٢٧٠٩)، وقال: حسن صحيح.

ومن آداب الاستئذان أن لا يلح المستأذن على الدخول فإن لم يؤذن له فليرجع، كما ثبت في الحديث الذي رواه أبو موسى وأبي بن كعب وأبو سعيد رضي الله عنهم أن النبي ﷺ قال: «**الاستئذان ثلاثة فإن أذن لك وإلا فارجع**»(١).

وهذا مما يجب على الناس أن يكيفوا وفقه تعاملهم فيما بينهم وأن يحملوا على ذلك أولادهم في تربيتهم على الآداب الشرعية، وجميع الآداب المألوفة المخالفة لهذه التعاليم يجب تجنبها.

الاحتراز من الخلوة بين المرأة والرجل من أهم الضرورات:

ومن أهم الآداب الاجتماعية التي تصون الأسر من المشكلات وتحفظها من أسباب التداعي والتفكك رعاية الحرمات بين الذكور والإناث، وعدم التساهل تعللا بعلاقة نسب أو صهر، لأن الجاذب الفطري في كل من الذكر والأنثى نحو الآخر جاذب قوي، كثيرا ما يتوسل به الشيطان فيتوصل به إلى إشاعة الفحشاء وإسقاط النفوس في الرذائل وتجريدها مما قد تكون من قبل مصونة به من العفة والفضيلة فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال سمعت النبي ﷺ يقول: «**لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم**»(٢)، وقد بين ﷺ علة هذا النهي فيما ثبت عن عمر رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**ألا لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان**»(٣)، فإن الشيطان يغري النفوس باتباع الشهوات فينسى كل من الرجل

---

(١) حديث أبي موسى وأبي سعيد: أخرجه مسلم (١٦٩٥/٣، رقم ٢١٥٣)، والترمذي (٥٣/٥، رقم ٢٦٩٠) وقال: حسن. ومالك (٩٦٣/٢، رقم ١٧٣٠)، وحديث أبي بن كعب: أخرجه مسلم (١٦٩٦/٣، رقم ٢١٥٤).

(٢) أخرجه الطبراني (٤٢٥/١١، رقم ١٢٢٠٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٦٨/٤، رقم ٥٤٣٨)، والبخاري (١٠٩٤/٣، رقم ٢٨٤٤)، ومسلم (٩٧٨/٢، رقم ١٣٤١).

(٣) أخرجه الشافعي (٢٤٤/١)، والطيالسي (ص ٧، رقم ٣١)، والحميدي (١٩/١، رقم ٣٢)، وأحمد (١٨/١، رقم ١١٤)، والحارث كما بغية الباحث (٦٣٥/٢، رقم ٦٠٧)، وعبد بن حميد (ص ٣٧، رقم ٢٣)، والترمذي (٤٦٥/٤، رقم ٢١٦٥) وقال: حسن صحيح غريب. وأبو يعلى (١٣١/١، =

والمرأة ربه سبحانه والدار الآخرة، وما أعد الله تعالى فيها لمن أطاعه من النعيم المقيم ولمن عصاه من عذاب الجحيم.

وقد بين ﷺ خطر دخول الرجل على المرأة ولو كان يمت إليها بصلة فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إياكم والدخول على النساء**» قيل: أفرأيت الحمو؟ قال: «**الحمو الموت**»[(١)]، وناهيك بهذا تحذيرا بالغا وإنذارا شديدا بخطر دخول الرجل على المرأة وإن كانت بينه وبينها صلة إن لم يكن لها محرما، فقد شبه الرسول ﷺ حما المرأة ـ وهو أخو زوجها ـ بالموت إذا دخل عليها لخطورة دخوله عليه وعليها، فقد ينسيه الشيطان ما يجب عليه من رعاية حرمة أخيه في أهله عندما تغلبه شهوته، وكذلك ينسيها ما يجب عليها من حفظ زوجها في نفسها وماله إن غاب عنها، فتقود كل واحد منهما شهوته إلى هتك هذا الحمى المحظور، وإلى الوقوع في هذه القذارة الشهوانية.

ومثل ذلك إن كانت أخت امرأته أو بنت عمه أو بنت عمته أو بنت خاله أو بنت خالته أو حليلة عمه أو خاله أو بنت أخي امرأته أو أختها، فكم اطلعنا على دواهي دهياء وقع فيها الناس بسبب هذا التساهل وعدم المبالاة بما فرض الإسلام من آداب وقيود أخلاقية في التعامل بين الأسر.

= رقم ١٤١)، وابن حبان (٢٣٩/١٦، رقم ٧٢٥٤)، والدارقطني في العلل (٦٥/٢، رقم ١١١)، والحاكم (١٩٧/١، رقم ٣٨٧) وقال: صحيح على شرط الشيخين. والبيهقي (٩١/٧، رقم ١٣٢٩٩). وأخرجه أيضا: النسائي في الكبرى (٣٨٨/٥، رقم ٩٢٢٥)..

(١) أخرجه أحمد (١٥٣/٤، رقم ١٧٤٣٤)، والبخاري (٢٠٠٥/٥، رقم ٤٩٣٤)، ومسلم (١٧١١/٤، رقم ٢١٧٢)، والترمذي (٤٧٤/٣، رقم ١١٧١) وقال: حسن صحيح. وأخرجه أيضا: النسائي في الكبرى (٣٨٦/٥، رقم ٩٢١٦)، وابن أبي شيبة (٤٨/٤، رقم ١٧٦٥٩)، والطبراني (٢٧٧/١٧، رقم ٧٦٢)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩٠/٧، رقم ١٣٢٩٦)، وفي شعب الإيمان (٣٦٨/٤، رقم ٥٤٣٧).

ومما نجم ـ من الشر المستطير أخيرا ـ التواصل عبر وسائل الاتصال بين الجنسين الذي يبدأ بادئ ذي بدء اتصالا بريئا لا يشاب بما يدنسه فلا يلبث الشيطان أن يجر كل واحد من الجنسين إلى الشغف بالجنس الآخر، وقد يخيل إليهما أو إلى أحدهما أن الدافع إليه حب الخير والتعاون على نشر الدعوة الإسلامية، وتبادل الخبرات بين الطرفين، فلا تلبث الشهوات الجامحة والنزوات الطائشة أن تُهوِّن التقارب بين الجانبين خطوة منه وخطوة منها، إلى أن يقعا في دركات الرذيلة والعياذ بالله.

وقد تبدأ الفكرة بالرغبة في التعارف من أجل بناء علاقة زوجية مقدسة، وإذا بهما يُسْتَدْرَجَان شيئا فشيئا حتى يتورطا ورطة لا يجدان المخلص منها، وقد يبدي الرجل مع المرأة حديثا عفيفا وهو يخفي وراء شخصيته الصالحة الظاهرة، شخصية ذئب مفترس لا هم له إلا أن يفري بأنيابه عفة المرأة ويدنس بقذارته طهرها، وقد يدفع ذلك به إلى أن يلقى الموت الزؤام في سبيل شهوة النفس وهواها، كما قال إمامنا السالمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفتنة الناس على الأزمان	أكثرها من شهوة النسوان
فكم صريع للغواني قتلا	وكان بالنفس شحيحا أبخلا
تقوده شهوته فيطمع	في امرأة وهو عليها يصرع
يا عجبا من هذه الأحوال	أين العقول معشر الرجال؟!

وهي أيضا قد تخسر حياتها مع خسرانها لأعز ما تملكه في هذه الحياة من العفة والطهارة والسمعة الطيبة.

وبجانب هذا؛ فإن تفنن المرأة فيما يغري الرجل على الفحشاء له دور كبير في إيقاد هذه الفتنة المستعرة، وما أحسن ما قاله في هذا الداعية الكبير الشيخ العلامة محمد متولي شعراوي عندما وجه خطابه للمرأة المسلمة التي قلدت نساء الغرب في أزيائها ومظاهرها، وبين عاقبة هذا كله في قوله:

قصــرت أكماماً وشــلت ذيولا … هلا رحمت إهابــك المصقولا
أسئمت من برد الشتاء سجونه؟ … فطلبت تحرير المصيف عجولا
وخطــرت تحت غلالة شــفافة … في فتنة تــدع الحليــم جهولا
محبوكة لصقت بجســم مشرق … دفعتــه فورتــه فبــان فصــولا
هل قصر الخدان في صرعاهما … أم كان طرفك في الطعان كسولا؟
حتى استعنت على القلوب بمغمد … وجعلت جســمك كله مسلولا
ألححت في عرض الجمال وغرك الـ … أغــرار لمّــا أســمعوك فضولا
من نال منك رضاً فأنت ملاكه … ومن انتهرت قسا فكان عذولا
صوني قداسة ما وهبت وحاذري … أن تبتغــي بعد الهــوي حلولا
واسمي بعرضك فالمضلل فورة … وإن اهتدى عبثــا يضل وصولا
شــاهدت ضليلا يطــارد غادة … فنهرتــه حنقــا فقــال خجولا
أبغــي البناء بها فقلــت مداعبا … هل كان بــاب وليهــا مقفولا
فرنا ولم يرها فجــن وقال لي … أبعثــت فينــا يا غيور رســولا
لم يبق لــي أرب فما يضطرني … حتى أكــون مكلفا مســؤولا؟
قــل للفتــاة الغــر هــذا حبه … إن بــان ملتاعــا وذاب ميــولا
يلقاك كالحمــل الوديع مضللا … فــإذا تمكن منك أمســى غولا

وما أحسن هذا التحذير للفتاة المســلمة من الاغترار بمظاهر الحضارة الغربية، والتقليد الأعمــى لها، والانســياق وراء زخرفها، ونســيان القيم والفضائل التي تصون المرأة وفطرتها الزكية، وما أبلغ تحذيره لها من حَمَل لا يلبث أن يتحول إلى غول أغول، فكم لهذا من شاهد بين فيما اطلعنا عليه من واقع الفتيات اللاتي غرر بهن، فكن ضحايا هذا التغرير، فكأين من فتاة غريرة نصب لها شاب طائش أرعن شباكا من كلماته المعسولة الواعدة، التي هي أرق من نسيم السحر، وأهنأ من الماء الفرات، وأطيب من الزهر الفواح

بروضة غناء باكرها قطر الندى، فـازدادت نضارة وطيبا، حتى أسـر قلبها الذائب عندما تخيلته فارس أحلامها الأوحد وبطل آمالها المسدد، فاعتقدت أنها ستجد عنده نعيمها وخلدها، فما كان منها إلا أن أسلست له قيادها وسلمته نفسها، فإذا به يتحول إلى ذئب مسعور لا يرق لضحيته، ولا يزيده تضرعها وبكاؤها إلا قسوة وضراوة، إذ لا هم له إلا أن ينشب أنيابه ومخالبه في أي ضحية يتمكن منها، وإلى أرقم أقرع لو نفث نفثة من سمه في محيطات البحار لأودى بكل ما في سطحها وأعماقها، وتحولت إلى بحار ميتة، فغدت تلك الضحية تتقطع ألما وتذوب ندما، ولات ساعة مندم، بعدما رزأها في أعز ما تملك وأغلى ما تدّخر، ولربما خلف في أحشائها جنينا يزعجها بما تحسه في صمته وسكونه من أنينه وعويله للمستقبل الأسود الذي ينتظره، فإما حياة كلها تعاسة وشقاء وعنت وبلاء واحتقار وازدراء وإما وأدٌ في مصحات الإجهاض.

وقد لا يكفيه أن يرزأها عرضها ويدوس شرفها بل قد يرزؤها حياتها، وكل ما عسى أن تملك من مال.

فلست أنسى تلك الفتاة التي ألحت على أن تفضي إلي بسرها، الذي كانت تكنه بين حنايا صدرها، وتبثني همومها المؤرقة، وتعرض علي مشكلتها المعقدة المستعصية، ومأساتها البالغة المحزنة، وقد أزاحت الستار عن سرها المعمى التي لم تطلع عليه أقرب قرابتها وأخص خاصتها، وهي أنها تحقق لها حلم أن تجد وظيفة تغدق عليها ريعا سخيا، وكان من بين زملائها شاب مظهره الطِّيْبُ والوَدَاعَة، وهو يحمل بين جنبيه قلب سبع فتاك، فأظهر لها حبا عميقا وإخلاصا بالغا، وبسط لها من الآمال بساطا نثرت عليه ورود فواحة، فتخيلته أنه أملها الوحيد، حتى نسيت حنان أبيها الحاني ولطف أمها الرؤوم، فاستدرجها إلى أن رزأها في عفتها وشرفها، وتبين لها فيما بعد أنه مصاب بمرض فقدان المناعة المكتسب وقد نقل إليها هذا الداء العضال، ولم يكتف

بهذا بل كانت عرضة لتهديده بأنه سيفضحها ويقدم ضدها شكوى بأنها هي التي نقلت إليه هذا الداء، إلا إن عوضته بمبلغ هائل اضطرت أن تقترضه من مصرف ربوي، فلم تجد إلا أن تستكين له وتستجيب لجشعه، إذ المرأة غالبا تكون أسيرة الضعف وعرضة الابتزاز والاحتيال، وظلت غير قادرة على البوح بسرها، وهي تكدح في عملها وكل ما ينتج عنه يلتهم بألسنة النار الموقدة في أتون المعاملة الربوية المشؤومة، وأهلها يسألونها عن راتبها الشهري الذي كانوا يعلقون عليه آمالهم ويسيل من أجله لعابهم، وإذا بهم لا يجدون منه شروى نقير، وهي غير قادرة أن تبوح لهم بما يقضقض حيزومها، ويقض عليها مضجعها ويطير بلبها، فقد أصبحت بين نيران ملتهبة، فهي لم تعد تطمح أن تكون ربة بيت وأن تسعد بزواج وأمومة، فإن علتها التي نقلها إليها ذلك السبع الكاسر تحول دون ذلك، كما أنها لم تعد تستفيد من عملها شيئا، ولا تستطيع أن تفيد به أسرتها.

وطلبت مني المخرج من هذه الأزمة الخانقة وهذه الحفرة المظلمة المدلهمة، فأشرت إليها أن تتحلى بالشجاعة وأن تواجه ذلك المجرم بالتهديد بأنها قادرة على رفع دعوى ضده إن لم يرد إليها ما رزأها من المال على الأقل، فأجابتني بأن حاجز القدر يحول دون ذلك، فقد اخترمه ريب المنون قبل أن تأتيني بعامين، وتحول من حيث يمكن أن يحاسب من المخلوقين إلى حساب من لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، ليلقى جزاءه الأوفى، حيث تجزى كل نفس بما كسبت، فأجبتها أن لا حلَّ إلا بيد الله تعالى الذي يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، فعليها أن تتوب إليه توبة نصوحا، وتعقد عزمها أن لو استقبلت من أمرها ما استدبرت لم تقبل على شيء يخالف أمره ونهيه.

وقد عجبت من أحوال ذلك السبع الكاسر كلها، وإن كنت لا أدري من أي أحواله أكون أشد عجبا..!!.

فكم عجبت من قسوته البالغة وقلبه المتحجر، الذي لم تعرف الرحمة إليه سبيلا، إذ لم يكتف أن يرزأ ضحيته هذه في عرضها وشرفها، وفي حياتها بنقل هذا الداء العضال إليها، وحيلولته دون أن تستمتع في حياتها بزواج سعيد وذرية تقر بها عينها، وإنما رزأها بجانب ذلك في جهد عملها بهذا الابتزاز الذي تركها تكدح فيما تبقى من حياتها من غير أن يعود الكدح إليها بعائد.

هذا؛ بجانب ما خلفه في نفسها من هموم ووساوس تنتابها في ليلها ونهارها، فتؤرق ليلها وتزعج نهارها خشية الفضيحة بين أهلها ومجتمعها.

كما عجبت من كون ذلك المجرم لم يرحم نفسه ولم يفكر قط في مصيره، فإذا كان الإنسان في صحته ونعمته قد ينسى المنقلب إلى الله لما يبطره من نعمة الله التي تبعد عنه شبح نقمته، فما بالك بهذا الإنسان الذي يرى الموت الزؤام بين ناظريه، وينتظره في غدوه وعشيه بما يسري في جسمه من أثر داء عضال ما له من دواء إلا المنون، فكيف لم يرحم نفسه ويتب إلى ربه ويصلح من حياته ما أفسده شيطانه ونفسه الأمارة بالسوء؟؟! وإنما استمر في تحميل نفسه أوزارا تلو أوزار لو ناءت ببعضها السماوات والأرض لتبددت وهوت إلى غير قرار..!! ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ الانفطار: ٦ ـ ١٩.

وإنما يدل هذا على أن الإنسان عندما يفقد الإيمان يغدو أضرى من السبع الجائع وأقسى من الصلدم الصلد، ولا يكاد يفيق من سكرة غروره إلا عندما يلقى مصيره المحتوم، ولات ساعة مندم، فقد ذكرت لي هذه الضحية المبتزة أن جزارها عندما أحاطت به نذر الموت وكشر له عن أنيابه العصل، وبدأت

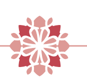
مخالبه تنشب في أوصاله، اتصل بضحيته طالبا الصفح عنه، ظانا أنه بذلك يمكنه تدارك أمره، وأنى له التدارك ولسان حال القضاء المحتوم يناديه تبكيتا وتقريعا: ﴿ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ يونس: ٩١، ونذير الوعيد يهتف به: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ الأنعام: ١٥٨، كيف وقد كان هذا عندما أبصر العاقبة التي كان في غفلة عنها: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ ق: ٢٢؟؟.

وكم لهذه القصة من نظائر؛ فما أكثر الذئاب الكاسرة التي تظهر في صور البشر وتلبس لبوسهم وتتظاهر بعطفهم وحنانهم وطيب مشاعرهم ونبل شعورهم، وكم من ضحية في الخفاء تفريها أنياب هذه الذئاب؟؟!! ولو تكشفت هذه الأستار لأذهلت العقول وحيرت أولي الألباب، ولكن وإن عظمت العبرة وجلت الذكرى فهل من معتبر أو مدكر؟! فإن الفتيات يتساوقن إلى حتفهن بهذا السباق المحموم إلى الوظائف في الميادين المشتركة بين الذكور والإناث، وأولياؤهن يزجون بهن في هذه المخاطر طمعا في لعاعة من الكسب وراء وظائفهن، ولا يبالون بالعرض والشرف والغيرة والحمية، وإنما كل ذلك يداس بالأقدام في سبيل تحقيق المنافع الوهمية التي تخدع الطامعين.

ولست بناس ما قرأته قبل ما يقرب من عقدين من السنين في رسالة بعثت بها إلي إحدى الفتيات، تذكر أن أباها زج بها في عمل بغابة فيها أكثر من عشرة من الذئاب المسعورة وهي الأنثى الوحيدة بينهم، وكل واحد منهم يعرض عليها أن يقضي وطره منها، ونفسها الأمارة بالسوء تميل إلى ذلك استجابة لداعي الفطرة الملح، ولكنها تكابر النفس والشيطان، وتقاوم من حولها من الذئاب البشرية التي هي أخطر من الذئاب الحيوانية، وتذكر أنها في أشد الحاجة إلى زوج يعفها، ولكن أباها الجشع المنهوم يأبى أن يزوجها من أجل ما يستأثر به من راتبها، فعجبت من هذه الأبوة التي لا ينتج عنها إلا هذه

القسوة، ولا تفكير لها في كرامة أو عرض أو شرف!! وإنما حصر تفكيرها في الطمع الدنيء، وقد أرْسَلتُ آنذاك رسالة إلى الآباء عبر الإذاعة المرئية في برنامج **سؤال أهل الذكر**، دعوتهم فيها إلى الادكار والاستبصار والشفقة على أفلاذ أكبادهم ورياحين قلوبهم، من الدفع بها إلى أن تكون ضحايا أطماعهم وشهوات هؤلاء المسعورين الذين يلزون بها نحوهم.

وأكرر الآن هذه الرسالة عبر هذه الكلمات راجيا أن تصل إلى كل أب وأم بل وإلى كل فتاة، وأن تصل إلى المسؤولين الذين أطالبهم بإلحاح أن يتقوا الله، وأن يعطوا هذه المسؤولية حقها، وأن يفكروا في الحساب العسير بين يدي الله سبحانه والجزاء الأوفى عنده، فلا يدعوا ميادين العمل أو مؤسسات الدراسة غابات لاصطياد هذه الضحايا وافتراسهن من قبل أولئك المتنمرين، وذلك عندما يجمعون بين النار والوقود، أو بين الظباء والأسود، وأن يؤطروا وظائف الجنسين في الإطار الشرعي مراعين تعاليم الإسلام، وقيود شرعه الحنيف فيما يتعلق بالرجل والنساء، سواء في الأعمال أو في مجال التعليم مستبصرين بهدي القرآن الكريم، الذي يطبع أخلاق الرجل وأخلاق المرأة بطابع الفضيلة والعفة والوقار، فقد أدب الله تعالى الرجال بهذا الأدب الرفيع عندما قال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ النور: ٣٠، ثم عطف العنان على النساء فأحاط عفتهن بحائط سميك من الآداب والفضائل عندما قال: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ النور: ٣١.



وليس هذا إلا تكريما للمرأة وحفاظا على قدرها الرفيع وشـرفها العالي، ولذلك بدأ الله في هذا بأطهر بيت وأقدسه، وهو بيت النبوة عندما قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ الأحزاب: ٥٩، فقد بدأ الله تعالى في هذا الخطاب بأزواج النبي ﷺ وثنى ببناته وثلث بنساء المؤمنين، وعلل ذلك بأن في هذا تجنيبا لهن من أذى السفهاء والأوغاد، وبَيَّنَ في هذا السياق أن هذه التعاليم تؤجج سعيرا في قلوب المنافقين، لأنها لا تروق لهم ولا تنسجم مع شهواتهم، إذ أتبع ذلك قوله: ﴿ لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ۝ مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا ۝ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾ الأحزاب: ٦٠ ـ ٦٢، وكفى بهـذا دليلا أن كل من لم ترق له هذه التعاليم الربانية فهو من فريق المنافقين والذين في قلوبهم مرض.

وأنتم تـرون كيف خص الله تعالـى أمهات المؤمنين بفـرض المبالغة في الاحتياط عندما يتعاملن مع الرجال ـ مع ما لهن من قدر عند كل مؤمن، إذ كل منهم يغار على حرماتهن ويقدر مكانتهن أكثر مما يكون ذلك في حق أمه التي ولدته تعظيما لمقام النبـي ﷺ ورعاية لحرماته ـ فقد شـدد الله تعالى خطابهن بقوله: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ۝ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴾ الأحزاب: ٣٢ ـ ٣٣.

وإذا كان هـذا الخطـاب في حـق أمهـات المؤمنين وهن فـي مجتمع المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسـان، الذين كانت تنضح دخائلهم بالتقوى، وتشرق على علانيتهم أنوار الإيمان التي تشع من أعماق سرائرهم،

فما بالك بسائر النساء في أزمنة شاعت فيها الفحشـاء، ومجتمعات فاح فيها نتنها حتى أزكـم الأنوف ولم يكد يشـم فيها للعفة شـميم، أولا تكون هذه المجتمعات في هذه الأزمنة أولى بالاحتياط وعـدم التهاون في عواقب هذه الأمور، والكل يرى بأم عينيه ما نتج عن هذا التهاون من بلاء، وما استشـرى بسببه من داء أصاب طبيعة الإنسانية في الصميم؟؟.

وإنما ألفة الناس للفسـاد والانحراف غيرت طباعهم وعطلت حواسهم، فأصبحوا يسـتطيبون نتن الخبائث، ويعافون طيب الطيبـات كالجعلان التي تستروح وتنتعش بالأرجاس وتنكمش وتموت بشـم العطور، وهذا يعني أن الناس بحاجة إلى دورة تردهم إلى الفطرة التي شـطوا عنها، وترجع بهم إلى المنهج السوي الذي انحرفوا عنه.

وأخطر ما في الأمر هو انقلاب الموازين وانتكاس المقاييس، فقد أصبح المعروف منكرا والمنكر معروفا، والباطل حقا والحق باطلا، لأن الناس يتلون القرآن للتسلي والطرب لا للتدبر والعظة والعرفان، فكم لنداء القرآن في هذا من هدير يصـخ الآذان، ولكن الناس صمـوا فلم يعد لهذا النـداء الهادر أثر عليهم، لأن نفوسهم مالت إلى ضجيج الباطل وصخبه فأسرها بزينته وزخرفه.

وقد خيل إليهم أنهم بهذا يصعدون معارج الرقي ويؤمون مقامات التقدم، لأنهم ظنـوا أن الأمم التي أصبحـت بيدها الصـول والطـول وصلت إلى ما وصلت إليه بالتخلي عن قيود الفضيلة والأخلاق والتجرد من حلية الآداب والشـرف، فهان عليهم دينهم ومروءتهم، بـل لم يفكروا حتـى في النخوة والشهامة التي كان عليها الآباء والأجداد.

وقبيـح بنـا وإن قـدم العهـ ـد هـوان الآبـاء والأجـداد

ولسـت الآن بصدد شـرح ما تعانيه هذه الأمم المتقدمة بسبب التفسخ والميوعة من انحلال الروابط الاجتماعية، وتفكك الأسر، وانحطاط الإنسان

إلى دركات أدنى مما عليه الحيوان، فإن ذلك أمر يطول شرحه، وشواهده بينة مما فاهت به ألسنة هؤلاء الذين يعانون هذه المعاناة وسجلته أقلامهم، فلا أعجب إلا من طبيب كان واجبه أن يعالج المرضى بما أوتيه من مهارة في الطب ودراية بالعلاج ووفرة في الدواء، ولكنه بدل أن يقوم بهذا ينقل أمراض المرضى إلى نفسه، فأمة الإسلام تحتاج إليها الأمم لشفاء أسقامها وتقويم اعوجاجها بما آتاها الله من بصيرة القرآن وهدي النبي ﷺ، ولكن بدلا من ذلك أصبحت ترتكس فيما ارتكست فيه الأمم، لا تلوي على صوت القرآن الذي يرن في جنبات الوجود، ولا على نوره الذي يشعشع في آفاق الكون.

من أعظم المصائب جشع الآباء وحرمانهم بناتهم من حقهن الفطري والمالي:

وكم تكون المصيبة في جشع الآباء وحرصهم على الاستئثار برواتب بناتهم وخشيتهم أن تفوتهم عندما يزوجونهن، فلا يجدون سبيلا لتحقيق مآربهم إلا بعضلهن عن الزواج، فيغدون صما بكما عميا، لا يسمعون موعظة ولا تنفعهم عبرة، لا يبالون إذا أتتهم بناتهم وقد أثقلت أرحامهن أجنة حملنها من هنا وهناك، حيث الاختلاط في العمل ووجود الفرصة للخلوة بالزملاء في أماكن غير محصورة، وما هؤلاء الآباء الذين طمست المطامع أبصارهم وبصائرهم إلا آفات المجتمع وجراثيمه الفتاكة التي تسري في جسمه فتتفشى فيه الأوباء التي لا تبقي ولا تذر، وقد عمي هؤلاء وصموا عن زواجر القرآن الذي يحذر إيما تحذير من عضل الأولياء لمولياتهم عن تحقيق رغبتهن في الزواج، ويؤكد أن العضل لا يكون ممن يؤمن بالله واليوم الآخر كما في قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ٢٣٢، فإن هؤلاء لا يهمهم الزكاء والطهر، وإنما همهم معقود بما يجنونه من المال ولو جنوه بظلم مركب من حرمان بناتهم من حقوقهن المالية

والفطرية والاجتماعية، فهم لا يبالون أن ينغمســوا في الرجس ويرتكسوا في الفجور إن تحقق لهم هذا المطلب، ووصلوا إلى هذا الغاية.

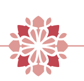
وقد يتمثل جشــعهم في حرصهم على المهور الغالية التي ترهق الشباب فتحول بينهم وبين مبتغاهم من الحياة الزوجية التي هي سبب لعفة الجنسين، مع ما يتبع هذه المهور من تكاليف الزواج التي تأتي على طارف المال وتليده، وهذه الظاهرة جديرة بأن تتضافر الجهود الرســمية والشعبية من أجل القضاء عليها، ليتنفس الشباب والفتيات جميعا الصعداء عندما يتمكنون من الاستجابة للداعي الفطري الملح بطريقة سليمة، لا إثم فيها ولا خزي ولا عار، فلا بد من حملة توعية واسعة النطاق بالعلاج الحاســم لهذا الداء العضال، تعزز وتدعم بقرار قضائي يضع حدا لكل جشع جاشع أو عادة متفشية فاسدة.

هذا؛ وقد تكون المشــكلة في طموح الأولياء إلى أن تكــون بناتهم في عصمة رجال لهم مناصب مرموقة وثروات طائلة، ولا يلتفتون إلى جانب الدين والأخلاق، مع أن النبي ﷺ دعا إلى أن يكون الاختيار لصاحب الدين والخلق، كما روي من طريق أبي هريرة أن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض**»[(١)].

واجب الآباء والأمهات في صون أبنائهم وبناتهم من هذه المخاطر:

لا يخفى على لبيب أن الفطرة الســوية تأبى على كل أب حان وأم رؤم أن يزجا بابنتهما في هذه المخاطــر، وأن يخليا بينها وبين الغــرق في بحارها أو الحرق بنارها فإنها بهذا تكون عرضة لهتك العرض وسلب الحياة وابتزاز المال، فضلا عن الوقوع في فضائح يتلطخون جميعا بعارهــا، وهذا يعني أنهم يجب

(١) أخرجه الترمذي (٣/٣٩٥، رقم ١٠٨٥)، والطبراني في أوسطه (٧/١٣١ رقم: ٧٠٧٤)، ومن طريق أبي حاتم المزني أخرجه الطبراني في كبيره (٢٢/٢٩٩ رقم: ٧٦٢)، والبيهقي في السنن الكبرى (٧/١٣٢ رقم: ١٣٤٨١) والصغرى (٣/١٠ رقم: ٢٣٥٢).



عليهم أن لا يلتفتوا إلى مطمع ولا غيره في سبيل صون بناتهم وأعراضهن من التدنس بهذه القاذورات.

ومع هذا فإن عليهم أن لا يهملوا أبناءهم من رعاية تصون عفتهم، وتحوط حياتهم من الأخطار، فكم من أبوين رزئا بابنهما في ريعان عمره وزهرة شبابه بسبب الإهمال، فقد يقع الشباب في مغبة موحشة مدلهمة بسبب نزقهم وطيشهم ومغامراتهم الغرامية، إذ كثيرا ما تدفعهم شهواتهم الدنيئة إلى الاندفاع قدما حيث لا يجدون إلا الموت الزؤام؛ بسبب حرص بعض الأسر على أعراضهم أن تهتك، ولا يبالون في سبيل ذلك بسفك دم أو غيره.

ولربما قررت بعض الفتيات أن يثأرن لأعراضهن بعد تمزيق أديم عفتهن بأنياب وأظافر الذئاب المسعورة من البشر، وليس بغريب أن يثأر غزال ـ أثخنه الجراح ـ من مفترسه، ولو كان أسدا هصورا أو ذئبا مسعورا، ففي أضابير الجنايات تدور قضية في هذه الأيام مفادها أن شابا غريرا استطاع بحيله أن يجر إليه فتاة في أول بلوغها الحلم، وتمكن بما بسطه لها من بساط الحلم السعيد، ونثره لها من فواغي أماني المستقبل الزاهر الفواحة أن يوقعها في الشباك، فواقعها مصورا بهاتفه وقائع هذا الحدث المشؤوم، وأخذ يبتزها بعد ذلك ليكرر جريمته ضاغطا عليها بتهديده إياها أنها إن لم تطاوعه فضحها بنشر ما بيده من صورها، فلما أفاقت قررت أن تنتقم منه، فدعته في هزيع من الليل إلى البيت الذي تأويه، فلما أتاها طالبته بمسح جميع الصور من هاتفه، فسخر من هذه المطالبة وأصر على المضي قدما في ابتزازها وإذلالها، وكانت قد أخفت سكينا عندها، فما كان منها إلا أن طعنته طعنات ذهبت بأنفاسه، وقد أفادني بتفاصيل هذه القضية محاميها.

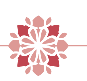
وفي هذا ما يدعو الآباء والأمهات جميعا أن يصونوا أولادهم ذكورا وإناثا من الوقوع في هذه المزالق، وركوب هذه الأخطار، وأن لا تأخذهم استهانة بهذه

العواقب، فإنهم إن لم يدركوا مرارتها قبل أن يذوقوها، فسوف يدركونها بعد أن تغص بها حلاقيمهم، وتتفجر بآثارها حيازيمهم، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

انتشار عادات سيئة في معاملة النساء:

كم تفشى في الحياة الزوجية من عادات ذميمة ما أنزل الله بها من سلطان، ونصوص القرآن تأباها ولكــن الهوى غلب على النــاس فأعماهم عن هداية القرآن، وهداية الســنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، فرسخت فيهم عادات في العشرة الزوجية وفي الطلاق يبرأ منها الله ورسوله، فلا يخفى أن الحياة الزوجية شــركة بيــن الزوجين لأن كلا منهما ربــط مصيره بمصير الآخر، لا سيما المرأة التي أسلســت للرجل قيادها وسلمت إليه زمامها، فهو المسؤول عنها، وعليه أن يقوم بحسن رعايتها، والحقوق بينهما مشتركة، فلكل منهما على الآخر مثل ما عليه له.

وإنما يتميز الرجل بدرجة القوامة وهذا ما نص الله عليه في قوله: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ البقــرة: ٢٢٨، فهي شــريك للرجل تستحق منه ما يستحق منها، وليست القوامة التي اختص بها دونها إهانة لها أو وســيلة له إلى أن يســتعبدها ويذلها، وإنما هي حكمة ربانية ناشئة عن علمه تعالى بفطرته وفطرتها، فالمرأة جياشة المشاعر، سريعة الانفعال، تطغى عليها العاطفة إن هاجت، فتتحكم فــي كلا جانبي دماغها، ولا تكــون قادرة على التفكير، بخلاف الرجل، فإنه وإن هاجت عاطفته تشغل جانبا من دماغه ويبقى الجانب الآخر صالحا للتفكير، فلذلك جعلت القوامة بيده لأنه الربان الماهر القادر على توجيه ســفينة العشــرة الزوجية في الخط الملاحي الســليم بين العواصف الهوجاء والأمواج المتلاطمة الناشــئة عن العواطــف الرعناء، فلو كانت القوامة بيدها وسُــلِّمَتْ مقود الســفينة لتحطمت بين هياج العواصف وتلاطم الأمواج قبل أن تقطع أي مسافة.



وهب أن الطــلاق كان بيدها فإنها لا يؤمن أن تطلــق الرجل لأي خلاف يعرض، وتعض بعد ذلك على بنان الندم، ولا ريب أن الرجل الذي اختصه الله بهذه الدرجة هو حريٌ بأن يرعــى خصائص المرأة الفطريــة، فلا يندفع إلى التفاعل مع عواطفها وعواطفه إن ألم بها طائف مما يكون بينهما من شــقاق وخلاف، فعليه أن يتفادى الطلاق وسعه، كما سنبين ذلك إن شاء الله.

وقد بين الله سبحانه أن العشرة بين الزوجين يجب أن تكون عشرة وئام وود وحنان ورحمة، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ الروم: ٢١، لذلك كان على الرجل أن يعاشــرها بالمعروف، كما أن عليه ـ إن اقتضى الأمر تســريحها لدواعي لا بد منها ـ أن يسرحها بالإحسان كما نص عليه قوله ســبحانه: ﴿ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ البقرة: ٢٢٩، فإن أمسك فعليه أن يتفادى كل منكر في علاقته بها، وإن سرحها تجنب كل إساءة في تسريحها.

وقد بين الله سبحانه ما ينوء به الرجل من مسؤولية كبرى تجاه امرأته، وأن الرابطة الزوجية تجمع بينهما حتى تكاد تذوب هوية كل واحد منهما فلا تبقى له هوية مســتقلة، وإنما يندمجان في هوية واحدة، كما هــو واضح في قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ النســاء: ٢١، إذ لم يقل: وقد أفضيتم إليهن، لينبه على أن كلا منهما عليه أن يحس بمشاعر الآخر، وأن يقدر عواطفه وأن يرعى هواجسه وخواطره حتى تصفو الحياة بينهما، ويكون قلباهما كقلب واحد، يتدفقان جميعا حبا وانســجاما ورحمة وحنانا، فلا يكون من أحدهما تجاه الآخر إلا البر والإحسان، ثم أتبع ذلك بيان ما ينوء به الرجل من واجب اجتماعي مقدس في حق أهله يســأل عنه بين يدي ربــه، إذ أتبع ذلك قوله: ﴿ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ النساء: ٢١.

ليت شعري؛ ما هو الميثاق الغليظ الذي لفت الله تعالى انتباه الرجال إليه، وذكرهم بوجوب رعايته؟ ذكر القرطبي أن «فيه ثلاثة أقوال. قيل: هو قوله عليه السلام: «**فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله**»[(١)]، قاله عكرمة والربيع.

الثاني: قوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ البقرة: ٢٢٩، قاله الحسن وابن سيرين وقتادة والضحاك والسدي.

الثالث: عقدة النكاح قول الرجل: نكحت وملكت عقدة النكاح، قاله مجاهد وابن زيد. وقال قوم: الميثاق الغليظ الولد. والله أعلم»[(٢)].

ولا ريب أن كل من ذلك عهد موثق ومسؤولية كبرى، ما كان للرجل أن يتهاون بها إن كان يرجو الله واليوم الآخر، وحكى صاحب **المنار** عن شيخه الإمام محمد عبده: «أن هذا الميثاق الذي أخذه النساء من الرجال لا بد أن يكون مناسبا لمعنى الإفضاء في كون كل منهما من شؤون الفطرة السليمة، وهو ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ الروم: ٢١، فهذه آية من آيات الفطرة الإلهية هي أقوى ما تعتمد عليه المرأة في ترك أبويها، وإخوتها، وسائر أهلها، والرضا بالاتصال برجل غريب عنها تشاركه السراء والضراء، فمن آيات الله تعالى في هذا الإنسان أن تقبل المرأة بالانفصال من أهلها ذوي الغيرة عليها، لأجل الاتصال بالغريب، تكون زوجا له ويكون زوجا لها تسكن إليه ويسكن إليها، ويكون بينهما المودة والرحمة أقوى من كل ما يكون بين ذوي القربى، فكأنه يقول: إن المرأة لا تقدم على الزوجية وترضى بأن تترك جميع

---

(١) أخرجه عبد بن حميد (ص٣٤١، رقم ١١٣٥) ومسلم (٨٨٦/٢، رقم ١٢١٨) وأبو داود (١٨٢/٢، رقم ١٩٠٥)، وابن ماجه (١٠٢٢/٢، رقم ٣٠٧٤).

(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ١٠٣/٥.

أنصارها وأحبائها لأجل زوجها إلا وهـــي واثقة بأن تكون صلتها به أقوى من كل صلة، وعيشـــتها معه أهنأ من كل عيشـــة، وهذا ميثاق فطـــري من أغلظ المواثيق، وأشـــدها إحكاما، وإنما يفقه هـــذا المعنى الإنســـان الذي يحس إحساس الإنسان، فليتأمل تلك الحالة التي ينشـــئها الله ـ تعالى ـ بين الرجل وامرأته يجد أن المرأة أضعف من الرجل، وأنها تقبل عليه تسلم نفسها إليه، مع علمها بأنه قادر على هضم حقوقها، فعلى أي شيء تعتمد في هذا الإقبال والتسليم؟ وما هو الضمان الذي تأخذه عليه، والميثاق الذي تواثقه به؟ ماذا يقع في نفس المرأة إذا قيل لها: إنك ســـتكونين زوجا لفلان. إن أول شـــيء يخطر في بالها عند سماع مثل هذا القول، أو التفكر فيه، وإن لم تسأل عنه هو أنها ســـتكون عنده على حال أفضل من حالها عند أبيها وأمها، وما ذلك إلا لشيء استقر في فطرتها وراء الشـــهوة، وذلك الشيء: هو عقل إلهي، وشعور فطري أودع فيها ميلا إلى صلة مخصوصة لم تعهدها من قبل، وثقة مخصوصة لا تجدها في أحد من الأهل، وحنوا مخصوصا لا تجد له موضعا إلا البعل، فمجموع ذلك هو الميثاق الغليظ الذي أخذته من الرجل بمقتضى نظام الفطرة الذي يوثق به ما لا يوثق بالكلام الموثق بالعهود والأيمان، وبه تعتقد المرأة أنها بالزواج قد أقبلت على سعادة ليس وراءها سعادة في هذه الحياة، وإن لم تر من رضيت به زوجا، ولم تسمع له من قبل كلاما، فهذا ما علمنا الله تعالى إياه، وذكرنا به ـ وهو مركوز في أعماق نفوسنا ـ بقوله: إن النساء قد أخذن من الرجال بالزواج ميثاقا غليظا، فما هي قيمة من لا يفي بهذا الميثاق، وما هي مكانته من الإنسانية؟» اهـ[١].

قلت: إن الفطرة هي أساس شـــرع الله تعالى، إذ لم يكن الإسلام في فكره الرصين وحكمه العادل وخلقه الرفيع إلا استجابة لداعي الفطرة، فما هو مركوز في الطباع من ميل المرأة إلى الرجل ـ مع ما طبعـــت عليه من الضعف تجاه

(١) محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ٤/٣٧٧.

قوته ـ وميل الرجل إلى المرأة إذ لا يمكن أن يستغني عنها مع ما وهبه الله من خصائص فطرية، وقوى عقلية وبدنية، هو أساس ما شرع من الأحكام في كتاب الله تعالى، وسنة نبيه عليه أفضل الصلاة والسـلام، وهو أن لا يمسك الرجل المرأة إلا بالمعروف، ولا يسرحها إلا بالإحسان، ولا يعاشرها إلا بما يرضي ضميره ويريح بالها، فلا تجد في جانبه إلا البر والإحسـان والعطف والحنان والرحمة والمـودة، وما نبه عليـه النبي ﷺ من أن الرجل أخذهـا بأمانة الله، واستحل فرجها بكلمته، فعليه أن يتقي الله ويكون لها وفيا.

على أن عقدة النـكاح بين الزوجين تنـزل كل واحد منهمـا منزلته في المسؤولية، فالرجل عليه أن يراعيها، والمرأة عليها أن تطيعه بالمعروف، وأن تسعى دائما إلى إرضائه وإراحة قلبه وقالبه، وإن من مراعاته لها أن لا يغمطها شيئا من حقوقها المادية أو المعنوية، وأن لا يشاكسـها فيما أخذت عليه من الشروط، فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفروج**»[1].

ومن حقوقها المادية أن يوفر لها سـكنا لائقا بها وما تحتاج إليه لطعامها وكسوتها وعلاجها وسائر نفقاتها الضرورية والحاجية، ومن حقوقها المعنوية أن يراعي مشاعرها، ولا يخاطبها إلا بما يريح بالها ويطيب نفسها من الكلام الحسن، ويقدر أهلها ويرعاها فيهم.

والرجال يتفاوتون في فضائلهم وفواضلهم بحسـب أعمالهم وأخلاقهم، ومما يدخل في ذلك معاملتهم لأهلهم وهذا ما دل عليه حديث النبي ﷺ الذي

(١) أخرجه أحمد (١٥٠/٤، رقم ١٧٤٠٠)، والبخـاري (٩٧٠/٢، رقم ٢٥٧٢)، ومسـلم (١٠٣٥/٢، رقم ١٤١٨)، وأبـو داود (٢٤٤/٢، رقم ٢١٣٩)، والترمـذي (٤٣٤/٣، رقم ١١٢٧) وقال: حسـن صحيح. والنسائي (٩٢/٦، رقم ٣٢٨١)، وابن ماجه (٦٢٨/١، رقم ١٩٥٤)، وابن حبان (٤٠٢/٩، رقم ٤٠٩٢)، وأخرجه أيضا: الروياني (١٥٦/١، رقم ١٧٥)، والطبراني (٢٧٤/١٧، رقم ٧٥٢).

جاء عنه من عدة طرق بلفظ: «**خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي**»(١)، وقد جاء من طريق الإمام علي كرم الله وجهه أنه ﷺ قال: «**خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي ما أكرم النساء إلا كريم ولا أهانهن إلا لئيم**»(٢)، ولا يخلو إسناده من مقال، ولكن معناه يعتضد بما عرف من هديه ﷺ من إكرام نسائه وإحسانه إليهن ولطفه في معاملتهن، وهو سيد الكرماء، وعنوان الفضلاء بل يعتضد ذلك بوصايا القرآن، فكم وصى بالرفق بهن وحسن معاشرتهن، ناهيك قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ النساء: ١٩، فهو يدعو الرجال إلى أن يتكيفوا في معاشرة النساء مع ما أمروا به من المعروف، ولو تأصلت في نفوسهم كراهتهن، إذ لعل الله يجعل الخير فيما كرهوا، واختلف في معنى ذلك: «فتارة فسر الخير الكثير بولد يحصل فتنقلب الكراهة محبة، والنفرة رغبة وتارة بأنه لما كره صحبتها ثم إنه يحتمل ذلك المكروه طلبا لثواب الله، وأنفق عليها وأحسن إليها على خلاف الطبع، استحق الثواب الجزيل في العقبى والثناء الجميل في الدنيا»(٣).

وقال البقاعي: «وإن ﴿كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ فلا تبادروا إلى المضاجرة أو المفارقة، واصبروا عليهن نظراً لما هو الأصلح، لا لمجرد الميل النفسي، فإن الهوى شأنه أن لا يدعو إلى خير ثم دل على هذه العلة بقوله: ﴿فَعَسَىٰٓ﴾ ولوضوح دلالتها على ذلك صح جعلها جواباً للشرط»(٤).

---

(١) أخرجه من طريق عائشة الترمذي (٧٠٩/٥، رقم ٣٨٩٥) وقال: حسن غريب صحيح. وابن حبان (٤٨٤/٩، رقم ٤١٧٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤١٥/٦، رقم ٨٧١٨). والدارمي (٢١٢/٢، رقم ٢٢٦٠)، ومن طريق ابن عباس أخرجه ابن ماجه (٦٣٦/١، رقم ١٩٧٧)، وابن سعد (٢٠٥/٨)، ومن طريق عبدالله بن شداد: أخرجه ابن سعد (٢٠٥/٨)، ومن طريق أبي هريرة: أخرجه الخطيب (١٣/٧).

(٢) أخرجه ابن عساكر (٣١٢/١٣).

(٣) الرازي: التفسير الكبير، ١٣/١٠.

(٤) البقاعي: نظم الدرر، ٢٢٥/٥.

وقال السيد رشيد رضا: «﴿فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ﴾ لعيب في الخلق، أو الخلق مما لا يعد ذنبا لهـن: لأن أمره ليس في أيديهن، أو التقصير في العمل الواجب عليهن في خدمة البيت، والقيام بشؤونه، مما لا يخلو عن مثله النساء وكذا الرجال في أعمالهم، أو الميل منكم إلى غيرهن، فاصبروا ولا تعجلوا بمضارتهن، ولا بمفارقتهن، لأجل ذلك فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا، فهذا الرجاء علة لما دل عليه السياق من جزاء الشرط، ومن الخير الكثير بل أهمه وأعلاه الأولاد النجباء، فرب امرأة يملها زوجها ويكرهها، ثم يجيئه منها من تقر به عينه من الأولاد النجباء فيعلو قدرها عنده بذلك، وقد شاهدنا، وشاهد الناس كثيرا من هذا، وناهيك به: ﴿رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾ الفرقان: ٧٤.

نعم الإله على العباد كثيرة وأجلهن نجابة الأولاد

ومنها أن يصلح حالها بصبره، وحسن معاشرته، فتكون أعظم أسباب هنائه في انتظام معيشته، وحسن خدمته لا سيما إذا أصيب بالأمراض، أو بالفقر، والعوز، فكثيرا ما يكره الرجل امرأته لبطره بصحته، وغناه، واعتقاده أنه قادر على أن يتمتع بخير منها، وأجمل، فلا يلبث أن يسلب ما أبطره من النعمة، ويكون له منها إذا صبر عليها في أيام البطر خير سلوى، وعون في أيام المرض، أو العوز، فيجب على الرجل الذي يكره زوجه أن يتذكر مثل هذا ويتذكر أيضا أنه لا يخلو من عيب تصبر امرأته عليه في الحال، غير ما وطنت نفسها عليه في الاستقبال»[1].

وقال العلامة ابن عاشور: «أعقب النهي عن إكراه النساء والإضرار بهن بالأمر بحسن المعاشرة معهن، فهذا اعتراض فيه معنى التذييل لما تقدم من النهي، لأن حسن المعاشرة جامع لنفي الإضرار والإكراه، وزائد بمعاني إحسان الصحبة.

(١) محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ٣٧٥/٤.

والمعاشرة مفاعلة من العشرة وهي المخالطة، قال ابن عطية: وأرى اللفظة من أعشار الجزور لأنها مقاسمة ومخالطة، أي فأصل الاشتقاق من الاسم الجامد وهو عدد العشرة. وأنا أراها مشتقة من العشيرة أي الأهل، فعاشره جعله من عشيرته، كما يقال: آخاه إذا جعله أخا.

أما العشيرة فلا يعرف أصل اشتقاقها. وقد قيل: إنها من العشرة أي اسم العدد وفيه نظر. والمعروف ضد المنكر وسمي الأمر المكروه منكرا لأن النفوس لا تأنس به، فكأنه مجهول عندها نكرة، إذ الشأن أن المجهول يكون مكروها ثم أطلقوا اسم المنكر على المكروه، وأطلقوا ضده على المحبوب لأنه تألفه النفوس. والمعروف هنا ما حدده الشرع ووصفه العرف.

والتفريع في قوله: فإن كرهتموهن على لازم الأمر الذي في قوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ﴾ وهو النهي عن سوء المعاشرة، أي فإن وجد سبب سوء المعاشرة وهو الكراهية. وجملة فعسى أن تكرهوا نائبة مناب جواب الشرط، وهي عليه له فعلم الجواب منها. وتقديره: فتثبتوا ولا تعجلوا بالطلاق، لأن قوله: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا ...﴾ النساء: ١٩ يفيد إمكان أن تكون المرأة المكروهة سبب خيرات فيقتضي أن لا يتعجل في الفراق.

و(فَعَسَىٰٓ) هنا للمقاربة المجازية أو الترجي. ﴿أَن تَكۡرَهُواْ﴾ ساد مسد معموليها، ويجعل معطوف على تكرهوا، ومناط المقاربة والرجاء هو مجموع المعطوف والمعطوف عليه، بدلالة القرينة على ذلك.

وهذه حكمة عظيمة، إذ قد تكره النفوس ما في عاقبته خير فبعضه يمكن التوصل إلى معرفة ما فيه من الخير عند غوص الرأي. وبعضه قد علم الله أن فيه خيرا لكنه لم يظهر للناس. قال سهل بن حنيف، حين مرجعه من صفين «اتهموا الرأي فلقد رأيتنا يوم أبي جندل ولو نستطيع أن نرد على رسول الله أمره لرددنا. والله ورسوله أعلم». وقد قال تعالى في

سورة البقرة: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡ ﴾ البقرة: ٢١٦.

والمقصود من هذا: الإرشاد إلى إعماق النظر وتغلغل الرأي في عواقب الأشياء، وعدم الاغترار بالبوارق الظاهرة. ولا بميل الشهوات إلى ما في الأفعال من ملائم، حتى يسبره بمسبار الرأي، فيتحقق سلامة حسن الظاهر من سوء خفايا الباطن» اهـ[١].

وقال المفكر الإسلامي الأستاذ سيد قطب: «وهذه اللمسة الأخيرة في الآية، تعلق النفس بالله، وتهدئ من فورة الغضب، وتفثأ من حدة الكره، حتى يعاود الإنسان نفسه في هدوء وحتى لا تكون العلاقة الزوجية ريشة في مهب الرياح. فهي مربوطة العرى بالعروة الوثقى. العروة الدائمة. العروة التي تربط بين قلب المؤمن وربه، وهي أوثق العرى وأبقاها.

والإسلام الذي ينظر إلى البيت بوصفه سكناً وأمناً وسلاماً، وينظر إلى العلاقة بين الزوجين بوصفها مودة ورحمة وأنساً، ويقيم هذه الآصرة على الاختيار المطلق، كي تقوم على التجاوب والتعاطف والتحاب..

هو الإسلام ذاته الذي يقول للأزواج: ﴿ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ النساء: ١٩..

كي يستأني بعقدة الزوجية فلا تفصم لأول خاطر، وكي يستمسك بعقدة الزوجية فلا تنفك لأول نزوة، وكي يحفظ لهذه المؤسسة الإنسانية الكبرى جديتها فلا يجعلها عرضة لنزوة العاطفة المتقلبة، وحماقة الميل الطائر هنا وهناك..

وما أعظم قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرجل أراد أن يطلق زوجه «لأنه لا يحبها».. «ويحك! ألم تبن البيوت إلا على الحب؟ فأين الرعاية وأين التذمم؟»..

---

(١) ابن عاشور: التحرير والتنوير، ٢٨٦/٤.

وما أتفه الكلام الرخيص الذي ينعق به المتحذلقون باسم «الحب» وهم يعنون به نزوة العاطفة المتقلبة، ويبيحون باسمه ـ لا انفصال الزوجين ـ وتحطيم المؤسسة الزوجية ـ بل خيانة الزوجة لزوجها! أليست لا تحبه؟! وخيانة الزوج لزوجته! أليس أنه لا يحبها؟! وما يهجس في هذه النفوس التافهة الصغيرة معنى أكبر من نزوة العاطفة الصغيرة المتقلبة، ونزوة الميل الحيواني المسعور. ومن المؤكد أنه لا يخطر لهم أن في الحياة من المروءة والنبل والتجمل والاحتمال، ما هو أكبر وأعظم من هذا الذي يتشدقون به في تصور هابط هزيل.. ومن المؤكد طبعاً أنه لا يخطر لهم خاطر..

الله.. فهم بعيدون عنه في جاهليتهم المزوّقة! فما تستشعر قلوبهم ما يقوله الله للمؤمنين: ﴿فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ النساء: ١٩.

إن العقيدة الإيمانية هي وحدها التي ترفع النفوس، وترفع الاهتمامات، وترفع الحياة الإنسانية عن نزوة البهيمة، وطمع التاجر، وتفاهة الفارغ!» اهـ[1].

وهذه كلها قبسات اقتبسها المفسرون من أنوار القرآن، وإرشادات استمدوها من فيضه الثجاج، وهي ـ بلا ريب ـ هادية إلى النهج السليم في العشرة الزوجية حتى لا تكون عرضة لأن تزعزعها العواطف الرعناء، والنزوات الطائشة، فعلى الرجل أن يوطن نفسه، لأن تكون راسخة رسوخ الجبال الشم في نظرها وتفكيرها في العواقب، فلا تزلزلها الرواجف ولا تزعزعها العواصف، ولا يضيق بها التفكير عندما تجمح بها مؤثراتها، وإنما يتسع تفكيرها للماضي والحاضر والمستقبل، ويجمع بين الدنيا والآخرة.

وفوق ذلك كله يقوم على مراعاة مرضاة الرب سبحانه وتعالى والثقة بأمره ونهيه والتعويل المطلق على وعظه وتذكيره، فعليه أن يرعى في عشرته لأهله ما سبق

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن، ٦٠٦/١.

من إحسانها، وما يمكن أن يحتاج إليه في المســتقبل من برها ورعايتها، وما عســى أن يأتيه من قبلها مما تقر به عينه ويكون له زينة في حياته وامتدادا له بعد وفاته، وأن يســتذكر دائما ما أخذته منه من الميثــاق الغليظ، فلا يعجل باتخاذ قرار يخســر بســببه خيرا كثيرا، وقد يندم عليه في المســتقبل حيث لا يجديه الندم، ولا يمكن أن يرد إليه ما فات.

هذا؛ وكما أن النبي ﷺ كان قدوة للرجال في حسن معاشرة الأهل واتساع صدره لما عسى أن يجده في بعض الأحوال من أخطائهن أو مشاكستهن، فإنه كذلك كان حريصا على توجيه الرجال الوجهة الحســنة في ذلك لتعود على الأسرة بالطمأنينة والاســتقرار، ولتضفي عليها مزيدا من المودة والرحمة كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**استوصوا بالنساء خيرا فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيرا**»[(١)]، ومثل ذلك ما سبق ذكره من قوله ﷺ: «**اتقوا الله في النساء**»[(٢)]... الحديث.

وكان مما قاله في خطبته بحجة الوداع: «**ألا واستوصوا بالنساء خيرا فإنما هن عوان عندكم، ليس تملكوا منهن شيئا غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع واضربوهن ضربا غير مبرح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ألا وإن لكم على نســائكم حقا ولنسائكم عليكم حقا، فأما حقكم على نسائكم فلا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وإن حقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن**»[(٣)].

(١) أخرجه البخاري (١٢١٢/٣، رقم ٣١٥٣)، ومســلم (١٠٩١/٢، رقم ١٤٦٨). والنسائي في الكبرى (٣٦١/٥، رقم ٩١٤٠).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٧٣/٥، رقم ٣٠٨٧)، والنسائي في الكبرى (٤٤٤/٢، رقم ٤١٠٠)، وابن ماجه (١٠١٥/٢، رقم ٣٠٥٥).

وبين ﷺ أن الزوجين إن التقيا على الإيمان كان إيمانهما جاذبا لهما إلى التواد والتراحم والتعاطف، لأن جاذبية العقيدة الصحيحة والعمل الصالح والإخلاص لله في القول والعمل لا تعادلها جاذبية في الربط بين القلوب واستلال سخائمها وأحقادها، وإذابة كرهها وشنآنها، وهو أمر مطلق بين الناس، كما دل عليه ما رواه النعمان بن بشير عنه ﷺ أنه قال: «**ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى**»(١).

وإذا كان هذا فيما بين عموم المؤمنين جميعا، فما بالك إذا كان الود الإيماني مقرونا بالود العاطفي الزوجي، الذي يصهر الزوجين حتى تغدو نفساهما كنفس واحدة في وحدة المشاعر والأحاسيس، وانسجام الميول والرغبات؟! لهذا بين ﷺ أنه ليس من شأن المؤمن أن يفرك مؤمنة ـ أي يبغضها ـ فإن ساءه منها خلق سرته منها أخلاق، وهو واضح فيما رواه أبو هريرة عنه ﷺ أنه قال: «**لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقا رضي منها غيره**»(٢).

وبهذا تدرك أخي القارئ أن ما يصدر من بعض الرجال من العنف في معاملة نسائهم وتقطيب وجوههم عند لقائهن، وإغلاظ القول لهن ليس ذلك من الدين في شيء، والله تعالى يأباه ولا يرضاه، وإذا كان بعض الحمقى يتصورون أن الرجولة والشهامة في مثل هذا العمل فإن ذلك إنما يرجع إلى جهلهم بالدين والأخلاق، وعدم تدبرهم للقرآن وتفكرهم في هدي الرسول عليه الصلاة والسلام وهدي السلف الصالح.

---

(١) أخرجه البخاري (٥/٢٢٣٨، رقم ٥٦٦٥). وأحمد (٤/٢٦٨، رقم ١٨٣٨١)، والطبراني في الشاميين (١/٢٩٣، رقم ٥١٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/١٠٢، رقم ٧٦٠٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢/٣٢٩، رقم ٨٣٤٥)، ومسلم (٢/١٠٩١، رقم ١٤٦٩). وأبو يعلى (١١/٣٠٤، رقم ٦٤١٩)، وأبو عوانة (٣/١٤١، رقم ٤٤٩٣).

لا مضارة ولا وكس في إمساك المرأة أو تسريحها:

هذا؛ وإذا كان إمساك الرجل للمرأة يجب أن يكون بالمعروف، فإن تسريحها أيضا يجب أن يكون بإحسان، فعليه أن يتقي الله في تسريحها كما أن عليه أن يتقيه في إمساكها، بل عليه توفير جميع الحقوق لها من غير أن يبتزها شيئا منها.

وأول ما يجب عليه في ذلك أن لا يتعجل في قرار الفراق؛ إذ العلاقة الزوجية هي أسمى وأجل من أن تكون عرضة للتلاعب بها فهي رباط مقدس، لا يفصم استجابة للمزاج المتقلب، وطاعة للهوى، وإنما شرع إنهاء هذه العلاقة في حالات الضرورة التي لا بد منها.

وقد علمت أن الله تعالى إنما جعل القوامة للرجل، وجعل عقدة النكاح بيده لأجل خصائصه الفطرية، وما آتاه الله من قدرة على التحكم في عواطفه، وأن يكون تصرفه قائما على العقل والتفكير في العواقب وعدم العجلة في اتخاذ القرار، بل عليه أن يراعي ما عسى أن يطرأ على المرأة في بعض أحوالها من تبدل مزاجها وسرعة انفعالها، خصوصا إبان حملها وفترات عادتها الشهرية.

تفادي الطلاق بعلاج الزوج نفسه لمشكلة نشوز أهله:

كم نرى في القرآن الكريم من الدعوة إلى التريث ومعالجة المشكلات الزوجية بالحكمة واللطف تارة وبشيء من الشدة إن اقتضى الأمر تارة أخرى، ولما كان الرجل هو الربان الماهر لسفينة الحياة الزوجية كان هو المسؤول عن ذلك عندما يرى من المرأة نشوزا وإعراضا، فقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ﴾ النساء: ٣٤، فأنتم ترون كيف بدأ الله سبحانه هنا في توجيه الرجل إلى الموعظة الحسنة في علاج مشكلته مع أهله، إن عاندته

وشاكسته، إذ ما يتحقق باللطف خير مما يتحقق بالعنف، وما يتوصل إليه بالموعظة أجدى مما يتوصل إليه بالعقاب، فإن أجدت الموعظة فذلك وإلا هجرها في المضجع لما في ذلك من التأثير عليها، وتذكيرها بضرورة مراجعة النفس والتفكير في العواقب، فإن استرسلت في غيها وتمادت في نشوزها غير لاوية على تذكيره القولي والعملي بما يجب عليها كان له أن يتجاوز ذلك إلى تأديبها بالضرب على أن لا يكون مبرحا ولا مؤثرا كما جاء في الحديث.

قال القرطبي: «أمر الله أن يبدأ النساء بالموعظة أولا ثم بالهجران، فإن لم ينجعا فالضرب، فإنه هو الذي يصلحها له ويحملها على توفية حقه. والضرب في هذه الآية هو ضرب الأدب غير المبرح، وهو الذي لا يكسر عظما ولا يشين جارحة كاللكزة ونحوها، فإن المقصود منه الصلاح لا غير»[١].

وأنت ترى كيف كان تعبير القرآن الكريم عن واقع الشقاق بين الزوجين بخوف النشوز، ولم يقل (واللاتي نشزن)، ففي هذا التعبير علاج أدبي للمشكلة، لأن فيه تذكيرا للمرأة بأنها جديرة بأن تتجنب النشوز وتتقي الشقاق، فهي مظنة أن تكون دائما حريصة على الألفة مسارعة إلى أداء حق الزوج، لا ترضى لنفسها أن تكون في عداد النواشز، ومثل هذا العلاج الأدبي الراقي يدفع بالمرأة إلى أن تتجنب دائما دواعي الشقاق ولو لم يكن مفضيا إلى الفراق، فما بالك بشقاق لا يقف عند حد حتى يصل إلى الفراق، فإن هذا مما يجب أن لا يدور بخلدها.

وقد نبه على هذا السيد محمد رشيد رضا بقوله: «لا جرم أن في تعبير القرآن حكمة لطيفة، وهي أن الله تعالى لما كان يحب أن تكون المعيشة بين الزوجين معيشة محبة ومودة وتراض والتئام لم يشأ أن يسند النشوز إلى النساء إسنادا يدل على أن من شأنه أن يقع منهن فعلا، بل عبر عن ذلك بعبارة تومئ

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ١٧٥/٥.

إلى أن من شـأنه ألا يقع؛ لأنه خروج عن الأصل الذي يقوم به نظام الفطرة، وتطيب به المعيشة، ففي هذا التعبير تنبيه لطيف إلى مكانة المرأة، وما هو الأولى في شأنها، وإلى ما يجب على الرجل من السياسة لها وحسن التلطف في معاملتها، حتى إذا آنس منها ما يخشى أن يؤول إلى الترفع وعدم القيام بحقوق الزوجية، فعليه أولا أن يبدأ بالوعظ الذي يرى أنه يؤثر في نفسها، والوعظ يختلف باختلاف حال المرأة، فمنهن من يؤثر في نفسها التخويف من الله ﷻ وعقابه على النشوز، ومنهن من يؤثر في نفسها التهديد والتحذير من سوء العاقبة في الدنيا، كشماتة الأعداء والمنع من بعض الرغائب كالثياب الحسنة والحلي، والرجل العاقل لا يخفى عليه الوعظ الذي يؤثر في قلب أمرأته، وأما الهجر: فهو ضرب من ضروب التأديب لمن تحب زوجها ويشق عليها هجره إياها»[1].

ثم قال: «وأما الضرب فاشترطوا فيه أن يكون غير مبرح، وروى ذلك ابن جرير مرفوعا إلى النبي ﷺ، والتبريح الإيذاء الشديد، وروي عن ابن عباس رضي الله عنه تفسيره بالضرب بالسواك ونحوه، أي: كالضرب باليد أو بقصبة صغيرة»[2].

قلت: اشتراط كون الضرب غير مبرِّح ورد فيما دل عليه النبي ﷺ في خطبة الوداع، كما جاء في السنن عند الترمذي وابن ماجه والنسائي، وقد تقدم ذكر ذلك، وهذا يعني أن هذا الضرب إنما هو لأجل التذكير لا لأجل الإيلام، وأين هذا من تصرف القساة من الرجال، الذي يشتدون على نسائهم فيوجعونهن ضربا لأتفه الأسباب؟! وأين هذا مما سنه النبي ﷺ من المعاشرة الحسنة للنساء؟ فعلى الرجال أن يتقوا الله وأن يرعوا الميثاق الغليظ الذي أخذته عليهم النساء.

---

(١) محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ٥/٥٩.

(٢) المرجع السابق، ٥/٦٠.



اشتراك أسرتي الزوجين في ردم هوة الخلاف بينهما:

هذا؛ وإن لم يجد ما يقوم به الزوج بنفسه من علاج مشكلة النشوز بينه وبين أهله، فإن عليه أن يفضي بذلك إلى أهله وأهلها، لتتعاون الأسرتان على حسم الشقاق إن وجدتا سبيلا إلى ذلك، وذلك باختيار كل واحدة من الأسرتين من بينها من يكون حصيف الرأي قادرا على الإصلاح والتأليف بين القلوب، مخلصا في عمله لله تعالى ساعيا إلى التقريب جهده، عارفا بما يجب فعله واتقاؤه في ذلك، فإن الله تعالى بعد أن ذكر علاج الرجل بنفسه لمشكلة النشوز بينه وبين أهله أتبع ذلك قوله: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ النساء: ٣٥، وهذا يعني أن حسم الخلاف بالطلاق لا يكون إلا عندما تتعذر جميع الوسائل إلى الإصلاح والتقريب بين الزوجين المتشاقين، وتستنفد جميع المحاولات التي يمكن أن تردم الهوة وتقرب بين الطرفين، فالزوجان مطالبان أن يقوما بهذا من قبل نفسيهما، وإن تعسَّر ذلك أو تعذر استعانا بأسرتيهما لأن هذه المسؤولية هي في عاتق الكل، وقد جعل الله تعالى المصاهرة علاقة ود واحترام بين الأسرتين، ناهيك أنه ذكرها الله تعالى امتنانا وكرما مع النسب عندما قال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ الفرقان: ٥٤، فكما أن النسب علاقة تشد النسيب إلى نسيبه، فكذلك الصهر علاقة تشد الصهر إلى صهره.

وبهذا يتبين أن ما يكون من بعض الرجال أو من كثير منهم من التسرع إلى الطلاق لأتفه الأسباب؛ حتى يكون أحدهم أسرع إليه من الظمآن إلى الماء الفرات، يطفئ به غلته، هو من أشد الخطأ وأعظم الخطر لأنه تتهدم به الأسر ويتقطع به الشمل، وتتشتت به الذرية، ويتعقد به الأطفال عندما يفقدون إما حنان الأم الرؤم عندما يحضنهم أبوهم، أو رعاية الأب الحاني عندما تحضنهم أمهم، مع أنهم بحاجة إلى اجتماع حنانها ورعايته، ولا غنى لهم عن أحدهما.



وجوب التزام القيود الشرعية في إيقاع الطلاق:

هذا؛ وإن من أسوأ الخطأ وأقتل الداء أن يضيق الزوج ما وسعه الله له، ويسد ما فتحه الله، فلا يكتفي بطلقة واحدة كما أرشد إلى ذلك القرآن في قوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ﴾ البقرة: ٢٢٩، فإن في هذا إرشادا من الله سبحانه إلى أن لا يزيد الطلاق على طلقة واحدة، بحيث يتمكن المطلق بعدها من مراجعة مطلقته، إبان عدتها منه، ولا يكلفه ذلك إلا أن يشهد شاهدين على مراجعته إياها، ويبلغها الشاهدان بذلك قبل أن تنتهي عدتها منه، وقبل أن يفضي إليها، وإن انتهت العدة كان له أن يتزوجها بعقد جديد مع جميع لوازمه الشرعية.

ولم يأمر الله سبحانه، بل لم يبح إيقاع الطلقات الثلاث دفعة واحدة، لسد ما فتحه من باب اليسر في التراجع بين الزوجين عندما يحسان بالندم على تفارقهما، ولكن الناس أبوا إلا أن يغلقوا ما فتحه الله لهم من باب اللطف واليسر في هذا، فمن النادر أن يطلق أحد إلا بالثلاث فما زاد..!!.

ومع هذا؛ فإن حماقتهم وجهلهم يدفعان بهم إلى أن لا يكون الطلاق غير مصحوب بكفر بما أنزل الله، فقلما يطلق أحد من هؤلاء الجهلة المغفلين إلا ويرتكب كفرين، عندما يقول لامرأته: (حرمتك على نفسي وأبحتك لأي رجل آخر)!! مع أن التحليل والتحريم لم يجعلهما الله تعالى إلى أحد من خلقه، بل هما من أمره الذي لا يشارك فيه، ناهيك أن الله سبحانه عاتب نبيه ﷺ على شيء من ذلك، عندما قال له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ التحريم: ١، فإذا كان النبي ﷺ ـ وهو المبلغ عن الله ـ لم يأذن له الله أن يحرم على نفسه ما أحله الله له، فما بالك بهؤلاء الجهلة؟!.

وعليه؛ فإن قوله: (حرمتك على نفسي) كفر بما أنزل الله، فإنه تعالى يقول بعد ذكر عدة المطلقات: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنۡ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗا﴾ البقرة: ٢٢٨،

وكيف يكون البعل أحق بها لو كانت تحــرم عليه؟! وقوله: (أبحتك لأي رجل آخر) كفر ـ أيضا ـ بما أنزل الله، فإن الله لــم يبحها بعد الطلاق لأي رجل حتى تنتهي عدتها التي فرضها الله تعالى بقوله: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ البقــرة: ٢٢٨، فضلا عن كون المــرأة لا تحل لكل الرجــال، فهناك محارم لا تحل لهم ولا يحلون لهــا، وهم الذين يمتون إليها بصلة نســب أو صهر أو رضاع محرمة، ومع ذلك أيضا لا تحل لمن لم يكن على ملة الإسلام، كما نص عليــه تعالــى فــي قولــه: ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ الممتحنة: ١٠، وقد تفضي بأحدهم اللجاجة في الكفر والأصالة في الحماقة والجهل أن يقول بعد التطليق: (حرمتك علي وحللتك لكلب أسود، أو للحمار)!! ومن أين له أن يحلها لكلب أســود أو أبيض، أو لحمار أهلي أو وحشــي، أو لأي حيوان كان، مع أنها من جنس البشر الذين فضلهم الله على غيرهم من أجناس المخلوقات، وبوأهم منصب الخلافة في الأرض والسيادة في الكون؟!!.

هذا؛ وقد شــدد الله تعالى النكير على من حرم ما لم يحرمه الله، أو حلل ما لم يحلله، وعــده من افتراء الكذب عليه فــي قوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ النحل: ١١٦، وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ يونس: ٥٩، ونادى بالضلال الذين حرموا على أنفسهم ما رزقهم الله وحكم عليهم بالخسران في قوله: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ الأنعــام: ١٤٠، وبين أن هذا من دأب الذين أشركوا في قوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ﴾ الأنعــام: ١٤٨، وقولــه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ﴾ النحل: ٣٥.

فليت شـعري؛ هل أدرك الذين لا يعرفون الطلاق إلا بالتحليل والتحريم الكاذبين إلـى أي حضيض مـن الكفر ينزلـون، وفي أي واد مـن الضلال يهيمون؟! فإنهم يهوون إلى غير قرار من الأرض، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ الحج: ٣١.

هذا؛ ولا يكاد أحد هؤلاء يقع في هذه الورطة حتى يأخذ في البحث عن المخرج منها، ويتردد على الفقهاء طالبا منهم حل مشكلته، وأنى له من مخرج وهو لم يتق الله فيجعـل له مخرجا؟! كما ثبت عن ابـن عباس رضي الله عنهما فيما رواه أبو داود قال: «حدثنا حميد بن مسعدة، حدثنا إسـماعيل، أخبرنا أيوب، عن عبد الله بن كثير، عن مجاهد قال: كنت عند ابن عباس فجاءه رجل، فقال: إنه طلق امرأته ثلاثا، قال: فسـكت حتى ظننت أنه رادها إليه، ثـم قال: «ينطلق أحدكم، فيركب الحموقة ثم يقول يا ابن عبـاس، يا ابن عباس، وإن الله قال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ الطلاق: ٢، وإنك لم تتق الله فلم أجد لك مخرجا، عصيت ربك، وبانت منك امرأتك، وإن الله قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ الطلاق: ١، في قبل عدتهن»[(١)].

قال أبو داود: روى هذا الحديث حميد الأعرج، وغيره عن مجاهد، عن ابن عباس، ورواه شـعبة، عن عمرو بن مرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، وأيوب، وابن جريج، جميعا عن عكرمة بن خالد، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، وابن جريج، عـن عبد الحميد بن رافع، عن عطـاء، عن ابن عباس، ورواه الأعمش، عن مالك بن الحـارث، عن ابن عبـاس، وابن جريج، عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس»[(٢)].

---

(١) هذا تفسير من ابن عباس للمراد في قوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ الطلاق: ١، وليس هو قرآنا.

(٢) أخرجه أبو داود: (٢/٢٦٠ رقم: ٢١٩٧).

وهذا شـــأن من عصى الله وتصامم عن داعيه وأطاع الشيطان، واستجاب لندائه، فإنه لا يلبث أن يعض على بنان الندم لما يفوته من المنفعة في دنياه، وما بالك بندمه في الدار الآخرة عندما يلقى جزاء عمله إن لم يتب؟! ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ الفرقان: ٢٧.

ومن أعجب ما ينتج عن الحماقة والرعونة والتخبط في التصرف أن تجد كثيرا من الرجال ـ عندما تنجم مشكلة بينهم وبين أحد من الناس ـ لا يفزعون إلا إلى الطلاق؛ كأنه الحل الأوحد لجميع مشكلاتهم مع الأقربين والأبعدين!! فتسمع أحدهم عندما يشـــاكس أباه أو أمه لا يكتفي بعقوقهما وإزعاجهما بل يضيف إلى ذلك إقحام امرأته البريئة في هذه المشاكسة بينه وبين أبويه!! مع أنها لا ناقة لها ولا جمل فيها، فلا يلبث أن يقول لهما أو لأحدهما: (إن دخلت بيتك فامرأتي طالق بالثلاث) وكذلك عندما تكون هذه المشاكســـة بينه وبين أحد جيرانه أو أرحامه أو أي أحد كان، فليت شعري؛ ما الذي يقحم حليلته في هذه المشاكســـة بينه وبين هؤلاء؟! أو أنه يرى أن هذا هو الإمساك بالمعروف والمعاشرة الحسنة التي أمره الله تعالى بها؟! وكم تجد هؤلاء بعد هذه العثرة المردية يلحون في طلب المخرج من الفقهـــاء كأنهم هم الذين زينوا لهم هذه الحماقة ودفعوا بهم إلى هذه الورطة!!.

وجوب مراعاة حال المرأة عند إيقاع الطلاق:

هذا؛ وكم أعرض الناس عن وصايا القرآن واتباع هدي الرسول عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والسلام في تطليق النساء، إذ تجد أحدهم لا يبالي أن يطلق امرأته في أي حال يزين له شيطانه طلاقها، ولا يفكر في أمر الله ونهيه ووعظه وإرشاده، فإن الله تعالى لم يبح الطلاق إلا في حالة معينة عندما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ الطـلاق: ١، وبيـــن النبي ﷺ معنى ذلك فيما ثبت «عن عبد الله بـــن عمر رضي الله عنهما: أنه طلق امرأته وهي حائض،

على عهد رسول الله ﷺ، فسأل عمر بن الخطاب رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «**مره فليراجعها، ثم ليمسكها حتى تطهر، ثم تحيض ثم تطهر، ثم إن شاء أمسك بعد، وإن شاء طلق قبل أن يمس، فتلك العدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء**»[(١)].

ومعنى ذلك أن تطليق المرأة لعدتها أن يطلقها في طهر لم يباشرها فيه، ولا يسوغ أن يطلقها في حال حيضها أو بعد أن يباشرها في الطهر، وقد بين حكمة ذلك الفقهاء، فقد حكى عنهم ابن القيم أنهم: «قالوا: والله سبحانه شرع الطلاق على أيسر الوجوه وأرفقها بالزوج والزوجة لئلا يتسارع العبد في وقوعه ومفارقة حبيبته. وقد وقت للعدة أجلاً لاستدراك الفارط بالرجعة فلم يبح له أن يطلق المرأة في حال حيضها، لأنه وقت نفرته عنها، وعدم قدرته على استمتاعه بها ولا عقيب جماعها لأنه قد قضى غرضه منها وربما فترت رغبته فيها وزهد في إمساكها لقضاء وطره. فإذا طلقها في هاتين الحالتين ربما يندم بعد هذا مع ما في الطلاق في الحيض من تطويل العدة، وعقيب الجماع من طلاق مَن لعلها قد اشتمل رحمها على ولد منه فلا يريد فراقها.

فأما إذا حاضت ثم طهرت فنفسه تتوق إليها لطول عهده بجماعها فلا يقدم على طلاقها في هذه الحال إلا لحاجته إليه. فلم يبح له الشارع أن يطلقها إلا في هذه الحال أو في حال استبانة حملها، لأن إقدامه أيضاً على طلاقها في هذه الحال دليل على حاجته إلى الطلاق.

وقد أكد النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم هذا بمنعه لعبدالله بن عمر أن يطلق في الطهر الذي يلي الحيضة التي طلق فيها، بل أمره أن يراجعها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر، ثم إن بدا له أن يطلقها فليطلقها. وفي ذلك عدة حكم:

---

(١) أخرجه مالك (٥٧٦/٢ رقم: ٥٣)، وأحمد (١٢/٥ رقم: ٥٢٩٩)، والبخاري (٤١/٧ رقم: ٥٢٥١و ٥٢٥٢)، ومسلم (١٠٩٣/٢ رقم: ١٤٧١) وأبو داود (٢٥٥/٢ رقم: ٢١٧٩) والترمذي (٤٧١/٣ رقم: ١١٧٦٩).

منها: أن الطهر المتصل بالحيضة هو وهي في حكم القرء الواحد، فإذا طلقها في ذلك الطهر فكأنه طلقها في الحيضة لاتصاله بها وكونه معها كالشيء الواحد.

الثانية: أنه لو أذن له في طلاقها في ذلك الطهر فيصير كأنه راجع لأجل الطلاق، وهذا ضد مقصود الرجعة. فإن الله تعالى إنما شرع الرجعة للإمساك ولم شعث النكاح وعود الفراش، فلا يكون لأجل الطلاق فيكون كأنه راجع ليطلق، وإنما شرعت الرجعة ليمسك وبهذا بعينه أبطلنا نكاح المحلل، فإن الله ﷻ شرع النكاح للإمساك والمعاشرة، والمحلل تزوج ليطلق فهو مضاد الله تعالى في شرعه ودينه.

الثالثة: أنه إذا صبر عليها حتى تحيض ثم تطهر ثم تحيض ثم تطهر زال ما في نفسه من الغضب الحامل له على الطلاق، وربما صلحت الحال بينهما، وأقلعت عما يدعوه إلى طلاقها، فيكون تطويل هذه المدة رحمة به وبها»[(١)].

قلت: ومع ما جاء في كلام أهل العلم الغابرين من بيان حكمة هذا التشريع الحكيم في تحديد الحالة التي يباح فيها الطلاق، يمكن أن تضم إلى ذلك حكمة أخرى، بل هو متعين مع ظهورها، وهي ما أثبته علم النفس والطب النفسي من أن المرأة في إبان طمثها تكون غير سوية الطبع، فقد تنفعل لأتفه الأسباب فإن أبيح للرجل أن يطلقها أثناء ذلك تسارع الناس إلى الطلاق في وقت الحيض، وانهدمت بذلك البيوت وتشتت بسببه الأسر، وهو مما يؤدي إلى ندم الفريقين، أما إن قدر الرجل وضع المرأة الطبيعي في هذه الفترة، واستطاع أن يضبط نفسه ويتحكم في عواطفها، فإنهما يحمدان عاقبة ذلك عندما تزول النفرة ويعود الوئام بينهما وتطيب العشرة بإمكان إفضاء بعضهما إلى بعض، مع ما يغمر نفسيهما في هذه الحالة من الحب العميق والرحمة الفياضة.

---

(١) ابن القيم: إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ٣٠٥/١ ـ ٣٠٦.



الخسارة التي تترتب على الطلاق:

هذا؛ ولا يخفى ما ينتج عن كثرة الطلاق من خسارة بالغة على المجتمع، وضياع فلذات الأكباد وثمرات الأفئدة بفقدانها الرعاية الأبوية الحانية أو حنان الأمومة الرؤوم وشفقتها، والزوجان بافتراقهما هما أول من يحس بهذه الخسارة الفادحة، فالضريبة التي يدفعها كل منهما هي أغلى ما يتصور، ولو أنهما عرفا كيف يصونان علاقتهما ويحافظان على شركتهما في الحياة لجنبا نفسيهما وأولادهما وأسرتيهما ومجتمعهما بأسره ما يترتب على افتراقهما من سوء العاقبة.

ما ينبغي من إعداد الزوجين قبل زواجهما لتحمل واجبات الحياة الزوجية:

لهذا يتعين أن يعد كل منهما قبل اجتماعه بقرينه إعدادا صالحا علما وخبرة وخلقا ليتدربا على حسن العشرة بينهما وتجنب كل ما يؤدي إلى انفصام علاقتهما، وهذا لا يتم إلا بأن يدخل الشاب قبل زواجه في دورة تأهيلية للزواج، يُعرَّف فيها بحقيقة علاقة الزوج بزوجه وقدسية هذه العلاقة، ووجوب المحافظة عليها وما يترتب على هذه المحافظة من طمأنينة النفوس وأنسها وهدوء الحياة وطيبها، كما يبصر في هذه الدورة بأحكام الطلاق ومتى يكون مباحا، وأنه لا يصار إليه إلا مع الضرورة البالغة بعد استفراغ وسع الزوجين وأسرتيهما في الحلول التي تبعد عنهما شبح الطلاق المخيف.

وكذلك الفتاة تدخل في دورة مثيلة تعرفها بهذا كله، مع تبصيرها بوجوب محافظتها على هدوء زوجها، وتجنب كل ما يهيج عواطفه ويثير انفعالاته، وحرصها على راحته وطمأنينته وتفننها في اكتساب وده واجتذاب قلبه، إذ بهذا تتفوق على زميلاتها في حسن إدارتها لبيتها، ونجاحها في إسعاد شريك حياتها، وتكون في ذلك قدوة لهن وأسوة لمن تستفيد من سيرتها من الفتيات الناشئة، أو الداخلات في القفص الذهبي.



ومن الضرورة أن يتولى القيام بهذه المهمة الأكفاء من الرجال والنساء، الذين جمعوا بين الفقه في الدين والإخلاص في القول والعمل، والخبرة الواسعة والإحاطة بتجارب الحياة والقدرة على حل مشكلاتها، فإن قيام هذه الدورات وإقبال الجنسين عليها يجنب الأسر الويلات الناتجة عن الاستجابة للعواطف ودواعي الهوى، وعدم المبالاة بنداء العقل والضمير.

ليس من المروءة ولا الدين ابتزاز المرأة عند تطليقها:

هذا؛ ومن المخالفات الشرعية الممقوتة في المفارقة بين الزوجين ما هو شائع الآن من ابتزاز الرجل للمرأة بمضايقتها حتى يضطرها إلى الافتداء منه بما دفع إليها من المهر، وقد يتجاوز جشعه هذا الحد إلى اضطرارها لأن تفتدي منه بأضعاف ما آتاها، وهذا كله حرام بنص الكتاب العزيز، فإن الله تعالى قال: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ النساء: ١٩، وإذا كان الله تعالى يحرم على الرجل أن يعضل حليلته ليذهب ببعض ما آتاها، فكيف إن ذهب بكل ما آتاها أو بأضعافه؟!!.

وقد أكد الله تعالى هذا في آيات من كتابه كما في قوله: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ۝ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ النساء: ٢٠ ـ ٢١، ومثل ذلك قوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ البقرة: ٢٢٩، وناهيك بما في هذه الآية الكريمة من الزجر الشديد عن الاقتراب من هذا الحمى المحرم، فقد بين تعالى أن هذا من حدوده الذي يجب أن تصان وتحترم، وأن لا يعتدى عليها، ومن تعداها فهو من الظالمين، وهذه الآيات كلها تؤدي إلى غاية واحدة، فليس



بين معانيها تنافر، ولا بين دلالاتها تناقض، وهي جميعا تعني أن التسريح بالإحسان لا يتحقق إن رزأ الرجل امرأته شيئا مما آتاها، اللهم إلا في حالة خاصة عبر عنها في آية النساء بأن يأتين بفاحشة مبينة، وفي سورة البقرة بخوفهما أن لا يقيما حدود الله.

فقد فسرت الفاحشة المبينة بالزنا، ومنهم من فسرها بأنها النشوز البين، وهذا هو الذي يتفق مع آية البقرة التي تنوط جواز افتدائها منه وقبوله الفدية منها بخوفهما ألا يقيما حدود الله، وفسر ذلك بأن تكون غير قادرة على القيام بالحقوق الزوجية من معاشرة في الفراش، وطاعتها لأمره وحسن تبعلها له، وإسعادها له في الحياة، وهذا مما يسبب في نفسه ردة فعل عنيفة، فيقسو في معاملتها، فإذا خشيا ذلك جازت الفدية بينهما لتفادي ما يحذرانه.

قال قطب الأئمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال ابن عباس ومالك والجمهور عدم إقامة حدود الله استخفاف المرأة نحو زوجها، وسوء عشرتها معه، وما يفعله هو معها مما يعد ظلماً مجازاة على نشوزها، وذلك أن الإنصاف بين الزوجين واجب يؤدى كل إلى الآخر حقه، فهو حدود الله أداء واجبه، ولذلك قال الشعبي: ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ معناه ألا يطيعا الله، وذلك أن المغاضبة تدعو إلى مخالفة أمر الله ونهيه، وقيل المراد عدم إقامة المرأة حدود الله أن تنشز، مثل أن تقول: «لا أطيع لك أمرا» أو «لا أبر قسمك» أو «لا أضاجعك» أو «لا أغتسل لك من جنابة» أي لا تجامعني جماعا فضلا عن أجنب، فأغتسل، فأسند إلى الزوج أيضا لأنه بينهما يصدر منها إليه، ونسب لابن عباس ومالك والجمهور»[1].

وقال السيد رشيد رضا في بيان حرمة أخذ الفدية منها: «ومحل هذا الحكم إذا كان الزوج هو الذي اختار فراق المرأة ورغب عنها، وأما إذا كانت هي

(١) قطب الأئمة: هميان الزاد، ٢٥٨/٢.

الراغبة عنه الطالبة لفراقه، وخيف أن تتوسل إليه بالنشوز وسوء العشرة لكراهتها إياه أو لسوء خلقها، لا لمضارته لها: فلا جناح عليهما حينئذ فيما يأخذه منها لإطلاق سراحها، إذ لا يكلف خسارة امرأته وماله بغير ذنب منه؛ ولذلك قال تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ البقرة: ٢٢٩، التي حدها للزوجين من حسن المعاشرة والمماثلة في الحقوق مع ولاية الرجل، والتعاون على القيام بأمر المنزل وتربية الأولاد وعدم المضارة لقوله: ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّ﴾ الطلاق: ٦، وغير ذلك، وذلك بأن تخاف المرأة أن تعصي الله في أمر زوجها فتكفره أو تخونه، ويخاف هو أن يخرج عن الحد المشروع في مؤاخذة الناشز، ويخافا معا سوء العشرة ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦ﴾ البقرة: ٢٢٩، الجناح: الإثم، أي لا جناح عليها فيما تعطيه إياه ليخلعها؛ لأن طلبها الطلاق إنما يحظر لغير هذا العذر، ولا جناح عليه فيما يأخذ لأجل ذلك؛ لأنه برضاها واختيارها من غير إكراه منه ولا مضارة»[(١)].

وقال في قوله: ﴿وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ النساء: ١٩، «الفاحشة: الفعلة الشنيعة الشديدة القبح، وكلمة «مبينة» قرأها ابن كثير، وأبو بكر، عن عاصم بفتح الياء المشددة، أي بصيغة اسم المفعول، والباقون بكسرها، أي بصيغة اسم الفاعل أي ظاهرة متبينة أو مبينة حال صاحبها فاضحة له.

وقد ورد: بين بمعنى تبين اللازم. روي عن ابن عباس، وقتادة، والضحاك أن الفاحشة المبينة هنا هي النشوز وسوء الخلق، قال بعضهم: ويؤيد ذلك قراءة أبي «إلا أن يفحشن عليكم»، وروي عنه، وعن ابن مسعود أنهما قرءا: «إلا أن يفحشن»، دون لفظ «عليكم»، وعندي أنهما ذكرا الآية بالمعنى فظن السامع أنهما رويا ذلك قراءة فعنيا لفظ القرآن.

---

(١) محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ٢/٣٠٧ ـ ٣٠٨.

وعن الحسن، وغيره أنها: الزنا ويجوز أن يراد بها ما هو أعم من الأمرين، والمعنى لا تعضلوهن في حال من الأحوال، أو في زمن من الأزمان إلا الحال أو الزمن الذي يأتين فيه بالفاحشة المبينة دون الظنة والشبهة، فإذا نشزن عن طاعتكم بالمعروف المشروع، ولم ينفع معهن التأديب الذي سيذكر في آية أخرى من هذه السورة، وساءت عشرتهن لذلك، أو تبين ارتكابهن للزنا، أو السحاق فلكم حينئذ أن تعضلوهن; لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن من صداق وغيره إذ لا يكلفكم الله أن تخسروا عليهن ما لكم في هذه الحالة التي يجيء فيها الفحش من جانبهن كما في الآية الأخرى ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ البقرة: ٢٢٩، وقد أشرنا إليها آنفا»[1].

ثم نقل عن الإمام محمد عبده أنه قال: «روي عن بعض مفسري السلف أن الفاحشة هنا هي الزنا، وعن بعضهم أنها النشوز، وعن بعضهم أنها الفحش بالقول.

والصواب عدم تعيينها وتخصيصها بأحد هذه الأمور بل تبقى على إطلاقها فتصدق بالسرقة أيضا، فإنها من الأمور الفاحشة الممقوتة عند الناس، ولكن يعتبر فيها هذا الوصف المنصوص وهو أن تكون مبينة، أي ظاهرة فاضحة لصاحبها، وإنما اشترط هذا القيد لئلا يظلم الرجل المرأة بإصابتها الهفوة واللمم، أو بمجرد سوء الظن والتهم، فمن الرجال الغيور السيء الظن يؤاخذ المرأة بالهفوة فيعدها فاحشة، وقد حرم الله المضارة لأجل أن يأخذ الرجل منها بعض ما كان آتاها من صداق، أو غيره، فعلم منه أن المضارة لأخذ جميع ذلك، أو أكثر منه حرام بالأولى، وإنما أبيح للرجل أن يضيق على امرأته إذا أتت بالفاحشة المبينة; لأن المرأة قد تكره الرجل وتميل إلى غيره فتؤذيه بفحش من القول، أو الفعل، ليملها ويسأم معاشرتها، فيطلقها، فتأخذ ما كان آتاها، وتتزوج آخر تتمتع معه بمال الأول، وربما فعلت معه بعد ذلك كما فعلت بالأول.

(١) المرجع السابق، ٣٧٣/٤.

وإذا علم النساء أن العضل، والتضييق بيد الرجال، ومما أبيح لهم إذا هن أهنهم بارتكاب الفاحشة المبينة فإن ذلك يكفهن عن ارتكابها والاحتيال بها على أرذل الكسب» اهـ[1].

وإذا أدركت أن أخذ الفدية من المرأة شدد فيه القرآن أيما تشديد، ونص على أنه لا يحل، ولو كان شيئا يسيرا وقد أمهرها مالا كثيرا، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ النساء: ٢٠، فإنه لو ساق إليها قنطارا من الذهب لما كان له أن يسترد منه شيئا، والشيء يصدق على أقل ما يتصور، وقد أثار الله سبحانه هواجس الفطرة في نفوس الرجال لتحجزهم عن أخذ أي شيء مما آتوه نساءهم، عندما قال على أثر ذلك: ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾ النساء: ٢١، فقد أبعد الله رغباتهم في استرداد شيء مما آتوهن بتذكيرهم بما سلف بينهم وبينهن من اشتراكهم معهن في اشتيار أطيب لذات الحياة وأمتعها، مع الانسجام التام في المشاعر والأحاسيس حتى اتحدت هوية الجميع، فكان الإفضاء إليهن إفضاء بعض الشيء إلى بعضه ـ كما تقدم ـ مع تذكيرهم بالميثاق الغليظ الذي أخذنه عليهم، وقد علمت أنه ميثاق فطري وشرعي.

وإنما أباح سبحانه في حالة واحدة أخذ هذه الفدية، وهو عندما تنفر عنهم طباعهن حتى لا يجدن سبيلا إلى أداء ما لهم عليهن من الحقوق، مع خوفهم أيضا أن تكون ردة فعلهم تجاه ذلك مجحفة بحقوقهن، فهذه الحالة الوحيدة التي أبيح فيها للرجل أن يقبل الفدية من المرأة.

وإذا تبين لك هذا؛ فاعجب من أولئك الذين يشاكسون النساء، ويضيقون عليهن خناق الحياة حتى ينقلبن إلى اليأس، ولا يجدن سبيلا إلى الخلاص إلا

---

(١) المرجع السابق، ٣٧٤/٤.

أن يعرضن عليهم أن يفتدين، كيف يستحلون هذه الفدية بهتانا وإثما مبينا كما أخبر الله تعالى؟!!.

والأعجب من هذا أن لا يكتفوا باسترداد ما أخذن منهم، بل يتفننون في تعذيبهن وإنزال الويلات بهن؛ ليأخذوا منهن أضعاف ما آتوهن، ألا يفكر هؤلاء في المنقلب إلى الله سبحانه، الذي حرم عليهم أن يأخذوا شيئا مما آتوهن، ومحاسبتهم على ما أخذوا، وجزائهم الجزاء الأوفى؟! ألا يشفق هؤلاء على أنفسهم، ويدركوا أن الحرام ممحقة للبركة ومنغصة في الدنيا ومهلكة في الآخرة.

ثم إن عجبي لا ينقضي ممن يتولى الحكم بين الزوجين، وهو مسؤول أمام الله تعالى أن يحكم بينهما بالعدل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ النساء: ٥٨، ويتبين له العنت من الزوج، ويتمثل بين يديه وأمام ناظريه ما كان منه من ظلم بالغ وعنت شديد، وبدلا من أن يأخذ حقها منه ويخلصها من ظلمه خلاصا حسنا يعرض عليها من أن تفتدي منه ولو كانت الفدية أضعافا مضاعفة..!! بل يضطرها إلى ذلك بقطع طريق الخلاص عنها.!.

أين هذا مما أمر الله تعالى به من القسط وحذر منه من الجور؟ ألم يقل الله تعالى: ﴿وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ المائدة: ٤٢، وهو القائل تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا﴾ الجن: ١٥، لقد كان الواجب على من يتولى الحكم في هذا أن يخلص المظلوم مما وقع عليه من الظلم، ويقطع يد الظالم عن الظلم والبطش كما قال الصديق رضي الله عنه: «ألا إن القوي عندي ضعيف حتى آخذ منه الحق والضعيف عندي قوي حتى آخذ له الحق»[(١)]، لا أن يقوي الظالم على المظلوم ويخذل المظلوم، فلا يجد إلى الانتصاف من ظالمه سبيلا.

---

(١) أخرجه البيهقي: (٣٥٣/٦ رقم: ١٢٧٨٨).



المحور السادس

فيما يتعلق بالعقل

إن مما يدرك بالفطرة أن العقل في الإنسان هو ميزته وشرفه، وملاك حياته ونور وجوده، وأساس قدره وقيمته، فالناس إنما يتفاضلون بالعقول، وما ينتج عنها من الأخلاق والأعمال، ولذلك ناط الله تعالى في كتابه انتفاع الناس بما أنزله، وادكارهم به، واعتبارهم بتصريف آياته المنزلة، وآياته في فسيح الكون وتضاعيف العالم بما جعل الله فيهم من عقول، كما في قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ البقرة: ١٦٤، وقوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ الرعد: ٤، وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ النحل: ١٢، وقوله: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ النحل: ٦٧، وقوله: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ العنكبوت: ٣٥، وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ الروم: ٢٤، وقوله: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ

﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ الروم: ٢٨، وقوله: ﴿وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ۞ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ الجاثية: ٤ ـ ٥، وقولــه: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ آل عمران: ١٩٠، وقوله: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ يوسـف: ١١١، وقوله: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ ص: ٤٣، وقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ الزمر: ٢١، وقوله: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ۞ هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ غافـر: ٥٣ ـ ٥٤، وقولــه: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ الزمر: ٩، ودعا الله تعالى أولي الألباب إلى التقوى لأنهم أهلها بما أودع الله فيهم من نور العقل، ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ المائدة: ١٠٠.

ولأجل هذا كان العقل هو مناط التكليف وسبب التشريف في مخلوقات الله تعالى، وقد فضل الله به بني آدم على كثير ممـن خلق تفضيلا، فبه تمكن الإنسان من عمارة الأرض، وبسره تقوى على ما فيه من غرائز الشر ونوازعه، وهو المعراج الذي عرج به أهل الله إليه في ملكوته، فبه وازنوا بين شـهوات الدنيا ونعيم الآخرة؛ فآثروا الآخرة على الأولى، وبسـلطانه انتصروا في قمع رغباتهم وضبط نزعاتهم، وتطويعها لأمر الله ونهيه، وببرهانه ميزوا بين الحق والباطل وبيـن الحقيقة والوهم، وبيـن النافع والضار، فمالوا إلى شـرع الله واستمسكوا بعروته الوثقى، وجمعوا بين الحسنيين فاستناروا بالعقل المطبوع، واستهدوا بالشرع المسموع، الذي جاءت هدايته متممة لهداية العقل، فاجتمع لمن اجتمعا فيه خير الآخرة والأولى.

وجوب المحافظة على نعمة العقل وعدم طمس نورها:

إذا كان العقل هو مناط تكريم الإنسان حتى فضله الله تعالى على كثير ممن خلق تفضيلا، وهو ملاك حياته ونور وجوده، فاعجب كيف يسعى الإنسان إلى طمس هذا النور الذي آتاه الله إياه، وإتلاف هذه الروح التي يحيا بها وتنتعش بها حياته، فتثمر الخير ويطيب جناه للجانين؟!

.... كيف يسعى في جنون من عقل؟.

وإذا كان إتلاف المال حمقا وسفها يذم به الإنسان عقلا وشرعا، فكيف بإتلاف العقل وهو أعظم قدرا وأسمى منزلة من المال وغيره من عماد الحياة وزينتها؟!.

وقد شاع عند كثير من الناس إتلاف عقولهم بتعاطي الخمور أو المخدرات وغيرها، على أن تعاطيها ليس تلفا للعقول فحسب، بل هو تلف للصحة وللمال، وأخيرا هو تلف للحياة كلها.

وقد حذر الله تعالى أيما تحذير من تعاطي الخمور، وقطع بما قاله جدل كل مجادل فيها عندما قال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَـٰمُ رِجۡسٌ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَـٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ المائدة: ٩٠ ـ ٩١، فكم في هاتين الآيتين من تحذير من هاتين الآفتين الخطيرتين وهما الخمر والميسر، وكم فيهما من دليل على حرمة تعاطي الخمور.

أولها: أن الله تعالى صدرها في قائمة المحظورات في الآية الكريمة حتى أنه قدمها على الأنصاب والأزلام التي لا يتمسك بها إلا المشركون.

ثانيها: أنه قرنها بالميسر، والميسر هو أكل أموال الناس بغير حق، وهذا مما توعد الله عليه أشد الوعيد عندما قال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ

﴿أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ النساء: ٢٩ ـ ٣٠، وللقرين حكم قرينه.

ثالثها: أن الله حكم عليها بأنها رجس، وما أدراك ما الرجس؟ فإنه يصدق على كل قذارة ونجاسة وكفر ومحرم وقبيح من الأعمال، كما يصدق على ما يتبعها من اللعنة والعذاب، قال في اللسان: «الرجس: القذر، وقيل: الشيء القذر. ورجس الشيء يرجس رجاسة، وإنه لرجس مرجوس، وكل قذر رجس. ورجل مرجوس ورجس: نجس، ورجس: نجس، قال ابن دريد: وأحسبهم قد قالوا رجس نجس، وهي الرجاسة والنجاسة. وفي الحديث: «أعوذ بك من الرجس النجس»، الرجس: القذر، وقد يعبر به عن الحرام والفعل القبيح والعذاب واللعنة والكفر»[1].

وقال أيضا: «والرجس: العذاب كالرجز التهذيب: وأما الرجز فالعذاب والعمل الذي يؤدي إلى العذاب. والرجس في القرآن: العذاب كالرجز. وجاء في دعاء الوتر: وأنزل عليهم رجسك وعذابك، قال أبو منصور: الرجس ههنا بمعنى الرجز، وهو العذاب، قلبت الزاي سينا، كما قيل الأسد والأزد. وقال الفراء في قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ يونس: ١٠٠، إنه العقاب والغضب، وهو مضارع لقوله الرجز، قال: ولعلهما لغتان. وقال ابن الكلبي في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ الأنعام: ١٤٥، الرجس: المأثم، وقال مجاهد في قوله ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ﴾ الأنعام: ١٢٥، قال: ما لا خير فيه»[2].

وقال كذلك: «قال الزجاج: الرجس في اللغة اسم لكل ما استقذر من عمل فبالغ الله تعالى في ذم هذه الأشياء وسماها رجسا»[3].

---

(١) ابن منظور: لسان العرب، ٩٤/٦ ـ ٩٥.
(٢) المرجع السابق، ٩٥/٦.
(٣) المرجع السابق.

وبالجملة؛ فإن كلمة رجس تصدق على كل شر، فهي تصدق على كل نجاسة وقذارة، وعلى كل قبح وفساد، وعلى كل لعنة وعذاب، وهل من كلمة أدل على التحريم من كلمة رجس؟، فإن الله تعالى إنما شرع لنا الدين وأمرنا بالتوحيد، وفرض علينا عبادته وطاعته لأجل أن نتطهر بذلك، فالإسلام كله طهارة كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ المائدة: ٦، وقال سبحانه بعد أن أمر بما يصون النفوس من أسباب العفاف: ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة: ٢٣٢، وقال: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ الأنفال: ١١، وقال إثر خطاب أمهات المؤمنين وما شرع لهن من الأحكام التي تصون الأعراض وتسمو بالنفوس إلى معارج الفضيلة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ الأحزاب: ٣٣، وقال في بيان تعامل المؤمنين معهن: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ الأحزاب: ٥٣، وقال في توجيه المؤمنين إلى أدب النجوى مع رسول الله ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ المجادلة: ١٢، وقال في الذين مردوا على الكفر ودأبوا على الشقاق: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ المائدة: ٤١، وفي معنى الطهر التزكية التي وردت في القرآن كثيرا.

وإذا كان الإسلام بكل ما جاء به من إيمان وما شرعه من عمل وما سنه من أخلاق إنما يدور بذلك في فلك الطهر، فكيف يقر الرجس ويرضاه لأتباعه؟!.

رابعها: أن الله أخبر أنها من عمل الشيطان، فكيف يكون عمل الشيطان حلالا؟ مع أن الله سبحانه حذر من الشيطان وعمله كما في ثانية هاتين الآيتين وفي قوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فاطر: ٦، وقوله: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ

خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ۞ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ۞ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾ النساء: ١١٩ ـ ١٢١.

خامسها: أن الله قرنها بأركان الكفر ومعالم الجاهلية عندما قرنها بالأنصاب والأزلام، وهي مما جاء الإسلام لذلك صرحه واستئصال شأفته.

سادسها: أن الله سبحانه أمر باجتنابها واجتناب ما ذكر معها في قوله: [فَٱجْتَنِبُوهُ]، وأمره تعالى للوجوب: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ الأحزاب: ٣٦.

سابعها: أن الله تعالى بين ما يهدف إليه الشيطان بتزيين الخمر والميسر في نفوس الذين سلبوا روح الإيمان عندما قال: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ﴾ المائدة: ٩١، وهذا مما ينافي ما يدعو إليه الإسلام من الوحدة والانسجام، والألفة والوئام بين عباد الله المؤمنين، كما هو واضح في قوله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ آل عمران: ١٠٣، وقوله: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ التوبة: ٧١، وقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ الحجرات: ١٠، وقول النبي ﷺ: «**ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى**»(١).

ثامنها: أنه ضم إلى ذلك هدف الشيطان بتحبيب الخمر والميسر إلى الناس إلى صدهم عن ذكر الله، وماذا عسى أن يبقى من ذكر الله تعالى عند من أدمن الخمر حتى أنسته حياته كلها، ومن المعلوم أن ترك ذكر الله تعالى خراب للقلوب، وعمى في البصائر، وظلمات في الحياة.

---

(١) سبق تخريجه.

تاسعها: ما بينه من أن من أهداف الشيطان من وراء تزيين هذا المنكر الفاحش للناس الصد عن الصلاة، التي هي جماع الذكر، والصلة التي تصل المخلوق بخالقه، وتشد المؤمن إلى أخيه المؤمن، والمعراج التي تعرج به نفوس المؤمنين، إلى حظيرة القدس ومقام الملكوت الأعلى.

عاشرها: أنه ختم الآية بقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ المائدة: ٩١، وهو تحضيض على الازدجار عن الخمر والميسر وما ذكر معهما. وهل يبقى بعد هذا شك في تحريم الخمر؟!.

وقد تواترت السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام مؤكدة خطورة الخمر على الدين والدنيا، وأنها محرمة في شرع الله، ناهيك قوله: «لعن الله الخمر وعاصرها ومعتصرها وبائعها ومبتاعها وحاملها والمحمولة إليه وساقيها وشاربها وآكل ثمنها»، وقد روي بألفاظ متعددة من عدة طرق[(١)].

وعنه ﷺ: «**كل مخمر خمر وكل مسكر حرام ومن شرب مسكرا بخست صلاته أربعين صباحا فإن تاب تاب الله عليه فإن عاد الرابعة كان حقا على الله أن يسقيه من طينة الخبال صديد أهل النار ومن سقاه صغيرا لا يعرف حلاله من حرامه كان على الله أن يسقيه من طينة الخبال**»[(٢)].

---

(١) أخرجه من طريق ابن عمر: أبو داود (٣٢٦/٣، رقم ٣٦٧٤)، والحاكم (١٦٠/٤، رقم ٧٢٢٨) وقال: صحيح الإسناد. والبيهقي (١٢/٦، رقم ١٠٨٢٨). ومن طريق أنس: أخرجه الترمذي (٥٨٩/٣، رقم ١٢٩٥)، وقال: غريب. وابن ماجه (١١٢٢/٢، رقم ٣٣٨١)، ومن طريق عثمان بن أبي العاص: أخرجه الطبراني في الكبير (٥٨/٩، رقم ٨٣٨٧). وفي الأوسط (٢٤٣/٤، رقم ٤٠٩٠)، وجاء من طريق ابن عمر بلفظ: **لعنت الخمر على عشرة وجوه**... إلخ الحديث أخرجه ابن ماجه (١١٢١/٢، رقم ٣٣٨٠)، وأحمد (٢٥/٢، رقم ٤٧٨٧)، والبيهقي (٢٨٧/٨، رقم ١٧١١٢)، ومن طريق ابن مسعود: أخرجه الطبراني (٩٢/١٠، رقم ١٠٠٥٦).

(٢) أخرجه من طريق ابن عباس أبو داود (٣٢٧/٣، رقم ٣٦٨٠)، والبيهقي (٢٨٨/٨، رقم ١٧١٢١)، وجاء بألفاظ متعددة من عدة طرق، فعند أحمد من طريق جابر بن عبد الله (٣٦٠/٣، رقم ١٤٩٢٣)، وكذلك مسلم (١٥٨٧/٣، رقم ٢٠٠٢)، والنسائي (٣٢٧/٨، رقم ٥٧٠٩)، والبيهقي =

وعن أبي موسى، أن النبي ﷺ قال: «**ثلاثة لا يدخلون الجنة مدمن الخمر وقاطع الرحم ومصدق بالسحر ومن مات وهو مدمن للخمر سقاه الله من نهر الغوطة نهر يجرى من فروج المومسات يؤذى أهل النار ريح فروجهم**»[(١)].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**ثلاثة قد حرم الله عليهم الجنة مدمن الخمر والعاق والديوث الذي يقر في أهله الخبث**»[(٢)]، وعنه ﷺ: «**مدمن الخمر كعابد وثن**»[(٣)].

وكفى بهذا زجرا شديدا وتحذيرا بالغا من مداناة الخمر وملابستها بأي وجه، فكل من لابسها حلت به لعنة الله، وهي طرده من رحمته، فشاربها وساقيها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه وبائعها ومشتريها وآكل ثمنها، كلهم واقعون في لعنة الله تعالى، وأي لبيب تهون عليه نفسه حتى يعرضها للعنة الله؟!.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عند الربيع رحمه الله، قال: «أهدى رجل إلى رسول الله ﷺ راويتي خمر، فقال له: «**أما علمت أن الله حرمها؟**» فقال: لا، فسار إنسانا، فقال له ﷺ: «**بم ساررته؟**» فقال له: أمرته أن يبيعها، فقال له رسول الله ﷺ: «**إن الذي حرم شربها حرم بيعها**» ففتح المزادتين وهما الروايتان حتى ذهب ما فيهما»[(٤)].

= في شعب الإيمان (٥/٧، رقم ٥٥٧٩)، ومن طريق ابن عمر عند أحمد (٢/١٧٨، رقم ٦٦٥٩) قال الهيثمي (٥/٧٠): رجاله ثقات. وكذلك الحاكم (٤/١٦٢، رقم ٧٢٣٣) وقال: صحيح الإسناد. والبيهقي (٨/٢٨٧، رقم ١٧١١٥). والطبراني في الأوسط (٦/٢٦٦، رقم ٦٣٧١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥/٨، رقم ٥٥٨٢).

(١) أخرجه أحمد (٤/٣٩٩، رقم ١٩٥٨٧)، والطبراني كما في مجمع الزوائد (٥/٧٤) قال الهيثمي: رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني ورجال أحمد وأبي يعلى ثقات. والحاكم (٤/١٦٣، رقم ٧٢٣٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢/٦٩، رقم ٥٣٧٢).

(٣) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (١/١٢٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥/١٢، رقم ٥٥٩٧)، وأبو نعيم في الحلية (٣/٢٠٣) وقال: صحيح ثابت.

(٤) أخرجه الربيع بن حبيب (١/٢٤٦ رقم: ٦٢٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلا كان يهدي للنبي ﷺ كل عام راوية من خمر، فأهداها إليه عاما وقد حرمت، فقال النبي ﷺ: «**إنها قد حرمت**»، فقال الرجل: أفلا أبيعها؟ فقال: إن الذي حرم شـربها حرم بيعها قال أفلا أكارم بها اليهود قال: «**إن الذي حرمها حرم أن يكارم بها اليهود**»، قال: فكيف أصنع بها؟ قال: «**شنها في البطحاء**»[(١)].

والمؤمن هو من ينساق مع أمر الله تعالى ويستجيب لداعيه ولو حال بينه وبين أحب الأشياء إليه، وأعزها في نفسه، فإن الإيمان لا يتحقق إلا بالانقياد لحكم الله فعلا وتركا، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ الأحزاب: ٣٦، وقد علمت ما هو حكم الله وحكم رسوله ﷺ في الخمر.

لهذا؛ عندما نزل تحريمها القاطع في كتاب الله تعالى لم يتردد الرعيل الأول من المؤمنين في تركها، ولم يكتفوا بذلك وإنما أتوا بما يدل على أنهم عقدوا عزمهم على القضاء على كل أسباب الخمر حتى لا تبقى نفوسهم متطلعة إليها أو مولعة بذكرياتها، فقد قاموا في ساعتهم إليها فأراقوها وكسروا دنانها، حتى لا يبقى ما يذكرهم بها، فعن «أنس بن مالك، قال: كنت أسقي أبا عبيدة بن الجراح، وأبي بن كعب، وأبا طلحة الأنصاري شـرابا من فضيخ، فجاءهم آت فقال: إن الخمر قد حرمت، فقال أبو طلحة: قم يا أنس إلى هذه الجرار فاكسرها، قال: فقمت إلى مهراس لنا، فضربتها بأسفله حتى تكسرت»[(٢)].

وتلك هي ترجمة عملية لانقيادهم المطلق لأمر الله، وعدم الالتفات إلى منادي الشيطان الذي يغريهم بها، وعدم الالتفات إلى ما اعتادوه من قبل، فقد كان العرب من أكثر الناس إدمانا على الخمر وإعجابا بها، وتفاخرا بمعاقرتها

(١) أخرجه الحميدي (٢/٤٤٧ رقم: ١٠٣٤).
(٢) أخرجه ابن حبان (١٢/١٨٦ رقم: ٥٣٤٦).

وإنفاق المال فيها، فما كانوا يبالون بأن يغدوا أو يمسوا فقراء معدمين إن كانوا ضحوا بأموالهم في معاقرتها أو المكارمة بها، وقد حفلت أشعارهم بالمفاخرة بذلك كما في قول حسان:

فدع هذا ولكن من لطيف ... يؤرقني إذا ذهب العشاء
لشعثاء التي قد تيمته ... فليس لقلبه منها شفاء
كأن خبيأة من بيت رأس ... يكون مزاجها عسل وماء
على أنيابها أو طعم غض ... من التفاح هصره اجتناء
إذا ما الأشربات ذكرن يوما ... فهن لطيب الراح الفداء
نوليها الملامة إن ألمنا ... إذا ما كان مغث أو لحاء
ونشربها فتتركنا ملوكا ... وأسدا ما ينهنهنا اللقاء

وإذا ما حيل بين أحدهم وبين شربها لسبب قاهر تسلى بإتلاف ماله فيها من أجل أن يروى بها الشاربون، كما كان من عمارة بن الوليد الذي خطب امرأة فشرطت عليه أن لا يشرب الخمر، ومع صعوبة ذلك عليه تقبله من أجل هواه فيها، فمر يوما بحانة وحولها رواد من الشاربين، فسقاهم ببرديه ونحر لهم ناقته لما أخذه من الأريحية بما رسخ في نفسه من ذكريات الخمر وشربها، وعندما عاد إلى أهله قابلته امرأته باللوم والتقريع فرد عليها بقوله:

ولسنا بِشرْبٍ أمَّ عمرٍو إذا انتشوْا ... ثيابُ النّدامى عندهمْ كالغنائم
ولكنّنا يا أمَّ عمرٍو نديمنا ... بمنزلةِ الرّبانِ ليسَ بعائمِ
أسرَّكِ لما صرَّع القومَ نشوةٌ ... خروجيَ منها سالِماً غَيرَ غارمِ
برِيئاً كأنَّني قبْلُ لم أكُ منهمُ ... وليسَ الخداعُ مرتضًى في التّنادُمِ

ومع هذا كله كان الإيمان الراسخ في نفوس المؤمنين حائلا بينهم وبين هذه العادة التي رسخت فيهم رسوخ الرواسي في الأرض، ففي ساعة علمهم بتحريمها أبانوا أقداحها من أفواههم وألسنتهم وشفاههم تتلمظها، وحطموا

جرارها امتثالا لأمر الله وعصيانا للهوى، فياله من إيمان جردهم من أنفسهم فأبدلهم بها نفوسا أخرى لا صلة لها بهذا الماضي الذي أولعوا به.

هذا؛ وقد وضحت حقيقة الخمر كما جاءت في الكتاب العزيز وفي السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، فكم تجلى للناس اليوم من مضارها وخطرها على الصحة والحياة، فانكشفت بهذا الحكمة الربانية من تحريم هذه الآفة؛ التي تردي العقول وتبيد الصحة وتتلف الحياة، وقد اعترف الغربيون أن ضحايا الخمر الذين يموتون في كل عام يفوقون الضحايا الذي يموتون بسبب تعاطي المخدرات بجميع أنواعها بخمسة أضعاف، وأثبتوا بما وضح لهم من الدراسات الطبية أن الخمر هي منشأ الأمراض المختلفة بكل أنواعها، وهي جميعا أمراض قاتلة، وهذا ما تناولته المجلات الطبية الصادرة من كليات الطب في الجامعات الغربية، ولم يبق مجادل في هذا، وقد بسطت القول في هذا في «**العقل بين جماح الطبع وترويض الشرع**»، وفي «**القيم الإسلامية ودورها في تقديم الحلول للمشكلات البيئية العالمية**»، فلا داعي إلى تكراره.

وبهذا تبخرت تلك الأوهام التي كانت عند الأطباء القدامى بأن في الخمر منافع صحية للعباد، وسرت منهم إلى علماء التفسير ـ مع الأسف الشديد ـ وقد وقف النبي ﷺ وحده في وجه هذه الأوهام معلنا الحقيقة بأن الخمر داء وليست بدواء، كما ثبت عن طارق بن سويد الحضرمي، قال: قلت: يا رسول الله، إن بأرضنا أعنابا نعتصرها، ونشرب منها، قال: «**لا تشرب**» قلت: أفنشفي بها المرضى؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إنما ذلك داء، وليس بشفاء**»[(١)]، وكان موقفه هذا مصادما لما هو شائع عند الناس من أن في الخمور منافع صحية متعددة، واستمر هذا الوهم إلى العصر الحديث حتى وضح الصبح لذي عينين، فارتفعت صيحات الإنذار بمخاطر الخمور من الأطباء حتى ذكر

(١) أخرجه ابن حبان (٢٣١/٤ رقم: ١٣٨٩)، وجاءت بلفظ قريب عند مسلم: (١٥٧٣/٣ رقم: ١٩٨٤).

صاحب المنار أن: «لأحد أطباء ألمانيا كلمة اشتهرت كالأمثال وهي «اقفلوا لي نصف الحانات أضمن لكم الاستغناء عن نصف المستشفيات والبيمارستانات والملاجئ ـ التكايا ـ والسجون»[١].

وقد تكرر مثل هذا القول على لسان طبيبة ألمانية في عصرنا هذا عندما عرضت عليها نتيجة فحص دم شيخنا الولي الرضي حمود بن حميد الصوافي، فتعجبت من صفائه وخلوصه من كل ما يلوث، وقالت له: «لو كنتم تشربون الخمر كما نشربها لاستحال أن يكون دمك هكذا، ولكن ورعكم هو الذي حفظ لكم صحتكم»، وأضافت إلى ذلك قولها: «لو كان الناس عندنا مثلك لاستغنينا عن نصف الأطباء وأغلقنا نصف المستشفيات»، فهل عقل الذين يعاقرون الخمر من المسلمين، ويشربونها كما يشربون الماء القراح هذا الأمر؟ ليتهم يعقلون.

على أن في الخمر من الضرر بالأنفس والأموال والمجتمع ما يفوق كل تصور، ناهيك أن الإنسان الذي فضله الله وكرمه تكريما يفقد إنسانيته بتعاطي الخمر، ويصبح أسوأ حالا من الحيوان الأعجم، حسبك هذه القصة التي حكاها غير واحد من المفسرين عن ابن أبي الدنيا «أنه مر على سكران وهو يبول في يده ويمسح به وجهه كهيئة المتوضيء، ويقول: الحمد لله الذي جعل الإسلام نوراً والماء طهوراً»[٢].

وذكر أبو حيان التوحيدي أنه «خرج بعض السكارى من مجلس ومشى في طريق فسقط ونزع، فجاء كلب وجعل يلحس فمه وشفتيه والسكران يقول:

---

(١) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: ٢٥٩/٢.

(٢) الرازي: التفسير الكبير، ٤٠/٦، والنيسابوري: تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ٦٠٤/١، والحسن بن قاسم المرادي: روح البيان، ٢٧٨/١، أبو حفص الدمشقي: اللباب في علوم الكتاب، ٣٨/٤، وابن حجر الهيثمي: الزواجر، ٨٠٣/٢، إسماعيل حقي الخلوتي: تفسير حقي، ٤٦٨/١، الألوسي: روح المعاني، ١١٤/٢، محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ٢٦٠/٢.

خدمك بنوك ولا عدموك، ثم رفع الكلب رجله فبال على وجهه، فجعل يقول: وماء حار! بارك الله عليك»[(١)].

وحدثني أحد أدباء زماننا عن رجل من جيرانه أنه في شبابه كان مدمن خمر، فجاء يوما وهو ثمل إلى حائط وحاول الدخول إليه من مجرى الماء، وكان يتخيل أن بين يديه بحرا يهم بأن يخوضه، وفي محاولته دخول الحائط تعرى عن ثيابه وتكشفت سوءاته وهو في هيئة الراكع وكان ذلك على قارعة الطريق!! وكانت النساء تأتي، وكل واحدة رأته كذلك ولت هاربة ولم تستطع اجتياز الطريق، حتى جاءه أحد أصحابه، وقال له: ما بالك؟، فقال: نريد أن نخوض هذا البحر!! فرد إليه ثيابه وأخذ بيده حتى رده إلى أهله، ولما أفاق رجع إليه فسأله عما كان من شأنه، فإذا به لا يذكر منه شيئا. فحدثه بقصته فاستحيى وأسف، وعاهد الله أن لا يرجع إلى الخمر، فكانت توبته منها بسبب ذلك.

ولا تسأل عما يكون بسبب الخمر من ارتكاب ما يستحيى من ذكره من قبائح الأعمال، فقبل أقل من شهرين من هذا الوقت حضرت جلسة قضائية يحاكم فيها شاب جاء إلى أخته المُغِيبَة في منتصف الليل، ودخل عليها كما يدخل السبع الضاري على فريسته وكانت ترضع طفلها، فما كان منه إلا أن حلَّ ثيابها بالقوة، وقضى وطره منها كما يصنع الحليل بحليلته، مع البون الشاسع بين ما يكون من الزوج الحبيب في أثناء المعاشرة من اللطف وحديث الشفقة والحب والحنان، وبين ما كان من هذا الأخ المتنمر القاسي من العنف والبطش.

وقبل سنين مرت اعتدى سكران على أمه البارة الرؤم، التي حملته كرها ووضعته كرها، وغمرته بحنانها وحاطته برعايتها، وسهرت من أجله ليالي لم

---

(١) أبو حيان التوحيدي: البصائر والذخائر، ٤/٣٣.

تذق فيها طعم الغمض، ولم تلامس فيها لين الراحة، كل ذلك من أجل سلامته وراحته، فكان جزاؤها منه أن ذبحها كما تذبح النعاج، وشدها بحبل وأخذ يجرها بالوادي وهي عارية.

وقد حضرت محاكمته أيضا، فعجبت من أمره بما رأيته من حسن هيئته، وجمال وقاره، ورزانة حديثه في أخذه ورده، واحترت كيف يتحول هذا الإنسان اللطيف الوادع إلى أشرس سبع وأعنف حيوان، وما ذلك إلا أثر من آثار هذا الشراب الخبيث، الذي زينه الشيطان اللعين للنفوس الخبيثة وحببه إليها، فتصورت فيه سعدها ونعيمها.

وكم من فتنٍ أوقدت ضرامها وألهبت سعيرها الراح بين جماعات من الناس، فكانوا وقودها حتى أتت عليهم أو على أكثرهم، وهذا مما لا يخفى على من يطلع على أحوال الناس، وقد حفلت بهذا ملفات القضايا الإجرامية، ولو نشرت لرأى الناس من ذلك العجب العجاب، وكثيرا ما كان شباب في زهرة العمر وريعانه، تعلق عليهم الآمال، وتعقد على حياتهم الطموحات هم وقود هذا السعير المردي بسبب ما زينه الشيطان لهم من تناول هذا السم الزعاف، فبادوا في مرحلة من أعمارهم تتألق نضارة، وتتدفق حيوية ونشاطا، فخسرهم مجتمعهم وخسرتهم الأمة بعدما خسرتهم أسرهم، ناهيك بحوادث السير التي تنهب الأعمار وتحطم الأجسام، وتأتي على قواها وقوى عقولها، ويا ترى كم ينفق من أموال ويضيع من ثروات في علاج هؤلاء وكفالتهم عندما يصبحون عبئا ثقيلا على الدولة والمجتمع، حتى تغدو حياتهم أعظم مصيبة من وفاتهم؟!.

وكم تخسر المجتمعات شبابا يضيع بسبب تعاطي الخمور! التي تلهيهم عن دراستهم وأعمالهم، فتتعطل ملكاتهم وتتلاشى مواهبهم فيصبحون كلاً على أسرهم وعلى مجتمعهم، بسبب هذه الآفة القاتلة.

وإذا كانت هذه هي الخمر وهذه هي عواقبهـــا، فاعجب ممن يجادل فيها ويمانع أن تمنــع تناولا وبيعا وتداولا بدعوى أنها تشــجع الســياحة وتنمي الاقتصاد!! فكم ترى عائد تجارة الخمور بجانب الخسارة العظيمة في الأنفس والأموال، بسبب ما يتلف بها من أنفس، وما يتعطل من طاقات، وما يهدر من أموال في علاج ضحاياها، وكفالة أرزاقهم، وكفايتهم ما يحتاجون إليه لحياتهم عندما أصبحوا مستهلكين من غير أن يكون من ورائهم إنتاج؟!.

هذا لو كنا ننظر إلى الأمور بالمنظار المــادي وحده، فكيف ونحن علينا أولا أن نتقي الله وأن نحذر كل ما حذرنا منــه، وأن نتجنب كل ما نهانا عنه؟ وقد بين لنا النبي ﷺ أن كل ملابســة للخمر ملعونة، فقد لعنها الله ولعن معها عاصرها ومعتصرها وشاربها وســاقيها وبائعها ومشتريها وحاملها والمحمولة إليه وآكل ثمنها، فماذا يرجى من تجارة تخللتها اللعنة وأحاطت بها؟!!.

وأي بركة في المال الذي يأتــي من الخمر؟ فإنه ليــس بربح، وإنما هو خســار وبوار، والله تعالى تكفل بأرزاق عباده وهو القائل بعدما شرع ما كان يظن أنه يســد بابا من أبواب الرزق: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ التوبة: ٢٨، وقــال ســبحانه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ هود: ٦، وقــال ﷻ: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ الذاريات: ٢٢، فما على العباد إلا أن يســلكوا طريق الحق في طلب الرزق، وسيأتيهم رزقهم من عند ربهم غدوا وعشيا، وقد أغنى الله عباده بحلاله عن الحرام، وبطاعته عن الآثام، فما كان لهم أن يخالفوا أمره، ويعدلوا عما شرع إلى ما لم يشرع، ولو أن الناس طلبوا الرزق بطاعته تعالى لوجدوا من أبواب الرزق الحلال ما يغنيهم ويكفيهم مؤن الحياة، ويكفل لهم رغد العيش وطيبه، كيف وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ الطلاق: ٢ ـ ٣، وقــال ســبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ الطلاق: ٤.



وأعجب ممن لا يستحيي من الله الذي منه مبدؤه وإليه منقلبه أن يطلب رزقه بارتكاب ما حرم، مع أن آلاء الله تترى عليه ونعمه تحيط به من كل جانب، ومن أحق أن يستحيى منه من الله؟!!.

على أن السياحة الموقوفة على الاتجار في الخمر لا تأتي إلا بفساد الأخلاق ونسف القيم وانتكاس الشباب وانغماسهم في الموبقات، وأي خسارة على الأمة أشد من هذا؟!.

إن الأمة بحاجة إلى شباب صالح يتقي الله تعالى ويرعى حرماته، فإنه هو الحصن الحصين الواقي لمجتمعه من كل ما يضر به أو يهدد أمنه، وهو العين الساهرة التي تحرس الأمة وأخلاقها وجميع ثرواتها، وهو الأيدي القوية التي تبني الأمجاد وترفع دعائمها، وأين هذا كله من شباب يرتع في المحرمات، ويغدو ويروح يتسكع في الطرقات وهو يترنح من آثار الخمر ونشوتها؟!!.

لقد ربى رسول الله ﷺ حوله شبابا كانوا مثالا للشباب الصالح الواعد الطموح، في كل ما يتصف به من صفات العظمة والرفعة والوقار والورع والتقوى، وقد كان ذكرهم يزلزل عروش الظالمين، ويوجف قلوب الطغاة المستكبرين، فقد ذكر ابن الأثير أن هرقل سأل رجلا ممن اتبعه كان قد أسر مع المسلمين فقال: أخبرني عن هؤلاء القوم، فقال: أخبرك كأنك تنظر إليهم، هم فرسان بالنهار رهبان بالليل لا يأكلون في ذمتهم إلا بثمن ولا يدخلون إلا بسلام يقضون على من حاربوه حتى يأتوا عليه، فقال: لئن كنت صدقتني ليملكن موضع قدمي هاتين.

وروى ابن عساكر بإسناده إلى «من سمع يحيى بن يحيى الغساني يحدث عن رجلين من قومه من غسان، قال: لما كان المسلمون بناحية الأردن تحدثنا بيننا أن دمشق ستحاصر، فقال أحدنا لصاحبه هل لك أن تدخل المدينة فتتسوق من سوقها قبل حصارها؟ فبينا نحن نتسوق إذ أتانا رسول بطريقها اصطراخيه

فذهب بنا إليه، فقال: أنتما من العرب؟ قلنا: نعم، قال: وعلى النصرانية، قلنا: نعم، قال: ليذهب أحدكما إلى هؤلاء فليتجسس لنا من خبرهم ورأيهم وليتثبت الآخر على متاع صاحبه، ففعل ذلك أحدنا فلبث لبثا ثم جاءه، فقال: جئتك من عند رجال دقاق، يركبون خيولا مشاق، أما الليل فرهبان، وأما النهار ففرسان، يريشون النبل ويبرونها، ويثقفون القنا، لو حدثت جليسك حديثا ما فهمه عنك لما علا من أصواتهم بالقرآن والذكر، فالتفت إلى أصحابه، فقال: أتاكم منهم ما لا طاقة لكم به»[1].

وقد درج على هذا أهل الحق الذين عرفوا كيف يربون شبابهم ويصعدون بهم في مدارج العز والشرف، ويرتقون بهم في معارج الفضل والتقوى، فقد دفع أبو حمزة الشاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صدور الذي كانوا يسخرون من أصحابه بدعوى أنهم شباب أغمار سفيهة أحلامهم، فصعد منبر رسول الله ﷺ، وقال منتصرا لأولئك الشباب: «يا أهل المدينة، بلغني أنكم تنتقصون أصحابي قلتم شباب أحداث وأعراب جفاة، ويلكم يا أهل المدينة، وهل كان أصحاب رسول الله ﷺ إلا شبابا؟!.. شباب والله مكتهلون في شبابهم، غضية عن الشر أعينهم ثقيلة عن الباطل أقدامهم، قد باعوا الله عَزَّ وَجَلَّ أنفسا تموت بأنفس لا تموت، قد خالطوا كلالهم بكلالهم، وقيام ليلهم بصيام نهارهم، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن، كلما مروا بآية خوف شهقوا خوفا من النار وإذا مروا بآية شوق شهقوا شوقا إلى الجنة، فلما نظروا إلى السيوف قد انتضيت والرماح قد شرعت وإلى السهام قد فوقت وأرعدت الكتيبة بصواعق الموت؛ استخفوا وعيد الكتيبة، لوعيد الله عَزَّ وَجَلَّ، ولم يستخفوا وعيد الله لوعيد الكتيبة فطوبى لهم وحسن مآب فكم من عين في منقار طائر فاضت في جوف الليل من خوف الله عَزَّ وَجَلَّ، وكم من يد زالت عن مفصلها طالما اعتمد بها صاحبها في

(١) تاريخ دمشق ٩٦/٢ ـ ٩٧، وينظر البداية والنهاية، ١٦/٧.

سجوده لله، وكم من خدٍّ عتيق وجبين رقيق فلق بعمد الحديد، رحمة الله على تلك الأبدان، وأدخل أرواحها الجنان، أقول قولي هذا وأستغفر الله من تقصيرنا وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب»[١].

وليت شعري؛ أين هؤلاء الشباب الذين كانوا تنضح دخائلهم بالتقوى، وتتدفق خصالهم بالمكارم وتشع في أعماق قلوبهم أنوار الإيمان، فيتزاحم فيها خوف الله ورجاؤه ويتلاطم في جنباتها حبه والرغبة إليه، فينساقون إلى عبادته وطاعته آناء ليلهم وأطراف نهارهم، أين هؤلاء من شباب لا هم له إلا كؤوس الخمور، ومغازلة الحسان، والانسياق إلى الشهوات الدنيئة؟ ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ ص: ٢٨، وأنى يرتجى من هؤلاء ما يرتجى من أولئك، من نصرة الحق وعون الضعيف وإغاثة الملهوف؟.

وهذا ما يدعو كل مجتمع أن يفكر في شبابه، فلا يرضى إلا أن يجنب شبابه هذه الأمراض المعدية، التي تفتك بهم فلا تبقي منهم ولا تذر.

وإني ـ معذرة إلى الله تعالى ـ أكرر ما ناديت به أكثر من مرة من المطالبة بمنع الخمور؛ شربا وتجارة واستيرادا وتصديرا في البر والبحر والجو، حتى يسلم مجتمعنا من هذا الداء الفتاك، وكم دعوت إلى هذا في الخطب والمحاضرات ووسائل الإعلام، وفي خطاب المسؤولين، ولا أشك أن الكل يدرك ما أدركته، ويوقن بصواب ما أدعو إليه، لذلك أعجب من التصامم عن هذا النداء، وتجاهل هذا الواجب، مع أن الخير كله منوط به والشر بأسره معقود على الإعراض عنه، إذ الخمر باب كل شر، فقد روي

---

(١) الطبري: تفسير الطبري، ٣٢٩/٤ ـ ٣٣٠، الأصفهاني: الأغاني، ٢٥٠/٢٣، و٢٥٦، ابن الأثير: الكامل في التأريخ، ٥٠/٥، ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ٦٣/٥ و٦٦، شهاب الدين النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ٣٥/٢١، أحمد زكي: جمهرة خطب العرب، ٤٧٥/٢.



من طريق ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «**الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر من شربها وقع على أمه وخالته وعمته**»[(١)].

وفي رواية من طريق عبد الله بن عمرو: «الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر ومن شرب الخمر ترك الصلاة ووقع على أمه وعمته وخالته»[(٢)].

وروي عنه ﷺ أنها «**جماع الإثم**»[(٣)]، ولا غرو فكم ينشأ عن الخمر من فتنة ودمار، وارتكاب للموبقات وانتهاك للأعراض، وترك للواجبات وفساد في الأخلاق، وقد أدرك العقلاء من الناس حتى في أيام الجاهلية ما فيها من فساد وضرر، فـ«عن العباس بن مرداس أنه قيل له في الجاهلية: لم لا تشرب الخمر فإنها تزيد في جراءتك؟ فقال ما أنا بآخذ جهلي بيدي فأدخله جوفي، ولا أرضى أن أصبح سيد قوم وأمسى سفيههم»[(٤)]، وإذا كان من أهل الجاهلية من أدرك بفطرته أن شرب الخمر دناءة يترفع عنها الحليم، فكيف بمن يزعم أنه مسلم مؤمن بما أنزل الله في كتابه وما أخبر به رسوله ﷺ في سنته، ما باله يتجاهل ما علمه ويعرض عما صدقه فيرضى لنفسه الوقوع في هذه الدركات، والسقوط في هذه المهاوي؟!!.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/١٦٤، رقم ١١٣٧٢). وفي الأوسط (٣/٢٧٦، رقم ٣١٣٤)، والدارقطني (٤/٢٤٧).

(٢) أخرجه الطبراني كما في مجمع الزوائد (٥/٦٨).

(٣) أخرجه من طريق عقبة بن عامر الجهني ابن عساكر (٥١/٢٤٠). ومن طريق ابن مسعود أخرجه ابن أبي شيبة (٧/١٠٦، رقم ٣٤٥٥٢)، وأبو نعيم في الحلية (١/١٣٨). وهناد (١/٢٨٦، رقم ٤٩٧)، وابن عساكر (٣٣/١٧٩).

(٤) الرازي: التفسير الكبير، ٦/٤٠، والنيسابوري: تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ١/٦٠٤-٦٠٥، أبو حفص الدمشقي: اللباب في علوم الكتاب، ٤/٣٨، وابن حجر الهيثمي: الزواجر، ٢/٨٠٣، إسماعيل حقي الخلوتي: تفسير حقي، ١/٤٦٨، الألوسي: روح المعاني، ٢/١١٤.



المحور السابع

في السكوت عن المنكرات

لا يستوي المعروف والمنكر، كما لا يستوي النور والظلمة، فالمعروف تعرفه النفس وتنسجم معه الفطرة فلذلك سمي معروفا، والمنكر تنكره النفس وتأباه الفطرة فلذلك سمي منكرا، وفي موازين القسط التي أنزلها الله تعالى المعروف، هو ما وافق شرع الله، والمنكر ما خالفه، ولا يخفى أن المؤمن الذي رضي بالله ربا وبالإسلام دينا، وبالقرآن حجة ودليلا، وبمحمد ﷺ هاديا وإماما، لا يقر ما كان بخلاف أمر الله ورسوله، ولا ينكر ما اقتضاه أمرهما، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ الأحزاب: ٣٦.

وعليه؛ فإن المؤمن بفطرته يأبى إقرار المنكر كما يأبى الإعراض عن المعروف، وقد دل القرآن الكريم على ضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لقطع داعية الفساد ونشر الخير بين الناس، فقد قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ آل عمران: ١٠٤، ونبه على أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حياة الأمة، وأن خيرية هذه الأمة مرهونة بالقيام بذلك، إذ ذكرهما قبل الإيمان بالله في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ آل عمران: ١١٠، وقبل إقام الصلاة وإيتاء الزكاة في قوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ

وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ التوبة: ٧١، وما ذلك إلا لأن في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضمانا لبقاء الإيمان بالله واستمرار إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وفي تركهما إضاعة لواجبات الدين كلها من الإيمان والعمل.

وبينت آية التوبة أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هما معقد ارتباط هذه الأمة بعضها ببعض بعد إيمانها، فقد وصف الله المؤمنين والمؤمنات بأن بعضهم أولياء بعض وأتبع ذلك ما ذكره من مقومات هذه الولاية التي تربط بينهم وتجعلهم في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر، وأول ما ذكره من هذه المقومات أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ذلك لأنهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يشيعون الخير في الأمة، ويدفعون الشر عنها، فينتج عن ذلك امتثالها لأمر الله، وازدجارها عن نهيه، وأداء ما عليها من الحقوق لله ولعباده، وبشيوع ذلك يكون بينهم التراحم والتلاحم والتعاون على الخير، والتناصح في ذات الله تعالى، فلا يبقى معوج إلا قوم، ولا غاو إلا أرشد، ولا غافل إلا نبه.

وبيّن سبحانه أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هما جندان من جنوده، يعز بهما الله سبحانه من اعتصم بحبله وأوى إلى ركنه وحفظ له عهده، فقد قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۞ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ الحج: ٤٠ ـ ٤١، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ بجانب طاعته تعالى المطلقة، التي رمز إليها بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ـ تجسيد للقيام بنصر الله تعالى الذي يستحق به العبد من الله نصره وتأييده وعونه وتوفيقه، فأي تفريط في ذلك إنما هو تفريط في أقدس المقدسات وأجل الواجبات.

وقد بيّن الله سبحانه أن السكوت عن المنكر مع ظهوره وشيوعه موجب للعنة الله تعالى وسخطه، فقد قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ المائدة: ٧٨ ـ ٧٩، ولا يعني ذكر هذا في بني إسرائيل أنه محصور بينهم، فإنه منوط بهذا الوصف، فأينما وجد تحقق هذا الحكم، ويعزز ذلك حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل، فيقول: يا هذا، اتق الله ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض،** ثم قال: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ﴾ المائدة: ٧٨ إلى قوله: ﴿فَٰسِقُونَ﴾ المائدة: ٨١، ثم قال: **كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يدي الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا ولتقصرنه على الحق قصرا أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم يلعنكم كما لعنهم**»[١].

وعن أبي موسى الأشعري عنه ﷺ بلفظ: «**إن من قبلكم من بني إسرائيل إذا عمل العامل منهم الخطيئة فنهاه الناهي تعزيرا فإذا كان من الغد جالسه وواكله وشاربه كأن لم يره على خطيئته بالأمس، فلما رأى الله ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم على بعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، والذي نفس محمد بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر، ولتأخذن على أيدي المسيء ولتأطرنه على الحق أطرا، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، ويلعنكم كما لعنهم**»[٢].

---

(١) أخرجه أبو داود (١٢١/٤، رقم ٤٣٣٦)، والبيهقي (٩٣/١٠، رقم ١٩٩٨٣).

(٢) أخرجه الطبراني كما في مجمع الزوائد (٢٦٩/٧)، والشجري في أماليه (٢٣٠/٢).

هذا؛ ولا يتوقف وجوب الأمر بالمعـروف والنهي عن المنكر على رجاء امتثال المأمور المنهي فإن من رأى منكرا وجب عليه تغييره ولو كان آيسا من انتهاء مرتكبه عنه، فالله تعالى أمر بدعوة الكفار إلى الإسـلام حتى مع اليأس من إسلامهم فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ البقرة: ٦ ـ ٧، ومع ذلك لم يعذر النبي ﷺ من دعوتهم، كما قال: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ۝ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝ إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ۝ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ۝ وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ يس: ٦ ـ ١٠.

وعندما حكى الله تعالى قصة بني إسـرائيل وعدوانهم في السبت ذكر أنهم كانوا ثلاث فئات، فئة اعتدت ولم تبال بنهي الله سـبحانه، وفئة قامت بواجب الإنكار عليهم، وفئة كانت سلبية سكتت عن المنكر وإن لم ترتكبه، بل عذلت الذين نهوهم بدعوى أن كلمة الله قد حقت عليهم فلا تجدي فيهم الموعظة، ثم بين كيف كانت العاقبة عندما قال: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ۝ وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ۝ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ الأعراف: ١٦٣ ـ ١٦٥، فقد ذكر سبحانه أنه أنجى الذين ينهون عن السـوء وأهلك من عداهم، قال ابـن عباس: «كانوا أثلاثا: ثلث نهـوا، وثلث قالـوا: [لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ] وثلث أصحاب الخطيئة، فما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم»[1].

---

(١) ابن كثير: تفسير ابن كثير، ٤٩٦/٣.

أما ما رواه الحاكم عن عكرمة أنه قال: قال ابن عباس: «فأسمع الله يقول ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ الأعراف: ١٦٥، فلا أدري ما فعلت الفرقة الثالثة؟ قال ابن عباس: فكم قد رأينا من منكر فلم ننه عنه، قال عكرمة: فقلت: ما ترى جعلني الله فداك؟ إنهم قد أنكروا، وكرهوا حين قالوا لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا؟ فأعجبه قولي ذلك، وأمر لي ببردين غليظين فكسانيهما»[1]، فإن في نفسي منه شيئا، وإن قال الحاكم: «حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ذلك لأن الله تعالى أنكر على بني إسرائيل سكوتهم عن المنكر بل لعنهم على ذلك، كما هو منصوص عليه في قوله: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۞ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ المائدة: ٧٨ ـ ٧٩، فلم يقصر اللعن على المعتدين وحدهم وإنما عمم ذلك في الذين ركبوا المنكر والذين سكتوا عنه، وقد علمت مما تقدم من الروايات أنهم كان منهم من ينكر ولكنه لا يلبث مع إنكاره أن يعاشر من وقع في المنكر، فلعنهم الله جميعا، وهؤلاء كانوا عاذلين للذين نهوا عن السوء بقولهم: [لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ]، ومجموع هذا كله يدل على أن الصواب في هذا ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «فما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم».

ولا يخفى على ذي لب أن سكوت الناس عن المنكر من غير أن تنكره ألسنتهم وتشمئز منه قلوبهم وتنفر منه طباعهم هو سبب لألفته، وتدرج الناس من منكر إلى آخر، فإن كل مصيبة تجر وراءها مصائب، والشيطان يستدرج أولياءه، ويَدُعُّهُم في الموبقات دَعًّا، أما إن عافوا المنكر ورفعوا عقيرتهم بإنكاره ونفروا منه فإن ذلك يصبح حاجزا بينهم وبين ارتكابه، وبسبب ذلك

(١) الحاكم: المستدرك على الصحيحين، ٣٥٢/٢.

كان الأمر بالمعروف والتناهي عن المنكر معقد ارتباط المؤمنين والمؤمنات بعضهم ببعض، وسببا متينا لاستمرار ولايتهم ونمو قوتهم، ولأجل هذا عقد الله تعالى نصره للمؤمنين على الأمر بالمعــروف والنهي عن المنكر بجانب إقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

وقد بيّن النبي ﷺ خطورة ترك الأمر بالمعــروف والنهي عن المنكر، وما يجره على الناس من فساد وبلاوى فقد روي من طريق أبي هريرة عند أبي يعلى في **مسنده** ومن طريق أبي أمامة الباهلي عند ابن أبي الدنيا في **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر** أنه ﷺ قال: «**كيف أنتم إذا طغى نســاؤكم، وفسق شبابكم، وتركتم جهادكم؟**»، قالوا: وإن ذلك لكائن يا رســول الله؟، قال: «**نعم، والذي نفسي بيده، وأشد منه سيكون**»، قالوا: وما أشد منه يا رسول الله؟، قال: «**كيف أنتم إذا لم تأمــروا بالمعروف، ولم تنهوا عــن المنكر؟**»، قالــوا: وكائن ذلك يا رسول الله؟ قال: «**نعم، والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون**»، قالوا: وما أشد منه يا رســول الله؟، قال: «**كيف أنتم إذا رأيتم المعروف منكرا، ورأيتم المنكر معروفا؟**»، قالوا: وكائن ذلك يا رسول الله؟ قال: «**نعم، وأشد منه سيكون، يقول الله تعالى: بي حلفت، لأتيحن لهم فتنة يصير الحليم فيهم حيرانا**»[(١)].

والحديث وإن ضعف من حيث الإسناد فإن شــواهد الأحوال تدل عليه، فكم استدرج الشيطان أقواما في المنكرات شيئا فشيئا، حتى لم يعودوا ينكرون منكــرا أو يعرفون معروفا، بــل زادوا على ذلك باعتقادهــم المعروف منكرا والمنكر معروفا، فإذا دعاهم داعٍ إلى الحق وحذرهم من الاستمرار في غيهم وعماهم أنفوا من دعوته واستنكفوها، واتهموه في عقله ودينه وأخلاقه، وكان عندهم عرضة للسخرية، ونبزهم له بالألقاب، ولمزهم إياه بجوارح الكلمات، وكم تواتر عليهم بسبب ذلك من فتن عمياء أطبق عليهم ليلها البهيم فلم يعرفوا المخرج منها، وظل ذوو الأحلام منهم حيارى.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الأمر بالمعروف (٧٦/١) وأبو يعلى في مسنده (٣٠٤/١١ رقم: ٦٤٢٠).

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حق على كل مسلم:

دل الحديث الشريف على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان على كل مكلف، وإنما تختلف كيفية الأمر والنهي بحســب ما أوتوا من قوة، فعن أبي سعيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع أن يغيره بيده فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**»[(١)].

فتراه أوجب على كل من رأى منكرا تغييره، فمن قدر على تغييره بيده كان ذلك هو الواجب في حقه، فمن لم يســتطع فعليه أن يغير بلســانه، ومن لم يستطع عاد إلى أضعف الإيمان؛ وهو أن يغيره بقلبه، وذلك أن يمتعض من هذا المنكر ويكرهه ويكره راكبه تقربا إلى الله تعالى، أما لو لم يكن ذلك منه فإنه ـ بلا ريب ـ يسري أثر ذلك المنكر في نفسه، فيتساوى أولا في نفسه ارتكابه وتركه، ولا يزال الشيطان يقدح في عقله حتى يحببه إليه فيهون عليه ارتكابه، ولهذا كان تغييره بالقلب هو أضعف درجات الإيمان.

---

(١) أخرجــه الطيالســي (ص٢٩٢، رقم ٢١٩٦)، وأحمــد (٤٩/٣، رقم ١١٤٧٨)، وعبد بــن حميد (ص٢٨٤، رقم ٩٠٦) ومسلم (٦٩/١، رقم ٤٩) وأبو داود (٢٩٦/١، رقم ١١٤٠)، والترمذي (٤٦٩/٤، رقم ٢١٧٢) وقال: حســن صحيــح. والنســائي (١١١/٨، رقم ٥٠٠٨)، وابن ماجــه (١٣٣٠/٢، رقم ٤٠١٣)، وابن حبان (٥٤١/١، رقم ٣٠٧). وأبو يعلى (٢٨٩/٢، رقم ١٠٠٩)، والبيهقي (٩٠/١٠، رقم ١٩٩٦٦)، وأبو نعيم في الحلية (٢٨/١٠).



المحور الثامن

فيما يتعلق بالأموال

المال من نعم الله تعالى إن أحسن التصرف فيه، وهو من أشد النقم إن أسيء فيه التصرف، فهو صارم ذو حدين، إما أن يمضي في الخير فيعود بالصلاح والتعمير، وإما أن يمضي في الشر فيعود بالفساد والتدمير، وقد جبلت النفوس على حبه حبا جما، كما قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ الفجر: ٢٠، وقال في وصف الإنسان: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ العاديات: ٨، ومع ذلك كله فهو مال الله تعالى، وما الإنسان إلا مستخلف فيه ومؤتمن عليه، فقد قال تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ النور: ٣٣، وقال: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ الحديد: ٧، لهذا لم تطلق يد الإنسان فيه ليكتسبه بأي وجه وينفقه في أي وجه وعلى أي كيفية، لأن الخليفة لا يتصرف فيما استخلف فيه إلا بحسب ما أذن له من استخلفه.

لا بد من صون النعم بطاعة الله تعالى حتى لا تتحول إلى نقم:

قد علم الله تعالى طبائع العباد وما تنجذب إليه نفوسهم وما تنفر منه، وكم من شر تنجذب إليه، وكم من صلاح تأباه وتنفر منه، ولأجل ما وقر في نفوس الناس من حب المال حبا جما ـ يعمي مداركهم ويفسد فطرهم، ويغوّر في طبائعهم ينابيع الخير والفضل ـ كان لا بد من علاج لهذه الشهوة الجامحة المستعصية على أي علاج ما عدا العلاج الرباني الصادر عن الله، الذي يعلم

مسارب النفس ومداخلها ويحيط بكل منافعها ومضارها، ويدرك جميع دوافعها وجواذبها؛ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ الملك: ١٤، لأجل هذا أتى وحي الله تعالى بهذا العلاج الرباني الشافي؛ الذي لو أخذ به جميع الناس لجللت الأرض ومن عليها الرحمة والألفة والمودة والحنان، وانحسر كل ما يعتمل في النفوس من حسد وحقد وكراهة وشنآن، وانطفأ كل ما يستعر بينهم من فتن يأتي ضرامها على الأخضر واليابس، ويهلك الحرث والنسل، ويجتاح الطارف والتليد.

ضرورة التقيد بحكم الله تعالى في كسب المال وإنفاقه:

العلاج الرباني يتعلق في المال بكلا الطرفين، طرف الكسب وطرف الإنفاق، فلم يكن للإنسان أن يكسب المال من أي وجه كان، وإنما عليه أن يتقيد في كسبه بطلب الحلال الطيب الذي يبارك له فيه ولا يؤثر في نفوس بني جنسه إلا الخير والود والشفقة والوئام، فلا يثري على حسابهم، ولا يهتم بنفسه ويغض الطرف عنهم، وإنما يكتسبه بطريقة لا تضر بأحد، فإن اتجر وربح كانت تجارته في إطار الفضيلة والمنفعة المشتركة، ليس فيها استغلال لحاجة محتاج، وإنما فيها بسط المعروف لجميع الناس، ولذلك يجدون جميعا فيه الخير والرحمة، لأن من شروط الاتجار في الإسلام أن يكون بعيدا عن جميع أنواع الغرر، فلا يتجر إلا فيما هو حاضر معروف بنوعه ووصفه وبقدره وثمنه، اللهم إلا أن تكون تجارة بطريقة السلم، ومن شرط ذلك أن يكون السلم في شيء معروف نوعه ووصفه وقدره وثمنه، وأن يكون إلى أجل معلوم وبوزن معلوم أو كيل معلوم، فلا يكون في ذلك غرر على بائع ولا مبتاع.

وما كانت إباحة السلم إلا لرفع الحرج عن الناس والتيسير لهم فالبائع يقضي مآربه بما يقبضه من الثمن الذي يعينه على ممارسة مهمته في إعداد البضاعة ليقدمها للمشتري في ميقاتها المعلوم بحدها ووصفها، والمشتري يجد مصلحته في ضمان ما يحتاج إليه من البضاعة التي أسلم فيها، ولو قدم ثمنها.

وقد شدد الإسلام في كل المعاملات ذات الغرر، فلذلك منع من بيع الغلة قبل دراكها، ومن بيع ما هو مستور كالثمار التي تكون في أصول الزرع قبل أن تجنى، ومثل ذلك ما كان مستورا في ظروفه وأوعيته ولم تتبين كيفيته للمتعاملين، وجعل كل معاملة بدون هذه الشروط من أكل أموال الناس بغير حق، فعن جابر بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ قال: «**من باع ثمرا فأصابته جائحة، فلا يأخذ من مال أخيه شيئا، علام يأخذ أحدكم مال أخيه المسلم؟**»[(١)].

وجاء وعيد ذلك في القرآن مقرونا بوعيد قتل النفس المحرمة بغير حق، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ۝ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ النساء: ٢٩ ـ ٣٠، وليس هذا الاقتران بين أكل الأموال بغير حق وبين سفك الدم الحرام إلا دليلا على خطورة أمر المال، وأنه قرين النفس في الحرمة، وجاء الحديث مضيفا إليهما عرض المسلم، وذلك في مقام عرض ما يجب أن يكون بين المسلمين من حرص كل أحد منهم على مصلحة الآخرين، وتوقير بعضهم لبعض وعدم تجني أحد منهم على غيره، وما يجب أن يكون بينهم من وحدة الشعور التي تجعل كلا منهم يتألم بما يصيب أخاه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى ههنا** ـ ويشير إلى

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٧٤٧/٢، رقم ٢٢١٩)، والدارمي (٣٢٨/٢، رقم ٢٥٥٦)، وابن الجارود (ص١٦١، رقم ٦٣٩)، وابن حبان (٤١٠/١١، رقم ٥٠٣٤)، والدارقطني (٣٠/٣)، والحاكم (٤٢/٢، رقم ٢٢٥٦) وقال: صحيح على شرط الشيخين. وأخرجه أيضا: النسائي (٢٦٥/٧، رقم ٤٥٢٨)، والطبراني في الأوسط (٣٣/٧، رقم ٦٧٦٨)، والطبراني في الشاميين (٢٨٩/١، رقم ٥٠٤)، والديلمي (٤٨٧/٣، رقم ٥٥١١).

صدره ثلاث مرات ـ **بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»**[(١)].

الربا الظاهر والمبطن حرب بين المتلبسين به وبين الله:

أما الربا فبكل صنوفه وأبوابه شدد فيه الإسلام وعده حربا بين الوالجين فيه وربهم سبحانه، فقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ﴾ البقرة: ٢٧٨ ـ ٢٧٩، وهو ملعون وملعون معه كل من مد يده به أخذا أو عطاء أو شارك في التعامل به بأي وجه، فعن جابر رضي الله عنه قال: «لعن رسول الله ﷺ آكل الربا، وموكله، وشاهديه، وكاتبه» وقال: «هم سواء»[(٢)].

ولا يحصر الربا في الظاهر المكشوف، فإن المراباة في أموال الناس بالتحايل والمكر وابتزازها تحت الشعارات الخادعة لا يقل شيء من ذلك عن الربا الصريح في الإثم واستحقاق اللعن والوعيد الشديد، بل هو أعظم حرمة وأشد وعيدا، لأنه ـ مع مشاركته للربا المكشوف في أكل أموال الناس بغير حق واتخاذ حاجتهم وفاقتهم سبيلا إلى ابتزاز ثرواتهم ـ هو ضرب من النفاق لا يتولد إلا من انحراف المعتقد، فإن من يقدم عليه إنما يقدم على مخادعة الله تعالى، والمخادعة ظاهرة بما يضفيه على هذه المعاملة من صور يظن الجهلة المغرورون أنها من أنواع المعاملات المحللة، واعتقاد أن ذلك له تأثير على حكم الله تعالى إنما هو اعتقاد بأنه سبحانه يمكن أن يكون عرضة للخداع وأنه يتأثر بحيل عباده، وهو تجاهل للنصوص القاطعة الدالة على أن الله لا يخفى

---

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٧٧، رقم ٧٧١٣)، ومسلم (٤/١٩٨٦، رقم ٢٥٦٤). وأخرجه أيضا: البيهقي (٦/٩٢، رقم ١١٢٧٦).

(٢) أخرجه مسلم (٣/١٢١٩، رقم ١٥٩٨)، وأبو عوانة (٣/٣٩٥ رقم: ٥٤٥٥).



عليه ما يخطر بالنفوس وما تنطوي عليه الضمائر وما يتلجلج في أعماق الصدور كما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ آل عمران: ١٥٤، وقوله: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ البقرة: ٢٨٤.

وإذا كان هذا التصرف لا يأتي إلا من النفاق العقدي الذي يظن صاحبه أنه قادر على مخادعة الله تعالى، فإن جزاء المنافقين بينه سبحانه في قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾ النساء: ١٤٥.

ومن هذا الباب؛ ما شاع عند كثير من الجهلة المغرورين، بل ومن بعض أدعياء العلم، من التعامل ببيوع الإقالة معاملة ليس وراءها إلا ابتزاز الثروات، والاستكثار من المال من غير مبالاة من أي باب يدخل على صاحبه، وهي معاملة ظاهرها بيع وباطنها ربا غليظ، وقد طرق سمعي كثير من الأصوات مستنكرا بعض المعاملات في المصارف الإسلامية، وهذا أمر لا بد من التفطن له لئلا يكون شعار الإسلام في هذه المصارف وسيلة إلى المعاملات الربوية المحرمة، وإنما يجب أن يكون شعار الإسلام لا يواري تحته إلا ما يقره الإسلام من المعاملات الشرعية، التي جعل الله فيها غنى للعباد عما حرم عليهم من الربا، ولا يخفى أن الإسلام كله طهر وعفة ورحمة، فيجب أن لا يلز به شيء مما يكدر صفوه ويشوب طهره.

وإنني لأهيب بمجالس الإدارة وهيئات الرقابة في هذه المصارف أن تتحرى السلامة في هذه المعاملات، وأن لا تدفع بالناس إلى مخاطر ورجس المعاملات الربوية، وأن لا يدعوا الحزم فيها وإن كانوا مطالبين بالتيسير فيما يسره شرع الله تعالى منها ليجد الناس في كنف هذه المؤسسات المالية ما يغنيهم عن الرجوع إلى المؤسسات الربوية، كما أهيب بلجان الفتوى ودور الإفتاء بأن يكون لها دور بارز في تنقية المعاملات التي تدور في أنحاء هذه المصارف من كل شوائب الربا، وأن تطهرها من رجس الحرام كله لتغدو إسلامية مخبرا ومظهرا، والله تعالى المستعان.

التشديد في وعيد من أخذ المال بغير حقه:

جاءت بهذا روايات كثيرة متضافرة، كما تضافرت الروايات في وعيد أكل المال بغير حقه، فعن ابن عباس رضي الله عنهما عند الربيع رحمه الله: عن النبي ﷺ قال: «**القليل من أموال الناس يورث النار**»[(١)].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عند الربيع رحمه الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**من اقتطع حق مسلم بيمينه حرم الله عليه الجنة وأوجب له النار**»، قال له رجل: وإن كان شيئا يسيرا يا رسول الله ﷺ؟ فقال رسول الله ﷺ: «**وإن كان قضيبا من أراك**»[(٢)]، ورواه غيره من طريق أبي أمامة الحارثي رضي الله عنه[(٣)]، وجابر بن عتيك[(٤)]، وعن الحارث بن البرصاء الليثي قال: سمعت النبي ﷺ في الحج وهو يمشى بين الجمرتين وهو يقول: «**من اقتطع مال أخيه المسلم بيمين فاجرة فليتبوأ مقعده من النار، ليبلغ شاهدكم غائبكم**»[(٥)].

وقد تضافرت الروايات في أكل أموال الناس بغير حق مؤذنة بأشد الوعيد وأسوأ المصير لمن وقع في ذلك، فعن وائل بن حجر رضي الله عنه قال: «كنت عند رسول الله ﷺ، فأتاه رجلان يختصمان في أرض، فقال أحدهما: إن هذا انتزى على أرضي يا رسول الله في الجاهلية ـ وهو امرؤ القيس بن عابس الكندي، وخصمه ربيعة بن عبدان ـ قال: «**بينتك**» قال: ليس لي بينة، قال: «**يمينه**» قال:

---

(١) أخرجه الربيع (ص ٢٦٨ رقم: ٦٩٠).

(٢) أخرجه الربيع (ص ٢٥٩ رقم: ٦٦٠).

(٣) أخرجه أحمد (٢٦٠/٥، رقم ٢٢٢٩٣)، ومسلم (١٢٢/١، رقم ١٣٧)، والنسائي (٢٤٦/٨، رقم ٥٤١٩)، وابن ماجه (٧٧٩/٢، رقم ٢٣٢٤)، والدارمي (٣٤٥/٢، رقم ٢٦٠٣)، وأبو عوانة (٤٠/١، رقم ٨٨)، والطبراني (٢٧٤/١، رقم ٧٩٧).

(٤) أخرجه ابن قانع (١٤١/١)، والطبراني (١٩٢/٢، رقم ١٧٨٢)، والحاكم (٣٢٨/٤، رقم ٧٨٠٤) وقال: صحيح الإسناد.

(٥) أخرجه الحاكم (٣٢٨/٤، رقم ٧٨٠٣) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه بهذه السياقة، ووافقه الذهبي.

إذن يذهب بهـا، قال: «**ليس لك إلا ذاك**»، قال: فلما قام ليحلف، قال رسول الله ﷺ: «**من اقتطع أرضا ظالما، لقي الله وهو عليه غضبان**»[(١)].

المال العام يجب الاحتراز من الاعتداء عليه كالمال الخاص أو أشد:

لا فرق في الحرمة والوعيد بين الأموال الخاصة والمال العام، ناهيك أن الله تعالى شدد في الغلول في كتابه، في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ آل عمران: ١٦١، فليس لأحد أن يسول لنفسه الأخذ من المال العام بغير حق بدعوى أنه شريك فيه بما له فيه من حق مشاع، وقد أنذر النبي ﷺ أصحابه فحذرهم من ذلك أيما تحذير، كما في حديث أبي هريرة عنه أنه قال: «**لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء يقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئا قد بلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حممة فيقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئا قد بلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء يقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئا قد بلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح فيقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاع يخفق فيقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت فيقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك**»[(٢)].

---

(١) أخرجه أحمد (٣١٧/٤، رقم ١٨٨٨٣)، ومسلم (١٢٤/١، رقم ١٣٩).

(٢) أخرجه أحمد (٤٢٦/٢، رقم ٩٤٩٩)، والبخاري (١١١٨/٣، رقم ٢٩٠٨)، ومسلم (١٤٦١/٣، رقم ١٨٣١). وأخرجه أيضا: أبو عوانة (٣٩٦/٤، رقم ٧٠٧٧)، وابن حبان (١٨٢/١١، رقم ٤٨٤٧)، والبيهقي (١٠١/٩، رقم ١٧٩٨٥).

ومن طريقه أيضا أنه قال: خرجنا مع رســول الله ﷺ إلى خيبر، فلم نغنم ذهبا ولا فضة، إنما غنمنا المتاع والأموال، ثم انصرفنا نحو وادي القرى، ومع رسول الله ﷺ عبد أعطاه إياه رفاعة بن بدر ـ رجل من بني ضبيب ـ فبينما هو يحط رحل رسول الله ﷺ إذ أتاه سهم عائر فأصابه فمات فقال له الناس هنيئا له الجنة فقال رسول الله ﷺ كلا والذي نفسي بيده إن الشملة التي غلها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه نارا فجاء رجل إلى رسول الله ﷺ بشراك أو شراكين، فقال رسول الله ﷺ: «**شراك من نار أو شراكان من نار**»[(١)].

وفي هذا ما يكفي مزدجرا لمن يتلاعبون بالمال العام ويثرون على حسابه ولا يبالون بتبذيره، وإذا كان صاحب الحق في المال الخاص قد يعفو عن حقه فتسقط التبعة عمن اعتدى عليه، فمن الذي يملك العفو عن المال العام الذي لكل فيه حق من اليتامى والمساكين والفقراء والمحتاجين بأي وجه؟!.

إنفاق المال يجب أن لا يخرج عن الإطار الشرعي الذي أذن به الله:

إذا كان الإســلام تشــدد في أخذ المال واحتيازه، فإن تشدده في الإنفاق لا يقل عن ذلك ولو اكتســبه صاحبه من وجوه محللة خالصة، إذ ليس له أن ينفقه كما يملــي عليه هواه، وإنما ينفقــه فيما أذن بــه الله تعالى، لأن الله في الحقيقة هو مالكه ومالك من ملَّكه له، وما هذا التمليك إلا اســتخلاف، فهو مستخلف فيه ومؤتمن عليه، وسيحاسب يوم القيامة على إنفاقه وعلى كسبه.

فعن أبي برزة الأســلمي ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن: عمره فيم أفناه؟ وعن علمه ما فعل به؟ وعن ماله**

---

(١) أخرجه الربيع (١٩١ رقم: ٤٧٠)، والبخاري (١٣٨/٥ رقم: ٤٢٣٤)، ومســلم (١٠٨/١ رقم: ١١٥)، والحاكم (٤٢/٣ رقم: ٤٣٤٧)، وابن حبــان (١٨٨/١١ رقم: ٤٨٥١) وأبو داود (٦٨/٣ رقم: ٢٧١١) والبيهقي في الكبرى (١٧٠/٩ رقم: ١٨٢٠٢).

من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ وعن جسمه فيم أبلاه؟»[(١)]، وجاء مثله من طريق معاذ ﵁ عند البزار[(٢)] والدارمي[(٣)]، ومن طريق ابن مسعود ﵁ عند البزار[(٤)].

لهذا كان الإنسان مأمورا بالقصد في إنفاق ماله بين طرفي التبذير والتقتير، فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾ الإسراء: ٢٩ ـ ٣٠، وقال: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ۞ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا﴾ الإسراء: ٢٦ ـ ٢٧، وقال تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ الأعراف: ٣١، وقال: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ الأنعام: ١٤١.

وإذا كان الإنسان لا تطلق يده في إنفاق ماله فيما أمره تعالى بالإنفاق فيه، وإنما عليه أن ينفق بقدر ما ينفع غيره، ولا يضر بنفسه، فما بالك بما حرم الله تعالى عليه أن ينفق فلسا فيه من الوجوه المحرمة؟!.

ويدخل في ذلك إنفاق المال مخيلة وإسرافا كالذين لا يبالون بما يقدمونه للضيوف من صنوف الأطعمة التي قد لا تمتد إليها يد، ولا تسد فراغا في معدة جائع، ولا تجد من ينتفع بها من الناس، وإنما تلقى في المزابل وتلوث بها البيئة، ويكفي صاحبها ما يتخيل أنه يكسبه من الناس من حمده والثناء عليه بأنه جواد كريم.

---

(١) أخرجه الترمذي (٦١٢/٤، رقم ٢٤١٧) وقال: حسن صحيح. وأبو يعلى (٤٢٨/١٣، رقم ٧٤٣٤)، وأبو نعيم في الحلية (٢٣٢/١٠).

(٢) ينظر مسند البزار (٨٧/٧ رقم: ٢٦٤٠).

(٣) ينظر سنن الدارمي (ص١٩٦/٥٧٥).

(٤) ينظر مسند البزار (٢٦٦/٤، رقم: ١٤٣٥).



هذا؛ في حين أن جماعات من الناس غير قليلة تبيت طاوية تتضور جوعا، ولا تكاد تجد ما تقتات به، وقد نما إلي أن جماعة من الناس وجدوا عاملة في بلاد عربية أمام أكـوام من اللحوم والأطعمة، وهي تبكي بكل حسـرة وألم، فسألوها عما يبكيها؟ فأجابت: بأن أهل البيت الذي تعمل فيه أمروها أن تلقي هذه الأطعمة في المزابل وأولادها في دارها لا يجدون ما يقتاتون به.

البطر بالنعمة سرعان ما يحولها إلى نقمة:

كم جرَّ هذا البطر الناشئ عن الغرور بالغنى على أهله من مصائب ومحن لم تقف عند حد، وقد أنذر الله تعالى الذين بطروا معيشـتهم بهلاك في الدنيا يجعلهم عبرة في الأمم وعظة لمن كان له قلب، فقد قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ القصص: ٥٨.

وكم شاهدنا في حياتنا هذه من أحداث عظام قوضت أمما ما كانت تحسب أن دائرة الزمن سـتدور عليها، ولا كان يدور بخلدها أن الدهر بعد أن أسلس لهم قياده سينقلب عليهم، وسيسلب منهم ما كانوا يتقلبون في أعطافه من أنواع النعيم، وسيجردهم مما ألبسهم من ثياب العز والفخار، فكم تفجر في التاريخ الجديد من ثورات مدمرة أهلكت الأخضر واليابس، واجتاحت الطارف والتليد بشؤم البطر والإغراق في الترف.

وقد أنذر المفكر الإسلامي الكبير الشـيخ العلامة أبو الحسن علي الحسني الندوي العرب بهذه الثورات العنيفة قبل أن تظهر طلائعها، وذلك عندما كان يفتح عينيه في عواصمهم الكبرى فيرى من نذر العذاب ما يؤذن بشر مستطير، وقد أرسل كلماته في كتابه **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين** مدوية بالإنذار والتحذير من عاقبة الغرور بما هم فيه من الترف، ونسيان ما يعقبه من التلف الذي يأتي على كل شيء ويبيد الأمم حتى تكون خَبَرًا بعد خُبْرٍ وأثرا بعد عين، وذلك في قوله:

«وقد اعتاد العرب لأسباب كثيرة وبتأثير الحضارة الغربية حياة الترف والدعة والاعتداد الزائد بالكماليات وفضول الحياة والإسراف والتبذير، والاستهانة بمال الله في سبيل اللذة والشهوة والفخر والزينة.

وبجانب هذا الترف والنعيم وحياة البذخ والتبذير، جوع وعري وفقر فاضح، يرى الناظر مناظره الشائنة في عواصم البلاد العربية فتدمع العين ويحزن القلب وينتكس الرأس حياء وخجلاً، فبينا هنالك رجل عنده فضول الثياب وزائد الطعام والشراب لا يعرف كيف يستهلكه، إذ ببدوي لا يجد قوت يومه وكسوة جسمه، وبينما أمراء العرب وأغنياؤهم على سيارات تباري الريح وتثير النقع، إذا بفوج من النساء والأطفال عليهم ثياب سوداء قد أصبحت خيوطاً من طول اللبس يعدو لأجل فلس أو قرص، فما دامت المدن العربية تجمع بين القصور الشامخة والسيارات الفاخرة، وبين الأكواخ الحقيرة والبيوت المتداعية الضيقة المظلمة، وما دامت التخمة والجوع يزخران في مدينة واحدة، فالباب مفتوح على مصراعيه للشيوعية والثورات والاضطراب والقلق لا تقفها دعاية ولا قوة، وإذا لم يسد النظام الإسلامي في بلاده بجماله واعتداله يحل محله نظام جائر بعسفه وقهره عقاباً من الله كرد فعل عنيف»[(١)].

وما لبث بعد هذا الإنذار إلا قليلا حتى أبصر بأم عينيه كيف تفجرت الثورات في بلاد العرب براكين تقذف حمما أهلكت الأرض ومن عليها، وكان المترفون بعنجهيتهم وغرورهم هم مادة تفجيرها ووقود سعيرها.

الترف والتلف متقاربان في اللفظ ومتآخيان في المعنى:

كم في القرآن الكريم من تبصير بهذه الأحوال فكم فيه من إنذار للمترفين بهلاك الدنيا والآخرة، فقد ذكر الله تعالى ما أصاب الأمم من عقاب في الدنيا بسبب ترفهم وغرورهم كما في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ

---

(١) أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص ٢٤٨.

ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۞ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۞ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴾ الأنبيـاء: ١١ ـ ١٣، وقال سبحانه: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ۞ لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴾ المؤمنون: ٦٤ ـ ٦٥، وبين تعالى أن ما يصيب القرى من دمار وعذاب يأتي على القليل والكثير إنما منشـؤه فسـوق المترفين عندمـا يتركون وغيهم وغرورهم، ولا يقبض على أيديهم ليردوا إلى جادة الحق، فقد قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ۞ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ الإسراء: ١٦ ـ ١٧.

وعندما ذكر الله تعالى عقاب الآخرة وأسـبابه صدر بذكر الترف من بين سائر أسبابه، فبعد أن ذكر أصحاب الشمال في سورة الواقعة وما أعد لهم من سوء العذاب أتبعه قوله: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ الواقعة: ٤٥، وذكر تعالى تكذيب الرسل والاسـتخفاف بهم وبدعوتهم والسـخرية من قبل من أرسلوا إليهم، وبين أن منشـأه الاغترار بالترف والبطر بما أوتوه في الحياة الدنيا من البسطة في الأموال والأولاد، فقد قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۞ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۞ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۞ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ سـبأ: ٣٤ ـ ٣٧، وقال سـبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۞ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ الزخرف: ٢٣ ـ ٢٥، وقال عز مـن قائل: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ

ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۞ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۞ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۞ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ۞ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ۞ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ۞ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ المؤمنون: ٣٣ ـ ٤١.

وذكر الذين يقفون في وجوه دعاة الخير الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكـر ويضعون العراقيـل في سـبيل دعوتهم، فبين أنهـم من صنف المترفين، وذلك في قوله: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ هود: ١١٦.

وبالجملة؛ فإن الترف لا يكون سببا لخير ولا يقترن به، وإنما هو وبال في الدنيا والآخرة وفساد في الأنفس والأموال أذل الله به أمما كانت عزيزة، وأفقر به شعوبا كانت غنية، وأقفرت بسببه ديار كانت عامرة: ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ الأنعام: ٦، وليس الإنسان بحاجة إلى أن ينقب في أعماق التاريخ عن هذه العبر العظيمة، وإنما حسبه أن يتأمل فيما عايشه من أحوال وأحداث، وفيما شاهده من عبر وذكرى، ليتعظ بما تخلفه في نفوس المؤمنين من عظات تنهنههم عن اتباع مسالك الغي، التي تفضي إلى الدمار والعذاب، وتبصر بمسالك الرشد التي تؤدي إلى سلامة الدنيا وسعادة الآخرة.

إنفاق المال في الخير علاج للنفوس، وأمان من الفتن:

وهذا كله إنما هو دليل قاطع على أن المال إن لم يسخر في الخير ويتحر أمر الله تعالى وحكمه في كسبه وإنفاقه كان على أهله دمارا وبوارا ـ والعياذ بالله تعالى ـ، وقد جعل الله سبحانه فيما أمر به من إنفاقه في البر ومواساة المحرومين به علاجا ناجحا مما يصيب أهله من الغرور بزخرفه والاستئسار لحبه، ولذلك حث الله تعالى على الإنفاق في وجوه الخير جميعا، وقدمه على أعمال البر كلها إذ عطفه على الإيمان وعطف عليه سائر الأعمال والأخلاق في قوله: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ البقرة: ١٧٧، وما ذكره أولا إنما هو حقوق واجبة على المسلم في ماله جميعا من غير نظر إلى صنفه ولا إلى قدر ما ينفق منه، وإنما يجب في كل ما فضل عن حاجته من المال إن وجد من يحتاج إليه من الناس أو ما يحتاج إليه من مشروع خيري، فهو إنفاق مطلق غير مقيد بشيء بخلاف الزكاة التي أطرت في إطار خاص بحيث تجب في أصناف مخصوصة من المال إن بلغت قدرا مخصوصا ـ وهو النصاب ـ ومر عليها زمن مخصوص وهو الحول فيما يشترط له، وبقدر مخصوص وهو ما يخرج منه.

ويدل على أن كلا منهما حق مستقل المغايرة بينهما بالعطف، فقد ذكر الله تعالى في الآية الزكاة مقرونة بالصلاة معطوفتين على هذا الإنفاق المطلق عندما قال: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾، ثم قال: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

ومن تدبر هذه الآية الكريمة اتضح له ما ذكرناه وبان له بكل وضوح تعلق هذه الحقوق بالأموال، وما التفريط فيها إلا إعراض عن الذكر وتعام عما فيه

من أمر الله تعالــى، فقد قال تعالــى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ طه: ١٢٤، وقــد أدرك ذلك المحققون، وهو ما نص عليه صاحب **المنار** في وقوله: «ومشروعية البذل لهذه الأصناف من غير مال الزكاة لا تتقيد بزمن، ولا بامتلاك نصاب محدود، ولا بكون المبذول مقدارا معينا بالنسبة إلى ما يملك ككونه عشرا أو ربع العشر أو عشر العشر مثلا، وإنما هو أمر مطلق بالإحسان موكول إلى أريحية المعطي وحالة المعطى.

ووقاية الإنسان المحترم من الهلاك والتلف واجبة على من قدر عليها، وما زاد على ذلك فلا تقدير له. وقد أغفل أكثر الناس هذه الحقوق العامة التي حث عليها الكتاب العزيز لما فيها من الحياة الاشــتراكية المعتدلة الشــريفة، فلا يكادون يبذلون شيئا لهؤلاء المحتاجين إلا القليل النادر لبعض السائلين، وهم في هذا الزمان أقل الناس اســتحقاقا ؛ لأنهم اتخذوا الســؤال حرفة وأكثرهم واجدون، ولو أقاموها لكان حال المسلمين في معايشهم خيرا من سائر الأمم، ولكان هذا من أســباب دخــول الناس في الإســلام، وتفضيلــه على جميع ما يتصور الباحثون من مذاهب الاشتراكيين والماليين»[1].

وقال في هذا المعنى نفسه: «أما الأمر بالتعاون على البر والتقوى فهو من أركان الهداية الاجتماعية في القرآن: لأنه يوجب علــى الناس إيجابا دينيا أن يعين بعضهم بعضا على كل عمل من أعمال البر التي تنفع الناس أفرادا وأقواما في دينهم ودنياهــم، وكل عمل من أعمال التقوى التي يدفعون بها المفاســد والمضار عن أنفسهم، فجمع بذلك بين التحلية والتخلية، ولكنه قدم التحلية بالبر، وأكد هذا الأمر بالنهي عن ضده ؛ وهو التعــاون على الإثم بالمعاصي وكل ما يعوق عن البر والخيــر، وعلى العدوان الذي يغــري الناس بعضهم ببعض، ويجعلهم أعداء متباغضين يتربص بعضهم الدوائر ببعض.

(١) رشيد رضا: تفسير المنار، ٩٤/٢ ـ ٩٥.



كان المســلمون في الصدر الأول جماعــة واحدة ؛ يتعاونــون على البر والتقوى عن غير ارتباط بعهد ونظام بشري، كما هو شأن الجمعيات اليوم، فإن عهد الله وميثاقه كان مغنيا لهم عن غيره، وقد شــهد الله ـ تعالى ـ لهم بقوله: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ آل عمران: ١١٠، ولما انتثر بأيــدي الخلف ذلك العقد ونكث ذلك العهد، صرنا محتاجين إلى تأليف جمعيــات خاصة بنظام خاص لأجل جمع طوائف من المســلمين وحملهم على إقامة هذا الواجــب: التعاون على البر والتقوى في أي ركن من أركانه أو عمل من أعماله، وقلما ترى أحدا في هذا العصر يعينك على عمل من البر، ما لم يكن مرتبطــا معك في جمعية ألفت لعمل معين، بل لا يفي لك بهذا كل من يعاهدك علــى الوفاء، فهل ترجو أن يعينك على غير ما عاهدك عليه؟ فالذي يظهــر أن تأليف الجمعيات في هذا العصر، مما يتوقف عليــه امتثال هذا الأمر، وإقامة هــذا الواجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، كما قــال العلماء، فلا بد لنا من تأليف الجمعيات الدينية والخيرية والعلمية، إذا كنا نريد أن نحيا حياة عزيزة، فعلى أهل الغيرة والنجدة من المسلمين أن يعنوا بهذا كل العناية، وإن رأوا كتب التفسير لم تعن بتفســير هذه الآية، ولم تبين لهم أنها داعية لهم إلى أقــوم الطرق وأقصدها لإصلاح شأنهم في أمر دينهم ودنياهم» اهـ[(١)].

هذا؛ ولا يخفى ما لشــهوة المال من أثر كبير على النفس البشــرية حتى تصبح أســيرة لها تملي عليها كل ما يصدر عنها من فعل، ولا يكون ذلك إلا شــرا يقطع الأوصال بين الناس، ويُغَوِّرَ في نفوســهم ينابيع الرحمة والشفقة والحنان، فلا يعطــف قريب على قريبه ولا قوي علــى ضعيف ولا ثري على محتاج، وإنما يزداد الثري كلما أوتي شيئا من المال سعارا في حبه، وبحثا عن وسائل الاستزادة منه وأسباب الاســتعلاء به في الأرض، ونشر أنواع الفساد،

---

(١) المرجع السابق، ١٠٨/٦ ـ ١٠٩.



وقد جعل الله تعالى في هذا الإنفاق المشروع سواء كان من الزكاة المضبوطة بالقيود الشرعية أو من سائر النفقات علاجا لهذا الداء العضال، وفكاكا من الاستئسار لهذه الشهوات ويدها الحديدية التي تقبض على النفس فتمنعها من كل خير وتدفعها إلى كل شر، فكم اعتدى قريب على قريبه فأودى بحياته لأجل أن يستأثر بثروته، وكم قسا قوي على ضعيف من أجل أن يبتز كل ما في يده من خير، حتى لا يعود قادرا على مواجهة شيء من لأواء الحياة، وقضاء أي ضرورة من ضروراتها؟؟.

ولكن حكمة الله اقتضت أن يكون في شريعته الشاملة وحكمه العادل أنجح علاج لهذا الداء المميت، لذلك شرع الإنفاق في الأموال لتفجير ينابيع الرحمة في القلوب، ولتتدفق برا وإحسانا يصل أولي القرابات لتشتد الأواصر وتقوى العلاقات بينهم، ويغمر أولي الحاجات فيجدون ما يسدون به حاجاتهم ويقضون به مآربهم، وينتج عن ذلك الوئام بين كل الأطراف والحب الغامر الذي يجعل الجميع كأنهم نفس واحدة، كما صوره النبي ﷺ في قوله: «**ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى**»[(١)].

وقد بين الله تعالى الحكمة العالية من مشروعية الصدقات في قوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ التوبة: ١٠٣، وهي حكمة مشروعية بقية النفقات، فإنها جميعا تقضي على أثرة النفس وشحها ورغبتها في الاستبداد بالمال، فإن كل من اعتاد الإنفاق في الخير والسخاء في أعمال البر لا يكاد يجد محتاجا حتى تهفو نفسه إلى سد حاجته بما يدفعه إليه من مال، بل يتألم لحاجة كل محتاج حتى يكون على يديه قضاؤها، ولا يكاد يرى منكوبا حتى يسرع إلى تخفيف مصيبته ورفع آثارها عن نفسه بما يعينه به من الخير.

(١) سبق تخريجه.

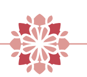


وقد بين المفكر الإسلامي الأستاذ الشهيد سيد قطب علاقة الإنفاق بالبر ووجه تخصيص الجهات التي ينفق فيها المال كما أرشدت إليه الآية الكريمة، وذلك في قوله: «وما قيمة إيتاء المال ـ على حبه والاعتزاز به ـ لذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب؟.

إن قيمته هي الانعتاق من ربقة الحرص والشح والضعف والأثرة. انعتاق الروح من حب المال الذي يقبض الأيدي عن الإنفاق، ويقبض النفوس عن الأريحية، ويقبض الأرواح عن الانطلاق. فهي قيمة روحية يشير إليها ذلك النص على حب المال. وقيمة شعورية أن يبسط الإنسان يده وروحه فيما يحب من مال. لا في الرخيص منه ولا الخبيث. فيتحرر من عبودية المال، هذه العبودية التي تستذل النفوس، وتنكس الرؤوس. ويتحرر من الحرص. والحرص يذل أعناق الرجال. وهي قيمة إنسانية كبرى في حساب الإسلام، الذي يحاول دائماً تحرير الإنسان من وساوس نفسه وحرصها وضعفها قبل أن يحاول تحريره من الخارج في محيط الجماعة وارتباطاتها، يقيناً منه بأن عبيد أنفسهم هم عبيد الناس؛ وأن أحرار النفوس من الشهوات هم أحرار الرؤوس في المجتمعات!.. ثم إنها بعد ذلك كله قيمة إنسانية في محيط الجماعة.. هذه الصلة لذوي القربى فيها تحقيق لمروءة النفس، وكرامة الأسرة، ووشائج القربى. والأسرة هي النواة الأولى للجماعة. ومن ثم هذه العناية بها وهذا التقديم.

وهي لليتامى تكافل بين الكبار والصغار في الجماعة، وبين الأقوياء فيها والضعفاء؛ وتعويض لهؤلاء الصغار عن فقدان الحماية والرعاية الأبويتين؛ وحماية للأمة من تشرد صغارها، وتعرضهم للفساد، وللنقمة على المجتمع الذي لم يقدم لهم براً ولا رعاية.

وهي للمساكين الذين لا يجدون ما ينفقون ـ وهم مع ذلك ساكنون لا يسألون ضناً بماء وجوههم ـ احتفاظ لهم بكرامة نفوسهم، وصيانة لهم من



البوار، وإشعار لهم بالتضامن والتكافل في محيط الجماعة المسلمة، التي لا يهمل فيها فرد، ولا يضيع فيها عضو.

وهي لابن السبيل ـ المنقطع عن ماله وأهله ـ واجب للنجدة في ساعة العسرة، وانقطاع الطريق دون الأهل والمال والديار؛ وإشعار له بأن الإنسانية كلها أهل، وبأن الأرض كلها وطن، يلقى فيها أهلاً بأهل، ومالاً بمال، وصلة بصلة، وقراراً بقرار.. وهي للسائلين إسعاف لعوزهم، وكف لهم عن المسألة التي يكرهها الإسلام. وفي الإسلام لا يسأل من يجد الكفاية أو من يجد عملاً، فهو مأمور من دينه أن يعمل ولا يسأل، وأن يقنع ولا يسأل. فلا سائل إلا حيث يعييه العمل والمال.

وهي في الرقاب إعتاق وتحرير لمن أوقعه سوء عمله في الرق بحمل السيف في وجه الإسلام ـ حتى يسترد حريته وإنسانيته الكريمة. ويتحقق هذا النص إما بشراء الرقيق وعتقه، وإما بإعطائه ما يؤدي به ما كاتب عليه سيده في نظير عتقه. والإسلام يعلن حرية الرقيق في اللحظة التي يطلب فيها الحرية، ويطلب مكاتبته عليها ـ أي أداء مبلغ من المال في سبيلها، ومنذ هذه اللحظة يصبح عمله بأجر يحسب له، ويصبح مستحقاً في مصارف الزكاة، ويصبح من البر كذلك إعطاؤه من النفقات غير الزكاة.. كل أولئك ليسارع في فك رقبته، واسترداد حريته..»[١] اهـ.

وهذا كله يؤكد أن النفس إن أهملت وشأنها في جمع المال من أي وجه كان، وإنفاقه بحسب ما تملي عليها شهواتها، كان ذلك دمارا للنفس وفسادا في الأخلاق وارتكاسا في القيم حتى يعود الإنسان شرا من السبع الفتاك، ويعود المال وقود شرٍ وسببا للهلكة، وإن تعهدت بالتوجيه السليم والموعظة الحسنة ودفعت إلى الإنفاق في سبل الخير تهذبت وارتقت حتى تكون ملكية[٢] الطبع

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ١/١٣١ ـ ١٣٢.

(٢) نسبة إلى الملك، واحد الملائكة.

روحانية الوجهة ربانية في وردهــا وصدرها، لا يصدر عنها إلا ما هو خير لها ولأسرتها ومجتمعها وأمتها والناس أجمعين وجميع أنواع الخلق.

فما أحوج الناس إلى أن يتروضوا على البر والإحسان، ويتكيفوا بما أمرهم الله تعالى به من الخير، وأن يحرزوا أنفسهم من كل ما نهاهم عنه من شر، وأن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبهم الله يوم القيامة على كسبهم المال وإنفاقه.

تبذير من ناحية وتقتير من ناحية أخرى:

مما يؤســف له جدا أن نجد كثيرا من أصحاب الأموال إن طرقهم ضيف أغدقوا المال فــي ضيافته، وقدموا إليه ما لا يحتاج إلا إلى اليســير منه، ولم يبالوا بعد ذلك بـإلقــاء ما فضل من الأطعمة مع الأوســاخ في المزابل، وإذا عُرِضَ عليهم أن يبســطوا أيديهــم بالصدقات على الفقراء أو المســاكين، أو بالنفقات في وجوه البر كعمارة بيوت الله تعالى وإقامة مراكز العلم ونشر دعوة الخير بين الناس شحت أيديهم وجعلوها مغلولة إلى أعناقهم، كأنهم لم يطرق مسامعهم ما أنزله الله تعالى حثا على إنفاق المال في هذه الوجوه الخيرة، كما في قوله تعالــى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ البقرة: ٢٥٤، وقوله: ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ المنافقــون: ١٠ ـ ١١، وقولــه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ البقــرة: ٢٦٧، وقولــه: ﴿ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۞ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ التغابــن: ١٦ ـ ١٧،

وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ المزمل: ٢٠، وقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ البقرة: ٢٦١، وقوله: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ البقرة: ٢٦٥، وقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۞ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۞ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ الليل: ٥ ـ ١٠، إلى غيرها من الآيات الكثيرة الداعية إلى الإنفاق المحذرة من قبض الأيدي عنه، الواعدة خير الدنيا والآخرة لمن بسط يده وأنفق، المتوعدة بسوء الحال وشر المآل الذين يقبضون أيديهم ولا ينفقون مما آتاهم الله، المحذرة من الندم الشديد بعد فوات الفرصة على عدم الإنفاق عندما يحين الحَيْنُ أو تقوم الساعة، ولا يبقى لأحد مجال لتدارك ما فاته.

لا بد من الإنفاق والحض عليه:

على أن الإسلام الحنيف لا يكتفي بأن ينفق أتباعه مما آتاهم من فضله وإنما يأمرهم ـ مع ذلك ـ بأن يتحاضوا على الإنفاق، حتى لا يتوانى عنه أحد، ولذلك توعد الذين لا يتحاضون عليه بشر الوعيد، كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۞ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۞ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۞ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ الفجر: ١٧ ـ ٢٠، وبين ما يعقب ذلك من الحسرة والندم في قوله: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۞ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۞ وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ۞ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ۞ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۞ وَلَا يُوثِقُ

وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ الفجر: ٢١ ـ ٢٦، وبين تعالى أن هـذه الخصلة لا تكـون إلا ممن كذب بالدين، وأعرض عن أمر الله تعالى، كما فـي قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ الماعون: ١ ـ ٣.

وحسبك أن يقترن الإنفاق في القرآن الكريم بالإيمان بالله ورسوله، ويجمع بينهما في الأمر كما في قوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ الحديد: ٧.

وبالجملة؛ فإن كل مسلم متعبد بالإنفاق من فضل ماله على والديه وذوي قرباه وأولي الحاجات من الناس، كما هو واضح في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ البقرة: ٢١٥.

هذا؛ وقد جعل الله الإنفاق في سبيل الله جهادا ماليا يوازي الجهاد بالنفس، ولذلك قرن بينهما كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الصف: ١٠ ـ ١٢، وكلما كان الإنسان أسرع إلى الإنفاق وكان مبادرا إليه في ساعات العسر والأيام السود كان أحرز للأجر وأعظم درجة من الذين ينفقون بعد ذلك كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ الحديد: ١٠.



المحور التاسع

فيما يتعلق باللباس

الإسلام رحب المباءة واسع الأرجاء دقيق الملاحظة، يشمل الحياة وما فيها، فهو يسع حكما كل ما دق وجل وخفي وظهر مما يعني حياة الإنسان الشخصية والنوعية، إذ ليس لأحد أن يتصرف في حياته وفق هواه ورغباته، وإنما عليه أن يتقيد بشرع الله تعالى الذي لا يأتي إلا بالخير ولا يمنع إلا من الشر، وعليه فإن على الإنسان المسلم أن يحرص بأن يكون صورة للإسلام الحنيف، في مظهره ومخبره وسره وعلانيته، وكل ما يصدر منه أو ما يأتي عليه، ليكون محياه ومماته ومسيره ومصيره خالصا لله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۞ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ الأنعام: ١٦١ ـ ١٦٣.

وليس من الإسلام في شيء أن يأخذ المسلم من الإسلام ما راق له وتلاءم مع طبعه ويدع ما كان طبعه ميالا إلى غيره، فإن كل ما جاء به الإسلام إنما هو اختبار لإيمان المؤمن، كما قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ العنكبوت: ٢ ـ ٣، وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ الأحزاب: ٣٦، وأمر برد كل شيء إلى الله ورسوله كما نص عليه قوله:

﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ النساء: ٥٩.

ولا يخفى أن اللباس مظهر للإنسان، وقد أمر الله سبحانه به لستر السوءات، وليكون زينة للابس كما قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ الأعراف: ٣١، وهو شعار يتميز به المسلم من غيره، ولم يدعه الإسلام لرغبات الأنفس وأهوائها، بل ضبطه بضوابط تحفظ للإنسان المسلم شخصيته وكرامته، كما تحفظ له خواطر نفسه لئلا تندفع مع الهوى فتطوح بصاحبها في مكان سحيق من الفساد والانحراف.

التمييز بين الذكور والإناث في اللباس كما تميزوا في الطباع:

جاء شرع الله تعالى مراعيا للخصائص الفطرية، والفوارق المظهرية والمخبرية بين الذكر والأنثى، فحرم على كل منهما أن يتلبس بمظاهر الجنس الآخر، كما جاء ذلك في حديث النبي ﷺ، فعن ابن عباس، أن النبي ﷺ: «**لعن المتشبهين من الرجال بالنساء، ولعن المتشبهات من النساء بالرجال**»[1].

وقد جعل الله تعالى للباس المرأة هيئة لها خصائصها وميزاتها، كما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٣/٤ رقم: ٢٢٦٣)، والبخاري (١٥٩/٧ رقم: ٥٨٨٥)، وابن ماجه (٦١٤/١ رقم: ١٩٠٤)، والطيالسي (٤٠٠/٤ رقم: ٢٨٠٠١)، والطبراني (١١٧/٢ رقم: ١٤٣٥).



﴿إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ النور: ٣١، وهو مما يحفظ للمرأة المسلمة وقارها ومكانتها في المجتمع، لذلك بدأ الله سبحانه في خطاب التكليف به أمهات المؤمنين وبنات النبي ﷺ ثم عطف عليهن نساء المؤمنين، وبين كيف يكون أثر هذا الزي الشرعي في الحفاظ على كرامة المرأة المسلمة، وقطع دابر أطماع السفهاء والأوغاد في تدنيس شرفها، والاجتراء على عرضها، كما هو نص صريح في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ الأحزاب: ٥٩، وهذا يعني أن يكون لباس المرأة سابغا فضفاضا، لا يشف ولا يصف، يستر جميع أجزاء جسمها ويواري مفاتنها، لأن جسم المرأة بكل أجزائه مغرٍ للرجل إن أبدت شيئا منه، والله يريد من عباده هدوء أنفسهم وسكينتها، فلا يكون إبراز مطلق جسم المرأة إلا لرجل واحد؛ وهو شريك حياتها الذي أبيح له أن يستمتع بها، كما أبيح لها أن تستمتع به، ولا ريب أنها حريصة على استمالة قلبه إليها، وأن تستأثر بهواه دون سواها، فلذلك أبيح لها بمقتضى الفطرة وبحكم الشرع الشريف أن تفعل كل شيء من أجل إثارته وجذبه إليها، وأبيح لها مع ذلك أن تظهر بعض زينتها للرجال الذين لا يفتنهم حسنها ولا تستهويهم زينتها بمقتضى الفطرة التي فطر الناس عليها، وهم محارمها، سواء كانت العلاقة المحرمية بينهم وبينها بسبب نسب أو صهر أو رضاع، وقد سبق بيان شيء من هذا فيما تقدم.

خصائص زينة الرجال ولباسهم في الإسلام:

للرجال في الإسلام زي خاص يتناسب مع طبيعة رجولتهم ويتفق مع ما ينوؤن به من تكاليف الحياة فإذا كانت المرأة يجب بمقتضى فطرتها أن تكون مصونة غير معرضة للابتذال، لأنها إن لم تُصَنْ كانت أداة لنشر الفتنة والإغراء على الفساد، فإن الرجل يتحمل من تبعات الحياة ما لا تتحمله المرأة،

فهو القوام عليها، وهذا يقتضي أن يكون مشمرا ينوء بالصعاب ويتجرد للمهمات، فكان لباسه المشروع له يتفق مع هذه الفطرة ويتجاوب مع هذه التكاليف، وقد علمت ما في توجيه الإسلام من التشديد البالغ في خروج أي منهما عن مقتضى فطرته، وتلبسه بخصائص الجنس الآخر، ولهذا حرم عليه جر الثوب وإسباله، فقد حدد النبي ﷺ إلى أي مدى يجوز للرجل أن يطيل ثوبه، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إزرة المؤمن إلى أنصاف ساقيه ولا جناح عليه فيما بينه وبين الكعبين وما أسفل من ذلك ففي النار** ـ قال ذلك ثلاث مرات ـ **ولا ينظر الله إلى من يجر إزاره بطرا**»(١)، وجاء بلفظ: «**إزرة المؤمن إلي نصف الساق ولا جناح عليه فيما بينه وبين الكعبين ما كان أسفل من الكعبين فهو في النار من جر إزاره لم ينظر الله إليه**»(٢)، وهو بلفظه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما(٣)، وقد استفاضت الروايات بهذا، وأطلت القول في ذلك في الفتاوى، فارجع إليه.

هذا؛ ولبعد الناس عن الفقه في الدين لم يبال كثير من الرجال ـ بل أكثرهم ـ بإسبال الثياب، وعدوا هذا من المفاخر التي يتباهون بها، وأصبحت هذه من العادات المتفشية في أوساط الناس، وما كان أجدرهم أن يحترزوا منها حفاظا على دينهم وصونا لرجولتهم أن تتلبس بخصائص الإناث.

ولأجل أن تكون للرجولة سماتها وخصائصها شدد الإسلام على الرجال في لبس الحرير والذهب لعدم لياقتهما بصلابة الرجولة ومناسبتهما لليونة

(١) أخرجه الربيع، (ص ١١٣ رقم: ٢٧٢).

(٢) أخرجه مالك (٩١٤/٢، رقم ١٦٣١)، والطيالسي (ص ٢٩٥، رقم ٢٢٢٨)، وأحمد (٩٧/٣، رقم ١١٩٤٤)، والبيهقي (٢٤٤/٢، رقم ٣١٣٥)، وابن حبان (٢٦٢/١٢، رقم ٥٤٤٦)، وأبو داود (٥٩/٤، رقم ٤٠٩٣)، وابن ماجه (١١٨٣/٢، رقم ٣٥٧٣)، وأبو يعلى (٢٦٨/٢، رقم ٩٨٠). والحميدي ٣٢٣/٢، رقم ٧٣٧)، والنسائي في الكبرى (٤٩٠/٥، رقم ٩٧١٤)، وأبو عوانة (٢٥٠/٥، رقم ٨٦٠٢)، والطبراني في الأوسط (٢٤١/٥، رقم ٥٢٠٤).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٣٤١/١٢، رقم ١٣٢٩٢). وفي الأوسط (١٣١/١، رقم ٤١٢).



الأنوثة، فقد جاء من طريق زيد بن أرقم رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**أحل الذهب والحرير لإناث أمتي وحرم على ذكورها**»[١]، وعنه بلفظ: «**الذهب والحرير حل لإناث أمتي وحرام على ذكورها**»[٢]، وعن علي وابن عمر رضي الله عنهما أنه ﷺ قال: «**إن هذين حرام على ذكور أمتي حل لإناثهم**»[٣] يعني: الذهب والحرير، وعن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال: «**الحرير والذهب حرام على ذكور أمتي وحل لإناثهم**»[٤]، وعند عبد الله بن عمرو أنه ﷺ قال: «**من لبس الذهب من أمتي فمات وهو يلبسه حرم الله عليه ذهب الجنة ومن لبس الحرير من أمتي فمات وهو يلبسه حرم الله عليه حرير الجنة**»[٥]، ومن طريقه أيضا أن النبي ﷺ قال: «**من مات من أمتي يتحلى الذهب حرم الله عليه حليته في الآخرة، ومن مات من أمتي يشرب الخمر حرم الله عليه شربها في الآخرة، ومن مات من أمتي يلبس**

(١) أخرجه أحمد (٣٩٢/٤، رقم ١٩٥٢١)، والنسائي (١٦١/٨، رقم ٥١٤٨)، والبيهقي (٤٢٥/٢، رقم ٤٠٢٠) والطيالسي (ص ٦٩، رقم ٥٠٦)، وعبد الرزاق عن معمر في الجامع (٦٨/١١، رقم ١٩٩٣٠)، وابن شاهين في ناسخ الحديث ومنسوخه (٤٤٦/١، رقم ٥٩٠).

(٢) أخرجه الطحاوي في شرح معانى الآثار (٢٥١/٤)، والعقيلي (١٧٤/١ ترجمة ٢١٧ ثابت بن زيد بن ثابت بن زيد بن أرقم) وقال قال عبد الله بن أحمد: سألت أبي عنه فقال: له أحاديث مناكير. وقال: هذا يروى بغير هذا الإسناد بأسانيد صالحة. والطبراني (٢١١/٥، رقم ٥١٢٥). وأخرجه أيضا: الديلمي (٢٥٠/٢، رقم ٣١٧٥).

(٣) حديث علي: أخرجه أحمد (٩٦/١، رقم ٧٥٠)، وأبو داود (٥٠/٤، رقم ٤٠٥٧)، والنسائي (١٦٠/٨، رقم ٥١٤٤)، وابن ماجه (١١٨٩/٢، رقم ٣٥٩٥)، والبيهقي (٤٢٥/٢، رقم ٤٠١٩). وأخرجه أيضا: ابن أبي شيبة (١٥٢/٥، رقم ٢٤٦٥٩)، والبزار (١٠٢/٣، رقم ٨٨٦)، وأبو يعلى (٢٣٥/١، رقم ٢٧٢)، وابن حبان (٢٤٩/١٢، رقم ٥٤٣٤).

وحديث ابن عمر: أخرجه ابن ماجه (١١٩٠/٢، رقم ٣٥٩٧)، الطيالسي (ص ٢٩٨، رقم ٢٢٥٣)، وابن أبي شيبة (١٥٣/٥، رقم ٢٤٦٦٢)، والحارث كما في **بغية الباحث** (٦١٥/٢، رقم ٥٨٥).

(٤) أخرجه البيهقي (١٤١/٤، رقم ٧٣٤٩) وأخرجه أيضا: ابن أبي شيبة (١٥١/٥، رقم ٢٤٦٤٥)، والطحاوي في شرح معانى الآثار (٢٥١/٤).

(٥) أخرجه أحمد (٢٠٨/٢، رقم ٦٩٤٧).

الحريــر حــرم الله عليه لبســه في الآخــرة»[١]، وعــن أبي هريــرة رضي الله عنه : أن رســول الله ﷺ «**نهى عن خاتــم الذهب**»[٢]، وعــن علي كــرم الله وجهه عند الربيع رحمه الله قال: «نهاني رسول الله ﷺ عن لبس القســي وعن لبس المعصفر وعن خاتم الذهب وعن قراءة القرآن في الركوع والسجود»[٣]، وجاء عنه بلفظ: «نهاني رسول الله ﷺ عن القراءة في الركوع والســجود وعن التختم بالذهب وعن لباس القسي وعن لباس المعصفر»[٤]، وبلفظ: «نهاني رسول الله ﷺ عن التختم بالذهب، وعن لبس المعصفر، وأن أقرأ راكعا أو ساجدا»[٥]، وعن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ رأى خاتما من ذهب في يد رجل فنزعه فطرحه، وقال: «**يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها في يده**»، فقيل للرجل بعد ما ذهب رســول الله ﷺ خذ خاتمك انتفع به، قال: «لا والله، لا آخــذه أبدا وقد طرحه رسول الله ﷺ »[٦]، وعن عمران بن حصين، «أن رسول الله ﷺ نهى عن الحنتم ولبس الحرير والتختم بالذهب»[٧]، وعن بكر بن سوادة، أن أبا النجيب حدثه،

---

(١) أخرجه الطبراني كما في مجمع الزوائد (١٤٦/٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٥٥/٧ رقم: ٥٨٦٤) ومســلم (١٦٥٤/٣ رقم: ٢٠٨٩)، والنسائي (١٩٢/٨ رقم: ٥٢٧٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٤٥/٨ رقم: ٥٩١٩) والطبراني في الأوسط (٧٨/٣ رقم: ٢٥٤٦)، وابن حبان (٢٩٨/١٢ رقم: ٥٤٨٧).

(٣) أخرجه الربيع (ص ٩٨ رقم: ٢٣١).

(٤) أخرجه مالك (٨٠/١، رقم ١٧٦)، وعبد الرزاق (١٤٤/٢، رقم ٢٨٣٢)، وأحمد (١٢٦/١، رقم ١٠٤٤)، والبخاري في خلق أفعال العباد (١٠٩/١)، ومســلم (١٦٤٨/٣، رقم ٢٠٧٨)، وأبو داود (٤٧/٤، رقم ٤٠٤٤)، والترمذي (٢٢٦/٤، رقم ١٧٣٧)، والنسائي (١٩١/٨، رقم ٥٢٧١)، وابن ماجه (١١٩١/٢، رقم ٣٦٠٢)، والطحــاوي (٢٦٠/٤)، وأبــو يعلــى (٢٥٩/١، رقم ٣٠٤)، وابن حبــان (٢٥٦/١٢، رقم ٥٤٤٠)، والبيهقي (٤٢٤/٢، رقم ٤٠١٢).

(٥) أخرجه البزار في مسنده (١٣٢/٣ رقم: ٩١٩).

(٦) أخرجه مسلم (١٦٥٥/٣، رقم ٢٠٩٠)، وابن حبان (١٩٢/١، رقم ١٥)، والبيهقي (٤٢٤/٢، رقم ٤٠١٤).

(٧) أخرجه الطبراني في كبيره (٢٠١/١٨ رقم: ٤٩١)، وابــن حبان (٢٢٧/١٢ رقم: ٥٤٠٦)، والترمذي (٢٢٦/٤ رقم: ١٧٣٨) وابن أبي شيبة (١٥٣/٥ رقم: ٢٤٦٦١)، وأحمد (١٩٠/٣٣ رقم: ١٩٩٨٠).

أن أبا سعيد الخدري حدثه، أن رجلا قدم من نجران إلى رسول الله ﷺ وعليه خاتم من ذهب، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: «**إنك جئتني وفي يدك جمرة من نار**»[1]، والأحاديث في هذا كثيرة.

قال القرطبي في **المفهم**: «وقوله ﷺ للرجل الـــذي طرح الخاتم من يده: «**يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها في يده**»؛ يدل على تغليظ التحريم، وأن لباس خاتم الذهب من المنكر الذي يجب تغييره»[2].

بدعية لباس ما يسمى بالدبلة:

نرى كثيرا من الرجال لا يتورعون عن التختم بالذهب، وقد شـــاعت عند الكثير من الرجال والنســـاء بدعة ذميمة وهـــي اتباع الغرب فـــي خرافاتهم، ودعواهم أن الدبلة التي يُلْبِسُـــها الرجل المرأة وتُلْبِسُـــها المرأة الرجل عندما يقصدان الزواج هي ســـبب لارتباط قلبيهما وما يهدفان إليه من حسن العلاقة بينهما، وأن قلب كل منهما موصـــول ببنصره، فلذلك يحرص كل منهما على شد الآخر إليه، وأسر قلبه بإلباسه هذه الدبلة الذهبية، ولا خلاف في كون هذه خرافة لا يقبلها العقل ولا يقرها الشرع.

أما رفض العقل لها فمما يدل عليه الواقع من أنها دعوى كاذبة، فكم من زواج كان بدونها وقد كان موفقا شملت فيه الزوجين السعادة والهناء، والمودة والرحمة، والألفة والحنان، وبورك فيهما وفي زواجهما بما نتج عنه من ذرية صالحة قرت بها أعينهما، وكم من زواج تبـــادل فيه الزوجان لباس الدبلة فما كانت عاقبته إلا البوار والشنآن والانفصام، وهذا أكبر شاهد على أن هذه العادة لا تعدو أن تكون خرافة.

---

(١) أخرجه النسائي (١٧٠/٨ رقم: ٥١٨٨)، (١٧١/٨ رقم: ٥١٨٩)، وابن حبان (٣٠١/١٢ رقم: ٥٤٨٩)، والهيثمي في المورد الظمآن (١٠/٥ رقم: ١٤٧١).

(٢) أبو العباس القرطبي، المفهم، ٩٥/١٧.

وأما رفض الشرع لها؛ فلأنها مخالفة لهدي النبي ﷺ، وما جرى عليه السلف الصالح، فقد قال عليه أفضل الصلاة والسلام: «**من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد**»(١)، وثبت عنه ﷺ أنه قال: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه، فهو رد**»(٢)، وعنه ﷺ: «**إن أصدق الحديث كتاب الله وأفضل الهدى هدى محمد وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار**»(٣)، وقد نهى رسول الله ﷺ عن تأثر المسلمين بعادات غيرهم وأفكارهم ـ كما سيأتي شرح ذلك إن شاء الله ـ على أن هذه العادة كانت عند النصارى، وقد انتقلت منهم إلى ضعاف النفوس من المحسوبين على الإسلام، على أنه قيل بأن هذه العادة من عادات الفراعنة وأنها كانت عند قدماء المصريين، ثم تحولت منهم إلى النصارى، ومهما كان أصلها فهي محرمة على الجنسين لما فيها من التشبه بالآخرين ولما فيها من اعتقاد تأثير خاتم الذهب في البنصر على القلب حتى يكون كما يهوى من أَلْبَسَ الخاتم (الدبلة)، وهي حرام على الرجل من عدة أسباب.

أولها: أن فيها تقليدا لغير المسلمين وتأثرا بمعتقداتهم.

ثانيها: أن الذهب حرام عليه، فلا يستباح في زواج ولا غيره.

ثالثها: نهي النبي ﷺ عن تختم الرجل في الوسطى أو التي تليها، ويشمل ذلك البنصر والسبابة، وقد جاء من طريق علي كرم الله وجهه: «نهاني رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه الربيع من طريق ابن عباس رضي الله عنهما (ص٣٩ رقم: ٤٩)، وأخرجه من طريق عائشة رضي الله عنها أحمد (١٤٦/٦، رقم ٢٥١٧١)، ومسلم (١٣٤٣/٣، رقم ١٧١٨). وأبو عوانة (١٧١/٤، رقم ٦٤٠٩)، والدارقطني (٢٢٧/٤).

(٢) أخرجه البخاري (١٨٤/٣ رقم: ٢٦٩٧) ومسلم (١٣٤٣/٣ رقم: ١٧١٨)، وأبو داود (٢٠٠/٤ رقم: ٤٦٠٦).

(٣) أخرجه أحمد (٣١٠/٣، رقم ١٤٣٧٣)، ومسلم (٥٩٢/٢، رقم ٨٦٧)، والنسائي (١٨٨/٣، رقم ١٥٧٨)، وابن ماجه (١٧/١، رقم ٤٥).

عن القسي، والميثرة الحمراء، وأن ألبس خاتمي في هذه وفي هذه»[١]، وأشار إلى السبابة والوسطى، وفي إحدى الروايات عنه: «نهاني ـ يعني النبي ﷺ ـ أن أجعل خاتمي في هذه، أو التي تليها ـ لم يدر عاصم في أي الثنتين ـ ونهاني عن لبس القسي، وعن جلوس على المياثر»[٢].

وكان من هديه ﷺ أن يتختم في خنصره، ومضى على ذلك أصحابه وخيار الأمة، ولم يكن الرجال منهم يتختمون في غير الخنصر، وقد كان التحلي بالخواتم في غيرها من زينة النساء دون الرجال، وإنما اختلفت الروايات هل كان يتختم في خنصره اليمنى أو في خنصره اليسرى، فعن أنس رضي الله عنه، قال: «كان خاتم النبي ﷺ في هذه، وأشار إلى خنصره من يده اليسرى»[٣]، وعنه أيضا قال: صنع النبي ﷺ خاتما، قال: «**إنا اتخذنا خاتما، ونقشنا فيه نقشا، فلا ينقشن عليه أحد**» قال: **فإني لأرى بريقه في خنصره**»[٤].

وفي شرح الحافظ ابن حجر لقول البخاري: (باب الخاتم في الخنصر) قال: «أي دون غيرها من الأصابع وكأنه أشار إلى ما أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي من طريق أبي بردة بن أبي موسى عن علي قال نهاني رسول الله ﷺ أن ألبس خاتمي في هذه وفي هذه يعني السبابة والوسطى»[٥]، وقال القاضي عياض: «ولا خلاف بين العلماء ولا في الآثار أن اتخاذ خاتم الرجال في الخنصر»[٦]، وقال ابن عبد الدائم القسطلاني: «حكمتُه: أنه أبعدُ عن الامتهان فيما يُتعاطَى باليد لكونه طرفًا، ولا يَشغلُ اليدَ عما تتناولُه من أشغالها»[٧].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٩/٤ رقم: ١٧٨٦).
(٢) أخرجه مسلم (١٦٥٩/٣ رقم: ٢٠٧٨).
(٣) أخرجه مسلم (١٦٥٩/٣، رقم: ٢٠٩٥)، والبغوي في شرح السنة (٦٨/١٢ رقم: ٣١٤٦).
(٤) أخرجه البخاري (١٥٧/٧ رقم: ٥٨٧٤).
(٥) ابن حجر: فتح الباري، ٣٢٤/١٠.
(٦) القاضي عياض: إكمال المعلم، ٣١١/٦.
(٧) أبو عبد الله محمد بن عبد الدائم القسطلاني، اللامع الصبيح بشرح الجامع الصحيح، ٤٦٧/١٤، دار النوادر ـ سوريا.

وشدد ابن حزم في التختم في غير الخنصر حتى حكم ببطلان صلاة من صلى متختما في أي أصبع غيرها، وهذا نص قوله: «ومن تختم في السبابة أو الوسطى أو الإبهام أو البنصر الخنصر وحده وتعمد الصلاة كذلك فلا صلاة له، حدثنا عبد الله بن ربيع ثنا محمد بن معاوية ثنا أحمد بن شعيب أنا محمد بن بشار وهناد بن السري قال محمد بن بشـار ثنا محمد بن جعفر ثنا شعبة عن عاصم بن كليب عن أبي بردة هو ابن أبي موسى الأشعري قال: سمعت علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: «نهاني رسول الله ﷺ عن الخاتم في السبابة والوسطى»، وقال هناد بن السري عن أبي الأحوص عن عاصم بن كليب عن أبي بردة هو ابن أبي موسى الأشعري عن علي بن أبي طالب قال نهاني رسول الله ﷺ أن أتختم في أصبعي هذه وفي الوسطى أو التي تليها»[١].

وأضاف إلى ذلك: «حديث شعبة هذا يقضي على كل خبر شك فيه من رواه عن عاصم، ولا فرق بين من صلى متختما في إصبع نهي عن التختم فيها وبين من صلى لابس حرير أو على حال محرمة، لأن كلهم قد فعل في الصلاة فعلا نهي عنه؛ فلم يصل كما أمر»[٢].

واعجب مع هذا أن ترى بعض من ترى عليهم ملامح الصلاح والتقوى ويؤمون الناس في صلواتهم وهم يتختمون في بناصرهم تبعا لما يسمى بالموضة المعاصرة، مع أنه «قد استحب العلماء الخروج من الخلاف ما أمكن»[٣]، فكيف إذا كان في ذلك نهي يؤثر عن الرسول عليه الصلاة والسلام؟!

---

(١) ابن حزم: المحلى، ٣٦٩/٢ ـ ٣٧٠.

(٢) المرجع السابق، ٣٧٠/٢.

(٣) قطب الأئمة، محمد بن يوسف اطفيش: شامل الأصل والفرع، ٥٤/٢.



المحور العاشر

فيما يتعلق بالتقاليد

المسلم يجب أن يكون عزيزا كريما يؤثر ولا يتأثر ويقود ولا ينقاد:

من المعلوم أن الإسلام بعقيدته وفكره، وكل ما اشتمل عليه ـ في جانب العبادات أو الأخلاق أو المعاملات أو العادات ـ إنما يبني الشخصية المسلمة بناء مكينا لا صدع فيه ولا وهن، حتى تستقل بفكرها وتصورها، وعباداتها وعاداتها، وأخلاقها وآدابها، ومخبرها ومظهرها، لتكون دائما هي الشخصية المؤثرة في الحياة، القابضة على زمامها الموجهة لسيرها، تملي إرادتها على غيرها، ولا يملى عليها من سواها، لأن الله تعالى أراد للمسلم أن يتبوأ مكان قيادة الإنسانية إلى الرشد والخير، والعزة والكرامة، ولا يمكنه القيام بهذه المهمة إن كان ضعيف الإرادة، سريع التأثر، كثير الانبهار بما يرى عليه غيره، يستفزه كل عرض، ويجتذبه كل ناعق، وتزعزعه كل زوبعة، وإنما يقوم بهذا الأمر من كان أرسخ من شمِّ الأطواد ثباتا، وأشد من صم الصلاد عزيمة، وأرقى من أبعد النجوم همة لا تضعضعه الأزمات، ولا تزعزعه المحن، ولا تؤثر عليه الخطوب، وإنما تزيده صروف الدهر صبرا وعزيمة وطموحا، كالذهب الذي لا يزيده لهيب النار إلا صفاء ونقاء.

ذلك لأن المسلم إنما ينوء بأمانة طوقه الله إياها، ويتشرف برسالة فرض الله عليه حملها وأداءها، وهي مواريث النبوة في دعوة الناس إلى الخير، وتبصيرهم بالحق، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وكفهم عن الضلال

والفســاد، وأنى يقوم بهذا كله إن كان غير راســخ القدم، ثابت العزم، ماضي الإرادة، مستيقظ الضمير؟!.

وقد بين هذا الدور العظيم الذي يجب أن يقوم به المسلم شاعر الإسلام محمد إقبال في كلماته الذهبية التي تشع بنور الإيمان وتلتهب بوهج الحماس: «إن المســلم لم يخلق ليندفع مع التيار، ويســاير الركب البشري حيث اتجه وســار، بل خلق ليوجه العالم والمجتمــع والمدنية، ويفرض على البشــرية اتجاهه، ويملي عليها إرادته، لأنه صاحب الرسالة وصاحب العلم اليقين. ولأنه المسؤول عن هذا العالم وسيره واتجاهه. فليس مقامه مقام التقليد والاتباع، إن مقامه مقام الإمامة والقيادة ومقام الإرشاد والتوجيه. ومقام الآمر الناهي. وإذا تنكر له الزمان، وعصاه المجتمع وانحرف عن الجادة، لم يكن له أن يستسلم ويخضع ويضع أوزاره ويسالم الدهر، بل عليه أن يثور عليه وينازله. ويظل في صراع معه وعراك، حتى يقضي الله في أمره. إن الخضوع والاستكانة للأحوال القاســرة والأوضاع القاهرة، والاعتــذار بالقضاء والقدر من شــأن الضعفاء والأقزام. أما المؤمن القوي فهو بنفسه قضاء الله الغالب وقدره الذي لا يرد»[(١)].

فبهذه الروح الوثابة والهمة العالية استطاع السلف الصالح ـ من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ﭫ ـ أن يفتحوا أقفال القلوب، وأن يدخلوا إلى مجاهل طبائع البشــر فيحولوهم من الضلال إلى الهدى، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن الحيرة إلــى البصيرة، وكانت تلك النقلــة العظيمة للعالم التي ســجلها التأريخ بمداد مــن ذهب، وبهــذا تمكنوا من دحر جحافل الشــرك والإلحاد، وأن يزعزعوا معاقل البغاة المتسلطين في الأرض، الذين اتخذوا عباد الله خولا، ومالهم دولا، ونصبوا من أنفسهم آلهة تعبد من دون الله، فقد أوجف أولئك المســلمون قلوب هؤلاء الجبابرة المتســلطين حتى أحسوا بها كأنها

(١) أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص ١٥.

تنخلع ما بين جوانحهم، وتتطاير هممها وتذوب عزائمها، وأرجفوا الأرض من تحت أقدامهم حتى شعروا بها تقذفهم من عليها، فيهوون إلى غير قرار، كمن خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق.

ولا ريب أن أولئك تربوا عقيدة وفكرا، وسلوكا وعملا، وعزيمة وهمة، وجلدا وصبرا، وفضيلة وخلقا، على يدي رسول الله ﷺ، الذي كان يحرص على استقلالهم في كل جزئية من حياتهم، لئلا يتأثروا بغيرهم في شيء، لأنه جاءهم بمنهج متكامل لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وبوأها ـ في نظام رتيب ـ مكانها اللائق بها، وكان شديد الحساسية دقيق المراقبة، لا يدع أي قضية ـ ولو دقت ـ أن تمر بهم من غير عرضها على المحك النقدي، فحتى في الأمور العادية في حياة الناس كان ﷺ يحرص على تجنيبهم التأثر بالآخرين، كما جاء عن عبادة بن الصامت قال كان رسول الله ﷺ إذا اتبع جنازة لم يقعد حتى توضع في اللحد فعرض له حبر فقال هكذا نصنع يا محمد فجلس رسول الله ﷺ وقال: «**خالفوهم**»[(١)].

وأنت تدري أن القيام والقعود من الأمور الطبعية التي تعود إلى ملاءمة وضع الإنسان في أحواله، فتارة يكون القيام أنسب له وتارة يكون القعود هو الأنسب، وكل ذلك من المباح شرعا، لأنه من الأمور الاعتيادية، وإنما سن رسول الله ﷺ القعود في حال دفن الميت مخالفة لليهود ـ مع أن القيام قد يكون أسمح للحركة فيما لو أراد أحد المشيعين أن يقوم بمشاركة عملية في الدفن ـ حتى لا يقع في نفس بعض الضعفاء من المسلمين أن يقوم متابعة لليهود ومجانسة لأعمالهم، لأن أثر ذلك عظيم على نفس المسلم ولو بدا له أنه أمر تافه، فإن الاستهانة بالجزئيات تسرع في نفس الإنسان فلا يلبث أن يستهين بالكليات وعدم المبالاة بالمحقرات يؤدي إلى عدم الاكتراث بالعظائم.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٩٣/١ رقم: ١٥٤٥)، والترمذي (٣٣١/٣ رقم: ١٠٢٠) والبزار (١٣٢/٧ رقم: ٢٦٨٥) والبغوي في شرح السنة (٣٣١/٥ رقم: ١٤٨٧).

وللشيطان في إغواء الإنسان والانحراف به عن سواء الصراط مسالك أدق من أن يتفطن لها اللبيب إلا بدقة المراقبة وعمق الملاحظة، ووسائل أخفى من أن يتفطن لها إلا أولوا البصائر النيرة الثاقبة، وما كان رسول الله ﷺ ليدع هذه الحادثة تمر من غير أن ينبه على بعدها، ويلمح لأصحابه بآثارها، وقد كانوا رضي الله عنهم من الفطنة ودقة الملاحظة أنهم يكفيهم التلميح عن التصريح، وإنما هم يستنتجون بحدسهم ما ينطوي عليه التلميح من الأبعاد التي كان يرمي إليها صاحب الرسالة العظمى عليه الصلاة والسلام.

وهو ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كان وراء كل واحد من أصحابه يراقب تصرفاته، حتى لا يأتي بشيء يفتح ثغرة على نفسه لتأثير أي أحد عليه، أو ليتأثر بأي فكر أو أسلوب خارج عن المنظومة الإسلامية الواسعة التي جاء بها ﷺ فيما أنزل الله عليه، ناهيك بهذه القصة التي رواها جابر بن عبد الله رضي الله عنه «أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتب، فقرأه على النبي ﷺ فغضب وقال: «**أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيا، ما وسعه إلا أن يتبعني**»»[(١)].

وهذا راجع إلى خبرة النبي ﷺ الواسعة بطبيعة النفس البشرية التي تتأثر بما تتلقاه وتنجذب إلى كل جديد لم يكن لها به عهد، فلو ترك للناس مجال فسيح في التلقي من هذا وذاك لتزعزعت في نفوسهم ثوابت الأفكار، وذابت أخلاقهم الصلبة، وتساقطت قيمهم العالية، بما يتتابع عليها من المؤثرات التي تطرق النفوس، لذلك قطع النبي ﷺ كل مسلك لأي مؤثر من هذه المؤثرات، وهو ﷺ ـ بلا ريب ـ مستهد في هذا بما أنزل الله تعالى عليه من الحق الذي لم يدع مجالا لباطل أن يصل إليه، فضلا عن أن ينال منه.

(١) أخرجه أحمد (٣٤٩/٢٣ رقم: ١٥١٥٦)، وابن أبي شيبة (٣١٢/٥ رقم: ٢٦٤٢١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٤٧/١ رقم: ١٧٤)، وابن أبي عاصم (٢٧/١ رقم: ٥٠).

تربية القرآن للأمة تغرس فيهم روح الاستقلال، وتقيهم دواعي التأثر والتبعية:

أحاط القرآن الذي أنزله الله تعالى نفوس المؤمنين بحاجز نفسي يقيهم التأثر بسائر أهل الملل والأفكار، حتى لا تنساب إليهم أفكارهم ولا عاداتهم، ناهيكم بأن الله سبحانه حصر ولاية المؤمنين في الذين آمنوا وحدهم، الذين يتكاتفون على الخير ويتعاونون على البر والتقوى، ويتآمرون بالمعروف، ويتناهون عن المنكر، ليغلقوا كل نافذة في وجه الشيطان وأتباعه، فقد قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ التوبة: ٧١، وفي مقابل ذلك بين أن الكفرة جميعا بعضهم أولياء بعض في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ الأنفال: ٧٣.

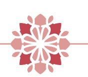
وكثيرا ما حذر تعالى من تولي المؤمنين للكافرين، ولو كانوا من أخص خاصتهم وأقرب قرابتهم، فقد قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ آل عمران: ٢٨، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ التوبة: ٢٣، وقال: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ المجادلة: ٢٢، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا

فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ الممتحنـة: ١، وترى في هذه الآية كيف جاءت قوارع الإنكار والإنذار للذين أرادوا أن يبقوا بينهم وبين أهليهم الذين كانوا على الجاهلية خيطا من الاتصال ليصرفوا عن أنفسهم ما يتوجسون منه خيفة أن لو كانت كرة للكافرين ضد المؤمنين، ثم أتبع ذلك سبحانه تبصير المؤمنين بما يعتمل بين حنايا نفوس الكافرين من حقد وشنآن للذين آمنوا، ولو توددوا إليهم بما عساهم يأملون أن يكون مجديا لهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾ الممتحنة: ٢.

فإنهم لا يرعوون ولا ينثنون عن التشفي من المؤمنين بالبطش بالأيدي والقدح بالألسنة عندما تسنح لهم سانحة فيتمكنون من بسط نفوذهم عليهم، مع أن أمنيتهم أن يضلوا كضلالهم ويتبعوهم في غيهم وينقلبوا من إيمانهم إلى الكفر ومن توحيدهم إلى الشرك، كما قال الأستاذ الشهيد سيد قطب: «فلا تعرض لهم فرصة يتمكنون فيها من المسلمين حتى يتصرفوا معهم تصرف العدو الأصيل. ويوقعوا بهم ما يملكون من أذى ومن تنكيل بالأيدي وبالألسنة وبكل وسيلة وكل سبيل.

والأدهى من هذا كله والأشد والأنكى: ﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾.. وهذه عند المؤمن أشد من كل أذى ومن كل سوء يصيبه باليد أو اللسان. فالذي يود له أن يخسر هذا الكنز العزيز ـ كنز الإيمان ـ ويرتد إلى الكفر، هو أعدى من كل عدو يؤذيه باليد وباللسان!.

والذي يذوق حلاوة الإيمان بعد الكفر، ويهتدي بنوره بعد الضلال، ويعيش عيشة المؤمن بتصوراته ومداركه ومشاعره واستقامة طريقه وطمأنينة قلبه يكره العودة إلى الكفر كما يكره أن يلقى في النار أو أشد. فعدو الله هو الذي يود أن يرجعه إلى جحيم الكفر وقد خرج منه إلى جنة الإيمان، وإلى



فراغ الكفر الخاوي بعد عالم الإيمان المعمور. لهذا يتدرج القرآن في تهييج قلوب المؤمنين ضد أعدائه وأعدائهم حتى يصل إلى قمته بقوله لهم عنهم: ﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾»[(١)].

المفاصلة بين المؤمنين والكافرين هي اقتداء بالنبيين والمرسلين ومن تبعهم:

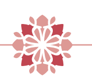
ثم إن الله تعالى في هذا السياق يوجه المؤمنين إلى القدوة الصالحة التي يقتدونها والأسوة الحسنة التي يتبعونها في هذه الوقفة الفاصلة بينهم وبين الذين كفروا، عندما يقول تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ۞ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ الممتحنة: ٤ ـ ٥، ومعنى ذلك أن المؤمنين مطالبون في هذا أن يتبعوا هذه الأسوة ويسيروا على نهج إبراهيم والذين معه من المؤمنين الذين وقفوا هذا الموقف الصارم من الذين كفروا، إلا في نقطة واحدة ما كان لهم أن يتبعوها وهي استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه الكافر، فإن ذلك أمر كان خاصا به، وما كان إلا لسبب دعاه إليه وهو الوعد الذي قطعه لأبيه على نفسه بأن يستغفر له، فما كان له ـ وهو الحريص على الوفاء بوعده ـ إلا أن ينجز ما وعد، إلى أن تبين له عداوة أبيه لله، فتبرأ إلى الله منه، وقد بين ذلك قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ۞ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾ التوبة: ١١٣ ـ ١١٤.

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن (٧/١٧٩ ـ ١٨٠).

ولم يكن هذا التأســي الذي وجه إليه المؤمنون في هذه القضية بإبراهيم ومن معه أمرا اختياريا يعود إلى رغبات النفس وما يلائم طباعها، وإنما هو أمر ضروري لتحقيق الانتماء إلى المؤمنيــن، وتصديق الإيمان بالله واليوم الآخر، وقد أتبع الله تعالى ما تقدم بقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ الممتحنــة: ٦، ناهيكم بما في هذا النص أنه نيط الإيمان بالله واليوم الآخر بهذا التأسي، وتبع ذلك التهديد لمن أعرض عنه وتولــى جانبا بأنه تعالى هو الغني، ولــن يضيره هذا الإعراض شــيئا، وإنما يضير المعرضين أنفســهم إذ يحرمون بهذا لطــف الله تعالى وهدايته وبره وتوفيقه ورضاه وثوابه، وفاصلة هذه الآية شــبيهة في دلالتها بقوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ آل عمران: ٩٧.

وإذا كان الإســلام والقرآن يقفان هذا الموقف في تجنيب المســلم التأثر بالذين كفروا بما يضعانه من الحواجز التي تقيه الانجذاب نحوهم، والإعجاب بما هم عليه فكرا أو ســلوكا أو خلقا، فإنهما لا يتــركان التنبيه على ضرورة مفاصلة أهل الكتاب أيضا لئلا يغتر المســلمون بما عندهم من الكتاب، وما سبقوا إليه من علم النبوات، فإن كل ذلك لا يجدي شيئا مع ما كان منهم من تحريف الكتاب عن حقيقته التي نزل بها ومن تحريف كلمه عن مواضعه.

ومع ما أخذه الله من عهد على النبيين وجميع الأمم من ورائهم أن يؤمنوا بالرســول الخاتم الذي جاء مصدقا لما سبق من الرســالات السابقة، كما هو صريــح قولــه تعالــى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ آل عمــران: ٨١ ـ ٨٢، فما كان لأحد من أتباع النبيين ـ من قبل ـ بعد أخذ هذا الميثاق عليهم أن ينثني عن اتباع هذا الرسول المبشر به، بالإيمان والنصرة، وعدم مخالفته في شيء، وإنما عليهم



جميعا أن ينخلعوا من كل ما كانوا عليه إلى اتباعه في كل ما جاءهم به من عند الله، وبهذا يتحقق إيمانهم بالنبيين جميعا، ويوفون حق إيمانهم بما أوتوا من كتاب.

وقد بشرت به ﷺ الكتب جميعا، فمن عدل ـ بعد هذا ـ عن اتباعه ﷺ ولم يؤمن برسالته من أهل الكتاب فقد أضاع الكتاب الذي أوتيه سلفه وكفر بما فيه، وكفر بما جاء به نبيه، وإنما المستمسكون حقا بالكتاب هم الذين آمنوا به واتبعوه عندما بلغتهم رسالته، وهؤلاء الذين يؤتون أجرهم مرتين، كما نص عليه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ القصص: ٥٢ ـ ٥٥، فهم لا يلتفتون إلى عتب أقوامهم عليهم بسبب هذا الإيمان، ولا يصغون إلى جدلهم، وهم المقصودون في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ المائدة: ٨٣ ـ ٨٤.

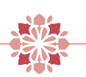
أما من أصر على الصدود والإعراض وضرب بما في كتابه من التبشير برسالته ﷺ عرض الحائط فإنهم كغيرهم ممن كفروا تجب المفاصلة بينهم وبين المؤمنين، فلا يحل لمؤمن أن يتولاهم كما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المائدة: ٥١، وقد بين الله سبحانه أن ولاية من يتولاهم إنما هي ناشئة عن مرض نفساني، يصور لمن ابتلي به أن ولايتهم والتعلق بهم أمان لمن تشبث بهما من نوائب الدهر وطوارق الحدثان، فقد أتبع الله ذلك قوله: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ المائدة: ٥٢،

وما يدري هؤلاء أن الأمر كله بيد الله يصرفه كما شاء، وهو يعز من يشاء ويذل من يشاء، ومن استمسك بأمره واعتصم بحبله آب بالنجاح في الدنيا والفلاح في الآخرة، وقد جاءت الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ۞ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ المائدة: ٥٢ ـ ٥٣.

ولا يخفى على ذي بال أن ترسم خطواتهم وتقليدهم في عاداتهم والتشبه بهم في صفاتهم، كل ذلك مما يعود إلى موالاتهم، فإن من شـأن الإنسان أن يحذو حذو من يعجب به، ويستحوذ الانبهار به على فكره، فلا يزال يقلده حتى تذوب شخصيته في شخصيته، ويغدو صورة له في هندامه وحركاته وسكناته، بل وجميع مظهره ومخبره، حتى يستوحي فكره من فكره، وتنبجس أخلاقه من أخلاقه، فيبصر بعينه ويسمع بأذنه ويفكر بعقله ويحتكم إلى نهجه.

وهذا ـ بلا ريب ـ من أمراض النفس الناشئة عن الإحساس بضعفها وهوانها ودناءتها، مع الشعور بعظمة المعجب به وقوته وعزته وكرامته، وهذا يسمى عند علماء النفس بمركب النقص، فإن الشاعر بالنقص من نفسه يطمح إلى استبداله بالكمال، ولا يتصور الكمال إلا فيمن امتلك لبه واستحوذ على قلبه وفكره، فيحرص على التخلي عن قيمه وعاداته ومواريثه الفكرية والأخلاقية، ولو كانت في منتهى الكمال، لينتقل إلى قيم وعادات وفكر وأخلاق من تأثر به، وقد أدرك النبي ﷺ خطورة هذا الأمر، لأجل ذلك بنى الشخصية الإسلامية على الاستقلال في كل شيء، والاعتزاز بما هي عليه من العقيدة والتصور والقيم والأخلاق، والنظام والسنن.

وكان أصحاب النبي ﷺ الذين تربوا على روح الاستقلالية مثالا في الاستمساك بما يميز الشخصية الإسلامية من فكر وأخلاق وعبادة وسلوك، فلم



يكونوا يلتفتون إلى ما عنــد غيرهم من مظاهر الحيــاة، التي تخلب الألباب وتزلزل المبــادئ والأفكار عند ضعفــاء النفوس، ولهذا لــم ينبهر الفاتحون المســلمون بما كان عند الروم والفرس من مظاهر المدنيــة الخلابة، والحياة المترفة، وما كانوا يتقلبون في أعطافه من نعيم العيش الدغفق كما هو واضح في جواب ربعي بن عامر ﵁ لرســتم الفارســي قائد جيوش الإمبراطورية الساســانية عندما ســأله ما الذي جاء بكم؟ فأجابه: «الله ابتعثنــا والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»[(١)].

مع أن رســتم اســتقبل ربعيا بكل ما أمكنه من مظاهر الخيلاء وأنواع الزينة والبهرجة، وهي أمــور لم تكن معهودة عند العــرب، ولا كانت تدور بخلدهم أو يلمحه خيالهــم، وقد كان متصورا حســب عــادات الناس ـ كما يقــول المفكر الإسلامي الكبير العلامة أبو الحسن الندوي في محاضرته التي سلط فيها الضوء على هذه الإجابة ـ أن ربعيا سيتحلب لسانه ويسيل لعابه عندما يشهد هذه المشاهد التي لم تكن تدور منه على بال، لكنه كان بعكــس ذلك، إذ أجاب بهذا الجواب الذي قطع على رستم تفكيره بأنه يستطيع التأثير عليه وعلى أصحابه بما يرونه من صورة الترف المفحش، وســيؤدي بهم الانبهار بذلك إلى أن تهن نفوسهم وتنهار قواهم أمام هذا التأثير المــادي، ولكن النتيجة كانت عكــس ذلك، وكانت هذه الكلمات القليلة التي جاءت في جواب ربعي تغني عن مجلدات في شرح مواقف الإسلام وأهدافه ومبادئه وغاياته، وهي كما قال ذلك المفكر الكبير: (لو وضعت على الجبال لتدكدكت، ولو وضعت على البحار لتبخرت)، فكيف لا تزعزع جيش العدو وتقهقره، ولو انتهى إلى أي رقم كان في كثرة العَدَدِ ووفرة العُدَدِ؟.

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري، ٤٠١/٢، أبو الربيع الكلاعي: الإكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، ١٩٢/٤، ابن كثير: البداية والنهاية ٣٩/٧، أحمد زكي: جمهرة خطب العرب ٢٤٢/١.

هذه الروح الإيمانية الاستقلالية في نفوس الرعيل الأول كانت هي أقوى وسيلة لفتح القلوب قبل فتح البلاد:

بهذه الروح التي امتلأت بها القلوب المؤمنــة، وفاضت منها على أقوالهم وأعمالهم، اســتطاع المســلمون أن يفتحوا العالم ويحولوه إلى عالم آخر، وقد كانت هذه المواقــف الصلبة وعدم التزعزع قيد شــعرة ســببا للفتــح الفكري والأخلاقي بجانب الفتح العسكري والسياسي، فقد كان تأثرهم كبيرا بما كان عند المسلمين من الفكر والأخلاق، وسرى فيهم ذلك سريان النار في الهشيم، حتى تخلوا عن أهم ما يميز عقيدتهم وطقوس عباداتهم، كما قال أستاذ الأدب أحمد أمين: «ظهر بين النصارى نزعات يظهر فيها أثر الإســلام. من ذلك أنه في القرن الثامن الميلادي أي في القرنين الثاني والثالث الهجريين ظهرت في ســبتمانيا (Septimania) حركة تدعو إلى إنكار الاعتراف أمام القسس، وأن ليس للقسس حق في ذلــك، وأن يضرع الإنســان إلى الله وحده فــي غفران ما ارتكــب من إثم، والإسلام ليس له قسيسون ورهبان وأحبار، فطبيعي أن لا يكون فيه اعتراف»[١].

وقد نقل كلامه هذا المفكر الإســلامي الكبير أبو الحســن الندوي وأتبعه: «وكذلك كانت حركة تدعو إلى تحطيم الصور والتماثيل الدينية (Iconoclasts) ذلك أنه في القرن الثامن والتاسع للميلاد أو القرن الثالث والرابع الهجري، ظهر مذهب نصراني يرفض تقديس الصور والتماثيل، فقــد أصدر الإمبراطور الروماني «ليو» الثالث أمراً ســنة ٧٢٦م يحرم فيه تقديس الصور والتماثيل، وأمراً آخر سنة ٧٣٠م يعد الإتيان بهذا وثنية، وكذلك كان قسطنطين الخامس وليو الرابع، على حين كان البابا جريجوري الثاني والثالث وجرمانيوس بطريرك القسطنطينية والإمبراطورة إيريني مــن مؤيدي عبــادة الصور، وجرى بيــن الطائفتين نزاع شــديد لا محل لتفصيله، وكل ما نريد أن نذكره أن بعــض المؤرخين يذكرون أن الدعوة إلى نبذ

(١) أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص ١١٥.



الصور والتماثيل كانت متأثرة بالإسلام، ويقولون: إن كلوديوس (Claadius) أسقف تورين (الذي عين سنة ٨٢٨م وحول ٢١٣هـ) والذي كان يحرق الصور والصلبان وينهى عن عبادتها في أسقفيته، ولد وربي في الأندلس الإسلامي»[(١)].

وهذا يعني أن المد الإسلامي لم ينحصر في الذين اتبعوه وآمنوا به، بل كان له تأثير سرى إلى نفوس الأمم حتى في المحيط العام بين الذين لم يؤمنوا به، إذ كانوا يعدون كثيرا من المظاهر في دينهم مظاهر وثنية لا صلة لها بالدين بسبب موقف الإسلام الصلب منها، وهذا ـ بلا ريب ـ إنما يعود إلى قوة براهين العقيدة الإسلامية وانسجامها مع العقول وتجاوبها مع الفطرة، كما يعود إلى ما كان للفاتحين الأولين الذين تربوا على يدي النبي ﷺ، ومن تربى على أيديهم من مزايا بهرت العقول وأخذت بمجامع أفكار خصومهم، فكم عبر خصوم الإسلام عن هذا التأثر والإعجاب حتى في حين شنهم الحرب الضروس على الإسلام والمسلمين، كما سبق ذكر ذلك.

وهذا الانبهار وحده كان لهم فتحا مبينا ونصرا عزيزا، إذ النصر في المجال الفكري والأخلاقي أعظم من النصر في الجانب العسكري والسياسي، ومما يذكر أن هذا التأثر في حياة الخاصة والعامة في الغرب بما كان عليه المسلمون استمر زمنا طويلا، فمن بقي من النصارى بأرض الأندلس تحت حكم الإسلام كان شبابهم وشاباتهم متأثرين بما يجري على ألسنة المسلمين من نحو شعار السلام وذكر الله تعالى عند اللقاء والوداع، فكان الشاب منهم إذا التقى بزملائه حياهم بتحية السلام، حرصا منه على إظهار نفسه بالمظهر الحضاري الذي يفاخر به أقرانه، وكذلك كانت الفتاة النصرانية بين زميلاتها، وعند الوداع يخاطب كل منهما من حوله بما يجري على ألسنة المسلمين من استيداعهم الله تعالى وتركهم في حفظه ورعايته، وكانوا يعدون ذلك رمزا للتقدم وعنوانا للرقي.

(١) المرجع السابق، ص ١١٥ ـ ١١٦.

وقد اعترف كثير من الكتاب في الشرق والغرب بما كان للإسلام من أثر كبير في حياة الأمم عندما أشـــرق عليهم نوره، وهطل عليهــم مزنه، وفاضت عليهم بركاته، فكان ســببا لتهذيب أخلاقهــم وتزيين مظاهرهم والارتقــاء بأفكارهم، وتجنيبهم كثيرا من العادات السيئة والخصال المذمومة، فقد حكى السيد العلامة أبو الحسن الندوي عن الباحث الهندي (K. M. Panikkar)، الذي كان سفيرا للهند بمملكة مصر ســابقا أنه قال: «من الواضح المقرر أن تأثير الإســلام في الديانة الهندكية كان عميقاً في هذا العهد (الإســلامي)، إن فكرة عبادة الله في الهنادك مدينة للإســلام، إن قادة الفكر والدين في هذا العصر وإن سموا آلهتهم بأسماء شتى قد دعوا إلى عبادة الله، وصرحوا بإن الإله واحد، وهو يستحق العبادة، ومنه تطلب النجاة والسعادة. وقد ظهر هذا التأثير في الديانات والدعوات التي ظهرت في الهند في العهد الإسلامي كديانة « Bhagti ودعوة كبير»[(١)].

وقد سرى هذا الإعجاب ـ بما كان للإسلام من تأثير على هذه الأمم ـ إلى كبار ساســتها ومفكريها، فقد نقل كذلك عــن رئيس وزراء الهند ـ ســابقا ـ (جواهر لال نهرو) أنه قال في كتابــه (Discovery of India): «إن دخول الغزاة الذين جاءوا من شــمال غرب الهند ودخول الإسلام له أهمية كبيرة في تاريخ الهند، إنه قد فضح الفساد الذي كان قد انتشر في المجتمع الهندوكي، إنه قد أظهر انقسام الطبقات واللمس المنبوذ، وحب الاعتزال عن العالم الذي كانت تعيش فيه الهند، إن نظرية الأخوة الإسلامية والمســاواة التي كان المسلمون يؤمنون بها، ويعيشون فيها، أثرت في أذهان الهندوس تأثيراً عميقاً، وكان أكثر خضوعاً لهذا التأثير البؤســاء الذين حرم عليهم المجتمع الهندي المســاواة والتمتع بالحقوق الإنسانية»[(٢)].

---

(١) أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص ١١٧ نقلا عن:
(A Survey of Indian. History p. 132).

(٢) المرجع السابق، ص ١١٧.

وهذا أقوى دليل على أن الفطرة الإنسانية وجدت في الإسلام ضالتها المنشودة، وما تبحث عنه من بين ركام المبادئ والأفكار والنظم السياسية والاجتماعية من قيمة للإنسانية أضاعها الانحراف الفكري والسياسي في الديانات والفلسفات السابقة، فكان تجاوب مع مبادئ الإسلام التي رفعت قيمة الإنسان حتى ممن لم يستجيبوا له بالإيمان والاتباع، ولولا أن الإسلام رزئ بانحراف سياسي نتج عنه انحراف فكري حصره عن الامتداد، وعرقله عن الانتشار بتلك القوة السابقة، التي كانت في عصره الذهبي، عصر النبوة الهادية والخلافة الراشدة، لكان الإسلام ـ بوضوح عقيدته وسلامة فكره وقوة دليله، وما ينشره بين الناس من مبادئ الرحمة والخير، وأسباب الشفقة والحنان ـ قد ملأ الدنيا بأسرها، وقضى على كل دين ونظام سواه، وهذا ما اعترف به رجال الفكر والسياسة من الغربيين، وسجله من سجله من مشاهير علماء المسلمين، مؤكدا ما ذكرته، فقد قال العلامة الكبير والمفكر الشهير السيد رشيد رضا في تفسيره **المنار**: «ولولا ما طرأ عليه ـ أي الإسلام ـ من الابتداع، وعلى حكوماته من الظلم والاستبداد، وعلى شعوبه من الجهل والفساد، والتفرق بالاختلاف، لدخل فيه أكثر البشر، ولصارت لغته لغة لكل من دخل في حظيرته من الأمم، فمن غرائزهم اختيار الأفضل إذا عرفوه.

قال أحد كبار علماء الألمان في الأستانة لبعض المسلمين وفيهم أحد شرفاء مكة: إنه ينبغي لنا أن نقيم تمثالا من الذهب لمعاوية بن أبي سفيان في ميدان كذا من عاصمتنا (برلين) قيل له: لماذا؟ قال: لأنه هو الذي حول نظام الحكم الإسلامي عن قاعدته الديمقراطية إلى عصبية الغلب، ولولا ذلك لعم الإسلام العالم كله، ولكنا نحن الألمان وسائر شعوب أوربة عربا ومسلمين» اهـ[(١)].

هذا؛ وذكر العلامة الندوي عن أحد معاصريه ممن كتب عن تأثير الإسلام في الحضارة الهندية «وهو (N. C. Mehta) في كتابه **الحضارة الهندية والإسلام**

---

(١) محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ٢١٤/١١.

(Indian Civilization and Islam)، أنه قال: «إن الإسلام قد حمل إلى الهند مشعلاً من نور قد انجلت به الظلمات التي كانت تغشى الحياة الإنسانية في عصر مالت فيه المدنيات القديمة إلى الانحطاط والتدلي، وأصبحت الغايات الفاضلة معتقدات فكرية، لقد كانت فتوح الإسلام في عالم الأفكار أوسع وأعظم منها في حقل السياسة، شأنه في الأقطار الأخرى، لقد كان من سوء الحظ أن ظل تاريخ الإسلام في هذا القطر (الهندي) مرتبطاً بالحكومة، فبقيت حقيقة الإسلام في حجاب، وبقيت هباته وأياديه الجميلة مختفية عن الأنظار»[(١)].

وهذا يعني أن الإسلام الحنيف ـ بأفكاره المقنعة للعقول ونظامه الجاذب للنفوس ـ أخذ يمتد في عالم الشرق وعالم الغرب معا، ويتغلغل في عمق المبادئ والأفكار التي كان عليها الناس من حيث يدرون ومن حيث لا يدرون، حتى بدل كثيرا من ثوابت معتقداتهم التي كانت متحكمة في نفوسهم ردحا من الزمن، بأفكار سمحة تقبلتها الفطر وتجاوبت معها النفوس، فعلى الرغم مما كانت عليه الكنيسة في الغرب ـ من التشدد وإحاطة أتباعها بستار حديدي يحول بينهم وبين أن تصل إليهم أفكار من خارج حدود ذلك الستار ـ امتد شعاع الإسلام إلى خاصة الناس وعامتهم هناك، فتأثروا به وانسلخوا بسببه مما كانوا يعدونه من ثوابت الدين، فقامت حركات إصلاحية تنقض ما كان راسخا رسوخ شم الرواسي، وتجتثه لبناء فكر حضاري جديد يعكس ما في الإسلام من فكر سليم مبني على إدراك العقول والفطر، ويقول في هذا العلامة الندوي: «ويمكن لمن يطالع تاريخ أوربا الديني وتاريخ الكنسية النصرانية أن يلتمس تأثير الإسلام العقلي في نزعات المصلحين والثائرين على النظام الأسقفي السائد، أما دعوة «لوثر» الإصلاحية الكبيرة، فقد كانت ـ على عِلَّاتها ـ أبرز مظهر للتأثُّر بالإسلام وبعض عقائده كما اعترف المؤرخون.

(١) العلامة أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص ١١٧.



وترى كذلك تأثيرا للعقلية الإسلامية والشريعة الإسلامية في أخلاق الأمم اجتماعها وتشريعها في أوربا النصرانية وفي الهند الوثنية بعد الفتح الإسلامي تراه وتلمسه في الاتجاه إلى التوحيد ونزعات الاحترام للمرأة وحقوقها والاعتراف بمبدأ المساواة بين طبقات البشر، إلى غير ذلك مما سبق إليه الإسلام وامتازت به شريعته ومدنيته»[1].

بدء خط الرجعة:

وإذا كان هذا كله إنما يرجع إلى ما يتميز به الإسلام ـ دين الله تعالى الحق ـ من قوة دليله، وتألق نوره ودقة تصوره، وعمق فكره، وشمول نظامه، وانتظام كلياته وجزئياته، ورسوخ أصوله وسعة فروعه، بجانب ما كان للسابقين الأولين من تمسك دقيق بكلياته وجزئياته، وتتبع عجيب لشريعته وأحكامه، فإن هذا كله بدأ يتقلص في حياة الأمة منذ بدأ الانحراف في نهجها السياسي والفكري، وذلك عندما رزئت الأمة بفقدان ذلك النموذج الأمثل الذين تشربوا الإسلام، حتى فني كل شيء من طباعهم بقوة تأثيره، فعاد كل منهم إسلاما يمشي على قدمين في المعاملة والأخلاق، والأخذ والعطاء، والسلم والحرب، والبسط والقبض، كما يصور ذلك فيلسوف الإسلام السيد أبو الحسن الندوي في قوله:

«كان زمام القيادة الإسلامية ـ والعالمية بالواسطة ـ بيد الرجال الذين كان كل فرد منهم معجزة جليلة لمحمد ﷺ، إيمانا وعقيدة وعملا وخلقا وتربية وتهذيبا وتزكية نفس وسمو سيرة، وكمالا واعتدالا، لقد صاغهم النبي ﷺ صوغا، وصبهم في قالب الإسلام صبا، فعادوا لا يشبهون أنفسهم إلا في الأجسام لا في الميول والنزعات، ولا في الرغبات والأهواء، ولو دقق مدقق لما رأى في سيرتهم وأخلاقهم مأخذاً جاهلياً ينافي روح الإسلام والنفسية الإسلامية، ولو تمثل الإسلام بشراً لما زاد على أن يكون كأحدهم، وكانوا كما

(١) المرجع السابق، ص١١٦.



قلنا أمثلة كاملة وأقيسة تامة للدين والدنيا والجمع بينهما، فكانوا أئمة يصلون بالناس، وقضاة يفصلـون قضاياهم، ويحكمون بينهم بالعـدل والعلم، وأمنة لأموال المسـلمين وخزنتهم، وقـواداً يقـودون الجيوش ويحسـنون تدبير الحروب، وأمراء يباشرون إدارة البلاد ويشرفون على أمور المملكة ويقيمون حدود الله، وكان الواحد منهم في آن واحد تقيا زاهدا وبطلا مجاهدا، وقاضيا فهما، وفقيها مجتهدا وأميرا حازما وسياسـيا محنكا، فكان الدين والسياسـة يتمثلان في شخص واحد وهو شخص الخليفة وأمير المؤمنين، حوله جماعة ممن تخرجوا ـ إن صـح التعبير ـ في هذه المدرسـة، المدرسـة النبوية، أو المسـجد النبوي، أفرغوا في قالب واحد يحملون روحا واحدة، وتلقوا تربية واحدة، يستشيرهم الخليفة ويستعين بهم، فلا يقطع أمرا ذا بال حتى يشهدوه فسرت روحهم في المدنية ونظام الحكم وحياة الناس واجتماعهم وأخلاقهم، وانعكسـت ميولهم ورغباتهم في المدنية وظهرت خصائصهم فيها، فلا عداء بين الروح والمادة ولا صراع بين الدين والسياسة ولا تفريق بين الدين والدنيا، ولا تجاذب بين المصالح والمبادئ ولا تزاحم بين الأغراض والأخلاق، ولا تناحر بين الطبقات، ولا تنافس في الشهوات»[١].

وقد أخذ بعد هؤلاء الوضع يتدحرج ويهوي إلى الحضيض عندما تسـلم الزمام، من لم ينل حظا من هذه التربية، ولم يسـعد بهذا التكوين، فانزلق في مهاوي هوى النفس، وتردى في مهالك الفتن، التي أخذت تتنقص من الإسلام كل يوم حصة منه، كما صور ذلك العلامة الندوي بقوله:

«ولكن من الأسف ومن سـوء حظ العالم البشري أن تولى هذا المنصب الخطير رجال لم يكونوا له أكفاء، ولم يُعدوا له عدة، ولم يأخذوا له أهبة، ولم يتلقوا تربية دينية وخلقية كما تلقى الأولون وكثيرون في عصرهم وجيلهم، ولم

(١) المرجع السابق، ص ١٢٠.

يسيغوا تعاليم الإسلام إساغة تليق بقيادة الأمة الإسلامية والاضطلاع بزعامتها، ولم تنق رؤوسهم ولا نفوسهم من بقايا التربية القديمة، ولم يكن عندهم من روح الجهاد في سبيل الإسلام ومن قوة الاجتهاد في المسائل الدينية والدنيوية ما يجعلهم يضطلعون بأعباء الخلافة الإسلامية ـ وهذا الحكم عام يشمل خلفاء بني أمية وبني العباس، حاشا الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز (م ١٠١هـ).

فظهر من ذلك ثلمات في ردم الإسلام لم تسد إلى الآن، ووقعت تحريفات في الحياة الإسلامية»[(١)].

وأخذ يشرح بعد ذلك ما كان من تباين سحيق بين ما كان عليه الوضع في الحقبة الذهبية للحكم الإسلامي وما انتهى إليه عندما كانت قوة الاستبداد والظلم هي التي تتحكم في الأمة، وتسير بها في خط اتباع الشهوات وإرضاء النزوات، حيث قال: «وقع فصل بين الدين والسياسة عملياً، فإن هؤلاء لم يكونوا من العلم والدين بمكان يستغنون به عن غيرهم من العلماء وأهل الدين فاستبدوا بالحكم والسياسة، واستعانوا ـ إذا أرادوا واقتضت المصالح ـ بالفقهاء ورجال الدين كمشيرين متخصصين، واستخدموهم في مصالحهم واستغنوا عنهم إذا شاؤوا، وعصروهم متى شاءوا، فتحررت السياسة من رقابة الدين، وأصبحت قيصرية أو كسروية مستبدة، وملكاً عضوضاً، وأصبحت السياسة كجمل هائج حبله على غاربه، وأصبح رجال الدين والعلم بين معارض للخلافة وخارج عليها، وحائد منعزل اشتغل بخاصة نفسه وأغمض العين عما يقع ويجري حوله، يائساً من الإصلاح، ومنتقد يتلهف ويتنفس الصعداء مما يرى ولا يملك من الأمر شيئاً، ومتعاون مع الحكومة لمصلحة دينية أو شخصية، ولكلٍّ ما نوى، وحينئذ انفصل الدين والسياسة، وعادا كما كانا قبل عهد الخلافة الراشدة أصبح الدين مقصوص الجناح مكتوف الأيدي،

(١) المرجع السابق، ص ١٢٢.

وأصبحت السياسة مطلقة اليد حرة التصرف نافذة الكلمة صاحبة الأمر والنهي، ومن ثمَّ أصبح رجال العلم والدين طبقة متميزة، ورجال الدنيا طبقة متميزة، والشقة بينهما شاسعة، وفي بعض الأحيان بينهما عداء وتنافس»[1].

نعم؛ في هذه الفترة الحالكة المظلمة التي لا يجد الإنسان فيها بصيصا من أمل يدعوه إلى التفاؤل بدأ جدار الدين يتصدع، ومكانة الأمة تتضعضع، فكل من أراد أن يقوم بالدعوة إلى الإصلاح ولو تدريجيا نظر إليه شزرا، ووجه إليه الاتهام بالزندقة أو المروق، وكان فقهاء السياسة له بالمرصاد لإصدار الأحكام الجائرة في حقه تزلفا إلى الظلمة المستبدين، ليكسبوا رضاهم ولينعموا بما يتساقط من أيديهم من فتات العيش، الذي كان رغده حكرا على المستبدين، ومن دار في فلكهم، وقد صور العلامة الندوي وضع الناس في ظل هذه السياسة حيث قال:

«ولم يكن رجال الحكومة حتى الخلفاء أمثلة كاملة في الدين والأخلاق، بل كان في كثير منهم عروق للجاهلية ونزعاتها، فسرت روحهم ونفسيتهم في الحياة العامة والاجتماع، وأصبحوا أسوة للناس في أخلاقهم وعوائدهم وميولهم، وزالت رقابة الدين والأخلاق وارتفعت الحسبة وفقدت حركة الأمر المعروف والنهي عن المنكر سلطانها، لأنها لا تستند إلى قوة ولا تحميها حكومة، وإنما يقوم بها متطوعون لا قوة لديهم ولا عقاب، والدواعي إلى خلافها متوافرة قوية، فتنفست الجاهلية في بلاد الإسلام ورفعت رأسها، وأخلد الناس إلى الترف والنعيم وإلى الملاهي والملاعب، وانغمسوا في الملذات والشهوات واستهتروا استهتاراً، ونظرة في كتاب **الأغاني** وكتاب **الحيوان** للجاحظ تُريك ما كان هنالك من رغبة جامحة إلى اللهو، وتهافت على الملاهي والملذات، ونهمة للحياة الدنيا وأسبابها، وبهذه السيرة، وبهذه الأخلاق المنحطة، ومع هذا الانهماك في الملاهي لا تستطيع أمة أن تؤدي رسالة الإسلام، وأن تقوم في الدنيا مقام خلفاء الأنبياء، وتذكر بالله والآخرة

(١) المرجع السابق، ص ١٢٢.

وتحض على التقوى والدين، وأن تكون أسوة للناس في أخلاقها، بل لا تستطيع أن تتمتع بالحياة والحرية زمناً طويلاً: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ «الأحزاب: ٦٢»[1].

وكانت هذه الانتكاسة أخذت تهوي بالأمة إلى الحضيض لحظة بعد أخرى، إذ كان القابضون على ناصية الأمر عارا على الإسلام بانتمائهم إليه وادعائهم أنهم يمثلونه في سياستهم وحياتهم الأدبية والأخلاقية، مع أن الإسلام منهم براء، وهذا ما أثبته العلامة الندوي بقوله:

«وكان هؤلاء في كل ما يأتون ويذرون ممثلين لأنفسهم وسياستهم فقط، لا يمثلون الإسلام، ولا سياسته الشرعية، لا قانونه الحربي، ولا نظامه المدني، ولا تعاليمه الأخلاقية إلا في النادر ففقدت رسالة الإسلام تأثيرها وقوتها في قلوب غير المسلمين وضعفت ثقتهم به. وفي لفظ مؤرخ أوربي ـ بدأ الإسلام بالانحطاط، لأن البشرية بدأت تشك في صدق القائمين بتمثيل الديانة الجديدة» اهـ[2].

ومع سريان الشك إلى نفوس البشر عندما يجدون هذا التباين والتناقض بين مبادئ الإسلام وأوضاع أتباعه ـ لا سيما رجال الحكم والسياسة ـ لا تبقى للإسلام قوة تجتذب الناس إلى اتباعه والإيمان به، ولا تأثير على حياة الأمم الفكرية والأخلاقية، لولا ما تبقى من عقيدة التوحيد وبعض الصور في الآداب والأخلاق تتميز بها أمة الإسلام على غيرها من الأمم، وما كان ذلك التأثير ـ بعد مضي تلك القرون على تاريخ الإسلام الذهبي ـ حتى قامت الحركات الإصلاحية عند الأمم الأخرى إلا بما تبقى من هذه المزايا، وإن أضعفها الواقع السياسي.

---

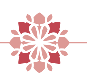
(١) المرجع السابق، ص ١٢٢ ـ ١٢٣.

(٢) المرجع السابق، ص ١٢٣.

الانقلاب الكبير الذي حصل في البشر عموما وفي أمة الإسلام خصوصا كان نتيجة إمساك الغرب بناصية الحياة السياسية والأدبية والثقافية:

كان هذا الواقع المرير الذي أحاط بأمة الإسلام باعثا للغرب إلى أن يلملم شتاته ويستثير شعوبه، وقد بدأت اليقظة عندهم وبدأوا يدركون ما للعلم من مزية في بناء الأمم ورفع صروح الحضارات، وعندما اســتجمع قوته بدأ في اختراق أمة الإسلام، وغزوها عسكريا وسياســيا، مع ما تبع ذلك من غزوها أدبيا وفكريا وأخلاقيا، فانعكست القضية وانقلبت الأحوال، فبدلا من أن تكون أمة الإســلام مؤثرة على الأمم أصبحت هي التي تتأثر وتقفو خطى الآخرين، وترى من الرفعة والتقدم والرقي أن تقلد الآخرين في أنماط الحياة ومظاهرها، وليتها تعلمــت من غيرها الاهتمــام بالعلم والتفاني في العمل والســبق إلى الابتكارات والاختراعات وتطوير الحياة إلى ما هو أفضل، وإنما بقيت في هذا كله عالة على غيرها، لا تعتاش إلا بما يُصَدَّر إليها بحســب ما يسمح لها من أقســاط، وإنما اهتمت بأن تقفوا خطــوات الآخرين في المجــون والخلاعة والاستهتار بالقيم والاستهانة بالأخلاق.

نعم؛ لقد حرصت على أن تســتورد من عند غيرها اللهو والرقص وأنواع اللعب، والخمر والميسر، والربا والغرر، وســائر ضروب الفساد وراء أسماء براقة وشعارات زائفة، فقد ســمت الرقص واللعب بالفنون الجميلة، والخمر بالمشروبات الروحية، والربا بالفوائد، والفاحشة بالحب، وأعرضت عن حكم الله إلى حكم الطاغوت، وحرصت إلى أن تلتقط كل ســاقطة من قبل أولئك الذين أصبحوا هم القابضين على ناصية السياســة فــي العالم، فأعجبوا بكل ما يصل إليهم من قبلهم حتى تباهوا بإحراز قصبات السبق فيما يسمى بكذبة نيسان أو كذبة إبريل، فبزوا الذين سنوا هذه الكذبة في اختراع أسوأ الأكاذيب حالا وأقبحها صورة وأشدها إزعاجا للنفوس وإرجافا للقلوب، وأشدها تأثيرا في قلب الحقائق، كما قال الشاعر محمد مصطفى حمام:



جُـلُّ مـن قلَّـد الفرنجـة منا	قـد أسـاء التقليـد والتمثيلا
فأخذنا الخبيـث منهم ولم نقـ	ـبسِ مـن الطيّبـات إلا قليلا
يـوم سـنَّ الفرنج كذبـةَ إبريـ	ـلَ غـدا كل عُمْرنـا إبريـلا
نشـروا الرجس مجملاً فنشرنا	هُ كتابـاً مفصَّـلاً تفصيـلا

مع أن الكذب كله قبيح فطرة وشرعا، مذموم عند أولي الحلوم، لا يعود على الكاذب ولا على غيره إلا بسوء العواقب، وقد بينت شرور هذه الكذبة وعواقبها الوخيمة وآثارها السيئة في النفس والمجتمع في جواب خاص نشرته قبل سنين.

ولع المسلمين بترك مواريثهم، وتقليد الآخرين:

كم أعرض المسلمون اليوم عن مواريثهم الفكرية والتاريخية، وانساقوا مع جماهير الناس انسياقا، نسوا فيه ما كان عليه سلفهم الماضون، وما يجب الاعتزاز به من آثارهم الخالدة، التي قدمت إلى الزمان أرقى الحضارات الإنسانية، وأهدت إلى العالم مبادئ الرحمة والإحسان، وكم لهذا من أمثلة؛ ناهيك أن العالم كله شهد حدثا تاريخيا ارتقى به من الحضيض الأدنى إلى المقامات العلا، وانتشله من الضياع وأخرجه من الظلمات إلى النور، وهو بناء الدولة الإسلامية، التي أسسها النبي ﷺ بهجرته من المجتمع المكي إلى المجتمع المدني، فخرجت دعوته بذلك من الضيق إلى السعة، ومن المحلية إلى العالمية، ومن الكتمان إلى الظهور، ومن الخفوت إلى الجهر، فرجت أرجاء الدنيا رجا، وبعثت العقول من سباتها العميق، ومن غفلتها المطبقة، ومن ضلالها المبين، فنعمت باليقظة والإدراك والهدى.

إجماع المسلمين في عهد الخلافة الراشدة على جعل هجرة النبي ﷺ ميقاتا لتأريخ الأمة وكيف تحولت الآن إلى النقيض من ذلك:

لأجل هذا اتخذ المسلمون هذه الهجرة ميقاتا تأريخيا لهم، لأنها كانت فاصلة ما بين عهدين متباينين في تاريخ دعوتهم، على أن هذا التأريخ يدور مع

الأشــــهر القمرية التي أرادها الله ســـبحانه أن تكـــون ميقاتا للنـــاس كما قال: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ البقرة: ١٨٩، وقد نيطت بها جميع أحكام الإســـلام، فهي ذاتها تتباين في أحكامها، فمنها أشهر الحل ومنها الأشـــهر الحرم، وقد جعل الله ذلك مما يدخل في صميم الدين عندما قال: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ التوبة: ٣٦، وقد ناط الله تعالى بها جميع الأحكام كالصيام والزكاة والحج وعدد النســـاء وأحكام الطلاق وأحكام الإيلاء والظهار وجميع ما يتعلق بمعاملات الناس.

فالعجب مع هذا؛ كيف تتناسى أمة الإسلام هذه الأشهر مع هذا الارتباط الوثيق بينها وبين شـــعائرها التعبدية وواجباتها الدينيـــة، وتتجاهلها تماما مع النص عليها في كتاب ربها ـ سبحانه ـ وتعتمد على شهور أخرى جئ بها من مكان ســـحيق؟! مع أنها مضى عليها عهد النبوة والخلافة الراشدة ثم تتابعت العهود عهدا من بعد عهد، ولم تكن تعتمد إلا على الشهور القمرية، التي هي مناط عباداتها إلى أن رزئت بالغزو الثقافي والفكري بجانب الغزو العسكري والسياسي، فجردت من مواريثها الفكرية والتأريخية، وفرض عليها ما فرض، وقد كان حريا بها بعدما نعمت بالاستقلال السياسي أن تحرص على أن تستقل فكريا وأدبيا وثقافيا وأن لا تستمر في التبعية العمياء للآخرين.

ولكنها ـ يا للأسف ـ اســـتمرت لاهثة وراء الآخرين تتبعهم في خطاهم، وتقفو آثارهم، حتى نســـيت عهد الله تعالى إليها فيما فرض عليها من عبادات مرتبطة بالشهور التي نسيتها، ولا أنســـى عندما أتاني أحد من عامة المسلمين يسألني عن الحج في أي شهر هو؟.

فأجبته بأن: للحج أشـــهرا معلومات أومى إليها القـــرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ﴾ البقرة: ١٩٧، وهي شوال، وذو القعدة، وعشر من

ذي الحجة، من أحرم فيها بالحج تم إحرامه، ومن أحرم فيها بالعمرة ثم بدا له أن يحج في عامه ذلك بعدما تحلل من عمرته يكون متمتعا بعمرته إلى الحج إن لم يعد بين إحراميه إلى أهله، ويؤمر أن يحرم فـي يوم التروية وهو اليوم الثامن من ذي الحجة، ويذهب إلى منى، وفي صباح اليوم التاسـع يغدو إلى عرفة، ويقف فيها بعد الظهر إلى غروب الشـمس، ثم يفيـض إلى المزدلفة، ويذكر الله عند المشعر الحرام، ويصلي فيها العشـاءين ويبيت فيها ليلة النحر إلى صبيحتها، وبعد صلاة الفجر يغدو إلى منى ويرمي جمرة العقبة، ثم يهدي ويتحلل بعد ذلك من إحرامه، ويطوف في يومه ذلك أو فيما بعده طواف الإفاضة الذي هو مـن أركان الحج، ويبقى في أيام التشـريق بمنى يرمـي فيها الجمار الثلاث، ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ البقرة: ٢٠٣، وبهذا يتم حجه، وإن شاء عاد إلى أهله بعد أن يودع البيت.

فسألني: ولكن في أي شهر يكون هذا؟.

فأجبته: في أشهر الحج التي وصفتها لك، غير أنه لم يع ذلك، وأعاد السؤال مرة أخرى! فقلت له: نحن الآن في شـعبان وسيأتي بعده شـهر رمضان الذي فرض الله صيامه، وبعده يأتي شـوال ثم ذو القعدة ثـم ذو الحجة. ولكن فكره المنغلق على ثقافته البعيدة عن مفاهيم الإسـلام لم ينفتح على شيء من هذا، فعجبت كيف نسـيت أمة الإسلام نفسـها حتى وصلت إلى ما وصلت إليه من الجهل بهذه البدهيات التي تعد من أوليات تعاليم الإسلام، ومما يحتاج إليه كل مسلم في حياته اليومية، مع أن الرجل كان يسأل عن هذا، لأنه كان عاقدا عزمه على حج بيت الله الحرام في عامه ذلك، وقس على ذلك كثيرا من أمثاله.

ونحن هنا في سلطنة عُمان لم يكن التأريخ عندنا قبل أقل من نصف قرن من الزمن من يومنا هذا إلا التأريخ الهجري الذي يدور مع الأشهر القمرية التي نيطت بها العبادات في الإسـلام، غير أن جماهير الناس انسـاقوا مع التيار،

وطوح بهم في مكان سحيق أقصاهم عن التصورات الصحيحة، والممارسات الموفقة، حتى أولئك الذين نشأوا في تلك العهود السابقة ولم يكونوا على دراية قط بالأشهر الشمسية والتأريخ الشمسي.

وقد مرت بي قصة طريفة في هذا، وهي أن جماعة من ملاك فلج بعينه ـ وهو قناة مائية أرضية يجري فيها ماء من جوف الأرض، يسقي البساتين والزروع ـ تشاجروا في تقسيم مياههم منه، وقد اعتاد الناس في عُمان منذ قديم الزمان قسمة هذه المياه بين ملاكها في الليل بمراقبة نجوم بعينها بحسب طلوعها وغروبها، وفي النهار يعتمدون على ما يسمونه المحاضرة، وهي خشبة ينصبونها وتقسم المياه اعتمادا على ظل هذه الخشبة في ضوء الشمس قبل الزوال وبعده، وكثير من الناس استبدلوا بهاتين الوسيلتين الآن الاعتماد على مواقيت الساعة في قسمة المياه، وذلك أبعد عن الالتباس عندما تغيم السماء فتحجب النجوم وينعدم الظل، وقد كان أحد ملاك هذا الفلج يملك نصيبا وافرا من مياهه، وأراد الاعتماد على الساعة في قسمتها بدلا من الاعتماد على المحاضرة والنجوم، لما يعرو ذلك من لبس في وقت الغيوم، ولكن الشريحة الواسعة من شركائه عارضوا ذلك بشدة، وقد تحاكموا في هذا إلى محكمة ابتدائية ثم محكمة استئنافية، ثم ترافعوا بعد ذلك إلى لجنة تمعن نظرها في الأحكام السابقة، وكنت أحد أعضائها، فسألت أولئك المعارضين عما يريدون، فقالوا: إنهم لا يرضون بالخروج عن العادة المألوفة المتوارثة عن الآباء والأجداد، فسألتهم عمن يتولى السقي، هل يتولونه بأنفسهم أو يكلونه إلى غيرهم؟ فأجابوا: أن الذين يسقون هم عمال وافدون. فرددت عليهم: وأنى للوافد أن يعرف المحاضرة والنجوم؟ وكيف إذا اختفت معالم المحاضرة بالغيم أو توارت وراءه النجوم؟.

ثم سألتهم: نحن في أي يوم من الشهر؟ فأجابوا في يوم كذا، وكلهم استحضروا الشهر الشمسي!! فرددت عليهم: لعلكم ترجعون البصر فتفكروا في تأريخ غير هذا، فعمي عليهم الأمر، وقلت لهم: عجبا من أمركم، تحرصون

على المحافظة على قسمة مياهكم بحسب ظل المحاضرة وطلوع النجوم وغروبها، مع ما يعتريها من اللبس في وقت الغيم، ومع أن الذي يتولى السقي قوم وافدون لا دراية لهم بنظام المحاضرة وظلها، أو طلوع النجوم وغروبها، وقد وجدتم البديل عن ذلك وهي الساعة التي تضبط قسمة مياهكم بالدقائق والثواني، مع أنكم نسيتم التأريخ الذي ولدتم ونشأتم عليه، وقد عقدت عليه عباداتكم جميعا من صوم وزكاة وحج، ونيطت به أحكام دينكم من عدد نسائكم ومدة التربص في الإيلاء والظهار، ولكنكم تحرصون على اتباع التقاليد الغابرة في قسمة المياه، فأي الأمرين أحق بالمحافظة عليه؟!.

ونسيتم مع هذا الحدث التأريخي العظيم الذي مرَّ بأسلافكم، وهو هجرة نبيكم ﷺ التي كانت منشأ هذا التأريخ وبدايته، وكان بها ميلاد أمتكم وظهور دعوتكم واجتماع شمل أسلافكم، فيا للعجب من هذه العقول!!.

وقد وصل الأمر بكثير من الناس أنهم ـ بسبب جهلهم السنة الهجرية ـ أخذوا يحسبون ميقات زكواتهم بالسنة الميلادية، وفي ذلك إضاعة لحق الزكاة بما بين التأريخين من التفاوت، فبمرور أربعة وثلاثين سنة تضيع سنة كاملة من السنين الزكوية، ولله الأمر.

وقد وَجَدْتُ دولة مترامية الأرجاء ـ كان لها تأريخ في الإسلام وقيادة أمته ـ تحتفل بنزول الوحي على النبي ﷺ بالتأريخ الميلادي! وهكذا عندما ينتكس الفكر وتعمى السبيل ويضيع الدليل تبقى الأمم تدور في حلقة مفرغة من الجهل لا تعرف كيف الخروج منها.

هذا؛ ومن تدبر القرآن الكريم انكشف له أن الاعتماد على المواقيت الزمنية بحسب الأهلة ليس خاصا بهذه الأمة وحدها، بل هو كان مشروعا في عهود النبوات السابقة، فقد ذكر الله أن هذا الميقات منذ خلق السموات والأرض، ومن رجع إلى ما تبقى من كتب الرسالات السابقة وجد ما يعزز

ذلك رغم ما لحقها من التحريف والتبديل، ولم يختلف المفسرون من هذه الأمة أن المواقيت التي درج عليها الأنبياء من قبل كانت تدور بدوران الأشهر القمرية، فقد كانت السنون في عهد نوح عليه السلام قمرية[١]، وقد وعد الله تعالى موسى عليه السلام أربعين يوما، وهي موقوتة بالشهور القمرية.

قال الطبري: «حدثني به المثنى بن إبراهيم قال، حدثنا آدم قال، حدثنا أبو جعفر، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية قوله: (وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة)، قال: يعني ذا القعدة وعشرا من ذي الحجة»[٢]، وقال الزمخشري: وضرب له ميقاتا ذا القعدة وعشر ذي الحجة»[٣].

وقال القرطبي: «والأربعون في قول أكثر المفسرين ذو القعدة وعشرة من ذي الحجة»[٤]، وقال السمرقندي: «كانت ثلاثين ليلة منها من ذي القعدة وعشراً من ذي الحجة. وقال بعضهم: ثلاثين كانت من ذي الحجة وعشراً من المحرم وكانت مناجاته يوم عاشوراء»[٥]، وقال الرازي: «وهو الثلاثون من ذي القعدة والعشر الأول من ذي الحجة»[٦]، وقال صاحب **المنار**: «يعني ذا القعدة وعشرا من ذي الحجة»[٧]، وقال البقاعي: «وهي ذو القعدة وعشر من ذي الحجة وقيل ذو الحجة وعشر من المحرم»[٨].

ويؤكد ذلك ما ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة وجدهم يصومون يوما يعني عاشوراء، فقالوا: هذا يوم عظيم وهو يوم نجى الله

(١) انظر: مجلة المنار، ١٧٦/١٥.
(٢) الطبري: جامع البيان، (٦٢/٢)، وينظر: ابن أبي حاتم: تفسير القرآن العظيم، ١٠٧/١.
(٣) الزمخشري: الكشاف، ١٣٩/١.
(٤) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ٣٩٥/١.
(٥) السمرقندي: بحر العلوم، ٥٢/١.
(٦) الرازي: مفاتيح الغيب، ٥١١/٣.
(٧) محمد رشيد رضا: تفسيرالمنار، ١٠٥/٩.
(٨) البقاعي: نظم الدرر، ٣٦٢/١.



فيه موسى وأغرق آل فرعون فصام موسى شكرا لله، فقال: «**أنا أولى بموسى منهم فصامه وأمر بصيامه**»[(١)].

وجاء في حديث أبي موسى الأشعري: دخل النبي ﷺ المدينة وإذا أناس من اليهود يعظمون عاشوراء ويصومونه، فقال النبي ﷺ: «**نحن أحق بصومه، فأمر بصومه**»[(٢)].

وهو دليل على أنهم كانوا ملتزمين التوقيت بالشهور القمرية، ويؤكد ذلك ما يذكر أنه «كانت غرات الأشهر قبل القرن الرابع للميلاد تقرر حسب رؤية الهلال»[(٣)]، وذلك يعني أن بلاد الشرق كانت ملتزمة توقيت بدايات الشهور برؤية الهلال، وهكذا كانت دياناتها، وإنما طرأ التوقيت بالشهور الشمسية في أمم الشرق عندما وقعت تحت نير السلطة الغربية الرومانية، فالأشهر الشمسية هي أشهر رومية، وقد سميت عندهم بأسماء ملوكهم، وجاء الإسلام والعرب وغيرهم في الجزيرة العربية يوقتون بالأشهر القمرية، وبنى القرآن الكريم تشريعه الحكيم على هذا، فوقت بها جميع الأحكام الموقوتة، وأخبر أن ذلك هو حكم الله في كتابه منذ خلق السموات والأرض، وشرع حرمة أربعة أشهر من بين هذه الشهور.

وعندما احتاجت الأمة إلى التوقيت السنوي عندما التبست الأحداث عندهم واضطروا إلى التأريخ من أجل ضبطها أجمعوا على أن يكون مبدأ تأريخهم هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام، لما ترتب على هذا الحدث العظيم من ميلاد الأمة وظهور دعوتها وتبوئها مكان القيادة لإخراج العالم من الظلمات إلى

(١) أخرجه البخاري (١٥٣/٤ رقم: ٣٣٩٧)، وابن حبان (٣٨٩/٨، رقم ٣٦٢٥).

(٢) أخرجه البخاري (٧٠/٥ رقم: ٣٩٤٢).

(٣) ينظر: الموسوعة العربية العالمية، حرف العين / كلمة (العام)، والموسوعة الحرة ويكبيديا:
https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AA%D9%82%D9%88%D9%8A%D9%85_%D8%B9%D8%A8%D8%B1%D9%8A.



النور، ومن الضلال إلى الهدى، ومـن الجهل إلى العلم، ومـن التفرق إلى الاجتماع، وكان ذلك في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأجمع على ذلك جميع المسلمين، وعلى رأسهم المهاجرون والأنصار، الذين هم حجة الله في أرضه، وقادة عباده إلى الرشد، ورادتهم في جميع مسالك الخير، مع أنه من المعلوم أن التأريخ الميلادي الذي حل في عقول الأمة اليـوم وثقافتها محل التأريخ الهجري كان موجودا يومئذ ولم يكن يخفى على المسلمين، لأن منهم من كان من قبل على النصرانية أو كان على صلة بدولة الروم، ومع ذلك أعرضوا عنه وأجمعوا على التأريخ الجديد، لأنه رمز عزتهم وبه تتجدد ذكرى نهضتهم التي قادها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانتشـلتهم من الضياع وجمعتهم بعد التفرق ووحدتهم بعدما مزقتهم الفتن في الجاهلية، وبهذه الذكرى يستشـعرون نعمة الله عليهم التي ذكرهم بها في قوله: ﴿... وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ آل عمـران: ١٠٣، وقوله: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ الأنفال: ٢٦.

وأي مسـلم لا يعتد بهذه الذكرى، ولا تنبعث بها في نفسه نخوة الإيمان وعزة الإسـلام؟! وأي ذكـرى أحق منهـا بالاعتـداد والاعتـزاز والإحياء والتجديد؟! ولكن الأمراض النفسـية الناشـئة عما يصيب الناس من مركب النقص تعمي النفوس عن بصيرتها وتضلها عن هداها، فبعد الإجماع القولي والعملي الذي اسـتمرت عليه الأمة مدة تتجاوز ثلاثة عشـر قرنا رزئت بهذا الانتكاس، فتخلت عن معقد عزها ومبعث مجدهـا، وانجرت وراء الآخرين ظانة أنها بذلك تسد ثلمتها وتجبر كسرها حتى أصبح التأريخ الهجري عندها رمز الرجعية والتخلف، واستمرت الأمة في هذا الانحدار إلى غاية لا يعلمها إلا الله، وهي غير لاوية على شـيء من أصوات المخلصين من أبنائها، الذين

تعالت صيحاتهم ولا تزال من أجل ثنيها عن التخبط في هذا الطريق المعوج، وإخراجها من هذا النفق المظلم، فكم من نذير من أولي البصيرة أرسل كلماته هادرة مشعشعة لتوقظ برنينها النائمين، ولتبصر بسناها التائهين، ولكنها ضاعت ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ البقرة: ١٧١، ذلك لأن صوت الباطل استهواهم فأصمهم عن نداء الحق واستهواهم بزخرفه الذي أخذ بمجامع ألبابهم فأعمى أبصارهم عن جمال الهدى، فآثروا التبعية على الاستقلال والذل على العز والضعة على الرفعة.

ولا تزال تلك الأصوات التي انطلقت من حناجر المخلصين، وسال بها حبر ذوي البصائر، يتردد صداها وإن كانت خافتة، وعسى الله أن يهيء لها من يدعمها بقوة السلطان حتى تخرج من الخفوت إلى الظهور، ويهيء لها أسماعا مرهفة لتتلقفها وتنقلها إلى قلوب واعية، فتتحول من التنظير إلى التطبيق، ولأجل التذكير بهذه الأصوات أذكر بعضا منها:

١ ـ قال العلامة الداعية المصلح **ابن باديس:**

«عجبت لمن يسعون في أن نهجر التاريخ الهجري ويفاتحوننا في ذلك كأنهم لا يعلمون أنا نعلم ما يرمون إليه عن بعد.

لكل أمة شعار إذا تركته طمع فيها واستضعف جانبها وربما صارت بعد مدمجة في غيرها. وقد سعى أناس منذ عهد بعيد في أن يضعفوا ما يقوي أمر الإسلام عموماً والعرب خصوصاً فنجحوا بعض النجاح، فطمعوا في أن يقضوا عليه فلم يجدوا أقرب إلى ذلك من إضعاف أمر اللغة العربية والسعي في تبديل خطها والتزهيد في الكتب التي كتبت به جعلوا ذلك دأبهم وديدنهم حتى أثروا في كثير من أبناء جلدتنا الذين يظنون أنهم على غاية من الذكاء والوقوف على أسرار الأمم فكان ما كان مما هو معروف ثم زاد الأمر فطمعوا في تبديل التاريخ الهجري وساعدهم على ذلك جبت مصر ففرحوا فرحاً

لا مزيد عليه. وقال بعضهم: الآن شفينا الغليل من هذه الأمة غير أن كثيرا ممن انتبه لهذا الأمر سعى في إعادته على قدر الإمكان فامتعض أولئك القوم وصاروا يلمزون كل من يسعى في ذلك.

وهذه المسألة نظرا لتعلقها بتاريخ تأخر الشرق لا يتيسر أن يكتب فيها أقل من تاريخ نحو ثلاثين صفحة نحو ثلاثين يوما. وليت شعري كيف يلام المسلم على أن يؤرخ كتابه بالتاريخ الهجري فهل انقرض التاريخ الهجري وهل يريدون أن ينقرض وأصحابه أحياء؟ فإن قالوا: إن المقصود توحيد التاريخ في الأمم وأوربا هي القوية الآن، قيل: أن أوروبا لها تاريخان أحدهما شرقي والآخر غربي وكل يؤرخ به قوم منهم فهل أوقف ذلك التجارة أو أثر في المدنية شيئا. ولم لا يكلفون تغيير مكاييلهم وموازينهم وأذرعهم لتتحد المقاييس في الأمم. وتغيير ذلك ليس فيه غضاضة بخلاف التاريخ. وقد رأيتهم يعتذرون عنهم ويعدون ذلك متانة في الأخلاق فانظر ما وصلنا إليه..»[(١)]

٢ ـ قال الإمام **محمد الخضر حسين** شيخ الأزهر الأسبق:

«ومما يثير الأسف البالغ: أن يقتصر المسلم في رسائله، أو عند ذكر الحوادث على ما يؤرخ به المسيحيون، وهو التاريخ القائم على ميلاد المسيح عليه السلام وقد فشت هذه المحاكاة حتى أصابت أقلاماً شأنها أن تنهى عن مثل هذا التشبيه. وفي الاعتماد على التاريخ الهجري محافظة على ذكرى مبدأ علو الإسلام وظهوره على الدين كله»[(٢)].

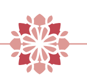
٣ ـ قال العلامة **محمود شاكر**:

«إذا تابعنا أصحاب الفتنة على ما يفتنوننا به من زخرف القول في الاقتصار على التاريخ الميلادي في تاريخنا لاختلط على شبابنا التاريخ، وما ظنك بألف

---

(١) ينظر عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي: آثار ابن باديس، ١٨٨/٤.

(٢) ينظر علي الرضا الحسيني: موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، ٢٤٩/٥.



وثلاثمائة سنة كتبت كل كتب التاريخ العربي فيها بالتاريخ الهجري، أيسهل أن نقلب التاريخ الهجري في الكتب العربية إلى تاريخ ميلادي؟ على شبابنا أن يعود سمعه وبصره وذاكرته على التاريخ العربي ولا يضعه بمنزلة أدنى مما تنزل الذكر الجميلة من قلبه، وعلى شبابنا أن يحترم رمزًا للمجد العربي يكاد يكون هو الباقي في حياتنا من الحياة العربية»[(١)].

٤ ـ قال الشيخ **محمد بن جميل زينو:**

«اعتاد كثير من المسلمين حتى في البلاد العربية أن يكتبوا التاريخ بالميلادي بدلاً من التاريخ الهجري في السنة والأشهر، وهذا خطأ كبير، فإن الكفرة والنصارى يؤرخون بميلاد عيسى، ثم تبعهم المسلمون، وتركوا تاريخ هجرة نبيهم محمد ﷺ التي ترمز لعزهم ونصرهم، فعلى المسلمين أن يؤرخوا بالهجري وإذا احتاجوا إلى الميلادي، فليجعلوه بعد الهجري»[(٢)].

٥ ـ قال الشيخ الداعية المفكر الإسلامي **سلمان بن فهد بن عبد الله العودة** محذرا أهل بلده أن يقعوا فيما وقع فيه الآخرون من التخلي عن التأريخ الهجري:

«قد بدأ الماء الآسن يتسرب إلى المنبع الصافي، فبدأنا نجد من يحاول أن يفرض التاريخ الميلادي، وإذا كان من الصعب على المسلمين في هذه البلاد أن يتقبلوا التاريخ الميلادي هكذا مكشوفاً عارياً، فإننا قد وجدنا من يحاول أن يبدأ عن طريق ما يسمى بالتاريخ الهجري الشمسي؛ وذلك لأن من ميزة التاريخ الهجري الشمسي أنه يوافق التاريخ الميلادي، بمعنى: أنه منضبط معه، فإذا وضع ـ مثلاً ـ بداية معينة كبداية الدراسة، وحددت بتاريخٍ معين على مدار السنين، فهي لا تختلف في التاريخ الميلادي ولا تختلف في التاريخ الهجري الشمسي؛ لكنها في التاريخ الهجري القمري تختلف من سنة لأخرى.

---

(١) ينظر عادل سليمان جمال: جمهرة مقالات محمود شاكر، ٦٦١/٢.

(٢) محمد جميل زينو: مجموعة رسائل التوجيهات الإسلامية لإصلاح الفرد والمجتمع، ٢٠٣/٢.

ولذلك كان هذا الاتفاق والتواطؤ بين التاريخ الهجري الشمسي والتاريخ الميلادي، ذريعة عند بعض الضعفاء لجلب التاريخ الميلادي إلى هذه البلاد، ومحاولة نشره وترويجه بين المسلمين، والذي لا أشك فيه: أنه يحرم على المسلمين أن يوقتوا بالتاريخ الميلادي استقلالاً، بحيث يعتبرونه دون غيره، ويلغون التاريخ الهجري ولا يعتمدونه ولا يعتبرونه، وذلك لأسباب:

أولاً: لأنه خلاف الإجماع كما أسلفت، وهو إجماع رائع ربما يكون من أقوى الإجماعات، فإن العلماء الآن يقول الواحد منهم: أجمع العلماء على كذا، ويذكر لك مسألة قد يكون فيها خلاف يسير، وليس هناك دليل قاطع على الإجماع، لكن في موضوع التاريخ الهجري نتحدى أي إنسان أن يذكر لنا منذ عهد عمر ـ من يوم اتفق الصحابة على ذلك ـ إلى عصر الناس هذا خلافاً للمسلمين في اعتبار هذا التاريخ واعتماده والعمل به، ولا يوجد من ذلك شيء إلا بعض التساهل الذي ينتشر عند بعض المسلمين بسبب مجاورتهم لليهود أو للنصارى أو للفرس أو لغيرهم، أما أن يكون تاريخاً معتمداً لدى الأمة الإسلامية فلا، وقد أجمع الصحابة على ذلك فمخالفة إجماعهم لا تجوز.

ثانياً: أن نقل الأمة من التاريخ الهجري القمري، إلى التاريخ الهجري الشمسي أو الميلادي، فيه عزل للأمة عن تاريخها، وعن كتبها، فإذا نسي الناس التاريخ الهجري القمري واعتمدوا التاريخ الشمسي أو التاريخ الميلادي فكيف سيقرءون كتبهم؟ ومعنى ذلك أن الإنسان يحتاج إلى مترجم إذا قرأ كتاب البداية والنهاية لـ ابن كثير أو الكامل لـ ابن الأثير أو تاريخ الطبري أو غيره، ويحتاج أيضاً إذا قرأ كتاباً من كتب الرجال والتراجم وكتب الحديث إلى مترجم يذكر له هذه السنة وما يقابلها، وهذا فيه عزل للأمة عن ماضيها وعن تاريخها، وحيلولة بين الشباب وبين تراثهم وثقافتهم، فهو مثل من يريد أن يشيع اللغة العامية لتكون بديلاً عن اللغة العربية، ويريد أن يجعل في الناس

عجمة وجهالة فلا يستطيعون أن يقرءوا كتبهم، ولا يفهموا ما قال علماؤهم، ولا يفهموا كتاب ربهم ولا سنة نبيهم ﷺ.

ثالثاً: أن هذا فيه تشبه بالأمم الكافرة، من الرومان الوثنيين المتلبسين بالنصرانية، والفرس واليهود وغيرهم، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**من تشبه بقوم فهو منهم**»[(١)] ولا شك أن التواريخ يرتبط بها أعياد ومناسبات، ويرتبط بها حوادث وعزل وولاية وأشياء كثيرة جداً، فالتواريخ من أعظم الشعارات التي تفاخر بها الأمم وتتعرف بها، ويلتقي بها الحاضر بالغابر.

فالتشبه بهم في التاريخ من أعظم ألوان التشبه وأخطره، وقد قال ﷺ: «**من تشبه بقوم فهو منهم**».

رابعاً: أن التاريخ الهجري القمري هو الذي رُتبت عليه المواقيت الشرعية؛ من دخول الأهلة كدخول رمضان وخروجه، وعشر ذي الحجة، ويوم عاشوراء وغيرها من المناسبات، فإنها مبنية على أساس رؤية الهلال وعلى أساس التاريخ الهجري القمري لا غيره.

فلذلك لا يجوز بحالٍ من الأحوال استبداله بغيره، ونقول لمن يريد عنه بديلاً: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ البقرة: ٦١»[(٢)].

٦ ـ وقال أيضاً:

«نعم اتفق المسلمون على التاريخ اعتباراً من هجرة النبي ﷺ بعد جدال بينهم، وكان إجماع الرأي عليه طيلة عصور التاريخ، فما عرف المسلمون إلا

---

(١) من طريق ابن عمر: أخرجه أبو داود (٤/٤٤، رقم ٤٠٣١). وأخرجه أيضا: ابن أبي شيبة (٤/٢١٢، رقم ١٩٤٠١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/٧٥، رقم ١١٩٩). ومن طريق حذيفة: أخرجه: البزار (٧/٣٦٨، رقم ٢٩٦٦)، والطبراني في الأوسط (٨/١٧٩، رقم ٨٣٢٧).

(٢) سلمان بن فهد بن عبد الله العودة: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية، الدرس الرابع ص ٤.

التاريخ الهجري، الــذي يبدأ من هجرة النبي ﷺ وقــد هاجر ﷺ في اليوم الأول من ربيع الأول، ووصل المدينة في اليوم الثاني عشر كما هو معروف عند جمهور أهل السير، ولكن المسلمين بدءوا العام من شهر المحرم لأنه أول السنة.

واليوم نجد أن هناك محاولات كثيرة لتقويض هذا الاتفاق والإجماع، وتحويل المسلمين في معظم بلادهم إلى التاريخ الميلادي، حتى أصبح بعضهم لا يعرفون الشهور الهجرية القمرية، ولا يعرفون التاريخ الهجري، وهذا خطر عظيم، لأنه يفصل المسلمين عن تاريخهم وأحداثهم، ويحول بينهم وبين معرفة الأحكام الشــرعية المبنية على هذا التاريخ الإسلامي العريق.

إنه تاريخ له جذوره، يربط المسلمين بحدث عظيم مهم، واستبداله بذلك التاريخ الميلادي هو اتباع لآثار أهل الكتاب من النصارى، مع أنه من المستحيل أن يستطيعوا أن يثبتوا ذلك التاريخ الميلادي، ونحن نعلم أن النصارى يحتفلون بميلادهم، ويقيمون له الأعياد في كل مكان، واعتماد المسلمين لهذا التاريخ قد يقتضي أن يدخلوا جحر الضب وراء النصارى، ويحتفلوا بعيد الميلاد كما احتفل أولئك، ويتقمصوا آثارهم.

ولا شك أن هذه القضية قد تبدو في نظر البعض قضية شكلية أو مظهرية، ولكن هذه الأشــياء المظهرية تؤثر حتى في القلب، فالملابس التي يلبســها الإنسان، والزي الذي يعتمده، والشكل الذي يكون عليه، واللغة التي يتكلمها، لا شــك تؤثر في عقله، ووجدانــه، وضميره، وهــذه قضية معروفة نفســياً، واجتماعياً والحمد لله رب العالمين»[١].

(١) سلمان بن فهد بن عبد الله العودة: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية، الدرس الثالث والستون ص٢٢.



٧ ـ قال الشيخ العلامة **صالح بن حميد:**

«إن العزة والكرامة من أبرز الخلال التي نادى بها الإسلام، وغرسها في نفوس أفراده، وتعهد نماءها بأحكامه وشرائعه وآدابه، ومما ينبغي أن يذكر في ذكرى الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ضرورة التزام التاريخ الهجري، وأنه لا ينبغي لأمة الإسلام أن تتخذ تواريخ أعدائها من اليهود والنصارى تاريخاً لها، وتدع ما سنه لها الخلفاء الراشدون»[1].

هذا؛ وقد أوضح الإمام ابن عاشور في تفسيره لآية التوبة عن الشهور، أن الشهور القمرية هي التي كانت المعول عليها عند العرب وغيرهم من الأمم، وهي أقدم توقيت على الأرض وأيسره، لأنها تبدأ وفق نظام الطبيعة بحالة تظهر للجميع، لا تخفى على بدوي ولا حضري، ولا امرأة ولا رجل، ولا جاهل ولا عالم، وهاك نص قوله في ذلك:

«والمراد بالشهور: الشهور القمرية بقرينة المقام، لأنها المعروفة عند العرب وعند أغلب الأمم، وهي أقدم أشهر التوقيت في البشر وأضبطها لأن اختلاف أحوال القمر مساعد على اتخاذ تلك الأحوال مواقيت للمواعيد والآجال، وتاريخ الحوادث الماضية، بمجرد المشاهدة، فإن القمر كرة تابعة لنظام الأرض. قال تعالى: ﴿ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَ ﴾ يونس: ٥، ولأن الاستناد إلى الأحوال السماوية أضبط وأبعد عن الخطأ، لأنها لا تتناولها أيدي الناس بالتغيير والتبديل، وما حدثت الأشهر الشمسية وسنتها إلا بعد ظهور علم الفلك والميقات، فانتفع الناس بنظام سير الشمس في ضبط الفصول الأربعة، وجعلوها حسابا لتوقيت الأعمال التي لا يصلح لها إلا بعض الفصول، مثل الحرث والحصاد وأحوال الماشية، وقد كان الحساب الشمسي معروفا عند القبط والكلدانيين، وجاءت

---

(١) صالح بن عبد الله بن حميد: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية، الدرس العشرون ص١.

التوراة بتعيين الأوقات القمرية للأشهر، وتعيين الشمسية للأعياد، ومعلوم أن الأعياد في الدرجة الثانية من أحوال البشر لأنها راجعة إلى التحسين، فأما ضبط الأشهر فيرجع إلى الحاجي. فألهم الله البشر، فيما ألهمهم من تأسيس أصول حضارتهم، أن اتخذوا نظاما لتوقيت أعمالهم المحتاجة للتوقيت، وأن جعلوه مستندا إلى مشاهدات بينة واضحة لسائر الناس، لا تنحجب عنهم إلا قليلا في قليل، ثم لا تلبث أن تلوح لهم واضحة باهرة، وألهمهم أن اهتدوا إلى ظواهر مما خلق الله له نظاما مطردا. وذلك كواكب السماء ومنازلها، كما قال في بيان حكمة ذلك: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ يونس: ٥، وأن جعلوا توقيتهم اليومي مستندا إلى ظهور نور الشمس ومغيبه عنهم، لأنهم وجدوه على نظام لا يتغير، ولاشتراك الناس في مشاهدة ذلك، وبذلك تنظم اليوم والليلة، وجعلوا توقيتهم الشهري بابتداء ظهور أول أجزاء القمر وهو المسمى هلالا إلى انتهاء محاقه فإذا عاد إلى مثل الظهور الأول فذلك ابتداء شهر آخر، وجعلوا مراتب أعداد أجزاء المدة المسماة بالشهر مرتبة بتزايد ضوء النصف المضيء من القمر كل ليلة، وبإعانة منازل ظهور القمر كل ليلة حذو شكل من النجوم سموه بالمنازل. وقد وجدوا ذلك على نظام مطرد» اهـ[1].

هذا؛ وقد يجادل مجادل ويتشبث بأن التأريخ البديل يرتبط أيضا بمناسبة دينية، وهي ميلاد المسيح عليه السلام، وهو من أنبياء الله الذين صنعوا على عينه، وقد عظمه الله وخلد ذكره بما أنزله في شأنه بكتابه.

والجواب عن هذا من وجهين:

أولهما: أن رسالة النبي ﷺ وإن كانت مصدقة لما تقدمها من الرسالات، ومُمَهِّدةً بما تقدمها من النبوات، إلا أنها هي التي يجب الأخذ بها والتعويل

---

(١) الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ١٠/١٨٠ ـ ١٨١.

عليها، وهي وحدها مصدر التشريع لهذه الأمة إلا أن يحكى لها ما سبق تشريعه للأمم السابقة في القرآن أو في كلام الرسول ﷺ على سبيل التقرير، وقد سبق «أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتب، فقرأه على النبي ﷺ فغضب وقال: «**أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيا، ما وسعه إلا أن يتبعني**»»[1]، فما كان لأحد أن يعدل عما أجمعت عليه أمة النبي ﷺ من التعويل على ميقات هجرته في بداية تأريخها.

ثانيهما: أن ارتباط التأريخ المنسوب إلى الميلاد بميلاد عيسى عليه السلام ليس عليه من دليل يمكن أن يعول عليه، وقد دلت الشواهد على أن ذلك لا يصح، وقبل بضع سنين من الآن صرح بابا الفاتيكان أنهم وقعوا في خطأ في تاريخ ميلاد المسيح عليه السلام، وكثير مما ذكروه في ميلاد المسيح هو الذي يذكره البوذيون في تأريخ ولادة بوذا، حتى أنهم ذكروا ـ أيضا ـ أنه كان ميلاده باليوم الخامس والعشرين من الشهر الشمسي الثاني عشر.

وكم فيما ذكروه في ميلاد المسيح عليه السلام من غموض، بل القرآن الكريم يدل على عدم دقتهم في تحديد مكان ولادته وزمانها، وذلك واضح في قوله تعالى في حكاية خطاب روح القدس لمريم عليها السلام: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ مريم: ٢٥، فإنه يدل على أن ولادته كانت في بلاد ذات نخل وفي وقت الثمر، فكيف يعول على هذا التأريخ الغامض ويترك التأريخ الثابت بالنقل التواتري الأمين، الذي أجمعت عليه الأمة؟!.

وقبل أن أنتقل من الحديث في هذه القضية إلى غيرها، أرى من الضرورة أن أنبه إلى أن العلماء الأفذاذ الذين دعوا الأمة إلى الرجوع إلى تأريخهم

---

(١) سبق تخريجه.

الإسلامي الهجري قد فات بعضهم ـ مع الأسف ـ التزام التعبير القرآني، الذي لم يسم النصارى ولا في موقف واحد بالمسيحيين، وإنما سماهم النصارى أينما ذكرهم، وهذا الذي يجب التزامه لأن ما في القرآن هو تشريع رباني لا يجوز العدول عنه، وكما أنه تشريع في التعبد والأحكام هو تشريع في التسمية والتعبير، وذلك لأنه يترتب على التسميات ما يترتب من أحكام، وتسمية النصارى بالمسيحيين تضيفهم إلى المسيح وتوهم أنهم سائرون على هديه، مع أنه عليه السلام تبرأ إلى الله سبحانه من كل ما نسبوه إليه من كونه ابنا لله تعالى، وأنه ارتقى إلى مرتبة الألوهية، ناهيك من ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ المائدة: ١١٦ ـ ١١٧، وقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ المائدة: ٧٢.

والخلاصة؛ أن عودة المسلمين إلى الأشهر القمرية والتأريخ الهجري عودة إلى ما لا بد منه من أمر دينهم، وهو معقد عزهم وكرامتهم، ورمز استقلالهم وعنوان حريتهم وشرفهم، وقد أدركت ما يترتب على نسيانهم التأريخ الهجري والتوقيت القمري من فساد لما أنساهم ذلك من أمر دينهم، والله المستعان.

إسقاط كلمة (ابن) أو (بنت) في سلسلة النسب بين ولد ووالد مخالفة صريحة للأديان، ومعضلة في تحديد سلسلة النسب:

من أسوأ ما رزئت به الأمة من التقليد الأعمى تركهم لكلمة (ابن) أو (بنت) عندما تذكر سلسلة النسب، متناسين في ذلك أن التعبير التشريعي في

القرآن حافظ على كلمة (ابن) أو (بنت) كما في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ البقرة: ٨٧، وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ البقرة: ٢٥٣، وقوله: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ آل عمران: ٤٥، وقوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ النساء: ١٥٧، وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ النساء: ١٧١، وقوله: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ المائدة: ١١٢، وقوله: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ المائدة: ١١٤، وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ المائدة: ١١٦، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ مريم: ٣٤، وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ الصف: ٦، والآيات في ذلك كثيرة، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ التحريم: ١٢، والأحاديث عن النبي ﷺ مليئة بهذا، وقد مضى على هذا نبينا عليه الصلاة والسلام، كما مضى عليه جميع الأنبياء وأتباعهم من قبل، وأجمع عليه المهاجرون والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان أمة بعد أمة، واستمر عليه العلماء قاطبة من جميع المذاهب الإسلامية من غير خلاف بينهم، وهو المنصوص عليه في التوراة والإنجيل، وما بأيدي أهل الكتاب اليوم من العهد القديم والعهد الجديد شاهد على ذلك مع ما أصاب هذين العهدين من التحريف والتبديل.

ولكن عندما رزئت الأمة بالغزو الفكري والسياسي والثقافي والعسكري تخلت عن هذا حتى كبار العلماء، وفي هذا من المحاذير ما ليس بعده، فبجانب ـ ما فيه من التقليد الأعمى لغير المسلمين، والتخلي عن كتاب الله تعالى، وهدي جميع النبيين وأتباعهم في جميع الأمم قبل أن يستحكم هذا الغزو، ويستولي على فكر الأمة وثقافتها ـ هو مدعاة للخطأ واللبس، إذ لا يمكن أن يفرق في هذه الحالة بين الاسم واللقب، ولا بين الذكر والأنثى،

لأن كثيرا من الأسماء يشـــترك فيها الذكور والإناث، فإن أسقطت لفظة (ابن) و(ابنة) لم يبق سبيل إلى التمييز بينهما، وقد تكون أسماء مركبة فلا يفرق بين الاسم المركب وما ينسب إلى الوالد، وكذلك وجد في الأمة من يقلد الآخرين في نسب المرأة إلى زوجها دون والدها، فإذا أسقطت كلمة (ابنة) التبس الأمر في الاسم الذي أضيف إليه اسمها، هل هو اسم والدها أو اسم زوجها؟.

ومع هذا اللبس تعمى الأمور وينتشر الجهل بالأنساب، ولذلك قال أحد مشـــايخ العلم المصريين عاش بيننا في ســـلطنة عُمان: «لما سحبت منا كلمة (ابن) عميت الحقائق وتقطعت الأنساب وانحلت الوشائج بين الأسر»، وهي مصيبة عظمى لم ينتبه الناس لها في نشوة الإعجاب بما عند الآخرين.

ومن العجب ما نجده في مجتمعنا العُماني من انســـياق الرجال والنساء وراء هذا التقليد، مع أنه فرض عليهم رسميا أن يلتزموا بكلمة (ابن) و(ابنة) في ذكر عمود النسب، وأثبت ذلك في جوازاتهم وبطاقاتهم الشخصية، ولكن روح الهزيمة النفسية والرغبة في ارتسام خطوات الآخرين حال بين الناس وبين اتباع ما في القرآن والســـنة، واتباع النظام الرسمي، وهذا انجرار من المغلوب وراء الغالب، سواء كان بشعور أو بعدمه.

وقد شرحت هذا في كتابي **صيحة إنذار وصرخة استنفار** الذي دعوت فيه إلى الاستمساك بلغة القرآن وتنقيتها من كل الأخطاء التي زحفت عليها من كل جانب، وأخذت تتنقص منها في كل لحظة باستمرار حتى عادت تشكو الغربة في دارها وبين أهلها.

الإسـلام يدعو إلى استقلال الشخصية الإسـلامية في المظهر والمخبر وفي الشعار والواقع:

وبالجملة؛ فإن الإسلام يأمر المســـلم بأن يكون عزيز النفس راسخ القدم ثابت الموقف، لا يتزعزع لأي داع ولا يتضعضـــع لأي نائبة، متميزا بمظهره

ومخبره وفي سره وجهر، وفي جميع حركاته وسكناته، وهو عكس ما جرى عليه المسلمون اليوم من التجرد من المظاهر الإسلامية والتلبس بمظاهر الآخرين في البدن واللباس، وكذلك في الأكل والشرب وجميع الأحوال.

وليست هذه التبعية العمياء للغير إلا دليل الموالاة لهم، فإن الإنسان يسرع في تقليد من يحب واتباع من يعظم، وقد علمت ما في نفس الآيات التي سبقت أن هذه الموالاة لا تنشأ إلا عن مرض نفساني وأنها سبيل إلى الردة والعياذ بالله.

موالاة الأمة لأعدائها جعلها تقطع أوصالها وتضحي بأقرب الناس إليها إرضاء لعدوها:

ما أعظم مصيبة الأمة التي نشأت من موالاة أعدائها، فإنها لم تكتف باسلاس قيادها لهم وترسم خطواتهم والتخلي لهم عن ثرواتهم، بل جاوزت ذلك إلى الإجهاز على نفسها وتقديم أبناء ملتها قرابين لهم، فكم سفك من دماء وأزهق من أرواح وانتهك من حرمات وأضيع من حقوق في سبيل التقرب إليهم وإرضائهم، كأن الواقعين في ذلك لم يعرفوا للنفس الإنسانية حرمة، ولم يراعوا لحياتها حقا، ولم يطرق مسامعهم قول الله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا...﴾ المائدة: ٣٢، ولم يعرفوا للنفس المسلمة من حقوق مضاعفة فوق ذلك، وما أتى من الوعيد الشديد في إزهاقها بغير حق، فلم يلتفتوا إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ النساء: ٩٣، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ۝ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ

عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ البقرة: ٨٤ - ٨٥، ولا إلى قول النبي ﷺ: «**المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره**»[(١)]، أو قوله: «**لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض**»[(٢)]، وأعجب ما في الأمر أن تقف شريحة كبرى من الأمة بجانب العدو المغتصب، وتسعى إلى ترسيخ أقدامه في الأرض التي اغتصبها، وتناوئ من يطالب برد حقه المغصوب ويسعى إلى تحرير المقدسات المحتلة، ولله الأمر.

وليت شعري؛ هل يجدي هؤلاء ما يقربونه إلى عدوهم من القرابين، وما يبذلونه لهم مما جعله الله تعالى تحت أيديهم من المال شيئا، أو أن الدائرة في النهاية ستدور عليهم كما دارت على من قبلهم، وأنهم سيقولون يوما ما كما قيل من قبل: «**أكلت حين أكل الثور الأبيض**»[(٣)]؟ ليت القوم يفيقون قبل ذلك.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) من حديث أبي زرعة بن عمرو بن جرير عن جده: أخرجه الطيالسي (ص٩٢، رقم ٦٦٤)، وابن أبي شيبة (٤٥٥/٧، رقم ٣٧١٧٦)، وأحمد (٣٦٣/٤، رقم ١٩٢٣٧)، والبخاري (٥٦/١، رقم ١٢١)، ومسلم (٨١/١، رقم ٦٥)، والنسائي (١٢٧/٧، رقم ٤١٣١)، وابن ماجه (١٣٠٠/٢، رقم ٣٩٤٢)، والدارمي (٩٥/٢، رقم ١٩٢١)، وابن حبان (٢٦٨/١٣، رقم ٥٩٤٠)، ومن حديث ابن عمر: أخرجه ابن أبي شيبة (٤٥٥/٧، رقم ٣٧١٧٤)، وأحمد (٨٥/٢، رقم ٥٥٧٨)، والبخاري (٢٥١٨/٦، رقم ٦٤٧٤)، وأبو داود (٢٢١/٤، رقم ٤٦٨٦)، والنسائي (١٢٦/٧، رقم ٤١٢٥)، وابن ماجه (١٣٠٠/٢، رقم ٣٩٤٣)، ومن حديث أبي بكرة: أخرجه البخاري (٢٥٩٣/٦، رقم ٦٦٦٧)، والنسائي (١٢٧/٧، رقم ٤١٣٠)، ومن حديث ابن عباس: أخرجه البخاري (٦١٩/٢، رقم ١٦٥٢)، والترمذي (٤٨٦/٤، رقم ٢١٩٣) وقال: حسن صحيح، ومن حديث أبي سعيد: أخرجه الطبراني (٣٧/٦، رقم ٥٤٤٢)، ومن حديث أبي أمامة: أخرجه الطبراني (١٣٧/٨، رقم ٧٦١٩)، ومن حديث ابن مسعود: أخرجه أحمد (٤٠٢/١، رقم ٣٨١٥)، والطبراني (١٥٥/١٠، رقم ١٠٣٠١).

(٣) ينظر: ابن سلام: الأمثال، ص١٨٤، وأبو الفضل محمد بن أحمد النيسابوري: مجمع الأمثال، ٢٥/١.

الولاية المشروعة هي خاصة بالله وبرسوله والمؤمنين:

هذا؛ وقد أكد الله تعالى ـ بعد التحذير البالغ من موالاة من كان يتربص بالأمة الدوائر ـ على أن المؤمن إنما يحصر ولاءه في الله تعالى ومن أطاعه واتبع هداه، وهو يتولى الله ورسوله والمؤمنين عندما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾ المائدة: ٥٥، وبين تعالى مَنْ هؤلاء المؤمنون الذين يجب أن يمحضوا الولاية بعد الله ورسوله عندما قال: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ التوبة: ٧١، فإن كل ما ذكر في هذه الآية إنما هو من مقومات هذه الولاية وأسبابها، ناهيك أنه تعالى بدأ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قبل ذكر إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، لأجل أن الحفاظ عليهما وعلى سائر حرمات الله لا يتحقق إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وبعد أن أوجب الله سبحانه على المؤمن أن تكون ولايته لله ولرسوله والذين آمنوا أتبع ذلك بيان أن هذا النهج هو وحده الذي يؤدي إلى الالتحاق بحزب الله الغالب، فمن تولى الله ورسوله والذين آمنوا كان من حزب الله تعالى، ولن تكون الغلبة إلا لحزبه، وهذا متبادر من قوله سبحانه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ المائدة: ٥٦.

وليت شعري؛ ما الذي مكن للفئة المؤمنة في بداية عهدها حتى صدعت بالحق بين ضجيج الباطل، وتحدي كبريائه له إلا ما ربط على قلوبهم من حب الله تعالى ورسوله وحب المؤمنين، والتضحية في سبيل ذلك بكل غال وثمين، وإيثار ما عند الله على ما عند الناس، وما جعله الله تعالى فيما بينهم من التعاطف والتراحم، والشفقة والحنان، والألفة والمودة، حتى أن كلا منهم كان يؤثر أخاه على نفسه، كما وصف الله الأنصار رضي الله عنهم بقوله: ﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞ﴾ الحشر: ٩، وقد أبان الله تعالى عن صفاتهم العظيمة

في قولــه: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴾ الفتح: ٢٩، فأنت ترى أنه تعالى مع نشـره محامد ذكرهم ومكارم وصفهم بدأ ذلك كله بقوله: ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ ... ﴾ الفتح: ٢٩، لأن هذا الوصف العظيم هو أساس بنائهم الشامخ ونظام ائتلافهم ووحدة شملهم وسبب نصرتهم على عدوهم.

وأين هذا مما انحدرت إليه الأمة الآن من الاستخذاء للكفار والمسارعة في هواهم وتنفيذ رغباتهم في تقطيع أوصال الأمة وتمزيع أشلائها وتقديم ضريبة الطاعة والانقياد لهم مع استعار الفتنة وتعمق البغضاء بين فئات الأمة؟!.

لا أظن هذا السؤال أنه بحاجة إلى جواب، فنظرة إلى ما آلت إليه الأمة في عهدها الأول ـ عندما أخذت بحجزة أمر الله واستهدت بنوره وسلكت صراطه المستقيم ـ من عز ومجد وسؤدد وتمكين في الأرض، وتمكن من قيادة الإنسانية إلى الرشد والخير وإلى ما آلت إليه الأمة اليوم من ذل وهوان وتبعية وتخلف كاف في الدلالة على ما حصل في الأمة من تباين بين ماضيها المشرق وحاضرها المظلم في الوسائل والغايات، ولن يجني أحد إلا ما غرس، ولن ينتهي إلى قصد إلا ما سلك إليه سبيله.

فليت شعري؛ هل ستستيقظ أمة الإسلام يوما ما وستدرك كيف هوت إلى الحضيض من القمم السامقة، وأن ذلك إنما هو بما كسبت أيديها، ولا يعيدها إلى سالف عهدها وسابق مجدها إلا الاستمساك بما استمسك به سلفها من عروة الدين التي لا تنفصم، ووحدته التي لا تتشتت؟ عسى أن يكون ذلك قريبا، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء.



المحور الحادي عشر

فيما يتعلق بالبيان

إن البيان نعمة من الله أكرم بها الإنسان الذي استخلفه في الأرض وسخر له منافع الكون، فهو بحاجة إلى أن يتعلم أسماء الكائنات التي يتعامل بها، لذلك علم الله سبحانه آدم الأسماء كلها وأورث علم ذلك ذريته لأنهم يتبوأون منصب الخلافة في الأرض، فهم بحاجة إلى بيان يتفاهمون به وتتم به ترجمة ما في نفس كل أحد منهم لغيره، مع أنهم ـ بلا ريب ـ جعلهم الله مدنيين، وجعل حياتهم حياة اجتماع فيها الأخذ والعطاء والدفع والجذب، ولولا ما من الله به عليهم من البيان لعميت عليهم السبل، وأرتجت بينهم أبواب التفاهم، وحيل بينهم وبين التعاون والتناصر والتعاضد والتكاتف، وقد امتن الله عليهم بهذه النعمة العظيمة بجانب امتنانه عليهم بتعليم القرآن وخلق الإنسان، إذ قال تعالى: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۞ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۞ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۞ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴾ الرحمن: ١ ـ ٤.

من حكمة الله تعدد ألسنة الناس وتفاوتها:

وقد اقتضت حكمته سبحانه أن يتنوع الجنس البشري إلى فئات متعددة، وينقسموا إلى شعوب مختلفة، وتتعدد بذلك ألسنتهم، ويختلف تعبيرهم، فلذلك نشأت لغات متعددة بتعدد القوميات والمجتمعات البشرية، فكل فئة تجتمع على لسانها وتلتقي على ما اصطلحت عليه في التعبير من المفردات والجمل، وقد امتن الله تعالى عليهم بذلك وعده من آياته في قوله عز من قائل:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ الروم: ٢٢.

حاجة الأمة الإسلامية إلى الالتقاء على اللغة العربية:

إذا كانت الأمم التي توحد بينها مصالح مشتركة، وتجمع شتاتها سياسة موحدة، أو مبادئ منتظمة لهم، لا بد لها من الاجتماع على لغة تلتقي عليها، وإن كانت لهم لغات قومية ولهجات وطنية يتداولونها فيما بينهم، فإن على أمة الإسلام ـ وهي تبصر ما يحاك ضدها وتعرف ضرورة تفاهمها وتعارفها وتآلفها ـ أن تدرك أنها بحاجة إلى لغة تسمو فوق أقدار القوميات، وتعلو على جميع النزعات والعصبيات، لغة تحوي أسباب هدايتها ومصادر عقيدتها وشريعتها، ووسائل أخلاقها ومزاياها، لغة خوطبت بها من الجناب الأقدس من أجل إخراجها من الظلمات إلى النور، ومن الحيرة إلى البصيرة، ومن الشك إلى اليقين، ومن الفساد إلى الصلاح، ومن التشتت إلى الاجتماع، وهي وسيلتها في اتصالها بهذا الجناب العظيم في صلواتها وأذكارها ودعائها وابتهالها، فقد نالت الشرف العظيم عندما خاطبها الله تعالى بها فبصرها من العمى وأنقذها من الردى، وهداها من الضلالة، وعلمها من الجهالة، فصارت خير أمة أخرجت للناس.

إنها لغة القرآن التي اختارها الله تعالى لأن تكون وعاء له وينبوعا لهدايته ومطلعا لنوره ومعدنا لكنوزه، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ يوسف: ٢، وقال: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ الزخرف: ٣، وقال: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۞ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۞ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾ الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٥، وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ طه: ١١٣، وقال: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ الأحقاف: ١٢،

وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ الشورى: ٧، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ الرعد: ٣٧، وقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ فصلت: ٤٤.

وما كان اختيار الله تعالى هذا اللسان العربي ـ لأن يكون وعاء لهذا الخير العظيم، الذي ساقه إلى العالمين بإنزاله هذا الكتاب الذي ختم الله به رسالاته، وأتم به نعمته على عباده ـ أمرا اعتباطيا، حاشا وكلا.. فإن الله سبحانه منزه عن ذلك، بل كل شيء عنده بمقدار، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ الفرقان: ٢، ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ القمر: ٤٩، وإنما كان اختياره له لسابق علمه بأهليته لذلك، وقد كان ذلك بعد تهيئته عبر قرون مرت بها هذه اللغة طورتها فيها الألسن وهذبتها آدابها شعرا ونثرا، فارتقت إلى أوج رفيع لم ترتق إليه أي لغة أخرى، فكانت حرية بهذا الاختيار.

غيرة العجم على اللغة العربية:

بسبب هذا خرجت هذه اللغة عن حدود القومية الضيقة، فلم تعد لغة العرب وحدهم، وإنما صارت لغة أمة الإسلام جميعا، يغار عليها الأعجمي أكثر مما يغار عليها العربي ويندفع إلى الدفاع عنها وتنقية ديباجتها من الأخطاء حتى ولو لقي في سبيل ذلك الموت الزؤام، كما كان من سيبويه حامل لواء العربية ووارث فصاحتها وآدابها الذي أبت عليه حميته لهذه اللغة إلا أن يقدم نفسه فداء لها، فيصبح شهيدا في معركة الشرف والكرامة التي يدافع فيها عن حمى القرآن ما عسى أن يزحف عليه من الدخيل الذي يحجب نوره.

ولو أن سيبويه تعرضت لغته التي رضعها مع لبن أمه لمثل هذا الخطر لما انبرى من أجل الدفاع عنها إلى حد التضحية بحياته، وقد أبان الأستاذ الرافعي

إمام الأدب العربي في كتابه الفريد **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية** عن تأثير هذا القرآن على جميع الشعوب عربا وعجما، واستثارته غيرتهم على لغته من أعماقها، فقال: «وإن من أعجب ما يروعنا من أمر الجنسية العربية في القرآن: أنها تأبى إلا أن تحفظ على: أهلها تلك الصفات العربية؛ من الأنفة والعزة والصوت والغَلَب: وما يكون من هذا الباعث الاجتماعي الذي لا يزال يفتح للشعوب عن مقاصير الأرض.

كما أنها تستبقي طاعة المغلوبين الذين أعطوا للفاتحين عن أيديهم، وانطرحوا في غمرهم وكانوا أهل ذمتهم: لانتحالهم العربية طوعاً أو كرهاً، ثم بقائها في ألسنتهم على نسبة بينة من الفصيح مهما ركت ومهما رذلت؛ ولولا القرآن وأنه على وجه واحد وهيئة ثابتة، ما بقيت العرب، ولا تبينت النسبة بين فروعها العامية، بل لذهب كل فرع بما أحدث من الألفاظ، وما استجد من ضروب العبارة وأساليبها، حتى يتسلل كل قوم من هذه الجنسية إن كانوا من أهلها أو من أهل ذمتها، ثم لا تستحكم لهم بعد ذلك ناحية من الائتلاف ولا يستمر لهم سبب من الارتباط»[(١)] اهـ.

وهذا يعني أن الله سبحانه قد حفظ بالقرآن لغة العرب، كما حفظ به دينهم الحنيف، فلولا تشريف الله لسانهم بإنزال القرآن به وخطاب العالمين بهدايته لما بقيت لهم لغة ولا حفظ لهم أدب، وإنما حظيت هذه اللغة بما لم تحظ به لغة سواها من العناية بها وحفظ تراثها بسبب القرآن، ولولاه لمزقتها ألسنة العرب أنفسهم حتى تذهب مع الزمن، فتصبح أثرا بعد عين ثم خبرا بعد أثر، فلأجل القرآن وحده تزاحمت الركب عليها وتنافست الهمم في الدفاع عنها، فكانت هذه التضحيات من العرب والعجم على السواء.

(١) الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص ٦٤.



اللغة جنسية تجمع الشتيت من الناس وإن تعددت أصولهم النسبية:

قد علمت مما مرَّ أن اللغة جنسية تنضوي تحتها أجناس البشر، فيتوحد بها فكرهم ووجهتهم، وتحيا بها هواجسهم ومشاعرهم، وقد أدركت ذلك الأمم الغالبة ففرضت على مغلوبيهم ألسنتهم، وأثاروا عواطفهم تجاهها؛ ليتنافسوا في ميادينها، ويتسابقوا في اقتناء آدابها، لأنها كانت الوسيلة إلى بث أفكارهم فيما بين أولئك المغلوبين ليأسروا قلوبهم ويستحوذوا على عقولهم، وهذه الظاهرة لا تخفى على من عرف سياسة المستعمرين في الشعوب المستعمرة.

وقد شاء الله سبحانه أن يكون بث الخير الذي أراده للإنسانية بنشر هذا اللسان العربي فيما بين شعوبها، لتصل به إلى هذه الهداية وتسمو به إلى هذا الشرف، وكان هذا الخطاب العالمي من الله سبحانه لعباده بهذا اللسان، كما أنهم مطالبون بأن يتوجهوا به إليه في مناجاتهم لله سبحانه في الصلوات والأذكار، فكل منهم يجري على لسانه ما يعتمل بين حنايا قلبه عندما يخاطب الله تعالى بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ الفاتحة: ٥، ولا يجد أحدهم حرجا في نفسه أن يجعل من هذا اللسان وسيلته إلى العلم والأدب وجميع أنواع المزايا والفضائل، وهذا ما سجلته أقلامهم وفاضت به قرائحهم كمثل **الفيروز أبادي** صاحب أشهر معجم عربي، مع كونه أعجمي المحتد، فقد كان فخورا بإنجازه في الحفاظ على اللسان العربي، ومما قاله في ذلك: «وإن بيان الشريعة لما كان مصدره عن لسان العرب، وكان العمل بموجبه لا يصح إلا بإحكام العلم بمقدمته، وجب على روام العلم وطلاب الأثر، أن يجعلوا عظم اجتهادهم واعتمادهم، وأن يصرفوا جل عنايتهم في ارتيادهم إلى علم اللغة والمعرفة بوجوهها، والوقوف على مثلها ورسومها.

وقد عني به من الخلف والسلف في كل عصر عصابة، هم أهل الإصابة، أحرزوا دقائقه، وأبرزوا حقائقه، وعمروا دمنه، وفرعوا قننه، وقنصوا شوارده،

ونظموا قلائده، وأرهفوا مخاذم البراعة، وأرعفوا مخاطم اليراعة، فألفوا وأفادوا، وصنفوا وأجادوا، وبلغوا من المقاصد قاصيتها، وملكوا من المحاسن ناصيتها، جزاهم الله رضوانه، وأحلهم من رياض القدس ميطانه» اهـ[١].

ومثل ذلك قول الزمخشري إمام البلاغة العربية في فاتحة كتابه المفصل: «الله أحمد على أن جعلني من علماء العربية، وجبلني على الغضب للعرب والعصبية، وأبى لي أن أنفرد عن صميم أنصارهم وأمتاز وأنضوي إلى لفيف الشعوبية وأنحاز، وعصمني من مذهبهم الذي لم يجد عليهم إلا الرشق بألسنة اللاعنين، والمشق بأسنة الطاعنين» اهـ[٢].

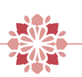
وقد استفرغوا في هذا جهودهم وبذلوا من أجله مهجهم، فكان من آثارهم هذا التراث العربي الزاخر، الذي تتحفنا دور النشر كل يوم منه بجديد، وما ذلك إلا لما لهذا اللسان من فضل على الناس بما جعل الله لهم فيه من خير الدنيا والآخرة، وما حصل لهم بسببه من الزلفى إليه في المسير والمصير.

الزهد في اللغة العربية مرض أصاب الأمة لا سيما العرب:

غير أن الناس ـ ولا سيما العرب ـ أصبحوا زهادا في هذا اللسان، لا يعيرونه اهتمامهم ولا يحركون من أجله عنايتهم، وإنما استعاضوا عنه لسان من بزهم في القوة، فأمسك بنواصيهم وأخذ بتلابيبهم، ففي ميدانه يتسابقون ولأجل إتقانه يتنافسون، حتى أنهم لا يعنيهم أن ينشئوا ناشئتهم على لغة العرب، بل يجتلبون المربيات لهم لتنشئهم على اللسان الأجنبي، ولا يفكرون إن سرى إليهم مع هذا اللسان الدخيل فكر أهله وأخلاقهم وآدابهم، وتطبعوا بعاداتهم حتى تصبح حياتهم صورة من حياتهم، كأنما ولدوا من أرحامهم وتتابعوا في أصلابهم، فإنه من المعلوم أن ضياع الألسنة إنما هو ضياع للأمم

(١) الفيروزآبادي: القاموس المحيط، ١/٢٦.

(٢) الزمخشري: المفصل في صنعة الإعراب، ص ١٧.



التي تنتمي إليها، كما قال إمام الأدب العربي: «لا عزيمة لقلب خذله اللسان، ولا تشدد للسان خذله القلب، ولا استقلال لشعب تخاذلت ألسنتهم وقلوبُهم، وتلك سنة من السنن ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾ الأنفال: ٣٧»[(١)].

وإذا كنا نفخر ونتباهى أن نجد من بين مسلمي العجم من يعتز باللسان العربي ويحرص على أن يكون خطابه به، فإننا نأسف أن نرى من بين العرب من يحتقر هذا اللسان ويراه رمز التخلف وشارة الرجعية..!! فالموسومون بالثقافة من العرب إن اجتمعوا لم يتحدثوا بينهم إلا باللسان الأجنبي، وإن تحدثوا ـ على مضض ـ بالعربية لم تكن خالصة من التطعيم بكلمات أجنبية، حتى يثبت المتحدث أنه على قدر عالٍ من الوعي والتقدم والرقي، وفي مقابل هذا التخاذل والارتكاس من قبل العرب نذكر بإكبار ما يكون من بعض مسلمي العجم من الاعتداد باللغة العربية والاعتزاز بخطابها، فقبل عقود من السنين من الآن انعقد مؤتمر إسلامي بإسلام أباد عاصمة الجمهورية الإسلامية الباكستانية، وكان من برنامج المؤتمر مقابلة أعضائه للرئيس الباكستاني آنذاك ضياء الحق، ولما دخلت عليه الوفود تحدث إلى الرئيس نيابة عنها مفتي يوغوسلافيا آنذاك الشيخ حمدي يوسفسباهتش ـ وهو رجل أوروبي ولد بالبوسنة ـ وأصر على أن يكون حديثه إلى الرئيس الباكستاني باللغة العربية لأنها وعاء القرآن، ولم يكن الرئيس على معرفة بهذه اللغة، وإنما كان حديثه إلى الوفود باللغة الإنجليزية، التي كان الشيخ المفتي يتقنها بمهارة، ولما سئل: لماذا عدل عنها إلى العربية مع أنه كان قادرا على مخاطبة الرئيس خطابا لا يحتاج معه إلى ترجمان؟ أجاب: وهل ينبغي لمسلم يتقن العربية أن يتحدث بسواها؟! وقد نمت إلي هذه القصة ولم أشهدها، ولكنني سألت صاحبها عنها فأكدها لي، وقال: «هذا مذهبي الذي أعتز به، فإن التفريط في العربية إنما هو تفريط في الإسلام».

(١) الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص ٦٤.



ولكن ـ يا للأسف والحسـرة ـ أين هذه الحمية التي تجيش بها العاطفة الإيمانية في العجم تجاه لغة القرآن من كثير من العرب الذين أصبحوا ينظرون إليها كما ينظر إلى النفاية التي يتخلص منها إلى المزابل..؟!!.

إضاعة اللغة العربية جناية على الإسلام:

مما هو بدهي أن إضاعة العربية وسـوء أدائها لم يجـن على لغة العرب وحدها وإنما جنى على دين الإسـلام، فكم اختفى من مفاهيمه واعتاص من حقائقه بسبب خفاء دلالة كلام العرب عن الأفهام، ولو أتقنوه وخبروه لاكتشفوا خفاياه وراضوا صعبه.

وما البعد عن لغة القرآن إلا مؤامرة دبرها أعداء الإسـلام ونفذها أبناؤه عن علم أو جهل منهم، فلو أدركوا ما وراء الأكمة وأخلصوا طويتهم لله، لكان لهم شأن آخر، فبقدر ما تستمسـك الأمة بلغة القرآن تكون معتصمـة بحبله مهتدية بنوره محرزة لفوائده وعوائده، وبقدر تفريطها في ذلك تفقد هذا كله وتصبح ـ كما هو الشأن ـ مأسـورة بقد عدوها، ومفروضا عليها فكره؛ لأجل هذا كانت الغيرة من السـلف الصالح على لغة القرآن بلغت أوجهـا، فكانوا يتواصـون بتعلمها كما يتعلمون القرآن، وعلى رأس السلف الصالح رسـول الله ﷺ، فقد روي عنه من طريق أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «**وتعلموا من العربيـة ما تعربون به كتاب الله**»[1]، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه «أنه كتب: تعلموا العربية، وتفقهوا في الدين، وأحسنوا عبارة الرؤيا»[2]، وعنه: «تعلموا العربية فإنهـا تثبت العقل وتزيد في المروءة»[3]، وعن أبي بن كعب، قال: «تعلموا العربية كما تعلمون حفظ القرآن»[4].

(١) أخرجه البيهقي في شعبه (٢٣٨/٣ رقم: ١٥٩٤).
(٢) التفسير من سنن سعيد بن منصور، ٣١٥/٢.
(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٥٧/٢، رقم ١٦٧٦)، والخطيب في الجامع (٢٥/٢، رقم: ١٠٦٧).
(٤) أخرجه ابن أبي شيبه (١١٦/٦ رقم: ٢٩٩١٥).

وقال القلقشـــندي: «قال صاحب **الريحـــان والريعان**: ولم يــزل الخلفاء الراشدون بعد النبي ﷺ يحثون على تعلم العربية وحفظها والرعاية لمعانيها إذ هي من الدين بالمكان المعلوم والمحل المخصوص قال عثمان المهري أتانا كتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ونحن بأذربيجان يأمرنا بأشياء ويذكر فيها تعلموا العربية فإنها تثبت العقل وتزيد في المروءة»(١).

ولا يزال أولو الحمية على الدين والرغبة في فهم الإسلام يحرصون على هذه اللغة أكثر مما يحرصون على الحديث بلغاتهم، فقد حضرت مؤتمرا عقد في عام ١٤٠٣هـ بداكار عاصمة السنغال، وكان المؤتمر يعنى بالتنسيق للجهود الدعوية بين مؤسســات الدعوة إلى الله في دول غرب أفريقيا، وكنت حضرت مع من حضر من العرب مشاهدا ومســتفيدا، وقد أديرت جلساته جميعا بين مسؤولي الدعوة في دول غرب أفريقيا باللغة العربية من غير أن تتدخل ترجمة، وفي هذا مما لا يخفى مــن عناية الإخوان بغرب أفريقيــا بلغة دينهم وكتاب ربهم، فلهم الشكر الجزيل على ذلك.

المحافظة على العربية لا تعني إهمال اللغات الأخرى:

لا يعني التحضيض على دراســة العربيــة مصادرة اللغــات الأخرى أو إهمالها، فإن اختلاف الألســنة من آيات الله تعالى الدالة عليه كسائر آياته في الخلق، وقد نبه علــى ذلك في قولــه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ الروم: ٢٢، وقد أرسل الله رســله إلى أقوامهم يخاطبونهم بألســنتهم كما نص عليه في قوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ إبراهيم: ٤، وإنما في اجتماع الشعوب المسلمة على لغة القرآن في تفاهمهم وتبادل المعارف والعلوم بينهم

(١) القلقشندي: أحمد بن علي بن أحمد الفزاري، صبح الأعشى في كتابة الإنشا، ٢٠٥/١، وزارة الثقافة ـ دمشق ـ ١٩٨١، تحقيق: عبد القادر زكار.

جمع لهذا الشــتات، وتوحيد لهذه الفئــات، وخرط لها في ســلك التعارف والتآلف بما علمته من أن اللغة ربــاط كالفكر، ولا حرج مع هذا في تعلم أي لغة لإبلاغ دعوة الحق إلى الناطقين بهــا، وتبصيرهم بما ينقذهم من الضلالة والردى في حالهم ومآلهم، فإن اللغات وسائل تبلغ الغايات، ومن استكثر منها تعددت عنده وســائل الدعوة والبلاغ، وكان أقدر على إيصال الحق إلى أكبر عدد من الناس.

وتدخل في ذلك اللغات الحية المنتشرة في العالم بما كان لأهلها من نفوذ وســلطان، فالدعوة الإســلامية هي بحاجة إلــى أن تترجم إلى هذه اللغات جميعا، ولكن على أن لا يكون ذلك على حساب لغة القرآن، وأن لا تكون العناية بها ناشــئة عن الإعجاب والانبهــار بأصحابها المناوئين للإسلام، وأن لا يكون في نفوس المتخاطبين بها من أبناء الأمة الإسلامية استخفاف واستهانة بلغة القرآن، التي فضلها الله تعالى على جميع اللغات بإنزال كتابه بها.

بل يجب الاعتزاز بهذه اللغة الفضلــى وأن لا يكون العدول عنها إلا مع الحاجة الملحة، وأن لا يورث التخاطب بغيرها هزيمة في النفس ولا ارتكاسا في الفكر.

وجوب السعي إلى إعطاء العربية حقها في جعلها وعاء لجميع العلوم:

هذا؛ ويجب السعي الحثيث إلى إعطاء هذه اللغة حقها من الاهتمام، فإذا كانت اللغات القومية لا يفرط فيهــا أهلها وإن عصفت بهم الزعازع وزلزلتهم الأحداث، بل يظلون متمسكين بها ومفاخرين بإدارة حياتهم العلمية والعملية بها دون غيرها، فكيف تهمل أو تهمش لغة وحدت الشعوب والأمم ووصلت بين الفكر والعمل، وربطت بين الدنيا والآخرة عندما أنزل الله بها كتابه المبين، وجعله رحمة لجميع العالمين؟!.

ولعمر الحق إن مما يدعو إلى الحسرة والأسى أن يهمل العرب والمسلمون اللغة العربية التي حفظ الله بها دينه، وأتم بإنزاله كتابه بها نعمته عليهم، ويؤثروا عليها اللغات الأجنبية في دراسة العلوم الإنسانية، مع أن مثل هذا التصرف يعدُّ نكوصا وهويا إلى الحضيض عند الأمم والشعوب الأخرى، فقد أخبرني أحد العُمانيين ـ الذين تلقوا العلم بالجامعة الأردنية ـ أن وفدا كوريا مؤلفا من طلبة الجامعات وأساتذتها زار هذه الجامعة إبان وجود هذا الطالب العُماني فيها، وأن سؤالا طرح على الوفد الزائر مضمونه أنهم: (بأي لغة يدرسون العلوم في جامعاتهم؟).

فكانت الإجابة مصدرة بتعجب من طرح هذا السؤال، وكأنهم شعروا بغباء السائل، وذلك أنهم قالوا: بأي لغة عسانا أن ندرس العلوم؟! ألسنا شعبا مستقلا له لغته وثقافته وتأريخه وحضارته؟! فكيف نعدل عن لغتنا التي نعتز بها إلى لغات أخرى؟!.

وفي طي هذه الإجابة ما لا يخفى على ذي بصر أن القوم شعروا بأن طرح السؤال إما أن يكون ناشئا عن إحساس السائل بأن أمته وقومه معدمون من كل ما عساهم يعتزون به من تأريخ أو قومية أو حضارة، وأن لغتهم مهملة ما بقي لها مكان بين الشعوب المتحضرة إلا أن تطرح في مزابل التأريخ، وهو يقيس سائر الشعوب والأمم على حالته المتدنية السافلة، وإما أن يكون ناشئا عن غبش في التصور وجمود في الإدراك وضيق في الإلمام بأحوال الشعوب والأمم، فلذلك طرح هذا السؤال.

وإذا كان هذا الاستنكاف من التدريس بغير اللغة القومية ينبعث من أصحاب لغة لا يصل عدد المتحدثين بها إلى سبعين مليون نسمة، ولا تقارب الأرض التي تنتشر فيها ربع مليون كيلومتر مربع، فما بالك بلغة يتحدث بها أكثر من ثلاثمائة مليون عربي ويرتبط بها أكثر من مليار ونصف المليار من

المسلمين، وبلاد العرب أنفسهم تمتد من الخليج إلى المحيط وتقدر بثلاثة عشر مليون كيلومتر مربع، وأرض الإسلام لا تكاد تكون قارة من قارات الأرض إلا ولها فيها نصيب، فكيف تتناسى هذه اللغة ويهمل التعليم بها؟!! ويرفع المعادون لها عقيرتهم متهمين إياها بأنها عقيم لا يمكن أن تنتج علما!! مع أنها وسعت علوم الدنيا والآخرة، إذ وسعت كتاب الله وآياته، وهو تعالى القائل في وصفه: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ الأنعام: ٣٨، والقائل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ النحل: ٨٩.

وكل ما تفرزه العلوم وما تترجمه الاكتشافات ليس هو إلا أثرا من آثار هذا الكتاب، الذي أنزله من يعلم السر في السماوات والأرض، ووعد عباده بكشف هذه الآيات ليتبين لهم أن ما أنزله هو الحق، ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ۝ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ فصلت: ٥٢ ـ ٥٤.

وأفسح الميدان للعربية نفسها أن تدافع عن مكانتها بين اللغات، وأن تثبت حجتها بأنها لا تضيق مساحتها عن علم يدرس أو حقيقة تكتشف أو شيء مما يخترع، فقد نظم على لسانها شاعر النيل ما يبرز حجتها في قوله:

«رَجَعْتُ لنفْسِي فاتَّهمتُ حَصاتِي ... وناديْتُ قَوْمِي فاحْتَسَبْتُ حياتِي

رَمَوني بعُقمٍ في الشَّبابِ وليتَني ... عَقِمتُ فلم أجزَعْ لقَولِ عداتي

وَلَدتُ ولمَّا لم أجِدْ لعرائسي ... رِجالاً وأَكفاءً وَأَدْتُ بناتِي

وسِعتُ كِتابَ اللهِ لَفظاً وغايةً ... وما ضِقْتُ عن آيٍ به وعِظاتِ

فكيف أضِيقُ اليومَ عن وَصفِ آلة ... وتَنْسِيقِ أسماءٍ لمُخْتَرعاتِ

أنا البحر في أحشائه الدر كامن ... فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي

فيا وَيحَكُم أبلى وتَبلى مَحاسِني ... ومنْكمْ وإنْ عَزَّ الدّواءُ أساتِي
فلا تَكِلُوني للزّمانِ فإنّني ... أخافُ عليكم أن تَحينَ وَفاتي
أرى لِرجالِ الغَربِ عِزّاً ومَنعَةً ... وكم عَزَّ أقوامٌ بعِزِّ لُغاتِ
أتَوْا أهلَهُم بالمُعجِزاتِ تَفَنُّناً ... فيا ليتَكُمْ تأتونَ بالكلِمَاتِ
أيُطرِبُكُم من جانِبِ الغَربِ ناعِبٌ ... يُنادي بِوَأدي في رَبيعِ حَياتي
ولو تَزْجُرونَ الطَّيرَ يوماً عَلِمتُمُ ... بما تحتَه مِنْ عَثْرَةٍ وشَتاتِ
سقَى اللهُ في بَطْنِ الجزِيرةِ أَعْظُماً ... يَعِزُّ عليها أن تلينَ قَناتِي
حَفِظْنَ وِدادِي في البِلى وحَفِظْتُه ... لهُنّ بقلبٍ دائمِ الحَسَراتِ
وفاخَرْتُ أَهلَ الغَرْبِ والشرقُ مُطْرِقٌ ... حَياءً بتلكَ الأَعْظُمِ النَّخِراتِ
أرى كلَّ يومٍ بالجَرائِدِ مَزْلَقاً ... مِنَ القبرِ يدنيني بغيرِ أناة
وأسمَعُ للكُتّابِ في مِصرَ ضَجّةً ... فأعلَمُ أنّ الصَّائحِينَ نُعاتِي
أَيهجُرنِي قومِي عفا الله عنهمُ ... إلى لغةٍ لَمْ تتّصلِ برواةِ
سَرَتْ لوثَةُ الافْرَنجِ فيها كمَا سَرَى ... لُعابُ الأفاعي في مَسيلِ فُراتِ
فجاءَتْ كثَوْبٍ ضَمَّ سبعين رُقْعةً ... مشكَّلَةَ الأَلوانِ مُختلفاتِ
إلى مَعشَرِ الكُتّابِ والجَمعُ حافِلٌ ... بَسَطْتُ رجائِي بَعدَ بَسْطِ شكاتِي
فإمّا حَياةٌ تبعثُ المَيْتَ في البِلى ... وتُنبِتُ في تلك الرُّمُوسِ رُفاتي
وإمّا مَماتٌ لا قيامَةَ بَعدَهُ ... مماتٌ لَعَمْرِي لمْ يُقَسْ بمماتِ»[(١)]

وقد شدني العجب عندما وجدت الأطباء في مملكة تايلند يتحدثون بلغتهم بينما الأطباء عندنا ـ وإن كانوا جميعا عربا أقحاحا ـ لا يتحدثون بينهم في قضية طبية إلا باللغة الأجنبية!! وما هو إلا أثر للهزيمة التي رزئت بها هذه الأمة.

(١) حافظ إبراهيم: ديوان حافظ إبراهيم: ص٦٦.

ضرورة التقيد في البيان بما يرضي واهبه:

إذا كان البيان من أعظم النعم التي وهبها الله للإنسان، فإن من واجب الإنسان أن لا يسخر بيانه إلا لمرضاة الله، فلا يجعله وسيلة لتفريق الكلمة والتنفير بين الناس، بل عليه أن يسخره لجمع الشتات وتأليف القلوب وتوحيد الصف، وكذلك يجدر به أن لا يجعله وسيلة لنشر الرذائل وإشاعة الفحشاء وتزيين الباطل وتسفيه الحق، ولكن يجب على الكل أن يتعاونوا ـ بما يبثونه من بيان ـ على نشر الفضائل، وتقليص الرذائل، وتأييد الحق، وطمس الباطل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن ذلك كله من شكر الله تعالى على هذه النعمة، وهل تشكر النعم إلا بتسخيرها لما يرضي من أنعم بها؟.

ويجب أن لا يشوب البيان كذب ولا بهتان وأن لا يكون سببا للاغتياب ولا النميمة، فكم توعد الله سبحانه الكذابين بسوء العذاب؟.

ومما يؤسف له أن يفوت الناس هذا الملحظ المهم، فيسخروا حديثهم للسخرية من الحق وأهله، ولمز الناس بالباطل، والسعي بالنميمة بينهم، والإيقاع بينهم، وهذا كثيرا ما يكون في الصحافة وسائر وسائل النشر، ووعيد ذلك شديد، فعندما وصى رسول الله ﷺ معاذا رضي الله عنه قال له: «... **ألا أخبرك بملاك ذلك كله؛ كف عليك هذا** ـ وأشار إلى لسانه ـ، قال: يا نبي الله. وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟! قال: **ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم**»[1]، وقد فرض الله على عباده أن يقولوا قولا سديدا، وقرن ذلك بالتقوى في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۞ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١،

(١) أخرجه الطيالسي (ص٧٦، رقم ٥٦٠)، وأحمد (٢٣١/٥، رقم ٢٢٠٦٩)، والترمذي (١١/٥، رقم ٢٦١٦)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (١٣١٤/٢، رقم ٣٩٧٣)، والحاكم (٤٤٧/٢، رقم ٣٥٤٨)، وقال: صحيح على شرط الشيخين. والبيهقي في شعب الإيمان (١٣/٤، رقم ٤٢٢٥)، والطبراني (١٤٣/٢٠، رقم ٢٩٢).

ومفهوم ذلك أن من قال فعليه أن يقول قولا سديدا، وإلا فالصمت هو الواجب عليه، كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «**ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت**»[(١)].

ألا فليتق الله الذين يلتذون بتسليط ألسنتهم على أعراض الناس تفريها كما يفرى الأديم، وينبسطون لتسفيه الحق، وتأييد الباطل، وتمزيق الشمل، وتفريق الكلمة، وتشتيت الأمة، وعلى كل من ملك وسيلة للبث والنشر أن يتقي الله في ذلك، وأن يقول قولا سديدا، وعلى من أوتوا ملكة البيان أن يُسخِّروا بيانهم لما يرضي الله من خدمة الدين، والدعوة إلى الخير، وإصلاح ذات البين، ورتق فتق الأمة وجمع شملها.

هذا؛ وإذا كان النبي ﷺ يحذر معاذا رضي الله عنه من إطلاق العنان للسانه، فإن ما تسجله الأقلام وتبثه وسائل الإعلام وتتناقله الصحف هو أشد خطرا، لأن من قال بلسانه في مجلس محدود لا يسمعه إلا من بمجلسه، ولكن ما ينشر في الصحف أو يدون في الكتب أو يتلى في المحافل والمجامع أو يبث بوسائل النقل هو أكثر انتشارا، فبقدر ما يتأثر به المتأثرون يكتب لقائله أو عليه بره أو فجوره، فيبوء بأجره أو بوزره، والله المستعان.

---

(١) أخرجه الربيع من طريق جابر مرسلا (ص ٢٦٦ رقم: ٦٨٣)، وبلفظ: (فليقل خيرا أو ليسكت) جاء من عدة طرق، فمن طريق أبي شريح: أخرجه أحمد (٣١/٤، رقم ١٦٤١٧)، والبخاري (٢٢٤٠/٥، رقم ٥٦٧٣)، ومسلم (٦٩/١، رقم ٤٨) وأبو داود (٣٤٢، رقم ٣٧٤٨)، والترمذي (٣٤٥/٤، رقم ١٩٦٧) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (١٢١١/٢ رقم ٣٦٧٢). وأخرجه أيضا: أبو عوانة (٤٢/١، رقم ٩٥)، ومن طريق أبي هريرة: أخرجه أحمد (٢٦٧/٢، رقم ٧٦١٥)، والبخاري (٢٢٤٠/٥، رقم ٥٦٧٢)، ومسلم (١٠٩١/٢ رقم ١٤٦٨)، وأبو داود (٣٣٩/٤، رقم ٥١٥٤) والترمذي (٦٥٩/٤، رقم ٢٥٠٠) وقال: صحيح. وابن ماجه (١٣١٣/٢ رقم ٣٩٧١)، وابن حبان (٢٥٩/٢، رقم ٥٠٦). وأخرجه أيضا: الطيالسي (ص ٣٠٨، رقم ٢٣٤٧)، وأبو يعلى (٨٥/١ رقم ٦٢١٨). ومن طريق ابن عمرو: أخرجه أحمد (١٧٤/٢، رقم ٦٦٢١). ومن طريق رجل من مزينة: أخرجه أحمد (٤١٢/٥، رقم ٢٣٥٤٣).



المحور الثاني عشر

فيما يتعلق بالأخلاق

الأخلاق الحسنة ضرورة ملحة في حياة البشر:

إن من أهم ما يميز الإنســان ويزينه ويزكي طباعه ويقربه من بني جنسه، وينشر بينه وبينهم المودة والحنان والألفة والوفاق التحلي بمحاسن الأخلاق، فإن الأخلاق الحميــدة عندما تتحلى بها الأمم تكون معــارج لها إلى الأقدار العالية ووسائل لها إلى غزو القلوب واحتلالها بالمودة والشفقة والحنان، وقد أبان الله ﷻ عما للأخلاق من قدر عال عنده عندما ميز نبيه ﷺ بما حلاه به من الأخلاق، إذ قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ القلم: ٤.

وهو دليل على أن الأخلاق هي بالنسبة إلى المزايا الأخرى كالأرواح للأبدان، فالنبي ﷺ كان أعلــم الناس بما علمه الله تعالــى إياه، كيف وقد امتن ﷻ عليه بتعليمه ما لم يعلم، عندما قال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ النساء: ١١٣، إلا أنه بجانب ذلك لم يصفه الله تعالى بالعلم الغزير في مقام التفضيل، وإنما فضله بالخلق العظيم، وبين أنه كغيره من عباد الله مهما علموا لا يمكن أن يتجــاوز علمهم حدود فطرهم التــي لا تتعــدى دور المخلوقية، وإنما العلــم المطلــق لله تعالى وحده، والنبي ﷺ مع غيره داخل في عموم خطاب الله تعالى القائل: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الإسراء: ٨٥.



وبين تعالى إن هذا الخلق الرفيع الذي زين به عبده ورسوله ﷺ ورفع به قدره بين الناس هو الذي قربه إلى قلوب أصحابه فأحبوه وأكبروه، وأطاعوا أمره وبذلوا مهجهم في نصرته، فقد قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ...﴾ آل عمران: ١٥٩، وقد جمعت الآية الكريمة بين وصفه ﷺ بمكارم الأخلاق وحثه على أن يكون تعامله مع أصحابه بحسب ما تقتضيه هذه الأخلاق الكريمة.

لهذا امتن الله سبحانه على الذين بعث فيهم هذا النبي الكريم بما حلاه به من مكارم أخلاقه التي ينجذب إليها الناس بالفطرة، فقد قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ التوبة: ١٢٨.

رسالة الإسلام هي رسالة أخلاق:

كانت مهمته ﷺ في الرسالة العظمى التي حملها إلى الإنسانية أن يبني أمة تمتاز بأخلاقها وتسود بأحلامها، وقد بين ذلك في قوله: «**بعثت لأتمم صالح الأخلاق**»[(١)]، وفي رواية: «**بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[(٢)]، وفي أخرى: «**وإنما بعثت على تمام محاسن الأخلاق**»[(٣)].

وبهذا يتبين أن حضارة الإسلام التي جاء بها الرسول عليه الصلاة والسلام إنما كانت حضارة أخلاق، وقد وصى القرآن بمخالقة الناس جميعا بالخلق الحسن، فقد ذكر الله تعالى وصيته لبني إسرائيل التي جاء فيها: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ البقرة: ٨٣،

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/٦٧٠، رقم ٤٢٢١) وقال: صحيح على شرط مسلم. والبيهقي (١٠/١٩٢، رقم ٢٠٥٧٢)، والديلمي (٢/١٢، رقم ٢٠٩٨).

(٢) أخرجه البيهقي (١٠/١٩١، رقم ٢٠٥٧١).

(٣) أخرجه الطبراني (٢٠/٦٥، رقم ١٢٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/٢٣١، رقم ٧٩٨٠).

وبهذا وصى النبي ﷺ، فعنه عليه الصلاة والسلام: «**اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن**»(١).

وبين ﷺ مكانة الأخلاق الحسنة وجزاءها الحسن عند الله تعالى بقوله: «**خياركم أحاسنكم أخلاقا**»(٢)، وفي حديث عنه: «**أحبكم إلى الله أحاسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون وإن أبغضكم إلى الله المشاءون بالنميمة المفرقون بين الإخوان الملتمسون لهم العثرات**»(٣)، وجاء عنه في رواية: «**أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف**»(٤)، وروي عنه: «**إن أحبكم إلى الله أحسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون وإن أبغضكم إلى الله المشاءون بالنميمة المفرقون بين الإخوان الملتمسون للبرآء العثرات**»(٥)، وعند البخاري من طريق ابن عمرو: «**إن من أحبكم إلي أحسنكم أخلاقا**»(٦).

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٣/٥، رقم ٢١٣٩٢)، والترمذي (٣٥٥/٤، رقم ١٩٨٧) وقال: حسن صحيح. والدارمي (٤١٥/٢، رقم ٢٧٩١)، والحاكم (١٢١/١، رقم ١٧٨) وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. والبيهقي في شعب الإيمان (٢٤٥/٦، رقم ٨٠٢٦). والبزار (٤١٦/٩ رقم ٤٠٢٢) وأبو نعيم في الحلية (٣٧٨/٤).

(٢) أخرجه أحمد (١٩٣/٢، رقم ٦٨١٨)، والبخاري (٢٢٤٥/٥، رقم ٥٦٨٨)، ومسلم (١٨١٠/٤، رقم ٢٣٢١)، والترمذي (٣٤٩/٤، رقم ١٩٧٥) وقال: حسن صحيح. وابن حبان (٢٢٥/٢، رقم ٤٧٧)، وابن أبي شيبة (٢١٠/٥، رقم ٢٥٣١٧)، والبزار (٣٩٥/٦، رقم ٢٤١٧).

(٣) أخرجه الخطيب (٣٨٢/١)، وينظر الطبراني في الأوسط (٣٥٠/٧، رقم ٧٦٩٧) وفي الكبير (٥٠١/١٣ رقم: ١٤٣٧٤)، وفي الصغير (٨٩/٢، رقم ٨٣٥) وابن أبي الدنيا في ذم الغيبة (ص ١٦٨، رقم ١١٧)، وفي الصمت (١٥٤/١، رقم ٢٥٣).

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٥٦/٤، رقم ٤٤٢٢) وفي الصغير (٣٦٢/١، رقم ٦٠٥) و(٨٩/٢ رقم: ٨٣٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٣٢/٦، رقم ٧٩٨٣).

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الغيبة (ص ١٦٨، رقم ١١٧)، وفي الصمت (١٥٤/١، رقم ٢٥٣). وينظر الطبراني في الأوسط (٣٥٠/٧، رقم ٧٦٩٧)، وفي الصغير (٨٩/٢، رقم ٨٣٥).

(٦) أخرجه البخاري (١٣٧٢/٣، رقم ٣٥٤٩).

وجاء عنه: «**إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحسنكم أخلاقا وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون قالوا يا رسول الله ما المتفيهقون قال المتكبرون**»[(١)]، وفي رواية: «**إن أحبكم إلي وأقربكم مني في الآخرة مجالس محاسنكم أخلاقا وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني في الآخرة مساوئكم أخلاقا الثرثارون المتفيهقون المتشدقون**»[(٢)]، وفي أخرى: «**إن أحبكم إلى الله يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا وإن من أبغضكم إلي يوم القيامة المتشدقون المتفيهقون**»[(٣)]، وفي رواية «عن أنس رضي الله عنه قال: قالت أم حبيبة زوج النبي ﷺ: يا رسول الله، المرأة منا يكون لها في الدنيا زوجان، ثم تموت فتدخل الجنة هي وزوجاها لأيهما تكون للأول أو للأخير؟ قال: «**تخير، فتختار أحسنهما خلقا كان معها في الدنيا، فيكون زوجها في الجنة يا أم حبيبة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا، وخير الآخرة**»»[(٤)].

التفاضل بين الناس بحسب الأخلاق:

هذا كله يدل على أن الأخلاق هي ميزان التفاضل بين الناس، وبقدر التفاضل فيها يكون الإنسان أحب إلى الله وإلى عباده، فالمرأة عندما يكون لها

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٠/٤، رقم ٢٠١٨)، وينظر الخرائطي في مكارم الأخلاق (ص٣٢، رقم ٢٤)، وأخرج بقيته في مساوئ الأخلاق (ص٤٢، رقم ٦٣) وأيضا (ص٢٠٥، رقم ٥٨٣)، والخطيب (٦٢/٤)، وابن عساكر (٣٩٧/٣٧).

(٢) أخرجه أحمد (١٩٣/٤، رقم ١٧٧٦٧)، وابن حبان (٣٦٨/١٢، رقم ٥٥٥٧)، والطبراني (٢٢١/٢٢، رقم ٥٨٨)، وأبو نعيم في الحلية (١٨٨/٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٣٤/٦، رقم ٧٩٨٩)، والخرائطي في مكارم الأخلاق (ص٣١، رقم ٢٣)، وأخرج بقيته في مساوئ الأخلاق (ص٤٢، رقم ٦٢). وابن أبي شيبة (٢١٠/٥، رقم ٢٥٣٢٠)، وهناد في الزهد (٥٩٣/٢، رقم ١٢٥٥)، والحارث كما في بغية الباحث (٨١٨/٢، رقم ٨٥٢)، والبيهقي (١٩٣/١٠، رقم ٢٠٥٨٨).

(٣) أخرجه الطبراني (١٩٠/١٠، رقم ١٠٤٢٤).

(٤) أخرجه عبد بن حميد (ص٣٦٥، رقم ١٢١٢)، والطبراني (٢٢٢/٢٣، رقم ٤١١) وينظر في الأوسط (٢٧٩/٣ رقم: ٣١٤١)، والخرائطي في مكارم الأخلاق (ص٣٧، رقم ٥٠).

أكثر من زوج في الدنيا ثم تبعث يوم القيامة إلى الجنة وتجد هناك أزواجها تخير بينهم؛ فتختار من كان في الدنيا ألطفهم معها معاملة وأحسنهم خلقا، وهو وإن غمز أحد رجال سنده فإنه يعتضد بالأحاديث السابقة الدالة على أن مكارم الأخلاق هي مدارج الارتقاء في الدار الآخرة إلى المنازل العليا، كما أنها في الدنيا تدني صاحبها من بني جنسه وتحببه إليهم.

انعكاس الأخلاق على كل ما حوته الشريعة الإسلامية:

لهذا؛ كان عنصر الأخلاق هو مدار التشريع في الإسلام، فما من أمر شرع في الإسلام إلا وهو مرتبط بالأخلاق، ناهيك أن الله سبحانه أمر بالقول الحسن لجميع الناس، ولم يحصره في المتقين أو المؤمنين، أو المحسنين، وإنما قال: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ البقرة: ٨٣، وفي قراءة حمزة والكسائي ويعقوب وخلف: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حَسَنا﴾ بفتح الحاء والسين، أي قولا حَسنا، وهذا يعني أن المسلم مطالب بأن يتلطف في خطابه للناس جميعا، وأن يرد المسيء إلى الإحسان، والضال إلى لهدى، والمخطئ إلى الصواب بما يأسر قلبه ويجتذبه إلى الطاعة والانقياد، فالدعوة إلى الله تعالى لا تكون بما ينفر الناس ويُبَغِّض الداعي ودعوته إليهم، وإنما يجب أن تكون بما يؤلف قلوبهم ويقرب شاردهم كما قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ النحل: ١٢٥.

وقد أكد الله تعالى أن الدعوة التي يصدقها العمل وتكتنفها الأخلاق الحسنة هي أحسن ما يقال، وذلك في قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ فصلت: ٣٣، وأتبع ذلك توجيه الدعاة إلى الرفق في خطاب المدعوين واللطف في معاملتهم عندما قال: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ فصلت: ٣٤ ـ ٣٥، ووجه الله

تعالى المؤمنين في مجادلتهم لأهل الكتاب أن تكون بالرفق والحسنى إلا من ظلم منهم، إذ قال سبحانه: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ العنكبوت: ٤٦، وهذا الذي وجه إليه عبده ورسوله ﷺ في مجادلته لهم إذ قال: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ آل عمران: ٦٤، وهو الذي فعله ﷺ، فعندما وجه خطابه إلى هرقل عظيم الروم اختتمه بالآية الشريفة تنفيذا لأمر الله وتبيانا لحجته.

جميع الرسل الكرام عليهم السلام طبعوا على الأخلاق العالية وبذلك وصاهم الله تعالى:

لا ريب أن هذه الأخلاق الكريمة هي وصية الله تعالى لجميع رسله حتى عندما يرسلهم إلى أعتى العتاة وأعنف المتكبرين، فقد وجه موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون الذي بلغ به الغرور والعتو إلى أن يقول لملئه: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ القصص: ٣٨، وهو يعني أنه باغتراره وتكبره أقصى الله تعالى عن الألوهية ونازعه فيها فاستأثر بها دونه، ولكنه تعالى أمر موسى وهارون أن يتلطفا معه في الخطاب، إذ قال لهما: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ طه: ٤٤، مع أنه سبحانه علم منذ الأزل أنه لن يتذكر ولن يخشى، ولكنه جعلها سنة أنبيائه في مخاطبة أعدائه، وبين سبحانه هذا القول اللين فيما وجه إليه موسى عليه السلام من خطابه بقوله: ﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۞ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾ النازعات: ١٨ ـ ١٩.

وهذا الذي جرى عليه رسل الله تعالى المصطفون الأخيار، حتى لو واجهوا العتو والاستكبار من الذين أرسلوا إليهم، فهذا نوح عليه السلام يحكي الله خطابه

لقومه ومجادلته لهم بعدما سفهوه ونسبوا إليه الضلال وشتموا الذين اتبعوه، واتهموهم بأنهم أراذلهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ۞ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ۞ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۞ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۞ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ۞ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ هود: ٢٨ ـ ٣٤.

ومثل ذلك ما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۞ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۞ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۞ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۖ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۞ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ۞ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ۞ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ۞ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ۞ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ۞ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ۞ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ۞ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ۞ مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ۞ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ۞ أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ۞ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ۞ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ۞ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ۞ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ۞ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا﴾ نوح: ١ ـ ٢٠.

واستمرت هذه المجادلة بينه وبينهم مدة ألف سنة إلا خمسين عاما، وهو يغدو ويروح على دعوتهم بهذا التلطف والرفق، وإقامة البينات عليهم من خلق أنفسهم وخلق الكون من حولهم، وما هيأه الله لهم من نعمه التي لا تحد بحدٍ ولا تقدر بثمن، لولا فضله عليهم ولطفه بهم لتعذر عليهم أدناها، فضلا عن أعلاها، وهم معرضون عن كل هذا، قد خُتم على قلوبهم وأسماعهم وغُشِّيت أبصارهم، فغدوا كأنهم لا يسمعون للحق نداء ولا يفقهون له معنى، ولا يبصرون له نورا، إلى أن أتاهم من أمر الله ما أتاهم.

ومثل ذلك ما ذكره الله تعالى عن هود عليه السلام في قوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ۝ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ۝ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ هود: ٥٠ ـ ٥٧.

وما حكاه عن صالح في قوله: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ۝ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ

﴿ وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴾ هود: ٦١ ـ ٦٤.

ومثل ذلك مجادلة لوط لقومه، وكذلك مجادلة شعيب عليه السلام، ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ۞ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ۞ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ۞ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ۞ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ۞ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ۞ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ۞ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ۞ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ۞ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴾ هود: ٨٤ ـ ٩٣.

وانظروا كيف كان تلطف إبراهيم عليه السلام بأبيـــه العنيف ومحاولة أخذه بيده إلى الرشـــد والهدى، وزحزحته عن الغي والضلالة وما يتبعهما من سخط الله وعذابه، ومع ذلك كله كان الأب الجافي العنيف لا يقابل هذا اللين إلا بالشدة، ولا هذا الإرشاد إلا بالعناد، وقد حكى الله ذلك كله في قوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ

إِبْرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۞ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ۞ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ۞ يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا ۞ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا ۞ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ۞ قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ۞ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾ مريم: ٤١ ـ ٤٨.

فقد بالغ إبراهيم في التلطف بأبيه في الخطاب وتبصيره بالحقيقة التي كان يجحدها والحق الذي ينكره وإقامة الشواهد على ذلك، ولكن الأب القاسي لم يقابل هذا الرفق إلا بالمبالغة في العنف والتشدد في الخطاب، فقد أصر واستكبر استكبارا، وجاهر بعتوه.

وهكذا جميع المرسلين كان منهم لين الجانب وسعة الصدر واحتمال المكاره في سبيل إبلاغ دعوة الله إلى الناس، مع ما كانوا يُواجَهون به من شراسة الأخلاق وسوء المعاملة والغلظة في الخطاب، ولم يثنهم ذلك عن الاستمرار في الدعوة وإبانة ما يتحلون به من أخلاق سامية وفضائل ثِمَارُها فَواضلُ وإحسان، وهذا يعني أن الرسل جميعا كانوا يتحلون بالأخلاق العالية لأن الله سبحانه صنعهم على عينه، واختصهم باجتبائه، وطبعهم على مكارم الأخلاق.

وعندما بزغت على الوجود شمس خاتم النبيين وتاج المرسلين كانت الأخلاق هي سيماه وجبلته، فعرف أنه كان أبر الناس قلبا وأحسنهم معاشرة، وأوفرهم عقلا وأحسنهم سيرة، وأطهرهم سريرة، وأصدقهم قولا، وأصلحهم عملا، وآمنهم يدا، وأحبهم للخير، وأحرصهم على نشره بين جميع الناس، ناهيك أن الله تعالى عاتبه عتابا لطفيا على ما كان يحمله من هموم إعراض قومه عن الحق، وصدودهم عن اتباعه، وما يخشى عليهم من عاقبة ذلك، فقد

قال تعالى له: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ الكهف: ٦، وقال: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ الشعراء: ٣، وهو من حرصه على شيوع الخير بين الناس وقبولهم للهدى وتجنبهم ما يؤدي بهم إلى الردى كان يكبر عليه أن يعرضوا عن الحق ويصدوا عنه، فيحمّل نفسه من هموم ذلك ما يكاد يبخعه أي يهلكه، وهذا من رحمته البالغة وشفقته على عباد الله، وقد أخبر بهذا عن نفسه عندما وصف حاله بقوله: «مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارا فجعل الفراش والجنادب يقعن فيها وهو يذبهن عنها وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدي»[1].

وقد خشي المتعصبون في الغرب من ظهور دعوته وانتشار دينه فنسجوا حوله من أقوال الزور ما خيل إليهم أنهم بذلك قادرون على حجب نوره أن يسطع على العقول فيبصرها من العمى ويهديها إلى الهدى، ولكن أخفقوا، فقد أدرك ذوا البصائر منهم أنه عليه أفضل الصلاة والسلام كان أسمى قدرا وأجل شأنا وأرفع مكانا من كل ما يتصوره البشر، وبعد دراسة واسعة في هذا الميدان تضافرت عليها جهود الباحثين منهم توصلوا إلى هذه النتيجة: «أن محمدا كان سليم الفطرة، كامل العقل، كريم الأخلاق، صادق الحديث، عفيف النفس، قنوعا بالقليل من الرزق، غير طموح بالمال، ولا جنوح إلى الملك، ولم يعن بما كان يعنى به قومه من الفخر، والمباراة في تحبير الخطب ولا قرض الشعر، وكان يمقت ما كانوا عليه من الشرك وخرافات الوثنية، ويحتقر ما يتنافسون فيه من الشهوات البهيمية، كالخمر والميسر وأكل أموال النّاس بالباطل، وبهذا كله وبما ثبت من سيرته ويقينه بعد النبوة جزموا بأنه كان صادقا فيما ادعاه بعد استكمال الأربعين من سنّه من رؤية ملك الوحي، وإقرائه إياه هذا القرآن، وإنبائه بأنه رسول من الله لهداية قومه فسائر الناس»[2].

(١) أخرجه الطيالسي (ص٢٤٦، رقم ١٧٨٤)، وأحمد (٣٩٢/٣، رقم ١٥٢٥٠)، ومسلم (١٧٩٠/٤، رقم ٢٢٨٥).
(٢) محمد رشيد رضا: الوحي المحمدي، ص٥٦.

وإن أوفى كلمة وأبلغ بيان في ترجمة أخلاقه ﷺ قول السيدة أم المؤمنين رضي الله عنها، عندما سئلت عن خلقه؟.

قالت لسائلها: «ألست تقرأ القرآن؟» قلت: بلى، قالت: «فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن»[(١)]، وعن أبي الدرداء «قال: سألت عائشة عن خلق، رسول الله ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن، يغضب لغضبه، ويرضى لرضاه»»[(٢)]، وإذا كان ﷺ خلقه القرآن فلا ريب أن كل ما يحمد من الأخلاق انطوى عليه، إذ القرآن الكريم جمع جميع مكارم الأخلاق كلياتها وجزئياتها، وما من تشريع فيه ولا توجيه ولا موعظة إلا وقد اشتملت على أحسن ما يتصور في البشر من الأخلاق، وهي جميعا مترجمة في شخصية النبي ﷺ وما كان يصدر عنه أو يتصف به.

وكان ﷺ ينبسط حتى لأشد أعدائه عندما يلقاهم فعن عائشة، أن رجلا استأذن على النبي ﷺ، فلما رآه قال: «**بئس أخو العشيرة، وبئس ابن العشيرة**» فلما جلس تطلق النبي ﷺ في وجهه وانبسط إليه، فلما انطلق الرجل قالت له عائشة: يا رسول الله، حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا، ثم تطلقت في وجهه وانبسطت إليه؟ فقال رسول الله ﷺ: يا عائشة، متى عهدتني فحاشا، إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره»[(٣)].

وفي رواية: أن عائشة، رضي الله عنها قالت: «استأذن رجل على رسول الله ﷺ فقال: «**ائذنوا له، بئس أخو العشيرة، أو ابن العشيرة**» فلما دخل ألان له الكلام، قلت: يا رسول الله، قلت الذي قلت!! ثم ألنت له الكلام؟ قال: «**أي عائشة، إن شر الناس من تركه الناس، أو ودعه الناس، اتقاء فحشه**»»[(٤)].

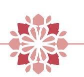
---

(١) أخرجه مسلم (٥١٢/١ رقم: ٧٤٦).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٠/١ رقم: ٧٢).

(٣) أخرجه أحمد (١٥٨/٦، رقم: ٢٥٢٩٣)، والبخاري (٢٢٤٤/٥، رقم: ٥٦٨٥)، ومسلم (٢٠٠٢/٤، رقم: ٢٥٩١)، وأبو داود (٢٥١/٤، رقم: ٤٧٩٣).

(٤) أخرجه الترمذي (٣٥٩/٤، رقم ١٩٩٦) وقال: حسن صحيح. والبخاري (١٧/٨ رقم: ٦٠٥٤)، و(٣١/٨ رقم: ٦١٣١)، ومسلم (٢٠٠٢/٤، رقم ٢٥٩١).



وإذا كانت هذه الجملة الجوابية منها ﵂ لا تفي المجلدات بشرحها، لأن ما جاء به القرآن أوسع من أن تحويه المجلدات، فإنها ألمحت إلى مثالٍ مما كان يتصف به من هذه الأخلاق الرفيعة فعن أبي إسحاق، قال: سمعت أبا عبد الله الجدلي، يقول: سألت عائشة ﵂ عن خلق رسول الله ﷺ، فقالت: «لم يكن فاحشا، ولا متفحشا، ولا سخابا في الأسواق، لا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح» أو قالت: «يعفو ويغفر»»[(١)].

أخلاق النبي ﷺ تنعكس على أصحابه:

قد انعكس هذا الخلق الرفيع الذي كان يتحلى به ﵊ على أصحابه ﵃، فلذلك بهروا العالم بأخلاقهم وأدهشوه بفضائلهم وأغرقوه بفواضلهم، فأحدثوا أعظم انقلاب بين أهله، فما كادوا يفتحون قطرا من أقطاره إلا وانتشلوه مما كان غارقا فيه من الضلال في الفكر والفساد في الأخلاق والإفلاس من الفضائل والانغماس في الرذائل، فتحولت الأمم إلى أمم أخرى أشرقت عليها أنوار الهداية، واستبدلت طبائعها السيئة بطبائع أخرى بلغت في الرقي والحسن أنها لم تكن تدور على بال أحد، أو يتصورها خياله، فكانوا لهذا العالم رسل سلام ومعالم هداية ومعادن أخلاق.

وما هذا بأمر عجيب، فإن الرسالة التي حملوها إلى الإنسانية كانت منظومة أخلاق، هيأها الله ﷻ وحده، ولم يكلها إلى أحد من خلقه، إذ لو تلاقحت أفكار البشر جميعا، واجتمعت متضافرة جهودها، متحدة أهدافها، على أن ترقى بالمستوى البشري في جانب الأخلاق؛ ما كانت لتصل إلى هذه المنظومة التي تدهش البصائر وتحير الأبصار، وأنى أن يأتي البشر بما جاء به الله تعالى من كمالٍ وجمال وجلال؟!.

(١) أخرجه الطيالسي (١١٤/٣ رقم: ١٦٢٣).

كل ما في الإسلام مولد للأخلاق الفاضلة:

لو أخذ يفتش أحد عما في طوايا هذا الدين الحنيف الذي اختاره الله تعالى لأن يكون الحبل الذي يصل عباده به، والسبب الذي يترابطون به، لوجد كل جزئية فيه يجملها الخلق وتجللها الفضيلة، فعقيدة الإسلام نفسها تنأى بالإنسان المؤمن عن كل علو واستكبار، وتقف به في مصاف إخوانه من الجنس البشري على قدم المساواة، لا يستعلي أحد على أحد بحسبه ولا بنسبه ولا بجاهه ولا بماله، ولا بسلطانه ولا بمنصبه، وإنما التفاوت بينهم بقدر تقربهم إلى مولاهم سبحانه ذي العزة والجلال، الذي انفرد دون خلقه بالخلق والأمر، والحكم والقهر، والنفع والضر، فمن كان أقرب إليه بتواضعه وتذلُّلِهِ بين يديه، وتسليم أمره كله إليه، واعتماده في كل أمر عليه، وطاعته في كل ما أمر به ونهى عنه، كان أثقل ميزانا، وأرفع شأنا، وأجل قدرا، وأسمى شرفا.

ذلك لأنهم جميعا خارجون من معدن واحدٍ وعائدون إلى منقلب واحد، ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ طـه: ٥٥، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ الحجرات: ١٣، ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ الأنبياء: ٣٤، ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ الزمر: ٣٠ ـ ٣١، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ...﴾ الحج: ٥.

فكل الناس مشتركون في هذه الخصال، مبدؤهم من التراب، ومعادهم إليه، وهم يتدرجون في أطوار التكوين ومدارج النمو حتى ينتهوا إلى الغاية

التي يشتركون في الانتهاء إليها، وعندئذ يفترقون فينتهي كل أحد إلى مصيره الذي يتناسب مع ما كان عليه في مسيره، والله وحده هو المنفرد بالبقاء الأبدي ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ القصص: ٨٨، ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۞ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ الرحمن: ٢٦ ـ ٢٧، وليس بينه وبين أحد من خلقه نسب ولا سبب إلا التقوى، فمن وصل نفسه بحبلها فهو الموصول بالله، ومن انفصم عنها لم يكن بينه وبين الله تعالى اتصال.

جملة التوحيد كافية في ترسيخ هذه المعاني:

كل هذه الحقائق تندرج في جملة التوحيد التي دعا إليها رسول الله ﷺ كما دعا إليها الرسل من قبله، ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ البقرة: ١٦٣، ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾ محمد: ١٩، فإذا استقرت هذه الحقائق في فكر أحد ووجدانه تفاعل معها في أخذه وعطائه، وسلمه وحربه، ورضاه وغضبه، فكانت حياته كلها تحفة ربانية، معدنها التقوى وزينتها الأخلاق، فلا يعود نشاز بينه وبينه بني جنسه إلا من شذ منهم، فانفرط من هذا العقد، وانسلخ من هذه الحلية.

العبادات والشرائع كلها مؤدية إلى هذه الغاية:

كل ما يؤمر به في الإسلام من عبادة أو يشرع له من حكم، فهو يدور في هذا الفلك، ويرجع إلى هذا الأصل؛ لأن غاية ذلك كله ترسيخ الأخلاق العالية في نفوس العابدين والطائعين، وتطبيع النفوس على التسليم لأمر الله والاستجابة لحكمه والانقياد لطاعته، وتحقيق النفع لعباده.

فالعبادات ـ وإن كانت صلات بين العابد والمعبود ـ هي عوامل في تهيئة النفوس للالتقاء في ظل الطاعة المطلقة للمعبود، والتواد والتراحم فيه والتواضع لكبريائه، حتى لا يستعلي بعضها على بعض، والتآلف حتى لا تتنافر في شيء،

كيف والعبادات كلها تربي هذه النفوس على الإسلام الحق، الذي يجعل من الإنسان المسلم عبدا خالصا لله وحده، له محياه ومماته، ومن أجله رضاه وسخطه، لا ينظر إلى الدنيا إلا من هذا المنظار، ولا يأنس إلى شيء فيها إلا ما كان سابحا معه في هذا الفلك العظيم، ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ الأنعام: ١٦١ ـ ١٦٣.

فلو أدى الناس عباداتهم خاشعين لله تعالى لا يشعرون فيها إلا بتسابيح الكون ـ الذي تعج ذراته بما اشتملت عليه بتقديس الله تعالى وذكره، وتعظيمه وحمده، وتخر جميعا ركوعا وسجودا لعظمته ـ لشعروا بالانسجام مع كل أجناس الخلق، والانتظام مع كل وحدات الوجود، ولعمهم جميعا الرفق والرحمة والوئام والسلام، إذ لا يبقى علو في الأرض ولا فساد، كيف وما من كائن إلا وهو مسبح لجلال الله كما أخبر الله عنه بقوله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ الإسراء: ٤٤، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ الحج: ١٨.

وإليك صورا مما تحققه العبادات في حياة العابد من الآثار، التي تجعله يتقزز من العلو والاستكبار، والعتو والفساد، وتملي على ضميره حب الألفة والحنان والرفق بجميع عباد الله تعالى.

١ ـ الصلاة:

كم للصلاة من أثر في نفس المصلي ينعكس على مجتمعه الذي يشاركه الاستجابة لداعي الله، والتواضع لكبريائه، فإنها تطهر النفس من أدرانها وتجردها من عيوبها، وتحليها بأنفس ما تتحلى به النفوس من التواضع لله ولخلقه، وتعظيم الله سبحانه والرفق بعباده، وهذا ما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «**مثل الصلوات**

الخمس كمثل نهر جار عذب على باب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات فما يبقى ذلك من الدنس»[١]، وقد أراد صلوات الله وسلامه عليه بهذا القول الجزل والتصوير البليغ أن يقرب إلي الأفهام ما للصلاة من أثر على النفوس، وتطهير للبواطن وتزكية للأخلاق وتربية للضمائر، فصورها تصويرا حسيا، لأن النفوس أوعى للمحسوسات وأقرب إلى إدراكها، فشبه الصلاة بالنهر الغمر على باب الإنسان، يتردد إليه في كل يوم وليلة خمس مرات لينقي جسمه مما عسى أن يلحقه من الغبار أو يلتصق به من الأدران، فإن من تعهد هذا النهر بتردده إليه وارتمائه في معينه وعرك جسمه بمائه الثجاج لا يبقى من أثر الأدران على بدنه شيء.

وكذلك الصلوات الخمس مع ما بينهما من التفاوت في التأثير والتباين فيما يصل إليه، فالنهر إنما ينقي ظاهر الجسم ولا يلج إلى باطنه، بينما الصلاة تنقي الروح وتتغلغل في أعماقها، وتسري في جوانب النفس، فلا تدع فيها ما يكدرها أو يشينها، وشتان بين الروح والجسم وبين الباطن والظاهر، وإنما أراد النبي ﷺ بهذا البيان البليغ التنبيه على ما للصلاة من أثر، وقد يكون التنبيه على الأمر الجلل بالإشارة إلى طرف منه، كما ضرب الله مثلا لنوره الذي لا يضاهيه شيء بمشكاة فيها مصباح.

وإذا كانت الصلاة بما لها من قوة روحية تلج في أعماق النفس فتزكيها تزكية لا تدع معها شائبة إلا خلصتها منها، فإنها ـ بلا ريب ـ تعدم منها رذائل الطباع ومساوئ الأخلاق، وتنشئ فيها فضائل الطباع ومحاسن الأخلاق، وكيف لا تكون كذلك وكل كلمة من كلماتها تعد بنفسها نبعا رقراقا طهورا يأتي على ما في النفس من الأدناس والأقذار، ناهيك بفاتحتها وهي تكبير الله تعالى، فإنه

---

(١) من طريق جابر: أخرجه أحمد (٣/٣١٧ رقم ١٤٤٤٨)، وعبد بن حميد (ص٣١٢، رقم ١٠١٤)، والدارمي (١/٢٨٣ رقم ١١٨٢)، ومسلم (١/٤٦٣، رقم ٦٦٨)، وابن حبان (٥/١٢، رقم ١٧٢٥)، ومن طريق أنس: أخرجه أبو يعلى (٧/٦٧، رقم ٣٩٨٨)، ومن طريق أبي أمامة: أخرجه الطبراني (٨/١٦٤، رقم ٧٦٨٤)، والبيهقي (٣/٦٣، رقم ٤٧٥٢). وأبو يعلى (٣/٤٤٥، رقم ١٩٤١).

يذكر المصلي أنه بين يدي الله الذي انفرد بالكبرياء، وجميع صفات الجلال والكمال، وأن العباد على العكس من ذلك، فهم جميعا يسبحون في بحر العبودية لله تعالى في محياهم ومماتهم ودنياهم وأخراهم، ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۞ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۞ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ مريم: ٩٣ ـ ٩٥، وحسب كل أحد أن يكون صادقا في عبوديته لله، لا يجعل منها نصيبا لهواه، ولا لشيطانه، ولا لأي عات مستكبر في الأرض.

والتكبير يفيض في النفس هذه المعاني السامية ليرتقي بها في سلم التواضع لجلال الله، فإن كان هذا المصلي من الذين ابتلوا بأسباب الفتنة في هذه الحياة من الجاه والسلطان، والمال والمنصب، وسائر المظاهر الخلابة، التي تبعث في النفوس الغرور، وتدفعها إلى الاستعلاء، فحسبه هذا الشعور الذي يمليه التكبير محررا له من ربقة الشيطان، ومخلصا لنفسه من أسر الغرور، وساميا به في مقامات التواضع لله، فلا يستعلي على أحد من خلق الله بما أحاط به من مظاهر الفتنة ومظان الغرور، وإن كان من الطرف الآخر الذي يحتقر ويزدرى لضعة نسبه، أو دناءة حسبه، أو قلة ماله، أو فقدان جاهه وسلطته، فإنه بما يمليه التكبير على نفسه يتحرر من التواضع لغير الله، والتذلل لخلقه، فلا يكون لغير الله تعالى نصيب في عبوديته، كما لا يكون لغيره نصيب في عبادته، فيتشرف بأن تكون عبوديته وعبادته خالصتين لله سبحانه وتعالى، وتلك منزلة في الحياة لا ينالها إلا الخاصة من أهل الله تعالى.

وذاك دليل أن لله أنفسا	عليها من اللطف الخفي ستور
ظواهرها بله وتحوي بواطنا	لدى علمها جنس الوجود حقير
عليها خدور من غبار غباوة	ولكنها تحت الخدور بدور
تجردن من لبس الخيالات وانطوى	عليهن ريش من هدى وشكير
سرين رياح الله تحدو ركابها	إليه وأنوار اليقين خفير
يغادرن فيه منزلا بعد منزل	يكاد بها الشوق الملح يطير

وأي خلق أسـمى من هذا الخلق الذي يتخلق به العبد، وهو بين يدي الله تعالى ماحضا له إخلاصه ومخلصا له عبادته وعبوديته؟ ولا فرق في ذلك بين أن يكون من هذا الفريق أو ذاك، فإن كلا منهم إن لم يخلص لله تعالى عبوديته وعبادته كان عبدا لشهواته، ورغباته ونزعاته ونزغاته، ومخاوفه ومطامعه، وإنما يسمو على ذلك من ارتقى في مقامات العبودية لله.

وإذا التقت جميع الطبقات في هذا المقام العالي تحطمت بينها الحواجز، وزالت بينها الفوارق، وانعدمت في حياتها النعرات، وتآلفت في ذات الله تعالى حتى تكون كالنفس الواحدة في شعورها وإحساسها، وأملها وألمها.

وهذا يتجسد في أداء الصلاة عندما يجتمع المصلون فيقفون موقفا واحدا بين يدي الله سبحانه، لا تمييز بينهم بعنصرية ولا طبقية، ينتظمون في حركاتهم فيركعون معا، ويرفعون معا، ويسجدون معا، ويرفعون معا، فإن استصحبوا مع هذا روح الصلاة ـ وهي الخشوع فيها جميعا ـ كان لذلك أثر في تزكية نفوسهم والقضاء على ما يلابسها من الغرور والافتتان بمظاهر الحياة الدنيا وزخرفها، وانتزاع كل ما يلابسها من الشعور بالتميز على الغير والرفعة فوق أقدار الناس فيتطامن كل من يبدو للناس بأنه رفيع القدر عظيم الشـأن بينهم، فلا يتعالى على غيره من الخلق، ولا يغمطهم ما كتب الله لهم مـن الحق، بل يحس أنه أحوج إلى الانسـجام معهـم، والانخراط فـي سـلكهم، ومعاملتهم جميعا بالحسـنى، وبهذا الشعور نفسـه يأبى التصاغر للناس من كان ـ حسب ظاهر حاله ـ نازل القدر حقير الشأن، إذ لا يحس بفرق بينه وبين الآخرين، فهو واحد منهم في العنصر والمبدأ والمآل، وكلهم سواسية في التكليف، ومتحدون في الجزاء، ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فصلت: ٤٦، ولا يتفاضلون إلا بمـا يتميزون به من تقـوى الله تعالـى، والتحلي بمكارم الأخلاق، فلا يبقى بهذا مجال للتفريق بين الرفيع والوضيع، ولا للتمييز بين الأصيل والهجين، فلا يحجز بعضهم عن بعض حاجز مـن نعرات الجاهلية

وشعاراتها الباطلة، وبهذا يتحقق بينهم الاندماج، وتسودهم الأخوة، ويغمرهم الود والشفقة والحنان، حتى يتحقق فيهم ما قاله النبي ﷺ: «**ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى**»[(١)].

على أن أثر الصلاة في النفس أثر بالغ ينعكس ـ إيجابا لا سلبا ـ في تصرفها وتعاملها مع الآخرين، فقد أكد الله تعالى أن الصلاة تنتزع بتأثيرها من نفس المصلي صفات جبلية خسيسة، لتحل محلها نقائضها، وحسبك دليلا على هذا قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ۝ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ المعارج: ١٩ ـ ٢٣.

فأنت ترى أن الله سبحانه يؤكد هنا أن الإنسان خلق متلبسا بهذا الخلق الدنيء، فهو مع مس الخير منوع، ومع مس الشر جزوع، لكنه بمداومته على الصلاة يتغلب على هذا الخلق حتى يتخلص منه.

وكل ما في الصلاة من قول أو عمل أو حركة أو سكون مفضٍ إلى هذه الغاية النبيلة، وهذا الربح الكبير.

٢ ـ الزكاة:

هي كاسمها زكاة للنفوس بتنمية فضائلها، وتنقيتها من جميع رذائلها، وهي لغة دالة على النماء والطهارة معا، قال في اللسان: «وقيل لما يخرج من المال للمساكين من حقوقهم زكاة لأنه تطهير للمال وتثمير وإصلاح ونماء، كل ذلك قيل»[(٢)].

قلت: هي ـ بجانب كونها تنمية للمال، وتطهيرا له من أدرانه ـ تزكية للنفس، فمن أدى زكاته كان مزكيا لنفسه بتخليتها عن الخصال المذمومة،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) ابن منظور: لسان العرب، ٣٥٨/١٤.

كالشح وعدم الرفق والرحمة بالمحتاجين، وتحليتها بالخصال المحمودة لأنها تفجر في قلب من اعتادها مشاعر الرحمة، وتُعَوِّدُه على البذل والإحسان، فإذا اعتادها الإنسان لم يكد يفتح عينه على ضعيف أدقعه الفقر، أو قعدت به الزمانة، أو أنهكه السقم، إلا تألم لحاله ألما لا يشفيه إلا مواساته وجبر كسره بما يقدمه إليه من المعروف، وهذا ما دل عليه قوله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ التوبة: ١٠٣.

وفي هذا علاج لأسقام النفس التي تتولد عن حب المال، فكم لحبه من أثر سلبي على النفس ينشأ عنه من الداء العضال ما يعجز كل آسٍ عن علاجه، وينثني كل دواء عن شفائه، إذ حب المال عندما يطغى على النفس يستأثر بهواها، ويسد عليها منافذ الرحمة حتى يغلظ طبعها، فتغدو كالحجارة أو أشد قسوة، وقد سبق بيان هذا في الحديث عن المال وكسبه وإنفاقه، فكم خلف حب المال من عداوة بين الأقربين، أدت إلى القطيعة، بل وإلى الإجرام أحيانا، وقد يتعدى قريب على قريبه وإن اتحدت لحمتهما، حتى يتنكر ولد لوالده ولا يبالي أن يسعى لتعجيل حتفه، لأجل أن يستأثر بثروته.

وكثيرا ما تكون الجرائم المتفشية بين الناس التي تقلق الآمنين، وتقض مضاجع الأبرياء، ناشئة عن حب المال، ناهيك ما يكون من قطاع الطرق من سفك الدماء، وإزهاق الأرواح لأجل حيازة ما بأيدي أهلها من لعاعة من المال لا تسوى شيئا، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الطبع الرديء في النفس الإنسانية في قوله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾ الفجر: ٢٠، وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ﴾ العاديات: ٨، وقد توعد الله تعالى على ذلك أشد الوعيد، إذ لم يَنْصَبَّ وعيده على الذين يدفعهم هذا الحب الأعمى إلى الجرائم، وانتهاك الحرم وحدهم، ولا إلى الذين يمنعون ما فرض الله من حقوق في المال دون من سواهم، وإنما شمل معهم الوعيد الشديد من لا يتواصون ويتحاضون على أداء هذه الحقوق، كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ۝ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ

عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ الفجـر: ١٧ ـ ١٨، وهو دال ـ بلا ريـب ـ أن النجاة من هذا الوعيد لا تكون ببسط الإنسان يده بالمعروف، مع إهماله حض الآخرين على ذلك، وإنما عليه ـ إن أراد النجاة من الهلكة ـ أن يحض غيره على بسط اليد بالإحسان مع سبقه إلى ذلك، ومهما كان من قيام المجتمع المسلم بهذا الواجب التكافلي، فإن عليهم دائما أن يتحاضوا على ذلك لتستمر هذه الحالة فيهم وفي أعقابهم، بحيث تكون صفة لازمة لا تنفك عن أحد منهم.

وفي نهج السلف الصالح ﷺ أسوة حسنة في ذلك، ناهيك ما كان من الأنصار ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ الذين آووا إخوانهم المهاجرين، الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا، فقد بوأوهم في دورهم مبوأ أنفسهم، وأشركوهم في أموالهم، وخيروهم فيما يختارونه منها، وآثروهم على أنفسهم وأهليهم وأفلاذ أكبادهم، مع ما كان يتنابهم من الخصاصة.

وهذا دليل على مبلغ الإيمان في نفوس أولئك السلف، فقد خلصهم من كل ما كان في جاهليتهم من تفشي الطباع ـ التي تستولي على قلوب الناس وتتحكم في تصرفاتهم ـ من الانجذاب إلى زخرف الحياة والاستئسار لشهوة المال الجامحة، والإخلاد إلى الدنيا ونعيمها، والحرص على الاستئثار بخيراتها، فقد حولهم الإيمان إلى أمة، أخرى كأنه طواهم ثم نشرهم بطبائع ليست من جنس طباع البشر المعهودة، أو كأنه بدأ يسري في نفوسهم قرونا وقرونا، وهم في أصلاب آبائهم أو أرحام أمهاتهم، يغذيهم بهذه الروح، ويخلصهم بها من شوائب ما كانوا عليه من خصال، حتى إذا ما صفت طباعهم، وسمت نفوسهم، وارتقت أخلاقهم، أخرجهم خلقا آخر، فبرزوا للوجود بهذه الخصال.

وليس للناس اليوم أن يدعوا أن هؤلاء ارتقوا مرتقى صعبا في معارج الأخلاق يعز على من بعدهم أن يرقى إليه، فإن أولئك إنما خرجوا من جاهلية جهلاء، فتحولوا من النقيض إلى النقيض بتأثير القرآن في نفوسهم، ورقي

الإيمان بأرواحهم وأفكارهم، فتحرروا من كل ما كان يأسرهم عن الانطلاق في ميادين الخير، والقرآن بيننا لم يزل كما كان عندهم، نتلوه كما يتلونه، فبإمكان كل منا أن يتقن تدبره ويفكر في كل ما قصه علينا من أخبار الصالحين لنقفوه، أو من أنباء المجرمين لننأى عنه، فمالنا لا نتدبره كما تدبروه أونرضى لقلوبنا أن يحكم رتاجها بأقفال تحول بينها وبين هـذا الخير كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ محمد: ٢٤؟! أولا نـرى ما ولي نشـر محاسـنهم هذه من ذكر أحـوال الذين يأتـون من بعدهم، فيقفـون خطاهم ويسلكون دربهم، فإن أولئك ملحقون بهم في خصائصهم ومزاياهم، فقد أتبع الله ذلك قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ الحشر: ١٠، أولا يجدر بكل مؤمن أن يحرص على أن يكون ممن جاء من بعدهم يقفو أثرهم ويتحلى بشمائلهم؟.

وإذا أدركت أثـر حب المال في أسـر النفوس عن الخيـر وتقييدها عن الإحسان، وأثر الزكاة في إطلاق سراحها حتى تجول في ميادين الخير، وتنطلق في مضامير البر تبين لك ما يولده حب المال من مساوئ الأخلاق، وما ينشأ عن إنفاقه من مكارمها، على أن هذا الإنفاق لا ينحصر في الزكاة وحدها، فكل أحد مطلوب أن يبسط يده بالمعروف، ولو خارج حدود الزكاة، ناهيك أن الله سبحانه ذكر إيتاء المال في صدر أعمال البر مسبوقا بالإيمان وحده، ثم عطف عليه إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، كمـا تراه في قوله: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ البقـرة: ١٧٧، والعطف دليل التغاير بين المعطـوف والمعطوف عليه، وهو مما يؤكـد أن في المال حقوقا للأصناف المذكورة في الآية من غير الزكاة.

والفرق بين هذا الحق وحق الزكاة؛ أن الزكاة إنما تجب في أصناف مخصوصة من المال، كالنقدين والأنعام والحبوب المقتات بها وكذلك التجارة، وهي مقيدة ببلوغ النصاب، ومرور الحول في غير الثمار، والمخرج منها نسبة محددة من القدر الذي ينتهي إليه المال، بينما الحقوق الأخرى لا تتقيد بصنف ولا نصاب ولا زمان، ولا يحدد ما يخرج منها بنسبة معينة، وإنما هي موكولة إلى ضمائر أهل الخير بقدر ما يرونه من حاجة المحتاجين، وما يمكنهم الاستغناء عنه في الحال مما بأيديهم من المال.

والمتأمل في أصناف المال الذي يزكى يجد أن كل صنف منه تتطلع إليه نفوس الفقراء، وتشرئب إليه أعناقهم، لأنه مما لا يكاد يستغنى عنه، فبهيمة الأنعام والحبوب المقتاتة لا يكاد يستغنى عنها في الغذاء، والنقدان وما يحل محلهما تقضى بها الأوطار، ويتوصل بها إلى تبادل المنافع، فلذلك خصت بهذا الحق المشروع المحبب دون سائر الأصناف التي وكل إنفاقها إلى نظر أهليها.

ولا يخفى ما للزكاة من أثر على نفوس معطيها وآخذيها، فهي كما تزكي نفوس المعطين، تسمو أيضا بنفوس الآخذين، لأنها تقضي مآربهم وتشعرهم بشركتهم في منافع أموال إخوانهم الأغنياء، فتستل من قلوبهم السخائم والأحقاد، وتحل المودة والشفقة والحنان والانسجام محل الشنآن والقسوة والغلظة والتنافر، فيتعاطف الجانبان وتتحطم الحواجز بينهما بردم هذه الهوة الفاصلة بين أحوالهما.

٣ ـ الصيام:

هو مدرسة يتدرب فيها الصائم على كل ما يزكي خلقه، ويهذب نفسه ويعرج بروحه في مقامات الخير، وهو يمحق كل ما اعتاده المرء من الخصال السيئة والعادات المذمومة، وبقدر هذه التخلية منها تتحلى نفسه بمحامد

الخصال، وتتعود على أحسن العادات، فهو من ناحية يفطم النفس عن شهواتها المألوفة، ويعودها حسن الرقابة في وقت يعز فيه الرقيب من الناس، وإنما يمتلئ الصائم بالإحساس برقابة الله تعالى ورقابة من أمر برقابته من الكرام الكاتبين، فيظل شعوره مفعما بهذا الإحساس، ويجعله ذلك يعتاد دائما خشية الله تعالى ورجاءه والتعلق به.

على أن الصيام لا يعود الصائم ترك شهواته من الطعام والشراب، وقضاء الوطر بين الأزواج فحسب، ويجرد من نفسه رقيبا على نفسه في ذلك، وإنما بجانب هذا يقيد كل جارحة من جوارحه حتى لا تكتسب سوءا قط، فهو يقيد اللسان عن كل محظور من القول ويراقبها لئلا يصدر عنها كذب أو نميمة أو اغتياب أو تنقيص للغير أو أي باطل من القول، ويراقب السمع، فلا ينصت إلى شيء من ذلك، ويراقب البصر، فلا ينطلق في النطق في مجالات محارم الله تعالى، بل يتقيد بقول الحق الذي يرضي الله ويراقب اليد، فلا تأخذ حراما ولا تعطيه، ولا تبطش بغير حق، ويراقب الرجل، فلا تقدم على الخطو في غير ما أذن الله به.

وهذه الرقابة تظل في اعتياد الصائم حتى حين الفطر، لأن من اعتاد على شيء هان عليه، وهذا كله إنما يعود إلى مدلول التقوى التي جعلها الله غاية في فرض الصيام عندما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ البقرة: ١٨٣، فما أوسع مدلول التقوى، فإن مدلولها إن كان لغة بمعنى التجنب والابتعاد، فهو شرعا: تجنب كل ما يسخط الله بعدم التفريط في نواهيه، ولا الاستخفاف بأوامره، فلا يدع مأمورا به إلا وفاه حقه في أدائه، ولا منهيا عنه إلا جعل بينه وبينه حاجزا منيعا يمنعه من الحوم حول حماه، وقد أكد ما دلت عليه الآية ما ثبت عن النبي ﷺ، فعند الربيع رَحِمَهُ ٱللَّهُ من طريق ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال:

«ولا صوم إلا بالكف عن محارم الله»[١]، وفي حديث أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ أنه قال: **«من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»**[٢].

وبجانب ذلك، فكم يرق شعور الصائم ويرهف إحساسه عندما يشعر بصعوبة الجوع والعطش، فيذكره ذلك حال الفقراء والمساكين الذين لا يجدون كفافا من عيش، ولا يتيسر لهم من قوام أبدانهم إلا الشيء اليسير، ويضطرون مع ذلك إلى العمل المضني بين لهيب الحر واستعار الظمأ لأجل كسب ما عسى أن يسد شيئا من رمقهم أو رمق من يعنون به، وهذا الإحساس لا بدَّ من أن يثمر برا وإحسانا إلى هؤلاء، لأنه يثمر في القلوب رقة ورأفة ورحمة.

ولا يخفى أن التعود على ذلك كله يدفع النفس إلى عدم التفريط في مكارم الأخلاق، وما يتبعها من محاسن الأعمال، فتأتلف القلوب وتتحد المشاعر لما يغمرها جميعا من المودة والرحمة، فلا تبقى فجوة بين غني وفقير، ولا جفوة بين قوي وضعيف.

على أن أثر الصيام لا ينحصر في هذا فحسب، بل يتجاوزه إلى تعويد الصائم على ضبط النفس، وعدم الاسترسال معها في انفعالها عندما تتعرض لإساءة أو عدوان من قبل أحد، فانظر كيف يربي النبي ﷺ المؤمنين على ذلك في معرض تذكيرهم بقدسية عبادة الصوم ومنافاتها لما تنجذب إليه النفس من حب التشفي والانتقام ممن أساء إليها، فعند الربيع عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«الصوم جنة فإذا كان أحدكم صائما فلا يرفث ولا يجهل وإن**

---

(١) أخرجه الربيع: (ص ٥٤ رقم: ٩١).

(٢) أخرجه أحمد (٢/٤٤٣، رقم ٩٧١٧)، والبخاري (٥/٢٢٥١، رقم ٥٧١٠)، وأبو داود (٢/٣٠٧، رقم ٢٣٦٢)، والترمذي (٣/٨٧، رقم ٧٠٧) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (١/٥٣٩، رقم ١٦٨٩)، وابن حبان (٨/٢٥٦، رقم ٣٤٨٠). والبغوي في الجعديات (١/٤١٤، رقم ٢٨٣١)، والنسائي في الكبرى (٢/٢٣٨، رقم ٣٢٤٦)، والبيهقي (٤/٢٧٠، رقم ٨٠٩٥).

امـــرؤ قاتله أو شـــاتمه فليقل إنـــي صائم»[١]، وجـــاء من طريقـــه وطريق ابن مســـعود ﵁ بلفظ: «إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يجهل فإن امرؤ شاتمه أو قاتله فليقل إني صائم إني صائم»[٢].

ألا ما أسمى هذا الخلق الذي لا يرقى إليه إلا بمعارج الصيام، فانظر كيف يربي النبي ﷺ نفوس المؤمنين على الانضباط عندما تتعرض لما يزعجها أثناء صيامها، فليس للصائم أن يقابل الإساءة بالإساءة، وإنما يقابلها بالإحسان، فهو لا يطلب منه أن يكف أذاه عن الغير فحسب، وإنما يطلب منه أن يتعود تحمل الأذى من الغيـــر وأن لا يجزيه به مثـــل صنيعه، فإذا قوتل أو شـــتم كف يده ولسانه، ولم يزد على قوله: (إني صائم)، ليذكر نفسه بعظم ما هو فيه، فلا يقدم على ما ينافي قدســـيته اســـتجابة لداعي غريزة الانتقام، وليذَّكَّر من صدر منه الأذى إن كان من جنس المسلمين الصائمين بأنه ارتكب أمرا عظيما، وفرط في حقوق ما هو فيه من الصيام، وإن كان من الآخرين كان في ذلك ما يدعوه إلى الإمعان في هذا الأدب وهذه الأخلاق، والتفتيش عن مصدرها من هذا الدين الحنيف، ولعله بذلك يستجيب لداعي الحق ويصبح من المؤمنين.

٤ ـ الحج:

الحج أعظم فرصة لتظاهر الأمة الإسلامية من أطراف الأرض، ممثلة في وفودها التي تفد إلى الله سبحانه في تلك العراص الطاهرة، فتتجرد من كل ما يلابســـها من مذام الصفات ومســـاوئ الأخلاق، فهو يؤصل في النفس الإنسانية تســـاوي الجنس البشـــري، واتحاده في ظل العبودية لله تعالى، إذ

---

(١) أخرجه الربيع: (ص ١٣٤ رقم: ٣٣٠).

(٢) أخرجه من طريق أبي هريرة: مالـــك (٣١٠/١، رقم ٦٨٢)، والبخـــاري (٦٧٣/٢، رقم ١٨٠٥)، ومســـلم (٨٠٦/٢، رقم ١١٥١) وأبو داود (٣٠٧/٢، رقم ٢٣٦٣) وابن ماجه (٥٣٩/١، رقم ١٦٩١) وابن حبـــان (٢٥٨/٨، رقم ٣٤٨٢)، ومـــن طريق ابن مســـعود: أخرجه الطبرانـــي (١٢٩/١٠، رقم ١٠١٩٨).

الكل يلهجون بقول واحد ويتحدون في هيئة واحدة، متخلين عن أزيائهم، تاركين لشعاراتهم، مستأنسين بالله تعالى، مستوحشين من كل ما يشغل عنه، ولو كان من أعز الأشياء على النفس، وأحبها إلى القلب، فالكل يستجيب لداعي الله لاهجا بلسانه ما ينبعث من أعماق قلبه من حب التوجه إلى الله تعالى، فيقول: (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك)، وهو يعني التوجه إلى الله سبحانه بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى، فيتخلص بهذا من كل عادة مذمومة وخصلة رذلة، جاعلا رضى الله تعالى نصب عينيه ومطمح نفسه، سالكا إلى ذلك طريقه بطاعته في كل ما أمر به أو نهى عنه، لا يلوي على شيء من شهوات النفس ونزعاتها، ولا يتأثر بما يعرض له من وساوس الشيطان ونزغاته، فلا يستجيب لنزوة طائشة ولا لرغبة جامحة، ولا لعصبية ممقوتة، ولا لشيء من مؤثرات النفس أو البيئة أو المجتمع، وإنما يوجه وجهته إلى الله، مودعا حياته الأولى، وما كان فيها من انحراف عن القصد، أو إخلاد إلى الأرض، أو ميل إلى الدنيا، أو انجذاب إلى شيء من زخرفها وزينتها، فلا يقيم وزنا إلا لما فيه رضى الله ولا يلتفت إلى علاقة إلا ما كان أساسه حكم الله، ويزن كل ما يصدر منه بموازين الله تعالى، لأنه جرد فكره وسلوكه، ونطقه وعمله، ودينه وخلقه، ومحياه ومماته، ودنياه وأخراه، فجعلها جميعا لله الذي لبى نداءه نافيا أن يكون له أي شريك في ذلك.

وهو شعيرة مقدسة تصل القلوب ببارئها سبحانه، وتبعث في النفس عزائم التقوى، وتقوي فيها دواعي الإحسان، فتقرب بين النفوس المتباعدة، وتؤلف بين القلوب المتنافرة، وتفتح آفاقا من التعارف والاطلاع على ما تنوء به الأمة من مشكلاتها، وما تحتاجه من الحلول التي لا تتم إلا بتعاون فئاتها، وتلاقح أفكارها، وتعاطف قلوبها والقضاء على كل ما يعكر صفوها، حتى تكون كقلب رجل واحد كما قال ﷺ: «**ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم**

كمثل الجسد إذا اشـــتكى عضو تداعى له سائر جسده بالســـهر والحمى»[(١)]، فلا يكون بينها إلا التراحم والتلاحم وانجذاب بعضها إلى بعض.

وهو واضح مما جاء به القرآن في معرض الحديث عن هذه الشعيرة، فكم اقترن ذكرها بذكر التقوى كما في قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾... إلى قوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ البقرة: ١٩٦، ومـــا تبعه من بعد من قوله: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَـٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ البقرة: ١٩٧، وكذلك قوله: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ البقرة: ٢٠٣، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ الحج: ٣٢، وقوله في البدن: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ الحج: ٣٧، فما كان هذا الترادف بين ذكر الحج وذكر التقوى إلا لما بينهما من الترابط السببي، فإن التقوى تنشأ عن الصلة القلبية بالله تعالى، التي تتولد من أداء عباداته والقيام بشعائره، كما هو منصوص عليه فـــي قوله تعالـــى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ البقرة: ٢١، وقد قرنت كل عبادة من هذه العبادات بذكر التقوى نصا أو ضمنا كما تقدم ذكره، وإنما كان الحج أوفر حظا في ذلك حتى لا تشوب أداءه شائبة من الحظوظ الدنيوية، فقد تتهيأ للإنسان منافع شتى في رحلته إلى الحج، غير أنه يجب أن يكـــون قصده إلى الله لا إليها، وإن كان لا يضيره مع سلامة القصد وخلوص الطوية إن تحقق له شيء من تلك المنافع نعمة من الله وفضلا، كما قال تعالـــى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ البقرة: ١٩٨.

---

(١) سبق تخريجه.

على أن مما يجب على قاصد الحج أن يجعل نصب عينيه نصرة دين الله تعالى، وشد أزر المؤمنين جميعا، وجمع كلمتهم على ما يحبه الله تعالى ويرضاه، ففي هذا اللقاء الكبير يتسنى لوفود الله التي شدت رحالها من بقاع الأرض جميعا أن تلتقي في ظل دين الله، وإخلاص الطاعة له، لتطرح على بساط البحث ما يواجهه أهل كل بقعة من تلك البقاع مما يحتاجون فيه إلى الاستبصار بآراء إخوانهم المؤمنين، فيرجعون وقد أحرزوا جميعا من فوائد لقائهم ما يفدون به إلى أقوامهم، فيفيدون به مجتمعاتهم، ويتحقق بذلك ما أشار الله إليه بقوله: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ ...﴾ الحج: ٢٨، فكم من منفعة للناس تتحقق للأمة عندما تتعاون على حل مشكلاتها، ويكون لكل حاج أدلى برأيه نصيب وافر من ثواب انتشال الأمة من ضياعها، وتحقيق المنافع لها، ويكونون جميعا رسل سلام ووئام ومودة ورحمة، ورادة صلاح وإصلاح.

على أنهم جميعا ـ وهم بتلك العراص الطاهرة، التي يختزل كل شبر من ترابها من تاريخ دعوة الإسلام ما يفتح القلوب الغلف، ويبصر العيون العمي ـ يتسنى لهم أن يستنطقوا التاريخ، ويستدروا تلك الذكريات العظمى من أرض الحرم الشريف ـ حيث مهبط الوحي ومشرق النور ـ آكامها ووهادها، ووعرها وسهولها، وبوقوف المسلم على تلك المشاهد يتأتى له من استلهام العبر، واستنتاج الفوائد ما لا يتأتى له من بعيد، فإذا عاد أحدهم إلى أهله عاد بطاقة روحانية تذلل له الصعب، وتدني له البعيد في سبيل الدعوة إلى الله، ونشر هذا الخير في أرجاء الأرض.

وبجانب هذه المنافع الجانبية التي يستفيدها الحجاج من رحلتهم إلى تلك البقاع الطاهرة، هناك فائدة كبرى تتحقق لهم بكيفية أداء هذه الشعيرة، عندما يتوجهون جميعا إلى الله ـ على تنائي ديارهم، وتنوع أجناسهم وجنسياتهم، واختلاف ألسنتهم وألوانهم ـ فيهتفون جميعا بلسان واحد «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك»

وما هذه التلبية إلا استجابة لداعي الله وتخل عن أهواء النفس ونزعاتها، وانضمام إلى وفد الحق الذي يؤم بوجهه وجه الله، فهي رمز التحرر من علائق النفس التي تثبطها عن الخير، وتقعد بها عن التضحية، وتجعلها تخلد إلى الأرض لا تبتغي بزخرفها بديلا، فهي بهذا تعرج إلى أوج الخير، وتنفك عن قيود شهواتها وأهوائها، وذلك ـ بلا ريب ـ يفتح لها آفاقا جديدة في التفكير، فبدلا من أن تعيش وتعمل من أجل مصلحتها وحدها تجعل نصب عينيها مصلحة الأمة جميعا، فتتألم بآلامها وتنشط بآمالها، فيتحقق بذلك من الانسجام والوحدة والوئام ما تعجز الألباب عن تصوره، والهمم عن تحقيقه، وهذا عين الخلق الرفيع الذي يدعو إليه الإسلام، ويشير إليه القرآن في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ الحجرات: ١٠، وينص عليه الحديث الآنف ذكره.

جميع جزئيات الشريعة تحتوي على مكارم الأخلاق:

من تأمل ما شرعه الله من الأحكام تراءى له الخلق الرفيع في كل جزئية من جزئياتها، وهذا يعني أن الشريعة قائمة على رعاية مكارم الأخلاق، سواء ما يتعلق بالصِلات التي تكون بين الناس خصوصهم وعمومهم، أو ما يتعلق بمعاملاتهم.

حسن الخلق في التعامل مع جميع الناس:

سبق أن القرآن الكريم وصى بالقول الحسن في مخاطبة الناس جميعا، وذلك في قول الله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ البقرة: ٨٣، وكذلك أمر النبي ﷺ بمخالقة الناس جميعا بالخلق الحسن في قوله: «**وخالق الناس بخلق حسن**»[1]، وإذا كان هذا النص القرآني وهذا الحديث النبوي قد أجملا القول في ذلك، فإن فيما تضمنته الحكم المنصوص عليها في القرآن والمأثورة عن النبي عليه الصلاة والسلام ما يفصل هذا الإجمال، فقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا

(١) سبق تخريجه.



يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ الحجرات: ١١، فانظر كيف أطلق الله تعالى تحريم السخرية بين الناس، وليس التنصيص على حرمة سخرية قوم من قوم ونساء من نساء دالا على انحصار هذا الحكم في سخرية الرجال من الرجال، أو النساء من النساء، وإنما يندرج في ذلك ما لو سخر رجل من امرأة، أو امرأة من رجل، ولكن لما كانت المعاشرة والمداخلة بين الرجال والرجال كانت سخرية الرجل من الرجل أقرب إلى المألوف، كذلك تداخل النساء فيما بينهن قد يؤدي إلى سخرية بعضهن من بعض، فلذلك نص على هذا الحكم.

وانظر كيف حرم اللمز بالألسنة بهذا التعبير الدقيق الذي يشي بأنه يزعج ويؤذي كما لو كان طعنا بالأسنة، ولم يأت النهي عن لمز بعض لبعض، وإنما قال: [وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ] لأجل تربية الشعور بوحدة المشاعر بين الأمة جميعا، بحيث يحس كل أحد أن لو طعن غيره كأنما يطعن نفسه، ومنع التنابز بالألقاب لما يتركه من أثر سيء في النفوس، وما ينشره في المجتمع من السخرية المحرمة بهذا النص، فإن الألقاب كثيرا ما تكون ساخرة لا توحي إلا باستهزاء واستخفاف، لذلك عدها الله سبحانه من الفسوق المنافي للإيمان.

وأتبع الحق سبحانه ذلك بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ الحجرات: ١٢، وهو يتضمن النهي عن كل ما يؤدي إلى سوء العلاقة بين أبناء المجتمع أو أفراد الأمة، سواء كان من عمل القلوب أو من فعل الألسنة أو أي جارحة أخرى، فقد حرم الله تعالى الظن السيء لما ينشره بين الناس من انعدام الثقة، وانطلاق الخيال بأوهام لا تعود على الناس إلا بالقطيعة والوحشة فيما بينهم، وكذلك التجسس

فإنه تفتيش عن العورات ومحاولة اكتشاف ما وراه الستار منها، فهو حرام بين الناس جميعا ولا يختص به المؤمنون، لذلك أطلق النهي في الآية، ولم يقيد بما بين المؤمنين، ثم عطف على ذلك نهي المؤمنين أن يغتاب بعضهم بعضا، فالغيبة هي ذكر الغير بما يكره، سواء كان من فعله أو من طبعه أو من خلقته، وصور ذلك بهذه الصورة التي يتقزز منها الطبع، وتأنف منها الفطرة، وهي أن ينهش الإنسان من لحم أخيه ميتا.

ثم ولي ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ الحجرات: ١٣، وهو بمثابة التأصيل للنهي عما تقدم، فقد عرف الله تعالى عباده أنهم لا فضل لهم عنده بأصولهم النسبية، ولا بشعوبهم وقبائلهم، لأن ذلك كله إنما أريد به أن يتحقق به التعارف بينهم، لا التعالي والتفاخر، فهم جميعا ينحدرون من أصل واحد، أبوهم واحد وأمهم واحدة، ومعادنهم جميعا من التراب كما جاء في خطبة النبي ﷺ التي خطبها في حجة الوداع: «... **ألا وإن الله تعالى قد أذهب نخوة الجاهلية وتكبرها بالآباء كلكم لآدم وآدم من تراب ليس إلا مؤمن تقي أو فاجر شقي وأكرمكم عند الله أتقاكم**»[1]، وعن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعا: «**يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعاظمها بآبائها فالناس رجلان رجل بر تقي كريم على الله وفاجر شقي هين على الله والناس بنو آدم وخلق الله آدم من تراب**»[2]، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء مؤمن تقي وفاجر شقي أنتم بنو آدم وآدم من تراب، ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن**»[3].

---

(١) أخرجه الربيع: (ص ١٧٠ رقم: ٤١٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٨٩/٥، رقم ٣٢٧٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٠٤/٤، رقم ٥١٩٣).

(٣) أخرجه أحمد (٥٢٣/٢، رقم ١٠٧٩١)، وأبو داود (٣٣١/٤، رقم ٥١١٦)، والبيهقي (٢٣٢/١٠، رقم ٢٠٨٥١). وأخرجه أيضا: الترمذي (٧٣٥/٥، رقم ٣٩٥٦)، والرافعي (٦٢/٢)، والخطيب (١٨٧/٦).

ولا يخفى أن تعالي الناس بالأحساب والأنساب مما يعمي قلوبهم عن معدنهم الذي يشتركون فيه جميعا، وهو مما يشيع فيهم تحقير بعضهم لبعض، وسخرية بعضهم من بعض، ولذلك كان هذا النهي بمثابة التأصيل لما تقدم.

هذا؛ وقد نصت أحاديث النبي ﷺ على ما يطلب من المؤمن من التعامل بالأخلاق مع الناس جميعا، فعن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: «**تبسمك في وجه أخيك صدقة لك، وأمرك بالمعروف، ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلالة لك صدقة، وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة، وإماطتك الحجر والشوكة والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة**»(١).

فانظر كيف توسع النبي ﷺ في مدلول الصدقة، فجعل كل ما يفضي إلى إيناس المسلم أو منفعته في دينه أو دنياه صدقة، فلأن يلقى المسلم أخاه بوجه طلق المحيا منبسط الأسارير باسم الثغر هو من الصدقات التي تقرب إلى الله، لما في ذلك من إيناسه وإبعاد الوحشة عنه، وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لما يتحقق بهما من مصالح الدين، وكذلك إرشاد الغير في أرض الضلالة، أو عون رديء البصر، أو إماطة كل أذى من الطريق، أو الإفراغ في دلو الغير، وفي هذا ما يرمز إلى أن كل ما يستأنس به الغير أو ينتفع به فهو من الصدقات، ولا يخفى على اللبيب ما في هذا من إشاعة المعروف بين الناس، وبسط الأنس لهم، وهذه هي الأخلاق التي تزكو بها النفوس وتأتلف بها القلوب، وتؤلف النافر وتقرب الشارد ليكون الناس عصبة واحدة تتعاون على البر وتتكاتف على الإحسان.

وقد حض النبي ﷺ على تفادي كل ما يؤدي إلى الوحشة والنفور، والحرص على كل ما يؤدي إلى الألفة والوفاق بين الناس، وقد سبق ذكر طائفة من الأحاديث المتعلقة بذلك في المحور السابع فارجع إليه.

---

(١) أخرجه البيهقي: (٥/٦٦ رقم: ٣١٠٥).

شمول الأخلاق لما يصدر عن المؤمنين في سلمهم وحربهم:

لا يعفى المسلم عن التحلي بمكارم الأخلاق في أي موقف كان، وفي التعامل مع الناس يجب أن يكون تعاملهم مبنيا على رعاية الأخلاق، فعن أبي سعيد الخدري ﵁ عن النبي ﷺ قال: «**لا يخطبن أحدكم على خطبة أخيه ولا يساوم على سوم أخيه**»[١]، وعن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «**لا يبيع الرجل على بيع أخيه ولا يخطب على خطبة أخيه إلا أن يأذن له**»[٢]، ومن طريقه عنه ﵊ أنه قال: «**لا يبيع بعضكم على بيع أخيه**»[٣]، ومن طريقه أيضا أن النبي ﷺ قال: «**لا يبيع بعضكم على بيع بعض ولا يخطب بعضكم على خطبة بعض**»[٤]، وعن أبي هريرة بلفظ: «**لا يبيع الرجل على بيع أخيه ولا يسوم على سوم أخيه**»[٥]، ومن طريقه أيضا: «**لا يخطب الرجل على خطبة أخيه ولا يسوم على سوم أخيه ولا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها ولا تسأل المرأة طلاق أختها لتكفئ صحفتها ولتنكح فإنما لها ما كتب الله لها**»[٦].

وفي هذه التوجيهات النبوية من النبي الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم ما يؤذن بأن المسلم مطالب بأن يرعى الأخلاق في تعامله عند الناس جميعا ـ لا سيما إخوانه المسلمين ـ بحيث تكون أخلاقه رسلا إلى الناس تنشر ما بينهم مبادئ الخير ورسالة الوئام والسلام، وتوطئ منهم الأكناف، وتؤلف منهم القلوب، ليلتقوا على كلمة سواء متحابين في الله، متعاونين على البر والتقوى،

---

(١) أخرجه الإمام الربيع (ص ٢٠٨ رقم: ٥١٦).
(٢) أخرجه أحمد (٢/١٥٣، رقم ٦٤١١)، وعبد الرزاق (٨/١٩٩، رقم ١٤٨٦٨)، ومسلم (٢/١٠٣٢، رقم ١٤١٢)، وأبو داود (٢/٢٢٨، رقم ٢٠٨١)، والنسائي (٧/٢٥٨، رقم ٤٥٠٤).
(٣) أخرجه مالك (٢/٦٨٣، رقم ١٣٦٥)، والبخاري (٢/٧٥٢، رقم ٢٠٣٢)، والنسائي (٧/٢٥٨، رقم ٤٥٠٣)، وابن ماجه (٢/٧٣٣، رقم ٢١٧١).
(٤) أخرجه الترمذي (٣/٥٨٧، رقم ١٢٩٢) وقال: حسن صحيح.
(٥) أخرجه ابن ماجه (٢/٧٣٤، رقم ٢١٧٢).
(٦) أخرجه مسلم (٢/١٠٢٩، رقم ١٤٠٨).

متكاتفين على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يعتريهم سأم ولا فتور عن دفع عجلة الدعوة إلى الأمام، لتسعد الإنسانية بالخير وتنعم بالعدل.

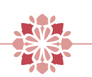
التعامل بالأخلاق بين الخاصة:

إذا كان هذا هو الإسلام في نشـــره هذه الأخلاق الرفيعة بين عامة الناس، فإنه في بناء العلاقات الخاصة بين الأقربين هو أحرص على أن تكون علاقاتهم مبنية على رعاية الأخلاق، وحســـن التعامل بينهم والتعاطـــف؛ الذي يحول نفوسهم إلى أن تكون كنفس واحدة في الشعور بما يسر وما يحزن.

١ ـ معاملة الوالدين:

لا يخفى على كل ذي بصيرة ما ينعم به الوالدان في الإســـلام من حسن الرعاية وعظيم التوقير، واللطف في الأخذ والعطاء معهما من قبل أولادهما، وهذا ما أكدته نصوص متعـــددة في القرآن، كقولـــه تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ الإسراء: ٢٣ ـ ٢٤، وفي هاتين الآيتين الكريمتين يقرن الله تعالى بيـــن واجب العبادة لله وما يجب على الولد من بر والديه والتلطف بهما في المعاملة، والتذلل بين أيديهما في محادثتهما، وحســـن الدعاء لهما بالرحمة من الله، جزاء ما قدماه من التضحيات العظيمة، لا سيما الأم الذي حملت الولد كرها ووضعته كرها، كما سيأتي إن شاء الله.

وفيما نص الله تعالى عليه هنا ما يدل على وجـــوب رعاية حال الوالدين عندما يبلغان أو يبلغ أحدهما من الكبر عتيا، وما يصحب ذلك من الشـــكوى والتأفف والتضجر وعدم الرضا عن حال، فإن على ولدهما أن يوســـع صدره لهذا كله، ولا يتضجر مما عسى أن يصدر منهما من القول الجارح أو المعاملة



الخشنة، وأن يتذكر عندما كان طفلا ناشئا، يتقلب بين أحضانهما ولا يتضجران من أي شـيء يصدر منه، بـل كانـا يغمرانه بعطفهمـا وحنانهمـا، وبرهما وإحسانهما، ويحوطانه بحسن رعايتهما، ويفديه كل منهما بنفسه، فيسهر لينام، ويجوع ليشبع، ويظمأ ليروى، وينصب ليرتاح، وهما مع ذلك تنهمر دعواتهما له ليحفظه الله من كل سوء، ويبارك في حياته، ويمد في عمره، ويمنحه القوة، ويكسوه العزة والشرف.

ولو خير أحدهما أن تمتد حياته أو حياة طفله لآثر امتداد حياة طفله ولو لقي حتفه في سبيل ذلك، فما كان له وقد تحقق ما كانا يصبوان إليه من قوته وفتوته وشبابه ويفاعه أن يجزي هذا الإحسـان منهما بالعقوق والإساءة، وقد أخذا في الانتكاس في الخلق والعودة إلى الضعف مع الشيبة، وإنما عليه أن يتحمل كل ما يلقاه من جفـاء في معاملتهما، يفرزه كبرهمـا وضعفهما، وأن يشكر الله تعالى على ما من عليه من طول حياتهما لتكون سببا لفوزه بالأجور.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا...﴾ الأحقاف: ١٥، وفـي هـذه الآية الكريمة مع توصية الإنسان بوالديه جميعا إشارة لطيفة إلى ما تتميز به الأم من الحقوق، وما يجب لها من مضاعفة الإحسان، فمع التوصية بهما جميعا ذكر الله تعالى ما قدمته من التضحيات الجسـيمة، وما عانته من المشاق العظيمة منذ بداية حملها به إلى حين فصاله من الرضاع، فكم أرهقها حمله ونغص عليها متعة الحياة في ليلها ونهارها، فكان سـببا لسـهرها، وقد تغـذى إبان ذلك بخلاصة دمها حتى نما في أحشائها وترعرع، ثم عانت في وضعه ما عانت من مشاق الولادة التي لا تتصور، ولم يكن خروجها منها إلى ارتياح واسترخاء، وإنما كان انتقالا من مشقة إلى مشـقة، ومن تعب إلى تعب آخر، فكم أسهر ليلها ببكائه وعويله، ناهيك بهمها عندما يلم به أي سقم أو ينزل به أي بلاء، فإنها تكون أشد سـقما وأعظم بلاء منه، وهو يتغذى في هذه المدة بما يفرزه

جسمها من خلاصة ما تتغذى به، فيتحول إلى دم نقي ثم إلى لبن خالص من جميع الشوائب، هو أصح وأمتع ما يتغذى به الأطفال.

وبعد فطامه لا تخلد إلى الدعة والراحة، بل تظل عينها ساهرة عليه، وقلبها يخفق من أجله، ومشاعر الأمومة تحوطه من كل جانب وعلى كل حال، فإن حضر لم يهدأ لها بال حتى تراقب أي شيء من حوله لئلا يزعجه شيء، وإن غاب انتقل معه قلبها وظلت واردات الأفكار تزعجها، فلا يهدأ لها بال أيضا حتى يعود إليها سالما مطمئنا، كيف وهو قرة عينها وفلذة كبدها ومحط آمالها، وهكذا تظل رعايتها تكتنفه وإن كبر وشاخ، إذ يظل في نفسها كما كان في طفولته.

فما كان له أن يتجاهل هذه التضحيات العظيمة بعد أن يترعرع ويقوى ويصلب عوده ويضعف عودها، وكذلك الأب الحاني فهو ـ بلا ريب ـ أساس تربيته، لأنه العين الساهرة عليه، يرعى أخلاقه وشمائله، ويهذب فكره وآدابه، ويؤثره على نفسه بكل غال وثمين عنده، ويرى حياته امتدادا لحياته، وشبابه امتدادا لشبابه، كما قال الشاعر:

وقلت شباب ابني شبابي وإنما تحول شطر العمر مني إلى شطري

فلذلك يؤثر صحة ولده على صحته، وراحته على راحته، ويسره على يسره، ويتمناه دائما أن يكون أرقى منه خلقا، وأغزر منه علما، وأجمل منه حالا.

ولا ريب أنهما يفوقان سائر أهل الحقوق من البشر في حقوقهما، وإن كانت للأم مزية على الأب بما أشار إليه القرآن من تضحياتها، وصرح به النبي ﷺ في جوابه لمن سأله، فقد قال له رجل: يا رسول الله من أحق الناس بحسن الصحبة؟ قال: «**أمك، ثم أمك، ثم أمك، ثم أبوك، ثم أدناك أدناك**»(١)،

(١) أخرجه مسلم (١٩٧٤/٤ رقم: ٢٥٤٨).

وعن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده قال: «**قلت: يا رسول الله من أبر؟، قال: أمك**»، قلت: ثم من؟، قال: «**ثم أمك**»، قلت: ثم من؟ قال: «**ثم أباك، ثم الأقرب فالأقرب**»[(١)].

ولهذا ذهب أكثر الفقهاء إلى أن حق الأم أعظم من حق الأب، وإن اختلفوا في تحديد النسبة بين حقيهما، بين من يقول: إن لها ثلاثة أرباع الحق وله الربع، لأنها ذكر حقها ثلاث مرات وذكر حقه مرة واحدة معطوفا على حقها بـ(ثم) التي تقتضي المهلة والترتيب، ومن يقول: إن حقها ضعف حقه.

لا يسقط حق الوالدين بشركهما أو فجورهما:

هذا؛ وإن من سماحة الإسلام وإنصافه لكل ذي حق أنه لم يحصر حقوق الوالدين في المسلمين وحدهم، بل جعله حقا مشاعا، يشترك فيه المسلم والكافر، والبر والفاجر، فقد قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ العنكبوت: ٨، وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ۝ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لقمان: ١٤ ـ ١٥، فعلى كل أحد أن يبر والديه لما لهما من حق عظيم قرنه الله بحقه، إذ أمر بشكرهما مع شكره، فعليه ـ مع قيامه بشكر ربه الذي خلقه وصوره

---

(١) من طريق بهز بن حكيم: أخرجه أحمد (٣/٥، رقم ٢٠٠٤٠)، وأبو داود (٣٣٦/٤ رقم ٥١٣٩) والترمذي (٣٠٩/٤، رقم ١٨٩٧)، وقال: حسن. والطبراني (٤٠٤/١٩، رقم ٩٥٧)، والحاكم (١٦٦/٤، رقم ٧٢٤٢) وقال: صحيح الإسناد. والبيهقي (١٧٩/٤، رقم ٧٥٥٢). ومن طريق أبي هريرة: أخرجه أحمد (٣٢٧/٢، رقم ٨٣٢٦)، وابن ماجه (١٢٠٧/٢، رقم ٣٦٥٨)، وقال البوصيري (٩٨/٤): هذا إسناد صحيح.

ورزقه، وأنعم عليه بنعمه ظاهرة وباطنة بإخلاص الدين له وتوحيده وحسن عبادته والتزام طاعته ـ أن يقوم كذلك بشكر والديه، اللذين جعلهما الله أصله ومنبته، فكان وجوده ثمرة لوجودهما، وذلك ببرهما وحسن معاملتهما، وإن كانا مشركين، فإن شركهما لا يحول بينهما وبين هذا الحق، وإنما عليه أن يخلص لله تعالى عبوديته وعبادته، ولا يميل إلى ما يدعوانه إليه من الشرك بالله تعالى، وإن كان ملزما أن يصاحبهما في الدنيا بالمعروف كما لو كانا مؤمنين، وله في تلطف خليل الله إبراهيم عليه السلام بأبيه الكافر العنيد أسوة حسنة، وإن تبرأ منه ومن كفره.

وقد حكى الله قصتهما وما كان من تطلع إبراهيم عليه السلام إلى هداية أبيه للحق وثنيه عن الكفر، وتلطفه في خطابه مع تذكيره بخطر اتباعه للشيطان، وتناسيه لحق الله الذي هو أبر وأرأف بعباده، كما هو واضح في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ۝ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ۝ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ۝ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ۝ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ۝ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ۝ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ۝ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ۝ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ۝ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا﴾ مريم: ٤١ ـ ٥٠.

وحسب اللبيب أن يتأمل هذا الخطاب المشحون بالحجج، المقرون باللطف الذي يفيض شفقة وحنانا من الابن البر بأبيه، الذي يسعى إلى انتشاله من الضلالة، وإنقاذه من النار، وتبصيره من العمى، وما كان يقابله من قسوة الأب في خطابه، وصدوده عن الإيمان وإخلاده إلى هواه، وتصاممه عن حجج الحق

الصادعة، وتعاميه عن برهانه الساطع، وما تبع ذلك من يأس الابن البار المؤمن من نجاحه فيما يسعى إليه من هداية أبيه، الذي أسلس قياده للشيطان فصده عن الحق، وصدف به عن الرشد، وما كان من تعويض الله تعالى لهذا الابن المخلص الراشد بذرية صالحة، كانت له زينة وبهجة في دنياه، وذخرا وسعادة في أخراه.

وهكذا يجب على كل ولد أن يسعى إلى رد أبيه ـ إن زاغ ـ إلى الحق، ويبصره به بلطف العبارة، ويريه من نفسه جانب الشفقة والحنان.

٢ ـ العلاقة مع ذوي الأرحام

إن لأولي الأرحام في ترتيب الحقوق الواجبة على الناس للناس مكان الصدارة بعد حقوق الوالدين، ناهيك أن الله تعالى عطفهم على نفسه في مقام الأمر بالتقوى، عندما قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ النساء: ١، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ من خلقه قامت الرحم، فقال: مه، قالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى يا رب، قال: فذلك فاقرءوا إن شئتم** ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ محمد: ٢٢»[1].

ولا غرو فحسب الرحم منزلة وقدرا أن الله سبحانه شق لها اسما من اسمه، فهي الرحم وهو الرحمن، وما كان اشتقاقها من هذا الاسم الذي يدل على سعة رحمته تعالى وشمول نعمته إلا تنبيها على ما يجب بين أولي الأرحام من التعامل بمقتضى الرحمة والبر والإحسان، فعليهم أن يتراحموا ويتلاحموا، فإن

(١) أخرجه أحمد (٢/٣٣٠، رقم ٨٣٤٩)، والبخاري (٥/٢٢٣٢، رقم ٥٦٤١)، ومسلم (٤/١٩٨٠، رقم ٢٥٥٤)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٦١، رقم ١١٤٩٧)، وابن حبان (٢/١٨٤، رقم ٤٤١)، والحاكم (٢/٢٧٩، رقم ٣٠٠٥) وقال: صحيح الإسناد. والبيهقي في شعب الإيمان (٦/٢١٤، رقم ٧٩٣٤).



لحمة النسب تشد بعضهم إلى بعض، وتعطف قلوب بعضهم على بعض، حتى تتحد مشاعرها وتنسجم أحاسيسها.

وفي الآية الكريمة التي ذكرها النبي ﷺ في حديثه الشريف تحذير بالغ من قطيعة الرحم ووعيد شديد عليها، فقد قرنها الله سبحانه بالفساد في الأرض، وأتبعها بلعنته الماحقة للخيرات، والتي لا ينشأ عنها إلا خزي الدنيا والآخرة وعذابهما، ﴿وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ النساء: ٥٢.

ولا ريب أن صلة الرحم واجبة للواصل والقاطع على السواء، فليس لمن لم يؤدَّ له حق رحمه أن يقابل القطيعة بالقطيعة، وإنما يقابل القطيعة بالصلة، فعن أبي هريرة: أن رجلا قال: يا رسول الله، إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إلي، وأحلم عنهم ويجهلون علي. قال: «**لئن كنت كما تقول، فكأنما تسفهم المل، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم، ما دمت على ذلك**»[(١)].

وهذه المقابلة للإساءة بالإحسان، وللقطيعة بالوصل، وللجهل بالحلم، هي قمة الأخلاق والفضيلة، وهي بالطبع داعية للطرف المسيء إلى مراجعة نفسه، والعودة إلى مهيع الصواب، وبمثل هذا يتضح لكل متأمل ما يدعو إليه الإسلام من المعاملة بحسن الخلق ونشر مبادئ الرحمة بين الناس.

٣ ـ العشرة بين الأزواج:

سبق الحديث فيما يجب في العشرة الزوجية من وجوب كون الزوج لطيف المعشر، واسع الصدر، رقيق الطبع، كل ما يصدر عنه من الأفعال يسيل رقة، ويتدفق إحسانا، ويضوع لطفا وكرما، وقد تبين لك ـ مما ذكرته من قبل ـ أن الحقوق الزوجية مشتركة بين الزوجين، وإنما يمتاز الرجل بالقوامة التي ردها

(١) أخرجه أحمد (٣٠٠/٢، رقم ٧٩٧٩)، ومسلم (١٩٨٢/٤، رقم ٢٥٥٨)، وابن حبان (١٩٥/٢، رقم ٤٥٠)، وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (ص٨٦، رقم ٢٦١).



الله تعالى إليه لأنها ملائمة لطبعه، ومتفقة مع مزاياه التي اختصه الله بها، ودليل هذا الاشتراك قول الله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ البقرة: ٢٢٨، وقد تقدم بيان ما يجب من التحلي بالأخلاق في إمساك المرأة أو تسريحها، وللرجال جميعا في هذا أسوة حسنة بالنبي ﷺ الذي قال: «**خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي**»(١).

٤ ـ معاملة الجيران

ما أعظم حق الجوار، فكم للجار على جاره من الحقوق والواجبات، وما أبعد الناس اليوم عن رعاية هذه الحقوق ـ نسأل الله العفو والعافية ـ فقد عفت حضارة اليوم على ما كان بين الجوار من حسن المعاملة والمودة والانسجام، وإنما أصبح اليوم كل أحد مقطوعا عن الآخرين، مشغولا بشأنه دونهم، وهذا أمر يجب أن يعاد فيه النظر، ليبقي الناس من وقتهم ما يصلون فيه جيرانهم، ويؤدون فيه لذوي الحقوق حقوقهم.

وقد جاءت التوصية بالجار في كتاب الله تعالى، فقد ذكر الله حقه على عباده وحق عباده فيما بينهم، فقال: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ النساء: ٣٦، ومن حقوق العباد حقوق الجيران الذين أدرجوا في هذه الآية بين أصحاب الحقوق، وأكد هذا النبي ﷺ في الكثير من الأحاديث، منها ما جاء من عدة طرق أنه ﷺ قال: «**ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه**»(٢)، فانظر كيف كان

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه من طريق ابن عمر: أحمد (٢/٨٥، رقم ٥٥٧٧)، والبخاري (٥/٢٢٣٩، رقم ٥٦٦٩)، ومسلم (٤/٢٠٢٥، رقم ٢٦٢٥)، وأبو داود (٤/٣٣٨، رقم ٥١٥٢). وأخرجه من طريق أم المؤمنين =

التأكيد على هذا الحق العظيم من أمين الله تعالى في السماء على أمينه في الأرض، حتى وقع في خلده أن هذه الصلة بين الجار وجاره كصلة النسب تؤدي إلى التوارث بينهما.

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه**»[(١)]، وعن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: «**خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره**»[(٢)].

وقد كان ﷺ حريصا على أداء حقوق الجوار، وعوَّدَ على ذلك أصحابه، فما كانوا يغمطون الجار حقه ولو كان من أشد الناس عداوة للذين آمنوا، كما جاء عن مجاهد، أن عبد الله بن عمرو ذبحت له شاة في أهله، فلما جاء قال:

= عائشة رضي الله عنها: أحمد (١٨٧/٦، رقم ٢٥٥٨٠)، والبخاري (٢٢٣٩/٥، رقم ٥٦٦٨)، ومسلم (٢٠٢٥/٤، رقم ٢٦٢٤)، وأبو داود (٣٣٨/٤، رقم ٥١٥١)، والترمذي (٣٣٢/٤، رقم ١٩٤٢) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (١٢١١/٢، رقم ٣٦٧٣). وأخرجه من طريق ابن عمرو: أحمد (١٦٠/٢، رقم ٦٤٩٦)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٠/١، رقم ١٠٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٨٤/٧، رقم ٩٥٦٢). وأخرجه من طريق أبي هريرة: أحمد (٥١٤/٢، رقم ١٠٦٨٦)، وابن حبان (٢٦٧/٢، رقم ٥١٢). وأخرجه من طريق جابر: عبد بن حميد (ص٣٣٩، رقم ١١٢٩)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٧/١، رقم ١٢٦). وأخرجه من طريق زيد بن ثابت: الطبراني (١٥١/٥، رقم ٤٩١٤) قال الهيثمي (١٦٥/٨): فيه المطلب بن عبد الله بن حنطب وهو ثقة وفيه ضعف وبقية رجاله رجال الصحيح. وأخرجه من طريق أبي أمامة: أحمد (٢٦٧/٥، رقم ٢٢٣٥٢)، والطبراني (١٤١/٨، رقم ٧٦٣٠) قال الهيثمي (١٦٤/٨): فيه بقية وقد صرح بالتحديث فهو حديث حسن.

(١) أخرجه مسلم (٦٨/١ رقم: ٤٦).

(٢) أخرجه أحمد (١٦٧/٢، رقم ٦٥٦٦)، والترمذي (٣٣٣/٤، رقم ١٩٤٤) وقال: حسن غريب. وابن حبان (٢٧٦/٢، رقم ٥١٨)، والحاكم (٦١٠/١، رقم ١٦٢٠) وقال: صحيح على شرط الشيخين. والبيهقي في الشعب (٧٧/٧، رقم ٩٥٤١). وسعيد بن منصور (١٨٤/٢، رقم ٢٣٨٨)، وعبد بن حميد (ص١٣٦، رقم ٣٤٢)، والدارمي (٢٨٤/٢، رقم ٢٤٣٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٣/١، رقم ١١٥)، وابن خزيمة (١٤٠/٤، رقم ٢٥٣٩)، والقضاعي (٢٢٤/٢، رقم ١٢٣٥)، والديلمي (١٧٧/٢، رقم ٢٨٨٧).

أهديتم لجارنا اليهودي؟ أهديتم لجارنا اليهودي؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه**»(١).

وهذا؛ لأن اختلاف الملة لا يؤدي إلى إسقاط حق الجوار، فقد روي عن جابر بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ قال: «**الجيران ثلاثة: جار له حق واحد وهو أدنى الجيران حقا، وجار له حقان، وجار له ثلاثة حقوق وهو أفضل الجيران حقا، فأما الجار الذي له حق واحد فالجار المشرك لا رحم له وله حق الجوار، وأما الذي له حقان فالجار المسلم لا رحم له، وله حق الإسلام، وحق الجوار، وأما الذي له ثلاثة حقوق فجار مسلم ذو رحم له حق الإسلام وحق الجوار وحق الرحم وأدنى حق الجوار أن لا تؤذي جارك بقتار قدرك إلا أن تقدح له منها**»(٢).

وهو حديث ينسجم مع روح الإسلام ويتفق هدي نبيه عليه الصلاة والسلام وما درج عليه أصحابه رضي الله عنهم في معاملتهم لجيرانهم غير المسلمين.

ما يجب للجار:

حقوق الجار متعددة، كلها راجع إلى الأخلاق التي يتحلى بها المسلم، والسماحة التي ينشرها الإسلام، فقد روي عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ قال: «**من أغلق بابه دون جاره مخافة على أهله وماله فليس ذاك بمؤمن، وليس بمؤمن من لم يأمن جاره بوائقه، أتدري ما حق الجار: إذا استعانك أعنته، وإذا استقرضك أقرضته، وإذا افتقر عدت عليه، وإذا مرض عدته، وإذا أصابه خير هنأته، وإذا أصابته مصيبة عزيته، وإذا مات اتبعت جنازته، ولا تستطيل عليه بالبناء تحجب عنه الريح إلا بإذنه، ولا تؤذيه بقتار**

(١) أخرجه أبو داود (٣٣٨/٤ رقم: ٥١٥٢).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢٠٧/٥)، والبزار في مجمع الزوائد (١٦٤/٨) وانظر مسند الشاميين (٣٥٦/٣ رقم: ٢٤٥٨)، وينظر أيضا البيهقي في شعب الإيمان (١٠٥/١٢ رقم: ٩١١٣).

قدرك إلا أن تغرف له منها، وإن اشتريت فاكهة فأهد له، فإن لم تفعل فأدخلها سرا، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده، أتدرون ما حق الجار، والذي نفسي بيده ما يبلغ حق الجار إلا قليلا ممن رحم الله»[1].

ومهما قيل في سنده فإن ما أكده إنما يرجع إلى روح الإسلام، وتلك هي أخلاقه التي كان يطبع عليها أتباعه، فلا غرو إن نبه عليها النبي ﷺ، وما كل رواية ضعيفة السند مرفوضة، وإنما يجب النظر في مضمونها هل يتفق مع مكارم الأخلاق ومحاسن الطباع، التي دعا إليها الإسلام؟ فإن كان كذلك وجب الأخذ بمدلولها.

هذا؛ وتندرج حقوق اليتامى والمساكين وابن السبيل في عامة الحقوق التي تجب للناس، وقد أكدها القرآن الكريم في أكثر من موضع، ونبه عليها النبي ﷺ في أكثر من رواية، وقد طرقتها أكثر من مرة.

وهذه الحقوق كلها إنما ترجع كما قلت إلى مكارم الأخلاق التي فتح أكمامها القرآن، ونشر طيبها هدي النبي ﷺ، ودرج عليها السلف الصالح فكانوا مثالا لحسن المعاملة مع الناس، وبهذا استطاعوا أن يستميلوا أفئدتهم، ويغيروا طباعهم حتى تقبلوا الحق الذي دعوهم إليه، فانتشر دين الله في الأرض.

التمسك بالأخلاق سمة الإسلام حتى مع اشتعال ضرام الحرب:

إذا كان الإسلام يأمر بالتحلي بالأخلاق في أثناء المسالمة، فإنه لا يعدم هذه السمة في أثناء الحرب، فالحرب في الإسلام لا تخرج عن إطار الأخلاق، ولا تشن إلا من أجل غاية إنسانية نبيلة، بحيث لا ينتج عنها إلا العدل والإنصاف، وإطفاء سعير الفتن، ونشر المرحمة بين الناس.

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٢/١٠٤ ـ ١٠٥ رقم: ٩١١٣).



وفي أثناء تأجج الحماس لها عندما يحمى وطيسها، وتمتد ألسنة ضرامها، يأمر الإسلام الحنيف أتباعه أن لا يندفعوا إبان ذلك مع العواطف الملتهبة، وأن لا يسلسوا قيادهم لما يعتمل في النفوس من حب التشفي والانتقام، وإنما يأمر برعاية جانب الأخلاق وجعلها هي المعيار في الإقدام والإحجام، وقد بين الله سبحانه من يشرع قتاله، وكيف يكون الانضباط في هذا القتال، عندما قال: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ البقرة: ١٩٠، فقد شرع الله قتالهم لقطع أيديهم عن الفساد، وكف عدوانهم عن المسلمين، ونهى مع ذلك عن أي عدوان من قبل المؤمنين، وقد بين تعالى علة مشروعية هذه الحرب، فيما ولي هذا البيان عندما قال: ﴿ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ البقرة: ١٩١ ـ ١٩٣.

فالحرب في الإسلام إنما تشرع لكف أيدي الظالمين عن الظلم، ومنع بطش المفسدين عن الفساد، وإتاحة الفرصة للناس أن يتبعوا الحق؛ عندما يرونه رأي العين بجماله واعتداله وحجته وبرهانه، فلا تشرع لبسط النفوذ والاستعلاء على الناس، واتخاذ عباد الله خولا ومالهم دولا، ومع هذا فإنه يومي إلى السلم دائما ويركن إليه كما هو صريح قوله تعالى: ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ الأنفال: ٦١.

وقد كان ﷺ أحرص ما يكون على اتباع هذه المبادئ والتزام هذه الأخلاق إبان الحرب، ونهج نهجه في ذلك الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم، فكان من وصيته ﷺ للمقاتلين: «**انطلقوا بسم الله وفي سبيل الله تقاتلون أعداء الله في سبيل الله، لا تقتلوا شيخا فانيا ولا طفلا صغيرا ولا امرأة ولا**

تغلــوا»(١) وعن ابن عمــر قال: «وجدت امــرأة مقتولة فــي بعض مغازي رسول الله ﷺ فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان»(٢) وعن حنظلة الكاتب قال: «غزونا مع النبي ﷺ فمررنا بامرأة مقتولة، وقد اجتمع عليها الناس، قال فأفرجوا لــه فقال: «**ما كانت هذه تقاتل فيمــن يقاتل، ثم قال لرجل: انطلق إلى خالد بن الوليد فقل له: إن رســول الله ﷺ يأمرك يقول: لا تقتلن ذرية ولا عسيفا**»(٣) وعن يحيى بن سعيد، قال: «حدثت أن أبا بكر بعث جيوشا إلى الشام فخرج يتبع يزيد بن أبي سفيان، فقال: إني أوصيك بعشر: لا تقتلن صبيا، ولا امرأة، ولا كبيرا هرما، ولا تقطعن شجرا مثمرا، ولا تخربن عامرا، ولا تعقرن شاة، ولا بقرة إلا لمأكلة، ولا تغرقن نخلا، ولا تحرقنه ولا تغل، ولا تجبن»(٤).

---

(١) أخرجه أبــو داود (٣٧/٣، رقم ٢٦١٤). والبيهقــي (٩٠/٩، رقم ١٧٩٣٢) بزيــادة: «... وَضُمُّوا غنائمكم وأصلحوا وأحسنوا ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾» وهو جزء من حديث طويل عند ابن عساكر (٤٩/٢ رقم ٢٧٦٦٣).

(٢) رواه البخــاري (١٠٩٨/٣ رقم ٢٨٥١ و٢٨٥٢)، ومســلم (١٣٦٤/٣ رقم ١٧٤٤)، وأبو داود (٥٣/٣ رقم ٢٦٦٨ و٢٦٦٩) والترمذي (١٦٣/٤ رقم ١٥٦٩)، وابن ماجه (٩٤٧/٢ رقم ٢٨٤١)، ومالك (٤٤٧/٢ رقم ٩٦٣ و٩٦٤) والدارمي (٢٩٣/٢ رقم ٢٤٦٢) وأحمد رقم (٢٢/٢ رقم ٤٧٣٩) (٢٣/٢ رقم ٤٧٤٦) (٧٥/٢ رقم: ٥٤٥٧) (٩٢/٢ رقم ٥٦٥٨) (١٠٠/٢ رقم ٥٧٥٣) (١١٥/٢ رقم ٥٩٥٩) (١٢٢/٢ رقم ٦٠٣٧) (١٢٣/٢ رقم ٦٠٥٥) وابن حبــان (٣٤٤/١ رقم ١٣٥)، (١٠٧/١١ رقم ٤٧٨٥)، (١١٠/١١ رقم ٤٧٨٩)، (١١٢/١١ رقم ٤٧٩١)، وسنن النســائي الكبرى (١٨٥/٥ رقم ٨٦١٨) (١٨٦/٥ رقم ٨٦٢٥) والبيهقي (٧٧/٩ رقم ١٧٨٦٦، ١٧٨٦٧) (٨٢/٩ رقم ١٧٨٨٣، ١٧٨٨٤) (٩١/٩ رقم ١٧٩٣٦)، وأبو يعلى (١١٥/٣ رقم ١٥٤٦) والطبراني في الأوسط (٢٠٩/١، رقم ٦٧٣)، والكبير (٧٢/٥ رقم ٤٦١٧، ٤٦٢٠، ٤٦٢٢) و(٣٨٢/١٢ رقم ١٣٤١٦)، (٧٥/١٩ رقم ١٥٠) وابن الجارود (٢٦١/١) وغيرهم.

(٣) ابن ماجه (٩٤٨/٢، رقم ٢٨٤٢)، قال البوصيري (١٧٢/٣): هذا إسناد صحيح. والطبراني (١٠/٤، رقم ٣٤٨٩). وعبد الــرزاق (٢٠١/٥، رقم ٩٣٨٢)، وأحمد (١٧٨/٤، رقم ١٧٦٤٧)، والنســائي (١٨٧/٥، رقم ٨٦٢٧)، وابن حبان (١١٢/١١، رقم ٤٧٩١)، والعسيف: الأجير.

(٤) أخرجه مالك (٤٤٧/٢، رقم ٩٦٥)، وعبد الرزاق (١٩٩/٥، رقم ٩٣٧٥)، وابن أبي شيبة (٤٨٣/٦، رقم ٣٣١٢١)، والبيهقي (٨٩/٩، رقم ١٧٩٢٧) و(٩٠/٩، رقم ١٧٩٢٩) و(٩٠/٩، رقم ١٧٩٣٤).

التزام أئمة العدل من أهل الاستقامة النهج النبوي في حروبهم:

كان أئمة أهل الاستقامة حراصا على اتباع هذا النهج، سواء في قتالهم لأهل الكفر وقمع فسادهم ورد عدوانهم، أو في قتالهم لمن بغى عليهم واعتدى على حرمهم من هذه الأمة، أما في قتالهم لأهل الكفر فحسبك ما تجده في عهد الإمام الصلت بن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ لقواد جيشه الذي بعثه إلى قتال نصارى سقطرى الذين اعتدوا على والي الإمام فيها فقتلوه وسفكوا دماء المسلمين، واستحلوا محارمهم، فسبوا نساءهم وذراريهم، فقد كانت معاملة الإمام التي وصى بها جنده وقادتهم مع هؤلاء مثالا للتمسك بمكارم الأخلاق، حتى أننا وجدنا من الباحثين المنصفين من شدته هذه المعاملة، فسجل شهادة لما صدر عن الإمام من وصيته ـ وهو الأستاذ الدكتور محمد علي البار ـ فقد بهره ما رآه في هذا العهد، وأشاد به فيما نشره في الصحف، سواء داخل المملكة العربية السعودية أو خارجها، حتى أنه ذكر أن جميع المواثيق الدولية لحقوق الإنسان لم ترق إلى مستوى هذا العهد.

وكذلك في كتابه القيم (**معاملة غير المسلمين، الحوار والتسامح في الإسلام، شواهد من التأريخ**) الذي جاء فيه: «وتعتبر وصية الإمام الصلت وثيقة من أرقى الوثائق في الشؤون الدولية، وخاصة في كيفية محاربة الأعداء والإنذار إليهم، ومعاملتهم بالحسنى إن هم استجابوا لنداء الحق وتابوا وثابوا، رغم ما فعلوه من جرائم فظيعة بالمسلمين من قتل وسفك دماء واعتداء على الحرمات، فهم إخواننا لهم ما لنا وعليهم ما علينا، فإن أبوا ذلك، دعوناهم للعودة إلى العهد والاستمساك به، وأداء الجزية، ومعاقبة الناكثين والتفريق بين من نكث العهد وبين من لم ينكث، وأن لا يؤخذ بريء من هؤلاء النصارى بجريرة وجريمة القتلة والسفاكين منهم، فإذا انتصرنا عليهم وجبت المعاملة بالحسنى، وتسليم الأمر إلى الإمام وأن تعود الأمور إلى سابق عهدها.

وهذا بالفعل ما أدى إلى عودة نصارى سقطرى إلى حظيرة العدل وإلى دخول بعضهم في دائرة الإسلام، ومن بقي منهم على دينه كفلت له الدولة المسلمة الحرية التامة في أداء دينه وشعائره، وبقوا على ذلك حتى الغزو البرتغالي عام ١٥٠٧م الذي أدى في النهاية إلى محاربة أهل سقطرى من النصارى للبرتغاليين وإلى الدخول في دين الإسلام داخرين»[١].

وإليك بعض النصوص مما اشتمل عليه عهد الإمام، فقد بدأ بالذين لم ينكثوا العهد، فقال: «أعلموهم أنهم آمنون على أنفسهم ودمائهم وحريمهم وذراريهم وأموالهم، وأنكم وافون لهم بالعهد والذمة والجزية على الصلح الذي يقوم بينهم وبين المسلمين فيما مضى؛ ولا ينقض ذلك ولا يبدله، وأمروهم بإحضار جزيتهم إليكم، واختاروا إليهم رجالا من خيارهم، من يثبت إلى الصلاح منهم، فوجهوهم إلى هؤلاء الناقضين لعهدهم الناكثين على المسلمين ببغيهم، واجعلوا ممن توجهون رجلين صالحين ممن يوثق بهم من أهل الصلاة، فإن لم يمكنكم بعث اثنين صالحين من أهل الصلاة فواحد، فتأمروهم أن يصلوا إلى الذين نقضوا العهد فتدعوهم عن لساني وألسنتكم إلى الدخول في الإسلام وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة مع حقوق الله والانتهاء عن معصيته، فإن قبلوا ذلك فهي أفضل المنزلتين لهم؛ وذلك يمحو ما كان من حدثهم.. وإن كرهوا أن يقبلوا الإسلام ويدخلوا فيه، فلتدعوهم إلى الرجعة عن نكثهم والتوبة من حدثهم إلى الدخول في العهد الأول الذي كان بينهم وبين المسلمين، على أن لهم وعليهم الحق بحكم القرآن وحكم أهل القرآن من أولي العلم بالله وبدينه من أهل عُمان ممن نزل إليهم أمر المسلمين، فإن أجابوا وتابوا فلتقبلوا ذلك منهم ولتأمروهم بترك ما في أيديهم وأيدي أصحابهم من أهل الحرب من نساء مسلمات، ثم لا يتزوج رسلكم من عندهم حتى يقدم

---

(١) د. محمد علي البار: معاملة غير المسلمين، الحوار والتسامح في الإسلام، شواهد من التأريخ، ص٩٦ ـ ٩٨، دار القلم دمشق، الدار الشامية بيروت.

معهم رؤساء أهل الحرب ويسلموا إليهم النســاء المسلمات اللاتي سبوهن؛ واجعلوا لرسلكم أجلا في رجعتهم لمن أجابهم بالسبايا إلى ذلك الأجل، أن لا يظلموهم ولا يخادعوهم ولا يماكروهم بالمطل والتواني في ذهاب الأيام، فإن وصلوا إليكــم بمن أجابهم من أهــل الحرب وقد استســلموا وتابوا من حدثهم وجاءوا بالنساء المسلمات فاقبلوا ذلك منهم، ولا تعرضوا لأحد ممن جاءكم تائبا مستأمنا مستسلما بسفك دمه ولا انتهاك حرمته ولا سبي ذريته ولا غنيمة ماله، وليكونوا مثلكم آمنين»[1].

فانظر إلى هذه الأخلاق العالية في معاملة أهل الحرب، الذين نكثوا العهد وســفكوا الدماء وســبوا النســاء وارتكبوا الحرمات، لم يأمر الإمام بإبادتهم واستئصالهم، وانتهاك حرماتهم، وإنما أمر بدعوتهم إلى الحق وعرض الإسلام عليهم، فإن قبلوه كان جبا لما قبله، ومحا كل أثر لجرائرهم التي ارتكبوها في المســلمين، وإن أبوا ذلك عرض عليهم الرجوع إلى عهدهم، والدخول فيما خرجوا منه من الميثاق الذي بينهم وبين المسلمين، فإن فعلوا ذلك كانوا آمنين على أنفسهم وعلى ذراريهم وأهليهم وأموالهم، لا يسفك لهم دم ولا تسبى لهم ذرية، ولا يســتباح منهم مال، فإن أبوا كل ذلك كانت الحــرب مع الناكثين الغادرين دون الباقين على عهدهم، فلا يؤخذ موفٍ بجريرة ناكث، ولا يحاسب مسالم بما فعل محارب.

فأين هذه الأخلاق فيما يشن من الحروب لشفاء الغيظ وإرضاء العواطف، ليس من ورائها هدف إلا الانتقام واســتئصال المحارَبين، من غير تمييز بين مســالم وغير مســالم، تلك الحروب التي لا يتقيد فيها المحاربون بعهد ولا ميثاق، ولا يراعون فيها فضيلة ولا خلقا، ولا يجري على نفوسهم عطف ولا رحمة بأحد، وإنما يأتون على كل شيء، ويبيدون كل ما امتدت إليه أيديهم،

(١) الإمام نور الدين السالمي: تحفة الأعيان بســيرة أهل عُمان، ١٤٤/١، مطبعة الشباب القاهرة، ١٣٥٠هـ.



لا يرقون لبكاء طفل، ولا يلتفتون إلى استرحام امرأة، ولا يبالون بصراخ الضعفاء البرآء، لأن الأمجاد في مقاييسهم مقدرة بقدر ما يسفكونه من دماء، وما يزهقونه من أرواح، وما يبيدونه من أمم، وما يخربونه من ديار، وما يشيعونه من خوف وبذلك يفاخرون؟.

أما حروبهم لأهل ملتهم الظلمة البغاة، فإنها لم يكن من ورائها هدف إلا وقف الظلم؛ بكف أيدي الظالمين وإنصاف المظلومين، وإعطاء كل ذي حق حقه، وحسبك شاهدا على التزامهم فيها أرقى ما يتصور من الأخلاق، وأدق ما يدور على البال من معايير العدل وموازين الإنصاف، ما كان في ثورة طالب الحق وقائده أبي حمزة المختار رحمهما الله تعالى على الدولة الأموية، التي عتت واستكبرت استكبارا، وسلبت الأمة حقوقها، وطمست معالم الدين، وأطلقت أيدي المفسدين للبطش بالناس، وسلبهم ما منحهم الإسلام من حرية وأمان، فقد كانت تلك الثورة مثالا للتمسك بمبادئ الحق والسير على نهجه، لم تخرج قيد شعرة عما جاء في القرآن، والتزمه الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام، ودرج عليه الخلفاء الراشدون.

فكم عفوا عن مجرمي الحرب وإن أوقدوا ضرامها مرة بعد أخرى، ولطخوا أيديهم بدماء الذين يدعون إلى الحق، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فقد وسعهم عفوهم كما كان ذلك من طالب الحق في اليمن فقد ذكر من ذلك أبو الفرج الأصفهاني في قوله: «ودخل عبد الله بن يحيى صنعاء، فأخذ الضحاك بن زمل وإبراهيم بن جبلة بن مخرمة فحبسهما، وجمع الخزائن والأموال فأحرزها، ثم أرسل إلى الضحاك وإبراهيم فأرسلهما، وقال لهما: حبستكما خوفا عليكما من العامة، وليس عليكما مكروه، فأقيما إن شئتما، أو اشخصا فخرجا»[١].

(١) المرجع السابق، ج٢٣ص ٢٣٦.

وقد كانت هذه هي المرة الثانية التي وقعا فيها في أَسْرِ الإمام طالب الحق رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقد أسرا وهما يقاتلان، ولكنه في كل مرة عفا عنهما وأطلق سراحهما مع ما كان منهما وممن وراءهما من سفك دماء المؤمنين وابتزاز أموالهم وانتهاك حرماتهم، وكذلك ما كان من قائده أبي حمزة في الحجاز[١].

ومثل ذلك ما كان من سائر الأئمة؛ كالإمام أبي الخطاب المعافري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، الذي أنجد أهل القيروان عندما استنجدوه على قبيلة ورفجومة الصفرية، التي حكمت القيروان وبطشت بأهلها، فخرج الإمام أبو الخطاب لنجدتهم، وحذر جنده أن يأخذوا من أموال عدوهم شيئا، فرد عليه أحد أصحابه ـ وهو خالد اللواتي ـ بقوله: «نأكل من أموالهم كما يأكلون من أموالنا»، وكان ذلك منه استنادا على ما تراءى له من قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ الشورى: ٤٠، وقوله: ﴿وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ البقرة: ١٩٤، ولكن أبا الخطاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ أبى ذلك ورد عليه بقوله: حقيق على الله أن يدخلنا معهم النار، ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ﴾ الأعراف: ٣٨»[٢].

وقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ شديدا على جيشه أن يأخذ شيئا من أسلاب العدو، ولو كانوا هم مستبيحين لأموال المسلمين، لأن أموال أهل التوحيد ـ وإن بغوا وقاتلوا أهل الحق واعتدوا على أموالهم ـ هي مصونة بكلمة التوحيد، ولذلك عجب الناس عندما خرجوا من أكنانهم بعدما وضعت الحرب أوزارها، فرأوا كل شيء على ما عهدوه لم يكن عدوان على متاجرهم أو زروعهم أو أي شيء مما

(١) يراجع بتوسع ما ذكرناه في ثورة طالب الحق وأبي حمزة الشاري في كتابنا (**الاستبداد: مظاهره ومواجهته**) ص ١٣٦ ـ ٢٢١.

(٢) ينظر الشماخي: السير، ١/١١٦ ـ ١١٧، ويراجع كتابنا (**الاستبداد: مظاهره ومواجهته**) ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤.

ملكته أيديهم، بل كانت المفاجأة بالغة عندما مرت امرأة على جنود ورفجومة صرعى ومعهم أسلابهم لم يسلب منها شيء، فقالت: كأنهم رقود!!، وسميت أرض المعركة لذلك رقادة، ولا تزال تعرف بذلك إلى عصرنا هذا.

وتفقد أبو الخطاب القتلى فوجد واحدا منهم مسـلوبا، فنادى مناديه: من أخذ من القتلى شـيئا فليرده، ولما أيس من الرد دعا على من أخذ السلب أن يفضحه الله على رؤوس الأشـهاد، وحق لمثله أن يكون مستجاب الدعاء عند الله، فلما رجع قافلا إلى طرابلس أطلقوا الأعنة لخيلهم لتستبق ابتهاجا بالنصر والظفر بإقامة الحق، فانقطع حزام جميل السدراتي ـ وهو أحد جنود الإمام ـ وسقط، فظهر السلب تحت سرجه، فلم يمهله الإمام وإنما أدبه على صنيعه.

وكم تجد في القديم والحديث من قوم محسـوبين على الإسلام قائمين ـ حسب مدعاهم ـ من أجل نصرته وتأييده من أمور تتقزز منها النفس، ويأباها الطبع، ويحرمها الإسلام، من انتهاك الحرمات بعدم المبالاة بما يصدر منهم من سفك الدماء، ونهب الأموال، وانتهاك الأعراض، وإضاعة الحقوق.

دعك مما يصدر من الذين يتقمصون الإسلام، وهم أجهل الناس به أصلا وفرعا، ويتظاهرون بتطبيقه وهم أبعد الخلـق عنه روحا ومعنى، الذين لا همَّ لهم إلا سـفك دماء الأمة وتشتيت شـملها وتمزيق جماعتها بفتاوى التكفير والتبديع والتضليل، فإن هؤلاء هم أعمل المعاول في نقض بناء هذا الدين ودك معالمه، لأنهم بأعمالهم هذه يشجعون أبناء الإسلام أنفسهم على النفور عنه، فضلا عمن لم يعرف الإسلام رأسا.

تجافي الناس عن الأخلاق لجهلهم بالإسلام:

إذا كان الإسلام الحنيف جاء بهذه الأخلاق العالية، وحض على التزامها في السلم والحرب، والمكره والمنشط، فاعجب لأبناء الإسلام كيف يتجافون هذه الأخلاق، حتى تجد أحدهم يتصور من الرجولة والشهامة ـ بل من الورع

والتقوى ـ أن يقابل الناس بعبوس الوجه واكفهراره، وتقطيب الجبين، والغلظة في القول، والجفاء في المعاملة، حتى أن من طلبة العلم من سرى إليه هذا الطبع، واستمكنت من نفسه هذه العادة، فلا يلتفت إلى ما يجب عليه من توقير الكبير والرحمة بالصغير، وحسن معاملتهما، والإحسان إليهما وإلى سائر الناس.

ومنهم من يكون خارج البيت هادئا لطيفا منبسط الأسارير مشرق المحيا باسم الثغر، فإذا دخل البيت عبس وتولى، واكفهر وجهه وقطب جبينه وماتت البسمة التي تشرق من ثغره، وواجه أهله بالجفاء والغلظة في القول، والحدة في الطبع، متجاهلا ما كان عليه رسول الله ﷺ عندما يكون بين أهله من لطف المعاشرة ورقة الطبع ولين القول ودماثة الأخلاق، وكيف أنه عليه الصلاة والسلام حث الرجال على ذلك كما في قوله: «**خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي**»[(١)]، وقد سبق الكلام في ذلك، فمتى يصحو الناس ويدركون أن البيوت إنما تعمر بمكارم الأخلاق ومحاسن الطباع ولطف المعاملة وحسن المعاشرة، لا بهذا الجفاء وهذه الغلظة في القول والعمل؟!.

وكم تجد في الذين ينتمون إلى هذا الدين من جفاء الطبع والحدة في القول والعمل، بحيث لا يعرف أحدهم الرفق في المعاملة ولا الطيب في القول ولا الرقة في الأخلاق، ولا الحكمة في السياسة وفي الدعوة إلى الله، فإن هذا مما يؤدي بالطبع إلى النفور لا من المخالق وحده ولكن بجانب ذلك ينفر مما يتبعه من الدين، وما يدعو إليه من الحق، وهذا مما تفرزه طبيعة البشر، فقد خاطب الله سبحانه أدمث الناس أخلاقا وأطيبهم معاشرة وألطفهم قولا بقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ آل عمران: ١٥٩، مع أن من حوله كانوا

(١) سبق تخريجه.

أطيب الناس عنصرا وأحسنهم خلقا وأوفاهم عهدا وذمما، ولكن كل ذلك إنما كان انعكاسا لما كان عليه صلوات الله وسلامه عليه من معاملتهم بالحسنى، وأخذهم بالرفق واللطف.

هذا؛ وإذا كان هؤلاء الذين هداهم الله بالإيمان وزينهم بالأخلاق وحلاهم بالفضيلة يصفهم الله سبحانه بأنهم لو وجدوا من النبي ﷺ الفظاظة والغلظة لنفروا منه وانفضوا عنه، فما بالك بمن لم يعرف الإسلام ولم يذق طعم الإيمان ولم يقدر قيمة الفضيلة، أولا يكون التعامل معه بغلظة القول وجفاء الأخلاق سببا لنفوره عن الإسلام واتهامه إياه بالقسوة والعنف.

وكذلك الجهلة بالإسلام من المحسوبين عليه من هذه الأمة، فإنهم عندما يجدون من الذين يحسبون على العلم والدين مثل هذه المعاملة الجافة الجافية في دعوتهم إلى ترك الشهوات واتباع الحق، والتخلي عن الرذائل، لا - ريب أنهم - يجافيهم ما يجدونه من جفاء المعاملة عما يدعونهم إليه من الخير، فيكون الفشل بديلا عن النجاح، والخسران بديلا عن الربح.

النبي ﷺ يجسد بقوله وعمله الأخلاق القرآنية، التي سبقت الإشارة إليها:

كان رسول الله ﷺ مثالا حيا لهداية القرآن، وصورة فذة لما يدعو إليه من مكارم الأخلاق، وبجانب ما كانت الأمة تتعلمه من سلوكه ومعاملته للخلق؛ من حسن الخلق وطيب المعاشرة، واللطف في الأخذ والعطاء، جاءت سنته القولية لتؤكد ذلك كله كما في قوله عليه أفضل الصلاة والسلام: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا..**»[(١)].

---

(١) أخرجه مالك (٩٠٧/٢، رقم ١٦١٦)، وأحمد (٢٨٧/٢، رقم ٧٨٤٥)، والبخاري (١٩٧٦/٥، رقم ٤٨٤٩)، ومسلم (١٩٨٥/٤، رقم ٢٥٦٣)، وأبو داود (٢٨٠/٤، رقم ٤٩١٧)، والترمذي (٣٥٦/٤، رقم ١٩٨٨)، والطبراني في الأوسط (٢٢٢/٨، رقم ٨٤٦١)، والبيهقي (١٨٠/٧، رقم ١٣٨١٣).



وعن أبي هريرة عند الربيع قال: «قال رسول الله ﷺ إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا» قال الربيع: «ولا تجسسوا أي لا يتتبع بعضكم عورة بعض ولا تحسسوا أي لا يمشي أحدكم بالنمائم ولا تنافسوا أي ولا ينتقم بعضكم من بعض بما جعل فيه من السوء»(١).

وعند مسلم من طريقه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره التقوى هاهنا** ـ ويشير إلى صدره ثلاث مرات ـ **بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه، وماله، وعرضه**»(٢).

فكم تجد في هذه الروايات من الأخلاق العالية التي يرشد إليها رسول الله ﷺ في بناء العلاقات بين المسلم والمسلم، ولو أخذ الناس بها لعمرت القلوب الرحمة والشفقة والوئام، وساد المجتمعات الهدوء والاستقرار، وانتشرت المِقَةُ الخالصة بين الناس.

ومثل ذلك الدعوة إلى رحمة الصغير وتوقير الكبير، كما جاء في عدة روايات عن النبي ﷺ منها حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**ليس منا من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه**»(٣)، فترى أن النبي ﷺ يقطع صلة من تجرد من هذه الأخلاق بهذه الأمة الفاضلة، ذلك لأن الصغير هو

(١) أخرجه الإمام الربيع (٢٧٠/١ رقم: ٦٩٨).
(٢) أخرجه مسلم (١٩٨٥/٤، رقم ٢٥٦٤).
(٣) أخرجه أحمد (٣٢٣/٥، رقم ٢٢٨٠٧)، قال المنذرى (٦٤/١): إسناده حسن. والحكيم (١٨٧/١)، والحاكم (٢١١/١، رقم ٤٢١) وقال مالك بن خير الزيادى مصرى ثقة وأبو قبيل تابعى كبير. وأخرجه أيضا: البخاري في التاريخ الكبير (٣١٢/٧، ترجمة ١٣٢٩)، والرافعى (١٧٦/٤) والضياء من طريق الطبراني (٣٦١/٨، رقم ٤٤٥). قال الهيثمي (١٢٧/١): رواه أحمد والطبراني في الكبير، وإسناده حسن.



أحوج ما يكون إلى الرحمة والشفقة، وما ينتج عنهما من حسن الرعاية، فبهذا تطمئن نفسه وتسعد حياته، والكبير من حقه التقدير والتوقير، فإن حرمهما كان مجفوا من مجتمعه، وهو مما يؤدي به إلى الشعور بالظلم والحرمان.

ولا فرق بين أن يكون كبره بعمره أو بمزاياه، فإنه بأي من ذلك يكون حريا بتوقيره وتقديره، وهذا مما يجب أن تربى عليه الناشئة وأن يشاع فيما بين الناس، لا سيما طلبة العلم؛ فإنهم أحق الناس بالتحلي بهذا الخلق الرفيع، وهذا يعني أن من الضرورة بمكان أن يدخل في المناهج الدراسية تعليم فن التعامل مع الناس، لا سيما مناهج التربية الإسلامية، لينشأ المسلم منذ طفولته لطيف المعشر رقيق الطبع ميالا إلى الإحسان، لا يلقى الناس إلا بوجه منبسط وثغر مبتسم يعم كل كبير بتوقيره وإجلاله، ويسع كل صغير بلطفه ورحمته وشفقته وحنانه، وكم نتمنى أن تهتم المؤسسات التعليمية بهذا.

الحرص على السلام ابتداء وردا رمز للتحلي بأخلاق الإسلام:

إن من أعظم ما يميز الإسلام في شعاراته، وأسس العلاقة بين أتباعه، ما شرعه من تبادل السلام بينهم، وجعله مفتاح التخاطب وجمال التحايا، هذا هو شعار النبيين والملائكة المقربين، فقد حكى الله تعالى عن إتيان الملائكة عليهم السلام إلى خليله إبراهيم صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه، ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌ﴾ الذاريات: ٢٥، ولا غرو فإن السلام بين عباد الله هو الذي ينشده كل عاقل حصيف، فبه تطمئن القلوب وتهدأ النفوس، وينجذب بعضها إلى بعض في لطف يقضي على ما عسى أن ينجم بينها من نفرة وشقاق ونزاع، فهو يستل من القلوب الحقد والكراهية، ويغرس فيها الحب والوئام.

ولأجل مزيته جعله الله تعالى شعار عباده الصالحين في دار الجزاء، كما أخبر سبحانه بهذا في قوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ الأحزاب: ٤٤، والله سبحانه نفسه يؤنسهم بهذه التحية، التي يجدون فيها ما يزيد نفوسهم طمأنينة



وراحة، وما يزيد نعيمهم لطفا ورحمة، فعندما وصف نعيمهم أتبع ذلك قوله: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ يس: ٥٨، ووعدهم أن تحييهم بهذه التحية الملائكة الكرام عندما يدخلون عليهم في دار أنسهم ونعيمهم، فقد قال تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ۞ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ الرعد: ٢٣ ـ ٢٤.

وأثنى الله سبحانه على عباده المتقين البررة، أنهم يردون بالسلام على من واجههم بالشغب والشجار، فقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ الفرقان: ٦٣، ووصف مؤمني أهل الكتاب الذين اتبعوا الحق عندما استبان لهم نوره بأنهم يردون على عاذليهم بالسلام فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ القصص: ٥٥.

لهذا؛ جعل النبي ﷺ إفشاء السلام من أعظم القربات التي ترفع الناس إلى المقامات العلى عند الله، وتبوئهم درجات الزلفى عنده، كما في قوله: «**يا أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام**»(١)، بل جعل النبي ﷺ إفشاء السلام علاجا للنفوس مما يلابسها من الحسد والبغضاء، فقد قال: «**دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء والبغضاء هي الحالقة حالقة الدين لا حالقة الشعر والذي نفس محمد بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أفلا أنبئكم بشيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم**»(٢)، وفي رواية: «**والذي نفسي بيده**

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٥٧/٧، رقم ٣٥٨٤٧)، وأحمد (٤٥١/٥، رقم ٢٣٨٣٥)، وعبد بن حميد (ص ١٧٩، رقم ٤٩٦)، والدارمي (٤٠٥/١، رقم ١٤٦٠)، والترمذي (٦٥٢/٤، رقم ٢٤٨٥)، وقال: صحيح. وابن ماجه (٤٢٣/١، رقم ١٣٣٤) وابن سعد (٢٣٥/١)، والحاكم (١٤/٣، رقم ٤٢٨٣)، وقال: صحيح على شرط الشيخين. والضياء (٤٣٣/٩ رقم ٤٠٤).

(٢) أخرجه الطيالسي (ص ٢٧، رقم ١٩٣)، وأحمد (١٦٤/١، رقم ١٤١٢)، وعبد بن حميد (ص ٦٣، رقم ٩٧)، والترمذي (٦٦٤/٤، رقم ٢٥١٠)، والشاشي (١١٤/١، رقم ٥٤)، وابن قانع (٢٢٣/١)، والبيهقي (٢٣٢/١٠، رقم ٢٠٨٥٤)، والضياء (٨١/٣، رقم ٨٨٩).

لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم»[(١)].

والأحاديث في هذا كثيرة جاءت من طرق يشد بعضها بعضا، وقد جعل النبي ﷺ التسابق في إلقاء السلام مقياسا للسبق إلى الخير، وارتقاء درجات الفضل عند الله تعالى، فقد ثبت عنه أنه قال: «**لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان فيصد هذا ويصد هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام**»[(٢)].

عدول الناس عن تحية السلام جهل وانحدار في الأخلاق:

من أسوأ ما انتشر بين كثير من الناس العدول عن السلام حال التلاقي وبداية التخاطب، فكثير منهم يفتتح مخاطبة من يلاقيه باسمه من غير أن يسلم عليه، وقد يعدل عن السلام إلى قول: «صباح الخير» أو «مساء الخير» أو «أهلا وسهلا»، وعند التخاطب في الهاتف يأتون بدلا من السلام بكلمة: hallo ويظنون في ذلك تطورا إلى الأعلى، وهي انتكاسة في الفكر، وانطماس في البصيرة، وترد في الأخلاق، كيف يعدل الإنسان عما شرعه الله تعالى ـ وجعله شعارا لعباده المؤمنين؛ من تحية تفيض على النفس الطمأنينة والأمان، وتقرب القلوب بعضها من بعض، وتستل ما فيها من كراهية وحقد وحسد، وقد جعلها الله سبحانه من سجايا الملائكة

---

(١) أخرجه من طريق أبي هريرة: أحمد (٣٩١/٢، رقم ٩٠٧٣)، ومسلم (٧٤/١، رقم ٥٤)، وأبو داود (٣٥٠/٤، رقم ٥١٩٣) والترمذي (٥٢/٥، رقم ٢٦٨٨) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (٢٦/١، رقم ٦٨)، وابن حبان (٤٧١/١، رقم ٢٣٦). وأخرجه من طريق عبد الله بن مسعود: الطبراني (١٨٣/١٠، رقم ١٠٣٩٦).

(٢) أخرجه مالك (٩٠٦/٢، رقم ١٦١٤)، والطيالسي (ص ٨١، رقم ٥٩٢)، وعبد بن حميد (ص ١٠٣، رقم ٢٢٣)، وأحمد (٤١٦/٥، رقم ٢٣٥٧٥)، والبخاري (٢٢٥٦/٥، رقم ٥٧٢٧)، ومسلم (١٩٨٤/٤، رقم ٢٥٦٠)، وأبو داود (٢٧٨/٤، رقم ٤٩١١)، والترمذي (٣٢٧/٤، رقم ١٩٣٢) وقال: حسن صحيح. وابن حبان (٤٨٤/١٢، رقم ٥٦٦٩).

والمرسلين ـ إلى تحايا أهل الجاهلية، أو إلى تحية دخيلة على أمة الإسلام؟!، قال الإمام السالمي رحمه الله تعالى:

حق على المسلم أن يسلما	على أخيه قبل أن يكلما
وهو تحية أتى الإسلام	بها فلا يخلفها كلام
فليس يغني عنه قد مساكا	ربي بخير أو بنحو ذاكا
فإنها محدثة والخير في	ما قد أتى عن النبي الرئف[1]

وما يدرينا، فلعل ما بين الناس اليوم من القطيعة والبغضاء والكراهية ناشئ من إهمال السلام، وإحلال غيره محله.

رد السلام فريضة محتومة:

إن الإسلام لا يرضى من أتباعه أن يقابلوا الإحسان إلا بالإحسان، فلذلك فرض على من تلقى سلاما أن يرد بأحسن مما تلقى أو بمثله على الأقل، فقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا﴾ النساء: ٨٦.

قال القرطبي: «الأحسن أن يزيد فيقول: عليك السلام ورحمة الله لمن قال: سلام عليك فإن قال: سلام عليك ورحمة الله زدت في ردك: وبركاته وهذا هو النهاية فلا مزيد قال الله تعالى مخبرا عن البيت الكريم رحمة الله وبركاته على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى فإن انتهى بالسلام غايته زدت في ردك الواو في أول كلامك فقلت: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته والرد بالمثل أن تقول لمن قال السلام عليك: عليك السلام إلا أنه ينبغي أن يكون السلام كله بلفظ الجماعة وإن كان المسلم عليه واحدا»[2].

---

(١) نور الدين السالمي: جوهر النظام، ٢/٢١٧.

(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ٥/٢٩٩ ـ ٣٠٠.



وإذا كان يشرع للراد أن يزيد في رده على ما جاء في تحية المُسَلِّمِ لطلب مضاعفة الخير، ومقابلة الإحسان بما هو أحسن، فما بالك بمن لا يرد السلام رأسا؟! وإنما يعدل عنه إلى ما لم ينزل الله به سلطانا من العبارات التي تتسابق إلى الألسنة بحسب ما تستحسنها النفوس، فمنهم من يرد بقوله: «مرحبا»، ومنهم من يقول: «أهلا وسهلا»، ومنهم من يطور الرد إلى لفظة «أهلين»، وهذا كله تعام عن الحق، وصدود عن الشرع، وإن مما يؤسف له أن يكون العرب هم أكثر الناس عدولا عن رد السلام إلى مثل هذه العبارات التي لا تسمن ولا تغني من جوع، ولا تسقط عن المسلَّم عليه فريضة الرد، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

وإن مما يحمد عليه العجم من المسلمين التزامهم الرد بالطريقة الإسلامية المشروعة، فلا تكاد تسلم على مسلم أعجمي إلا ويرد عليك بما شرع في الإسلام من الرد، ولكن أكثر العرب أو كثيرا منهم في عمى عن هذا!! حتى أنني كثيرا ما أحتار في أمر السلام، إذ كثيرا ما يبقى سلامي معلقا من غير رد عليه، وهم يحسبون أنهم بهذا يحسنون صنعا!! وقد جادلني أحدهم فقال: إن كلمة أهلا وسهلا تدل على الترحيب، فهي كافية عن رد السلام!! وهذا يدل على تعمق الجهل وتزيين الشيطان لهم، ولربما ألححت عليهم أن يردوا السلام لتبرأ ذمتهم من تبعة الرد، ولكنهم يتصاممون، وهذا من أسوأ ما تفشى في الناس من العادات السيئة.

ومما يؤسف له أن الذين أوتوا شيئا من العلم يهملون دعوة السواد الأعظم من الناس إلى اتباع تعاليم الإسلام في هذا، بل كثير من هؤلاء الذين أوتوا شيئا من العلم هم بأنفسهم يقعون في هذا الخطأ الكبير، وهذا يعني أنه لا بد من حملة توعية ترد الناس إلى جادة الحق، وتبصرهم بخطأ ما يرتكبون في هذا، ويجب أن ينشأ الأطفال من بداية مراحل تربيتهم على تعظيم أمر السلام، والحرص على ابتدائه ورده.



المحور الثالث عشر

فيما يتعلق بتربية الأولاد

إن الولد هو فلذة الكبد، وثمرة الفؤاد وقرة العين، والأمل الواعد، والمستقبل الباسم لمن أحسن تربيته وتعهده بالتزكية، وكان له قدوة حسنة في مكارم الأخلاق ومحاسن الطباع، وقد أجاد من قال:

وإنما أولادنا بيننا ... أكبادنا تمشي على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم ... لامتنعت عيني من الغمض

فالأولاد حياتهم امتداد لحياة آبائهم وأمهاتهم، وشبابهم تجديد لشباب أصولهم، كما قال التهامي:

وقلت شباب ابني شبابي وإنما ... تحول شطر العمر مني إلى شطري

فهم بهذا أعظم نعمة دنيوية ينعم الله بها على عباده، فكم يحس المحرومون من هذه النعمة بأنهم فاقدون ما تتطلع إليه النفس، ويهفو إليه القلب، وتنجذب إليه الفطرة من نعمة هذه الحياة، ولذلك ذكَّر الأنبياءُ أقوامهم بهذه النعمة التي أتتهم من الله تعالى، فلم يرعوها ولم يقدروها قدرها، كما في قول هود عليه السلام: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۝ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ۝ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ الشعراء: ١٣٢ ـ ١٣٤، ولهذا يحرص أولو الصلاح والرشد أن يمتد الخير في أعقابهم، وأن يكون فيهم من يقيم الصلاة ويقوم بواجبات الدين كما في قول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ إبراهيم: ٤٠، وذلك بعد أن شكر الله تعالى

على نعمة الولد التي أتته على كبر، كما حكى الله عنه في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ إبراهيم: ٣٩، والمؤمن يلتفت إلى ماضيه فيستذكر نعمة الله عليه التي أتته من طريق والديه وحسن رعايتهما له وإحسانهما إليه، وينظر إلى مستقبله فيتطلع إلى الصلاح والبر والتقوى في ذريته، كما تضمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ الأحقاف: ١٥.

ولعظم نعمة الله تعالى التي تكون بالأولاد كان التطلع إليهم فطرة مركوزة في طباع البشر لا فرق في ذلك بين برٍ وفاجر، وإنما البر يتطلع إليهم لأجل أن يكون برهم موصولا ببره، فيكتب الله تعالى له أجر بره وبرهم من غير أن ينقص ذلك من أجورهم شيئا، وأما الفاجر فلا يكتفي بفجوره وإنما يسعى إلى أن يكون له امتداد في أعقابه.

ولم يكن الأنبياء عليهم السلام بعيدين عن هذه الفطرة، فهم يتطلعون إلى ذرية صالحة تحمل لواء الحق، وتنشر هداية الله تعالى في الناس، كما قصه الله تعالى من نبأ زكريا عليه السلام في قوله: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ مريم: ٢ ـ ٦.

واجب الوالدين تجاه الأولاد:

إذا كان الأولاد أول ما تشرئب إليه أعناق الناس، وتتطلع إليه أفئدتهم من نعمة هذه الحياة ونعيمها، فإن هذه الثروة يجب أن لا تذهب سدى، وأن

لا تترك لعوادي الزمن تعدو عليها، وإنما يجب أن تحاط بسياج سميك يقيهم شرَّ شـياطين الجنة والناس، وذلك بحسن تربيتهم وترقيتهم في معارج الخير ومصاعد الأخلاق.

وهذا يبدأ باختيار شريك الحياة من كل واحدٍ من الذكر والأنثى، فالرجل عليه أن يختار لأولاده أمـا صالحة تربيهم على الإيمـان والتقوى، وتعودهم خصال البر وعشـق الفضائل، وهذا مما يوحي به توجيه النبي ﷺ في اختيار المرأة الصالحة، فعن أبي هريرة وجابر رضي الله عنهما عـن النبي ﷺ قال: «**تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين، تربت يداك**»[1]، فانظر كيف وجه النبي ﷺ إلى ترجيح جانب الديـن على كل الجوانب التي تغري على نكاح المرأة، وعن عبد الله بن عمرو أن رسـول الله ﷺ قال: «**الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة**»[2].

أثر الأم على نشأة الطفل:

إنما كان إرشـاده ﷺ إلى المرأة الصالحة، لأنها قرة عين الزوج، وسكينة قلبه، وأمينـة بيته، ولها أكبـر الأثر في تنشـئة أولادها على البـر والتقوى، والصلاح والاستقامة، فإن الطفل يتأثر أول شيء بأمه، فأخلاقها تنعكس عليه،

---

(١) من طريق أبي هريرة: أخرجه البخاري (١٩٥٨/٥، رقم ٤٨٠٢)، ومسـلم (١٠٨٦/٢، رقم ١٤٦٦)، وأبو داود (٢١٩/٢، رقم ٢٠٤٧)، والبيهقي (٧٩/٧، رقم ١٣٢٤٤)، وابن ماجه (٥٩٧/١، رقم ١٨٥٨)، وابن حبـان (٣٤٤/٩، رقم ٤٠٣٦). ومن طريـق جابر: أخرجه الدارمـي (١٧٩/٢، رقم ٢١٧١). وأخرجه أيضا: أحمـد (٤٢٨/٢، رقم ٩٥١٧)، والنسـائي في الكبـرى (٢٦٩/٣، رقم ٥٣٣٧)، والدارقطني (٣٠٢/٣).

(٢) أخرجه مسلم (١٠٩٠/٢ رقم: ١٤٦٧) وبلفظ قريب أخرجه النسائي (٦٩/٦، رقم ٣٢٣٢)، وابن ماجه (٥٩٦/١، رقم ١٨٥٥)، وأحمد (١٦٨/٢، رقم ٦٥٦٧)، وهناد في الزهد (٢٩٥/١، رقم ٥١٩) وعبد بن حميد (ص ١٣٣، رقم ٣٢٧)، والقضاعي (٢٣٦/٢، رقم ١٢٦٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٥٠/٤، رقم ٤٦١٩)، وجاء من طريق جابر عند أبي نعيم في الحلية (٣١٠/٣)، وابن عساكر (٣٦٨/٦٤).

وحديثها ينطبع في نفسه، وسلوكها هو نهجه الذي ينشـأ عليه أول أمره لأنه يفتح عينه عليها، فيرى أنها هي التي تتعهده في نومه وفي يقظته، وترعاه في صحته وفي سقمه، ومن جسـمها أول غذائه، وإليها يأنس في جميع أحواله، فهي مدرسته الأولى كما قيل:

الأم مدرسـة إذا أعـددتـهـا أعـددت جيلا طيـب الأعراق

الأم الصالحة من منبت طيب هي التي تغذي الولد بالفكر السليم وتتعهده بالتربية الناجحة:

كم كان للأم من أثر كبير فـي انتزاع قرة عينها وفلـذة كبدها من تأثير المحيط الأسـري الفاسـد عليه، خصوصا عندما تكون طيبة المنبت زاكية الأعراق، تجد في أصولها التي تنتمي إليهـا ما تفاخر به العالم، وتباهي به العظماء، ناهيك شـاهدا على ذلك ما كان من أم عمر بن عبد العزيز، التي استطاعت بحسن تربيتها له أن تخلصه من طباع آل مروان، وتغرس في نفسه طباع جدها العظيم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وإذا كان مما شـاع في الأمثال قولهم: «كل فتاة بأبيها معجبة» فلا عجب أن تكون الفتاة التي تنتسـب إلى الفاروق العظيم هو مصدر إعجابها، وموئل افتخارها واعتزازها، حتى تباهي به العالم وتفاخر به الدهر وأن تحاول نقل سجاياه الحميدة ومزاياه العظيمة إلى فلذة كبدها وقـرة عينها، وأن تظل عالقة بذكريـات الفاروق في كوخه المتواضع بالمدينة المنورة، ولو انتقلت إلى قصور آل مروان بالشـام، فلا يروق لعينها ما فيها من زخرف الحياة الدنيا وبهرجتها، ولا تراها تسـاوي شـيئا من ذلك الكوخ المتواضع الذي كان يُصَدِّر إلى العالم الحق والعدل والإنصاف، وتَصْدُر منه القرارات التي تزعزع قصور الأكاسـرة والقياصرة، وتوجف قلوبهم، وترجف الأرض تحت أقدامهـم، ويمتد ظله الظليل إلى أرجاء الدنيا، فيأوي إليه كل ملهوف ليجد فيه الغوث والأمن والسـلامة إن

روع في دنياه بوحشة الزعازع والخوف والخطر، ويسعى إليه كل خائف ليجد في أنحائه أمنه وطمأنينته من بطش الجبارين، ويفر إليه كل مظلوم ليجد في أكنافه العدل والإنصاف بعدما عصف به هجير الظلم فكاد يشويه ويرديه، فحسبها ما في ذلك الكوخ المتداعي عما في قصور آل مروان بالشام أو غيرها، التي تستعر بالظلم، فلا يجد مظلوم آوى إليها إلا لهيب ظل من يحموم، لا بارد ولا كريم، وتغص بالفجور بين جنباتها؛ فلا يستنشق مما يخرج منها إلا نتن ريحه العفن، وأنى لها أن تجد في سيرة مروان ـ وهو طريد رسول الله ﷺ وابن طريده، وموقد نار الفتنة في الأمة ـ ما تجده في سيرة الفاروق العظيم صاحب رسول الله ﷺ، وقرينه في المحيا والممات؟! فكيف لا تطمح أن تنشئ أملها الوحيد في الحياة على هذه السيرة العظيمة، وهذا الطموح الرفيع، وتستخلصه من أعراقهم ليظل عرق الفاروق وحده هو الذي يسري أثره في نفسه فيكيف فكره وطموحه، ويحدد نزعته ووجهته، فلا غرو أن تكون هذه التربية بعناية الله هي التي وجهته إلى أن يكون قرآني البصيرة، محمدي الهدي، فاروقي الوجهة، راشدي السيرة، فيتجدد على يديه للأمة من الخير ما لم تكن منه على بال، ويفصح بذلك خطيبها المصقع عبد الله بن الأهتم عندما وفد إليه مع الوافدين، وصور ما مر بالأمة من زعزاع هدم بنيانها وأسقط أركانها، ثم وجه إليه خطابه قائلا: «ثم إنك يا عمر ابن الدنيا، ولدتك ملوكها وألقمتك ثديها، فلما وليتها ألقيتها حيث ألقاها الله وآثرت ما عند الله، فالحمد لله الذي جلا بك حوبتنا، وكشف بك كربتنا، امض ولا تلتفت، فإنه لا يعز على الحق شيء، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم وللمؤمنين والمؤمنات»[(١)].

---

(١) ينظر: أبو سعد الأبي: نثر الدرر، ١١/٦، وينظر أيضا: سنن الدارمي (٥٥/١ رقم: ٩١)، علي بن الحسن بن هبة الله: تاريخ دمشق، ١٠٩/٢٧، ابن عبد ربه: العقد الفريد، ٨٦/٤، محمد بن حسن بن محمد: التذكرة الحمدونية، ٢٨٦/٦، أحمد زكي: جمهرة خطب العرب، ٤٢١/٢.



وإذا كانت هذه من ثمار الزواج بالمرأة الصالحة، فأي رجل لبيب يعدل عنها إلى غيرها، أو يؤثر عليها التي تفوقها حسنا وجمالا، وتبزها قدا واعتدالا، رغبة في شهوات الدنيا؟! وهي التي عبر عنها بخضراء الدمن، كما جاء في رواية يؤيدها الواقع وإن لم تصح سندا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إياكم وخضراء الدمن قيل يا رسول الله وما ذاك قال المرأة الحسناء في المنبت السوء**»[1]، وهذا الكلام إن لم يثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام، فإن عقل اللبيب يحجزه عن الورد في هذه المستنقعات الآسنة التي لا تعقب إلا الأوبئة المردية ـ والعياذ بالله ـ.

وإذا كان للأم الصالحة هذا الأثر الكبير ـ في تنشئة قرة عينها على مكارم الأمور، ومحاسن الأخلاق، والطموح إلى المعالي، وتخليصه مما عسى أن يؤثر عليه من الشوائب التي تفرزها الأعراق غير الصالحة ـ فإنني أهيب بكل أم أن تحمل بين جنبيها هذا الهم العظيم، وأن تسعى إلى هذا الطموح الكبير اقتداء بحفيدة الفاروق وابنة الفتاة الذكية اللبيبة الصالحة التي أعجب الفاروق رضي الله عنه بجوابها لأمها، فأمر ابنه عاصما بأن يتزوجها متطلعا إلى أن تلد من يتحقق على يديه حلم الأمة، ويتدفق بعدله خيرها وسعادتها، فولدت له أم عمر بن عبد العزيز، التي وجهته هذه الوجهة المرضية، وكم أتمنى أن تبذل كل أم ما تمتلك من خبرة وحصافة في تربية أولادها هذه التربية العظيمة، التي تجعل منهم قادة صالحين للأمة، تنتعش بهم بعد خمودها وتحيا بهم بعد موتها، وتسعد بهم بعد شقائها، فهذا هو مجال التنافس بين الأمهات الصالحات.

---

(١) أخرجه الديلمي (٣٨٢/١، رقم ١٥٣٧)، والرامهرمزي في أمثال الحديث (١٢٠/١، رقم ٨٤)، والقضاعي: (٩٦/٢، رقم ٩٥٧)، والخطيب في تالي تلخيص المتشابه (٥٠٩/٢، رقم ٣٠٩). وأورده القاريء في الموضوعات الكبرى (ص٨٢، رقم ٣٠٦).



وإذا كان صـــلاح الأم وبرها وطموحها الكبير وســـيلة لتحقيق هذا الأمل وبعث هذا الرجـــاء، فما بالك إذا اجتمع صـــلاح الأب والأم معا، وتضافرت جهودهما، وتكاملت خبراتهما في تنشـــئة جيل يصلح به الدين والدنيا، وكان كل منهما طموحاً إلى أن يقـــدم للأمة أملها الكبير فـــي التفافها على من يعد وحده أمة في رجل، تنهض به بعد عثرتها، وتستقيم به بعد اعوجاجها؟.

الرجل الصالح غاية أنشودة المرأة الصالحة:

إذا كان الرجل مطالبا بأن يحرص على اختيار المـــرأة الصالحة التي تكون ردءا له وعونا على الخير، وتكون نعم المحضن لذريته، فإن المرأة أيضا مطالبة أن تختار الرجل المناسب، الذي تصطفيه ليكون نعم الأب لأولادها، يجدون فيه الأســـوة الحســـنة التي يتبعونها في أعمالهم وأخلاقهم، والقدوة الصالحة التي يأتمون بها في أمر دينهم ودنياهم، ولما كانت المرأة لا تباشر بنفسها القيام بهذه المهمة وجه النبي ﷺ أولياء أمرها إلى أن يتولوا هم اختيار الرجل المناسب الذي يملأ هذا الفراغ وهم يتحملون هذه المســـؤولية، كما هو صريح ما روي عنه من قوله: «**إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه إن لا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض**»[1]، ودعك مما قيل في ضعف أسانيده، فإن العقل السليم والشرع الصحيح يؤكدان معناه، فأنى يستوي الراشـــد والغوي، أو يتعادل البر والفاجر، وقد قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ ص: ٢٨، وقال: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ

---

(١) من طريق أبي هريرة: أخرجه الترمذي (٣٩٤/٣، رقم ١٠٨٤)، وابن ماجه (٦٣٢/١، رقم ١٩٦٧)، والحاكم (١٧٩/٢، رقم ٢٦٩٥)، الطبراني في الأوسط (١٤١/١، رقم ٤٤٦)، ومن طريق ابن عمر: أخرجه ابن عـــدي (٧٢/٥، ترجمة ١٢٥١)، ومـــن طريق أبي حاتم المزنـــي: أخرجه الترمذي (٣٩٥/٣، رقم ١٠٨٥) والطبراني (٢٩٩/٢٢، رقم ٧٦٢)، وابن مردويه كما في تفســـير ابن كثير (٣٣٠/٢)، والبيهقي (٨٢/٧، رقم ١٣٢٥٩).

﴿كَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ الجاثية: ٢١، وقال: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ۞ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ القلم: ٣٥ ـ ٣٦، فكيف يتصور أن لا يجعل الإسـلام الحنيف للرجل الصالح ميزة على الرجل الفاسـد في أمر الزواج؟ وإذا كان الله تعالى ينهى الناس عن إيتاء أموالهم للسفهاء كما هو نص قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمًا﴾ النسـاء: ٥، فكيف يسلمونهم أفلاذ أكبادهم، ويربطون بهم مصيرها؟! فإن الولد أغلى وأعز على النفس من المال، ولا ريب أن الولي مؤتمن علـى موليته وهو راع لها، وفي الحديث: «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**»[(١)].

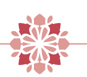
وإذا كان هو راعيها فلا غرو أن توكل هذه المسؤولية إليه، وإن كان مطالبا أن يجعل لها خيارا فـي ذلك عملا بقوله ﷺ: «**الأيم أحق بنفسـها من وليها والبكر تستأذن في نفسها وإذنها صماتها**»[(٢)]، وإذا كان لها حق الخيار فإن عليها أن لا تعدل بالبر والاستقامة شيئا.

وباجتماع هذه النظرة إلى جانب الاستقامة والصلاح من قبل الرجل والمرأة يكونان قد برا بأولادهما، حيث اختار الأب لهم الأم الصالحة، واختارت الأم لهم الأب الصالح، أما إن أساءا الاختيار فهذا هو العقوق للأولاد والعياذ بالله، ولا يلومنَّ أحد إلا نفسه فيما أقدم عليه، فكيف يلوم أحد أولاده إن عقوه وقد ابتدأهم بالعقوق قبل أن يوجدوا؟!.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/٢، رقم ٤٤٩٥)، والبخاري (٨٤٨/٢، رقم ٢٢٧٨)، ومسلم (١٤٥٩/٣، رقم ١٨٢٩)، وأبو داود (١٣٠/٣، رقم ٢٩٢٨)، والترمذي (٢٠٨/٤، رقم ١٧٠٥).

(٢) أخرجـه الربيـع: (ص٢٠٦، رقـم: ٥١١)، ومالـك (٥٢٤/٢، رقم ١٠٩٢)، وأحمـد (٢٤١/١، رقم ٢١٦٣)، ومسـلم (١٠٣٧/٢، رقم ١٤٢١)، والترمذي (٤١٦/٣، رقم ١١٠٨) وقال: حسـن صحيـح. والنسـائي (٨٤/٦، رقم ٣٢٦٠)، وابـن ماجـه (٦٠١/١، رقم ١٨٧٠)، وابن حبان (٣٩٧/٩، رقم ٤٠٨٧). وأخرجه أيضا: الشـافعي (١٧٢/١)، والدارمي (١٨٦/٢، رقم ٢١٨٨)، والبيهقي (١١٥/٧، رقم ١٣٤٣٩).



التدرج في تربية الأولاد:

التربية من ربا يربو بمعنى نشأ ونما، فهي إذن بمعنى تنشئة الأولاد وتنميتهم حسا ومعنى، فتصدق على الرعاية ودفع الأذى والوقاية من كل ما يضعفهم، أو يقعد بهم عن النمو في درجات الخير، ناهيك أن التربية والربوبية مادتهما واحدة، وما سمي الله تعالى ربا إلا لأنه يربي عباده ومخلوقاته بالخلق والإنشاء، وبالرعاية والإنماء، ومن الشواهد الدالة على أن اشتقاق الربوبية والتربية من مادة واحدة قول علقمة الفحل:

وَأَنتَ امرُؤٌ أَفضَت إِلَيكَ أَمانَتي ... وَقَبلَكَ رَبَّتني فَضِعتُ رُبوبُ

فإن الربوب جمع رب، قال ابن سيده: «رُبُوبٌ جمع رَبٍّ»[١]، وقال أبو بكر الأنباري: «ويقال في جمع الربّ: أربابٌ، وربوب، وأَرُب»[٢]، قلت: الأرباب جمع قلة، وكذلك أرب، وأما الربوب فهو جمع كثرة، وترى أن علقمة أسند تربيته إلى الربوب، فتبينت وحدة مصدر الربوبية والتربية في الاشتقاق، وإنما صدق على الله وحده أنه رب العالمين، لأنه منشئ الكائنات ومنميها ومصلحها وواقيها، وهذا يدل أن التربية التي يقوم بها المربون يندرج في تضاعيف معانيها إصلاح الذين يربونهم وتنمية مواهبهم الحسية والمعنوية، وتزكية أخلاقهم، وتوسعة مداركهم، ووقايتهم من كل ما يضر بهم، وقد ذكر ابن الأثير في التربية أنهم: «كانوا يربون المتعلمين بصغار العلوم قبل كبارها»[٣]، ومقتضى ذلك رعاية ما يمكن أن تستوعبه مداركهم في ترقيتهم بمراقي العلوم.

وإذا كانت هذه هي التربية المستفادة من تشعب معاني هذه الكلمة في دلالتها اللغوية، فإن تربية الأولاد المطلوبة من الوالدين وغيرهما لا تخرج

---

(١) ابن سيده: المخصص، ٥/٢٢٧.
(٢) ابن الأنباري: الزاهر في معاني كلمات الناس، ٢/٨٢.
(٣) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر: ٢/١٨١.



عن هذه المعاني، فهي تعني حسن الرعاية لهؤلاء الأولاد منذ ولادتهم، بل هي تبدأ ـ على الصواب ـ قبل ذلك، من لحظة انتقالهم من أصلاب آبائهم إلى أرحام أمهاتهم، فإن العشرة بين الزوجين في فراش الزوجية يؤمر أن تستحضر فيها النية الصالحة، وأن تبدأ بذكر الله تعالى، فقد قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ البقرة: ١٨٧، وقال كثير من المفسرين إن المراد بابتغاء ما كتب الله هو ابتغاء الولد الصالح، الذي يعمر الأرض بتقوى الله تعالى، وعزا ذلك ابن جرير الطبري إلى طائفة من مفسري السلف[١]، وقال القرطبي في **تفسيره**: «قال ابن عباس ومجاهد والحكم بن عيينة وعكرمة والحسن والسدي والربيع والضحاك: معناه وابتغوا الولد يدل عليه أنه عقيب قوله: فالآن باشروهن»[٢]، وقال صاحب **المنار**: «واطلبوا بمباشرتهن ما قدره لجنسكم في نظام الفطرة من جعل المباشرة سببا للنسل، أو ما عسى أن يكون كتبه لكل منكم بأن تكون مباشرتكم بقصد إحياء سنة الله تعالى في الخليقة، زاد بعضهم: لا لمحض شهوة النفس واللذة التي يشارككم فيها البهائم»[٣].

وهذا يدل على أن من طاعة الله تعالى والتقرب إليه في المباشرة الزوجية أن تكون للزوجين نية صالحة في إحياء الأرض وعمارتها بالخلف الصالح، الذي يضطلع بأمانة الله، ويحافظ على دينه، على أن هذه اللحظة التي تندمج فيها المشاعر بين الزوجين، وتنسجم فيها العواطف يؤمران أن لا يعزب عن بالهما ذكر الله تعالى، وتعويذ ما عسى أن يكون للقائهما هذا من ثمرة صالحة بهذا الذكر، فعنه ﷺ أنه قال: «**لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فإنه إن قضى بينهما ولد من**

(١) ابن جرير الطبري: جامع البيان، ١٦٩/٢.
(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ٣١٨/٢.
(٣) محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ١٤٣/٢.

ذلك لم يضره الشــيطان أبدا»[(١)]، وجاء بلفظ: «**يعجز أحدكم إذا أتى أهله أن يقول بســم الله اللهم جنبني الشيطان وجنب الشــيطان ما رزقتني فإن قضى بينهما ولد لم يضره الشيطان أبدا»**[(٢)]، وهو يدل على التعجب والتعجيب ممن يهمل ذلك.

وهذه بداية لما يقوم به الوالدان من تربية من يعلقان أملهما بأن يكون لهما قرة عين في أثناء تكونه جنينا، وقبل وضعه ينبغي لهما أن يكثرا الدعاء إلى الله بأن يجعله من عباده الصالحين.

مشــروعية التأذين علــى أذن الطفل ليكــون النداء إلى الصــلاة والفلاح أول ما يطرق سمعه:

إذا ولد المولود فإن تربيته تبدأ بذكر الله تعالى، فلذلك شرع التأذين على أذنه، كمــا روى الترمذي «عن عبيــد الله بن أبي رافع، عن أبيــه قال: «رأيت رسول الله ﷺ أذن في أذن الحسن بن علي حين ولدته فاطمة بالصلاة»، وقال: هذا حديث حسن صحيح»[(٣)]، وقد استحب كثير من العلماء أن يكون التأذين في أذنه اليمنى وتقــام الصلاة في أذنه اليســرى، وروي ذلك في حديث عن النبي ﷺ ولكنه لم يثبت عنه.

---

(١) أخرجــه الطيالســي (٣٥٢/١، رقم ٢٧٠٥)، وأحمــد (٢٨٦/١، رقم ٢٥٩٧)، والبخــاري (١١٩٦/٣، رقم ٣١٠٩)، ومســلم (١٠٥٨/٢، رقم ١٤٣٤)، وأبــو داود (٢٤٩/٢، رقم ٢١٦١)، والترمذي (٤٠١/٣، رقم ١٠٩٢)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (٦١٨/١، رقم ١٩١٩)، وابن حبان (٢٦٣/٣، رقم ٩٨٣).

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٣/١، رقم ٢١٧٨)، والبخاري (١١٩٦/٣، رقم ٣١٠٩)، وعبد بن حميد (ص ٢٣٠، رقم ٦٨٩)، وعبد الرزاق (١٩٤/٦، رقم ١٠٤٦٦).

(٣) أخرجه الترمذي (٩٧/٤ رقــم: ١٥١٤)، والحاكم (١٩٧/٣ رقم: ٤٨٢٧)، وأبو داود (٣٢٨/٤ رقم: ٥١٠٥)، والبيهقــي في الكبــرى (٥١٣/٩ رقــم: ١٩٣٠٣) وفي الشــعب (١٠٦/١١ رقم: ٨٢٥٥)، والطبراني في الكبير (٣٠٣/١ رقم: ٩٢٦)، وأحمــد (١٧٢/٤٥ رقم: ٢٧١٩٥)، والروياني (٤٥٥/١ رقم: ٦٨٢).

وليست مشروعية التأذين في أذنه إلا لأجل أن يكون أول ما تتلقاه أذنه هو تكبير الله تعالى، وذكره الذي يتوج بكلمة الإخلاص، بجانب الدعوة إلى خير عبادة وهي إقام الصلاة التي يقوم عليها قائم الدين، وتستقيم بها حياة العبد، وما يدرينا لعل هذا التأذين يرتسم في ذهنه ليبقى هاجسا في نفسه يذكره بالله، والقيام بعبادته، والحفاظ على عهده.

استمرار ذكر الله في تربية الطفل:

ينبغي أن يكون ذكر الله تعالى مصاحبا لتربية الطفل في جميع مراحل عمره، ويلقنه تدريجيا بحسب استعداده الذهني والقولي؛ لينشأ على تعظيم الله سبحانه ومعرفته وتوحيده، على أن يلقن معنى كلمة التوحيد عندما يكون متهيئا لذلك بتفتح مداركه، وفهمه لما يقال، ويعرف وجوب طاعة العباد لله وفي مقدمتها العبادات المشروعة لوصلهم بالله ﷻ، كما يلقن أن كل ما في نفسه ومن حوله في هذا العالم الفسيح مما يتمتع به من نعم الله إنما هو من الله وحده، وهو الذي أنعم عليه بخلقه، وتسخير ما سخر له، وبسط له من رزقه، وآتاه من فضله، ويسر له من النعم ما لا يحصيه عدٌّ ولا يقصيه حدٌّ، حتى ينشأ عارفا بعظمة الله ونعمته على مخلوقاته، وأنه تعالى محيط بكل شيء، فما من دابة في الأرض إلا عليه رزقها.

ويلقن ما تتسع له ملكاته من آيات الله تعالى في تنزيله، عملا بما يدل عليه قول النبي ﷺ: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**»[(١)]، وما نص عليه حديث: «**علموا أولادكم القرآن فإنه أول ما ينبغي أن يتعلم من علم الله هو**»[(٢)]، على أن

(١) من طريق عثمان أخرجه الطيالسي (ص١٣، رقم ٧٣)، وأحمد (٦٩/١، رقم ٥٠٠)، والبخاري (١٩١٩/٤، رقم ٤٧٣٩)، وأبو داود (٧٠/٢، رقم ١٤٥٢)، والترمذي (١٧٣/٥، رقم ٢٩٠٧) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (٧٦/١، رقم ٢١١)، وابن حبان (٣٢٤/١، رقم ١١٨)، ومن طريق علي: أخرجه الترمذي (١٧٥/٥، رقم ٢٩٠٩). وأخرجه أيضا: الدارمي (٥٢٨/٢، رقم ٣٣٣٧).

(٢) أخرجه الربيع بن حبيب: (ص ٢٤ رقم: ٣).

يعود على تعظيم القرآن ومراعاة حرماته، والتنافس في تعلمه وتلاوته، وقد يكون الإهداء إليه عندما يجتاز مرحلة من ذلك مما يشجعه على المضي قدما في هذه الطريق.

ثم يتدرج به في تعليمه أركان الإيمان وأركان الإسلام، وتفقيهه في دين الله، ويعود على شهود الصلوات وحضور المساجد ليتعلق قلبه بذلك، وقد جاء عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «**مروا أبناءكم بالصلاة لسبع سنين واضربوهم عليها لعشر سنين وفرقوا بينهم في المضاجع**»(١)، وعن أنس رضي الله عنه بلفظ: «مروهم بالصلاة لسبع سنين واضربوهم عليها لثلاث عشرة»(٢)، وهذا لأجل أن يتعود الصلاة ولا يستخف بها عندما يخاطب بفرضها، ولعل الاختلاف بين الروايتين لاختلاف أحوال الصبيان، فمنهم من يتسارع نموه وإدراكه، ومنهم من يكون بخلاف ذلك، ولعل في بدء فرض العقوبة على التهاون بها عندما يبلغ عشر سنوات احتياطا، لأن من الصبيان من يبلغ الحلم قبل أن يبلغ الثالثة عشرة.

وكذلك يتدرج في أمره بالصيام وغيره من الفرائض عندما تطيق قواه ذلك، وتراعى ملكاته واستعداده في تلقي العلم، فيعلم الاعتقاد الصحيح الذي نص عليه في القرآن، وتواترت به سنة النبي عليه الصلاة والسلام، كما يفقه في دين الله تعالى بقدر ما يتسع له ذهنه، ويلقن من سيرة النبي ﷺ والنبيين من قبله ما يشده إليهم ليجعل سيرتهم هي نصب عينيه وملء قلبه، ويعلم أيضا من سير السلف الصالح أصحاب النبي ﷺ، فمن بعدهم ما يشحذ همته على أن يحذو حذوهم، ويقتدي بهم في تضحياتهم العظيمة من أجل دين الله تعالى، وكذلك يعلم من الآداب

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٧/٢ رقم: ٦٧٥٦)، والحاكم (٣١١/١ رقم: ٧٠٨)، والبيهقي في السنن الكبرى (١١٩/٣ رقم: ٥٠٩٢)، والشعب (١٢٨/١١ رقم: ٨٢٨٣).

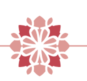
(٢) أخرجه الدارقطني (٢٣١/١، رقم ٦)، والطبراني في الأوسط (٢٥٦/٤ رقم ٤١٢٩) والحارث (٢٣٨/١، رقم ١٠٦).

والأخلاق ما يسمو بنفسه ويدفعه إلى الترفع عن الدنايا، وعشق معالي الأمور وكراهة سفاسفها، ويعود الزهد في الدنيا والتعلق بالدار الآخرة، ويرسخ في نفسه زوال الدنيا واضمحلالها، ودوام الآخرة وخلودها، وأن من سعد في الدار الآخرة فقد أحرز الخير بحذافيره، وربح ربحا لا خسارة بعده، إذ لا يعقب سعادتها شقاء، وأن من شقي في الدار الآخرة فشقاؤه أبدي لا تتبعه سعادة، فلهذا كان خسرانه مبينا، ويملأ فكره ووجدانه أن الدنيا لا تسوى بجانب الآخرة شيئا، ولو لم يكن ما بينهما إلا فناء الدنيا ودوام الآخرة لكفى، فكيف ونعيم الآخرة يفوق كل تصور، فلا يسوى نعيم الدنيا بأسرها أقل نسبة تتصور من مثقال ذرة من نعيم الآخرة، وكذلك بلاء الدنيا ونصبها ومحنها ولأواؤها لا تساوي أدنى ما يتصور من عذاب الآخرة وشقائها.

وبجانب هذه التربية الإيمانية والتزكية الدينية يشجع على ما تنجذب إليه نفسه ويميل إليه طبعه، وتتسع له ملكاته من علوم الدنيا والدين، فيختار من التخصص فيها ما هو أنسب بمداركه واستعداده؛ ليفيد أمته ويفيد الناس جميعا بما يفيض عليه من الخير الذي ينبجس ويتدفق من تخصصه العلمي، واختصاصه العملي، على أن يكون في هذا كله متقربا إلى الله ﷻ مخلصا له في علمه وعمله، مستجيبا لداعيه في سره وعلانيته، جاعلا مرضاة الله تعالى هي معقد عمله، وغاية مبتغاه، غيورا على دين الله تعالى لا يساوم على شيء منه ولو أوتي الدنيا بحذافيرها.

القدوة الصالحة والأسوة الحسنة في سلوك الأبوين أعظم وسيلة لنجاح تربية الطفل:

إن الطفل يفتح عينيه أول ما يفتحهما على أبويه، وينعكس على نفسيته ما يكون منهما من بر أو فجور أو استقامة أو انحراف، لأنهما أقرب قدوة يجدها في حياته ليقتدي بها، فالأم كما قلنا هي المدرسة الأولى، وهي المثل الأعلى للطفل في سلوكها التربوي، وأخذها وعطائها عنده أو عند غيره من الناس، ثم



عندما يتدرج في صحبة الأب يتصور أن أباه هو المثل الأعلى، والبطل الوحيد بين الرجال، فيحب أن يقتدي بأبيه في قوله وعمله، وسره وعلانيته، لهذا كان على الأبوين إن رغبا في تنشئة طفلهما على معالي الأمور، ومكارم الأخلاق، ومحاسن الطباع، أن يحرصا على تكييف أخلاقهما وأعمالهما وأقوالهما، وكل ما يصدر عنهما وفق ما تقتضيه هذه الرغبة، ليجد الطفل فيهما البر والتقوى، ومراقبة الله في السر والعلانية، والالتزام بدين الله في القول والعمل، والغيرة على حرمات الله في المكره والمنشط، والإخلاص لله تعالى في الفعل والترك، وإيثار ما عنده على ما عند الناس في الظاهر والباطن.

وهذا يعني؛ أن لا يسمع منهما فحشا في الحديث، فلا يطن على أذنه هجر من القول، ولا أي كلمة جارحة للحياء، خارجة عن الوقار، مخالفة للآداب، وأن لا يعثر في حديثهما قط على كذب عليه، ولا على أحد من الناس، إذ الطفل يتعود ما عوده إياه أبواه كما قال أبو العلاء المعري:

وَيَنشَأُ ناشِئُ الفِتيانِ مِنّا ... عَلى ما كانَ عَوَّدَهُ أَبوهُ
وَما دانَ الفَتى بِحِجىً وَلَكِن ... يُعَلِّمُهُ التَدَيُّنَ أَقرَبوهُ

وهذا مما يوحي به قول النبي ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة، فما يزال عليها حتى يعرب عنها لسانه، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»[(١)]، فإنه كما ينحرف به أبواه عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها وشرعها لعباده دينا قويما وصراطا مستقيما إلى أديان الضلال، كذلك ينحرفان به عن فضائل الأخلاق، وكرائم الأعمال وصادق الأقوال، التي تفرزها الفطرة السوية إلى ما يعاكسها، من الأخلاق الدنيئة، والأعمال الساقطة، والأقوال الكاذبة أو

(١) أخرجه أحمد (٤٣٥/٣، رقم ١٥٦٢٧)، والدارمي (٢٩٤/٢، رقم ٢٤٦٣)، وابن حبان (٣٤١/١، رقم ١٣٢)، والطبراني (٢٨٥/١، رقم ٨٣٤)، والحاكم (١٣٣/٢، رقم ٢٥٦٦)، وأبو نعيم في الحلية (٢٦٣/٨)، والبيهقي (٢٠٣/٦، رقم ١١٩٢٣)، والضياء (٢٤٩/٤، رقم ١٤٤٦).

الخبيثة المستهجنة، لهذا كان النبي ﷺ يحرص على تربية أمته على توقي الكذب في تعاملها مع الأطفال، فعن عبد الله بن عامر، أنه قال: «دعتني أمّي يوما، ورسول الله ﷺ قاعد في بيتنا، فقالت: ها، تعال أعطيك، فقال لها رسول الله ﷺ: وما أردت أن تعطيه؟ قالت: أعطيه تمرا، فقال لها رسول الله ﷺ: أما إنّك لو لم تعطيه شيئا كتبت عليك كذبة»[(١)].

وكل هذا يندرج في تضاعيف ما يشتمل عليه التوجيه الرباني في القرآن لعباد الله تعالى، كما في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ التحريم: ٦، فإن وقاية الأنفس من هذه النار تعني اتقاء كل ما يسخط الله تعالى من سيئات الأعمال وخبائث الأقوال ودنايا الأخلاق، ووقاية الأهلين منها بتجنيبهم التعرض لها بالفعل والقول، أما الفعل: فهو تجنب رب الأسرة وعميدها لكل ما يؤدي إليها مما توعد الله عليه، من معاصي الظاهر أو الباطن، ومفاسد الأقوال والأعمال، وأما القول فهو أن يكون لا يفتأ عن تذكيرهم بالله واليوم الآخر، وتحذيرهم من التعرض لسخطه على أي حال، ولا ريب أن الأولاد هم أحق الأهلين بذلك، وأولى بأن تتضافر جهود آبائهم وأمهاتهم على إبعادهم من النار بما يجدونه فيهم من الحذر الشديد من التعرض لها، ويسمعونه منهم من التحذير البالغ من كل ما يفضي إليها، فعلا كان أو تركا.

هذا؛ وإذا كان حنو الأبوة وشفقة الأمومة يرققان مشاعر الأبوين ويرهفان حسهما تجاه أولادهما، حتى يكونا دائما شديدي الحذر عليهم،

---

(١) أخرجه أحمد (٣/٤٤٧، رقم ١٥٧٤٠)، وأبو داود (٤/٢٩٨، رقم ٤٩٩١) والبيهقي (١٠/١٩٨، رقم ٢٠٦٢٨)، والضياء من طريق الطبراني (٩/٤٨٣، رقم ٤٦٦). وأخرجه أيضا: ابن أبي شيبة (٥/٢٣٦، رقم ٢٥٦٠٩).

يقلقان من كل ما يؤذيهم، ولو كان قرصة نملة أو لفحة ريح، أو رشة ماء، كما قال الشاعر:

لو هبت الريح على بعضهم لامتنعت عيني من الغمض

فكيف لا يحذران من الأفعال والأقوال والأخلاق، التي تؤدي بهم إلى سخط الله تعالى، وترديهم في نار جهنم؟ فمن الذي يطيق عذاب النار ـ والعياذ بالله ـ ؟.

وإذا كان الأبوان هما القدوة لأطفالهما ـ مع أنهما يحرصان على نجابتهم ونجاحهم في الدنيا والآخرة ـ فإن عليهما أن يحرصا على تجنب الحرام، وتعويد الأطفال على تجنبه، بحيث يتعففان من كل ما هو محرم، أو مشتبه من الأموال، أو من المطاعم والمشارب والملابس، فلا يعثر أحد من أطفالهما عليهما أو على أحدهما معاملة محرمة أو مشتبهة أو جرأة على أموال الناس، أو احتيالا على شيء منها أو اختلاسا له، وكذلك بالنسبة إلى الأعراض؛ بحيث لا تلغ ألسنتهما في عرض أحد، ولا يغتابان أحدا ولا ينمان على أحد، فلا يشهد الأطفال منهما إلا العمل الصالح، ولا يسمعون إلا الكلم الطيب من ذكر الله واستدامته، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يجدون منهما إلا الخلق الرفيع في التعامل مع جميع الناس، مع الحرص على المسارعة إلى الخيرات، من الصدقة على الفقراء والمساكين، وعون المحتاجين، وإغاثة الملهوفين، ونصرة المظلومين، والعطف على المنكوبين، والرفق بالإنسان والحيوان، وحسن التعامل حتى مع النبات والجماد، فلكل ذلك أثرٌ على نفسية الطفل، وتحديد مستقبله ورسم منهجه.

ومن أهم ما ينبغي ويجب أن يراه الطفل في أبويه الحرص على ابتغاء الكسب الحلال دون غيره، ووضع المال في محله من غير تقتير ولا تبذير، والقصد في الأخذ والعطاء، والإيثار على النفس، ومن الأهمية بمكان أن يكون تعاملهما معه يجمع بين اللطف والشدة والرقة والحزم، فمع إبدائهما العطف والحنان له عليهما أن يكونا حازمين في نهي الطفل وزجره عن الوقوع في



سفاسف الأمور، والانسياق مع رغبات النفس الأمارة بالسوء، وتقليد المفسدين، والإخلال بالآداب في الأقوال والأعمال.

ومن الأهمية بمكان حرصهما دائما على أن لا يخاطباه بما يجرح مشاعره، ويقعد بهمته، كأن يخاطباه خطاب البهائم، مثل لفظ (كلب) أو (حمار) أو (حيوان) فإنه إن اعتاد سماع ذلك منهما أسرع ذلك إلى لسانه، فيخاطب غيره بما يسمعه منهما، وكذلك الكلمات النابية التي تمس العرض والشرف، فإن حرصهما على حسن خطابه يزكي طباعه ويرقى بهمته، ويعوده التقزز والتأفف من هذه الكلمات النابية وما توحي به.

ومن الضرورة أن يدعما طموحه بتشجيعه على ما ينجزه من الخير، وما يحققه من النجاح، من غير دفعه إلى أن يعتد بنفسه وبما ينجزه حتى يصل إلى حد الغرور، فمهما كان تشجيعهما له وإشادتهما بما يحققه ينبغي أن يبقى في قرارة نفسه أن في أقرانه من يفوقه في النجاح، وإنما عليه أن يطمح ويجد ليصل إلى هذه المرتبة، إذ هي غير بعيدة عنه إن بذل في ذلك جهده.

التباين بين تربية وتربية:

قارن بين طفل يتربى بين أبوين حانيين عليه راعيين له، طامحين إلى ترقيه مراتب الخير، لا يسمع منهما إلا أطايب الكلام، ولا يشاهد منهما إلا محاسن الأخلاق، وصالحات الأعمال، وبين طفل يبتلى بأبوين جاهلين أحمقين، لا يخاطبانه إلا ببذيء القول، ولا يجد منهما إلا الشراسة في المعاملة، ولا يسمع منهما إلا الشتائم التي يكيلانها له أو لغيره، أو يتبادلانها فيما بينهما، ولا يألف منهما إلا الجرأة على محارم الله، والاستخفاف بحقوقه وحقوق عباده، والجرأة على أموالهم وأعراضهم، وعدم الاستهجان لقبائح الخصال وخبائث الأقوال، ولا يجد منهما إلا الفظاظة في القول والقسوة في المعاملة، والبعد عن الحنو والشفقة والرحمة، أيكونان سواء؟! فإن مثل هذا إن زكا طبعه وتهذبت خصاله، فتلك فلتة لم تكن إلا بعناية الله وحده ورعايته.

وترى كيف أنكر رسول الله ﷺ على الرجل القاسي، الذي يستقبح تقبيل الأطفال، فعن عائشة، رضي الله عنها قالت: «جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: تقبلون الصبيان؟ فما نقبلهم، فقال النبي ﷺ: «**أوأملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة**»»(١)، وعن أبي هريرة، أن الأقرع بن حابس أبصر النبي ﷺ يقبل الحسن، فقال: إن لي عشرة من الولد ما قبلت أحدا منهم؛ فقال رسول الله ﷺ: «**إنه لا يُرحم من لا يرحم**». وقال يونس: «**من لا يرحم لا يرحم**»(٢)، وقد جاءت هذه الرواية من طريق عائشة وأنس رضي الله عنهما، وقد استبعد عمر رضي الله عنه أحد عماله وعزله عن عمله بسبب ما لمس فيه من قسوة على أولاده، فعن محمد بن سلام قال: «استعمل عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلا على عمل، فرأى عمر يقبل صبيا له، فقال: أتقبله وأنت أمير المؤمنين؟ لو كنت أنا ما فعلته، قال عمر رضي الله عنه: فما ذنبي إن كان الله نزع من قلبك الرحمة إن الله لا يرحم من عباده إلا الرحماء، ونزعه عن عمله، فقال: أنت لا ترحم ولدك فكيف ترحم الناس؟»(٣).

فما بالك بأولئك الآباء القساة الذين لا يتصورون الرجولة والشهامة إلا في قسوتهم على أولادهم، فلا يعاملونهم إلا بالغلظة والعنف، ولا يبتسمون في وجوههم ولا يتلطفون في حديثهم إليهم، مع أن هذه الأخلاق الحسنة من البر والمرحمة هي التي يدعو إليها الإسلام، وأين ذلك من هدي الرسول ﷺ والرعيل الأول من المؤمنين، الذين كانوا أفذاذ الرجال والنوادر من الأبطال؟! ولكن لم تحل رجولتهم وبطولتهم دون التلطف بأولادهم وأهليهم، وكانت

---

(١) أخرجه أحمد (٥٦/٦، رقم ٢٤٣٣٦)، والبخاري (٢٢٣٥/٥، رقم ٥٦٥٢)، ومسلم (١٨٠٨/٤، رقم ٢٣١٧)، وابن ماجه (١٢٠٩/٢، رقم ٣٦٦٥).

(٢) أخرجه البخاري (٧/٨ رقم: ٥٩٩٧) ومسلم (١٨٠٨/٤ رقم: ٢٣١٨)، وأحمد (٢٣٦/١٢ رقم: ٧٢٨٩)، و(٨٨/١٣ رقم: ٧٦٤٩)، وابن حبان (٢٠٢/٢ رقم: ٤٥٧)، وأبو داود (٣٥٥/٤ رقم: ٥٢١٨)، والترمذي (٣٨٢/٣ رقم: ١٩١١)، والبيهقي (١٦٢/٧ رقم: ١٣٥٧٦).

(٣) انظر كنز العمال، (٢٤٦/١٦ رقم: ٤٥٩٤٩)، الدينوري في المجالسة وجوهر العلم (٣٢٥/٦ رقم ٢٧٠٩).

أخلاقهم هذه هي المعارج التي رقوها، فبلغوا بها درجات الخير، وأحرزوا بها قصبات السبق في الدنيا والآخرة، كما جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبركم بمن تحرم عليه النار، كل قريب هين لين سهل**»(١).

ومن أولى بلطف المعاملة وبشاشة المحيا ورقة القول من الأهل والأولاد، الذين تطمئن قلوبهم إلى راعيهم يرجون منه نظرة حانية تؤنس قلوبهم، وكلمة لينة تشرح صدورهم؟ ولهذا عزل عمر رضي الله عنه عامله عن العمل عندما أخبره أنه لم يقبل أحد أولاده، وهذا كله لا ينافي الحزم والقوة عندما يقتضيهما الأمر، فعمر رضي الله عنه ـ الذي أقصى عامله عن العمل بسبب ما لامس منه من غلظة الطبع وجفاء المعاملة عند أهله ـ كان نفسه شديد الحزم في معاملة أهله وأولاده لم تدفعه عاطفته تجاههم إلى أن يتساهل معهم على حساب العدل والإنصاف والحذق في المحافظة على حقوق الله وحقوق الناس، حسبكم ما روي «عن عيسى بن معمر قال: نظر عمر بن الخطاب عام الرمادة إلى بطيخة في يد بعض ولده فقال: بخ بخ يا ابن أمير المؤمنين تأكل الفاكهة وأمة محمد ﷺ هزلى فخرج الصبي هاربا وبكى فأسكت عمر بعدما سأل عن ذلك، فقالوا: اشتراها بكف من نوى»(٢).

وبالجملة؛ فإن الحزم في التربية لا ينافي رقة الطبع والحنو والرحمة، بل الحزم نفسه إنما هو وليد الرحمة، إذ لا يحب الوامق المشفق على أهله وولده أن يتعرضوا لسخط الله تعالى وعقابه، ولهذا يحزم في معاملتهم من أجل أن ينأى بهم عن ذلك.

وكما سبق، فإن القدوة الحسنة في المربي هي أعمق أثراً وأبلغ في التأثير على من يربيه، فعليه أن يكون صورة مما يحب أن يكون عليه.

---

(١) أخرجه الترمذي (٦٥٤/٤، رقم ٢٤٨٨) وقال: حسن غريب. والطبراني (٢٣١/١٠، رقم ١٠٥٦٢)، وابن حبان (٢١٦/٢، رقم ٤٧٠). وأخرجه أيضا: هناد (٥٩٦/٢، رقم ١٢٦٣).

(٢) انظر ابن سعد (٣١٥/٣).



المحور الرابع عشر

فيما يتعلق بالتوبة والوصية

إن الإنسان ـ وهو ينوء بالتكاليف الشـرعية بين ما يتجاذبه ويتدافعه من رغبـات النفس وأمانيهـا وطموحاتها، وما تتعـرض له من تقلبـات أهوائها واختلاف أحوالها، وما يصحب ذلك من نزغات الشيطان ووساوسه، وتزيين الشـهوات إليه، وتأجيج دوافع الحقد والانتقام في نفسـه ـ هو عرضة لمزلة الأقدام ومضلة الأفهام، كيف وقد توعده الشيطان منذ بداية وجود أصله، بأنه لن يزال يوسـوس في صدره، ويزين في نفسه الفساد، ويحبب إليه الشهوات، ويدفعه إلى كل مخالفة لأمر الله دفعا.

هذا؛ مع وعيد الله الشديد لكل من اتبعه وأعرض عن الله تعالى، فنسي عهده واجترأ على أمره ونهيه فعصاهما، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ الإسراء: ٦٣، وقوله: ﴿قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ۝ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ الحجر: ٤١ ـ ٤٤، وقولـه: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ۝ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ص: ٨٤ ـ ٨٥، فالأمر جدٌ والخطر كبير، والخسارة فادحة إلا فيمن وفق للاستعلاء على رغبات نفسه، والاحتراز من وساوس الشيطان.

وأنى للإنسان ذلك وهو واقع بين هذه العواصف، التي تطوح به في هذه المهالك، مع ما جبل عليه من الضعف أمام مغريات الحياة ومكائد الشيطان؟

فهو عرضة للتقصير والانحراف والغواية، لولا أن الله سبحانه جعل له سبيلا إلى تدارك نفسه عندما يفيق من سكرات حب الدنيا، والانجذاب إلى رغبات النفس، وذلك بالتوبة النصوح التي فتح الله له بابها في جميع الأوقات حتى يأتيه أمر الله.

دعوة الله عباده إلى التوبة:

إن فضل الله عظيم ورحمته واسعة، فهو أرحم الراحمين، وهو أبر بعباده، فقد جعل الحبل بينهم وبينه موصولا، يمكنهم أن يعودوا إليه متى أرادوا، لن يغلق دونهم بابه ما دامت هنالك فسحة في الأجل، وقد دعا الله ﷻ من أسرف على نفسه إلى عدم اليأس والقنوط من رحمته تعالى، فقد جعل الله تعالى له مخلصا مما أحاط به من عظائم الإجرام وكبائر الإثم بالتوبة إليه سبحانه، فلذلك حضهم عليها بقوله:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۞ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۞ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۞ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۞ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۞ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الزمر: ٥٣ ـ ٥٨.

فكم تجد في هذه الآيات الكريمة من دعوة كريمة رحيمة من رب السماوات والأرض إلى الذين أغرقتهم الخطايا، وأوبقتهم السيئات، أن ينفلتوا من إسارها، ويتحرروا من ربقتها بحسن الرجوع إلى الله تعالى، وليس ذلك بالأمر العسير، ولا بالمطلب المستعصي، فقد جعل الله من كل ذنب متابا، وإذا



كان الشـــرك بالله تعالى ـ وهو أكبـــر الكبائر وأفحش الضـــلال ـ جعل الله منه مخلصا بالإيمان، ووعد الآئبين إليه منه بغفـــران ما تقدم منهم، كما في قوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ الأنفال: ٣٨، فما بالك بما دون الشرك؟.

و«عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها**»»[1].

وفي هذا ما يدعو كل إنسان إلى أن يكثر الأوبة إلى الله، ويتدارك نفسه في ليله وفي نهاره باســتغفار الله تعالى، وعقده العزم على عــدم العودة إلى أي معصية، وحسبه أن جبار السماوات والأرض ـ مع بطشه الشديد، ونفاذ أمره في الوجود كله ـ أكرم العبد بهذا القبول، وفتح له أبواب الأوبة إليه، فالعجب ممن يتلكأ ويتثبط عن الدخول إلى الله تعالى من هذه الأبواب التي فتحها له ليصل إلى كرمه؟!.

التوبة شرف لكل تائب:

ما أعظم ما يناله العبد من الشرف العظيم، ويسعد به من منازل التكريم، إن هو تاب إلى ربه، وتحرر من أســر شهوات نفســه، ومن نزغات الشيطان، فانقلب من المعصية إلى الطاعة، ومن الغي إلى الرشــد، ومن الوحشــة إلى الأنس، ومن البعد عــن الله تعالى إلى القــرب منه، ومن الهوي إلى أســفل الدرجات إلى الرقي إلى عواليها، فليس في التوبة إلى الله تعالى عار ونقيصة، وإنما هي فضيلة يســعد بها الموفقون، ناهيكم أن الله تعالــى أمر بالتوبة إليه

---

(١) أخرجه أحمد (٣٩٥/٤، رقم ١٩٥٤٧)، ومسلم (٢١١٣/٤، رقم ٢٧٥٩)، والدارقطني في الصفات (٢٠/١، رقم ١٨). وأخرجه أيضا: عبد بن حميــد (ص ١٩٧، رقم ٥٦٢)، والروياني (٣٦٤/١، رقم ٥٥٦)، والبيهقي (١٣٦/٨، رقم ١٦٢٨١).

واستغفاره من هو أجل البشر قدرا، وأصلحهم عملا، وأبرهم قلبا، وأقربهم إلى الله تعالى، وأخلصهم له سريرة وعلانية، فقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ محمد: ١٩، وامتن عليه تعالى بأن غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر في مقام الامتنان عليه بما آتاه من الفتح المبين والنصر العزيز، إذ قال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۞ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۞ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ الفتح: ١ ـ ٣، ومنَّ عليه تعالى وعلى من معه من المؤمنين الذين كانوا خير القرون بالتوبة عليهم، فقد قال عز من قائل: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ التوبة: ١١٧.

وقد كان ﷺ أسرع الناس إلى التوبة، وأحرصهم عليها، فعن الأغر المزني، وكانت له صحبة، أن رسول الله ﷺ قال: «**إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله، في اليوم مائة مرة**»[1]، وفي حديث أبي هريرة أنه ﷺ قال: «**والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**»[2].

وقد دعا الله تعالى عباده المؤمنين إلى التوبة إليه في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ

---

(١) أخرجه أحمد (٢١١/٤، رقم ١٧٨٨١)، وعبد بن حميد (ص١٤٢، رقم ٣٦٤)، ومسلم (٢٠٧٥/٤، رقم ٢٧٠٢)، وأبو داود (٨٤/٢، رقم ١٥١٥)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (ص١٤٤، رقم ٤٤٦)، وابن حبان (٢١١/٣، رقم ٩٣١)، والبغوي (١٢٤/١، رقم ٨٩)، والطبراني (٣٠٢/١، رقم ٨٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٢٤/٥، رقم ٥٩٤٨). وأحمد (٣٤١/٢، رقم ٨٤٧٤)، والنسائي في الكبرى (١١٤/٦، رقم ١٠٢٧٠)، وابن حبان (٢٠٤/٣، رقم ٩٢٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٣٨/١، رقم ٦٣٩)، والديلمي (٣٥٦/٤، رقم ٧٠٢٤).

﴿ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ التحريم: ٨، وقوله: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ النور: ٣١، وحصر تعالى توبته فيهم عندما قال: ﴿ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ الأحزاب: ٧٣.

التباين بين التائبين والمصرين فيمن يأتمون به:

إن الفرق شاسع والبون سحيق بين التوبة والإصرار، فالتائبون إمامهم في التوبة عبد الله وصفيه آدم أبو البشر وزوجه أم البشر حواء عليهما السلام، فقد تسارعا إلى التوبة عندما وقعا في الخطيئة، كما قال تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ البقرة: ٣٧، وبين تعالى هذه الكلمات في قوله: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ الأعراف: ٢٣، وقال سبحانه: ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۞ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ طه: ١٢١ ـ ١٢٢.

فقد سن آدم عليه السلام لذريته التوبة إلى الله سبحانه، وبهذا أصبح إمام التائبين، أما المصرون فإمامهم إبليس، الذي أصر على مخالفة أمر الله تعالى، وازداد كبرا وعتوا، إذ أعلن أنه سيترصد لذرية آدم في كل طريق، وسيفتح لهم كل باب إلى التمرد والعصيان، وسيزين لهم كل مخالفة لأمر الله، فقد حكى الله قصته في أكثر من موضع تحذيرا وتنفيرا عن اتباع أمره والثقة بقوله، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۞ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ الأعراف: ١٦ ـ ١٧، وقوله: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ الإسراء: ٦٢، وقوله: ﴿ وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ۞ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۞ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾ النساء: ١١٧ ـ ١١٩.

وكل واحد من الإمامين يقـــود أتباعه إلى مصيره، فآدم عليه السلام يقود من تاب من ذريته وأحسن التوبة إلى النعيم الأبدي والفوز برضوان الله تعالى، وإبليس ـ لعنه الله ـ يقود أتباعه إلى الجحيم الأبدي والارتكاس في سخط الله تعالى، قال تعالـــى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ۝ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ۝ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ النســاء: ١١٩ ـ ١٢١، وقال ســبحانه: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ الإسراء: ٦٣، وقال تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ص: ٨٥.

وعليه فلينظر الإنسان أي المصيرين يبتغي وأي السبيلين يقتفي؟ فإن آثر الإصرار وأخلد إلى هواه فقد ابتغى أن يكون مع الشـــيطان في مصيره، ومن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فخلصها من أسر المعصية فقد ابتغى أن يكون مع جده صفي الله تعالى آدم عليه السلام، الذي تاب الله عليه وهداه، وبكل واحد من الأمرين يثبت نســبته إلى الإمام الذي اختاره لنفســه، قال الإمام أبو حامد الغزالي:

«وما أجدر بالأولاد الإقتداء بالآبـــاء والأجداد فلا غرو إن أذنب الآدمي واجترم فهي شنشنة نعرفها من أخزم ومن أشبه أباه فما ظلم ولكن الأب إذا جبر بعد ما كســـر وعمر بعد أن هدم فليكن النزوع إليه في كلا طرفي النفي والإثبات والوجود والعدم ولقد قرع آدم ســـن الندم وتندم على ما سبق منه وتقدم فمن اتخذه قدوة في الذنـــب دون التوبة فقد زلت به القدم بل التجرد لمحض الخير دأب الملائكة المقربين والتجرد للشـــر دون التلافي ســـجية الشياطين والرجوع إلى الخير بعد الوقوع في الشر ضرورة الآدميين فالمتجرد للخير ملك مقرب عند الملك الديان والمتجرد للشر شيطان والمتلافي للشر بالرجوع إلى الخير بالحقيقة إنســـان فقد ازدوج في طينة الإنســـان شائبتان واصطحب فيه سجيتان وكل عبد مصحح نسبه إما إلى الملك آو إلى آدم أو

إلى الشـيطان فالتائب قد أقام البرهان على صحة نسبه إلى آدم بملازمة حد الإنسان والمصر على الطغيان مسجل على نفسه بنسب الشيطان فإما تصحيح النسب إلى الملائكة بالتجرد لمحض الخير فخارج عن حيز الإمكان فإن الشر معجون مع الخير في طينة آدم عجنا محكما لا يخلصه إلا إحدى النارين نار الندم أو نار جهنم فالإحراق بالنار ضروري في تخليص جوهر الإنسان من خبائث الشيطان وإليك الآن اختيار أهون النارين والمبادرة إلى أخف الشرين قبل أن يطوى بساط الاختيار ويساق إلى دار الاضطرار إما إلى الجنة وإما إلى النار»[1].

الحض على المسارعة إلى التوبة والتحذير من تسويفها:

ما أجدر بالإنسان ـ وهو عرضة للخطايا وغرض لمكائد الشيطان ـ أن يكون يقظا حذورا، وأن يسارع إلى التوبة في جميع أحواله، وأن لا يسوفها ساعة بعد ساعة، ويوما بعد يوم، طمعا في أن يفوز بها ـ ولو بعد حين ـ بعدما يعطي نفسه هواها ويمتعها بشهواتها، فأنى له بضمان أن يبلغ أمنيته وأن يستطيع أن يخلص نفسه من آثار شهواتها، وأن يتحرر من طاعة الشيطان والاستئسار لوساوسه؟!! فقد دعاه الله تعالى إلى تعجيل التوبة وحسن الأوبة إليه كما في قوله:

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۞ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٥.

(١) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ٢/٤ ـ ٣.

وحذر سبحانه المؤمنين من مغبة المعاصي وإهمال التوبة منها، فبعد تحذيرهم من طائفة من المعاصي التي اعتاد الناس التساهل فيها والاستهانة بها، قال: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ الحجرات: ١١.

وبين تعالى لمن تكون التوبة في قوله: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ النساء: ١٧، وقد أوضح الله تعالى في هذه الآية الكريمة أن من فضل الله على عباده أن كتب لهم على نفسه قبول التوبة عندما يسارعون إليها من قريب، قبل أن ترين المعصية على قلوبهم فتصبح أسيرة لها لا تجد سبيلا إلى الفكاك منها، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ المطففين: ١٤، وكما جاء في حديث أبي هريرة: «عن رسول الله ﷺ قال: «**إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكر الله**» ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾»[١].

فما أخطر الرين الذي يظلم معه القلب وتنطمس به البصيرة، ويردي من استساغ الآثام وَهَوِيَ المعاصي في دركات الجحيم والعياذ بالله، وقد بين الحديث الشريف أن تلك هي عاقبة الإصرار على الخطايا، وعدم الإقلاع منها والنزوع عنها، وهذا ما دل عليه القرآن، فبعد أن رجى الله تعالى عباده التائبين بأن يتوب عليهم ويعفو عنهم عندما يسارعون إلى التوبة بين عاقبة المصرين في قوله: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٩٧، رقم ٧٩٣٩)، والترمذي (٥/٤٣٤، رقم ٣٣٣٤) وقال: حسن صحيح. والنسائي في الكبرى (٦/١١٠، رقم ١٠٢٥١)، وابن ماجه (٢/١٤١٨، رقم ٤٢٤٤)، وابن أبي الدنيا في التوبة (ص ١٤٣، رقم ١٩٨ ط مكتبة القرآن)، وابن حبان (٧/٢٧، رقم ٢٧٨٧)، والحاكم (١/٤٥، رقم ٦) وقال: صحيح. والبيهقي في شعب الإيمان (٥/٤٤٠، رقم ٧٢٠٣).



ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ النساء: ١٨.

وذكر صاحب **المنار** في تفسيره للآيتين ما يتميز به كل واحد من الفريقين، وذلك في قوله: «لما ذكر ـ تعالى ـ أن التوبة مع الإصلاح تقتضي ترك العقوبة على الذنب في الدنيا ووصف نفسه بالتواب الرحيم، أي الذي يقبل التوبة من عباده كثيرا، ويعفو بها عنهم ـ عقب ذلك ببيان شرط قبول التوبة فقال: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ النساء: ١٧، أي إن التوبة التي أوجب الله ـ تعالى ـ قبولها على نفسه بوعده الذي هو أثر كرمه، وفضله ليست إلا للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فالسوء: هو العمل القبيح الذي يسوء فاعله إذا كان عاقلا سليم الفطرة كريم النفس، أو يسوء الناس، ويصدق على الصغائر والكبائر. والجهالة: الجهل وتغلب في السفاهة التي تلابس النفس عند ثورة الشهوة، أو سورة الغضب فتذهب بالحلم، وتنسي الحق، والمراد بالزمن القريب: الوقت الذي تسكن فيه تلك الثورة، أو تنكسر به تلك السورة، ويثوب إلى فاعل السيئة حلمه، ويرجع إليه دينه وعقله، وذهب جمهور المفسرين إلى تفسير الزمن القريب بما قبل حضور الموت، واحتجوا على ذلك بالآية الثانية التي تنفي قبول توبة الذين يتوبون إذا حضر أحدهم الموت.

وليس ذلك بحجة لهم؛ لأن الظاهر أن هذه الآية بينت الوقت الذي تقبل فيه التوبة من كل مذنب حتما، والآية الثانية بينت الوقت الذي لا تقبل فيه توبة مذنب قط، وما بين الوقتين مسكوت عنه، وهو محل الرجاء والخوف، فكلما قرب وقت التوبة من وقت اقتراف الذنب كان الرجاء أقوى، وكلما بعد الوقت بالإصرار، وعدم المبالاة، والتسويف كان الخوف من عدم القبول هو الأرجح؛ لأن الإصرار قد ينتهي قبل حضور الموت بالرين، والختم، وإحاطة الخطيئة».

إلى أن قال: «وكم غرت هذه العبارة النــاس وجرأتهم على الإصرار على الذنوب، والآثام، وأوهمتهم أن المؤمن لا يضره أن يصر على المعاصي طول حياته إذا تاب قبل بلوغ روحه الحلقوم، فصار المغرورون يسوفون بالتوبة حتى يوبقهم التسويف، فيموتوا قبل أن يتمكنوا من التوبة، وما يجب أن تقرن به من إصلاح النفس بالعمل الصالح، كما في الآية السابقة، وآيات أخرى في معناها، كقوله ـ تعالــى ـ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ طه: ٨٢، وقوله في حكاية دعاء الملائكة للمؤمنين: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ غافر: ٧.

ولا ينافي ذلك ما ورد من الأحاديث، والآثار فــي قبول التوبة إلى ما قبل الغرغرة. كحديث ابن عمر عند أحمد، والترمذي: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»، فإن المقصود من هذا أنه لا يجوز لأحد أن يقنط من رحمة ربه، وييأس من قبوله إياه إذا هو تاب وأناب إليه ما دام حيا، وليس معناه: أنه لا خوف على العبد من التمادي في الذنوب إذا هو تاب قبيل الموت ولو بســاعة؛ فإن حمله على هذا المعنى مخالــف لهدي كتاب الله في الآيات التــي ذكرنا بعضها آنفا، ولسننه في خلق الإنسان من حيث إن نفسه تتدنس بالذنوب بالتدريج.

فإذا طال الأمــد على مزاولتها لهــا تتمكن فيها، وترســخ، فلا تزول إلا بتزكيتها بالعمل الصالح في زمن طويل يناســب زمن الدنس مع ترك أسباب الدنس، وأما الترك وحده فلا يكفي، كما إذا وردت الأقذار، والأدناس الحسية على ثوب زمنا طويلا، فإنه لا ينظف بمجرد انقطاعها عنه. على أن المعاصي إذا تكررت تصير عادات تملك على النفس أمرها حتــى تصير التوبة بمجرد الترك من أعسر الأمور وأشــقها؛ لأنها تكون عبارة عن اقتلاع الملكات التي تكيف بها المجموع العصبي، فما أخسر صفقة المسوفين الذين يغترون بكلام أسرى العبارات وغير المفسرين!» اهـ[1].

(١) محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ٣٦٢/٤.



وقد تبين لك مما ذكره استلهاما من القرآن والسنة أن المعصية ـ والعياذ بالله ـ إذا تراكمت آثارها على القلب نسي الإنسان نفسه، بإهمالها وعدم المبالاة بمصيرها حتى يردى في دركات الجحيم مع الشيطان وحزبه، ونسي ربه بعدم الحرص على طاعته، وقد حذر الله تعالى من ذلك المؤمنين في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۞ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ الحشر: ١٨ ـ ١٩، وأتبع ذلك بيان التباين بين مصيري الفريقين، إذ قال: ﴿ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾ الحشر: ٢٠، لذلك كانت التوبة لمن بادر بها معصيته، فأقلع عن غيه، وأناب إلى ربه قبل أن تستحكم في هواه، فتسد عليه مسالك التفكير في مصيره.

والقلب سريع التأثر بما يصدر من العبد من أعمال برا أو فجورا، فهو يزكو ويطهر إن برَّ، ويتدسى ويتدنس إن فجر، كما قال تعالى: ﴿ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۞ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۞ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ الشمس: ٧ ـ ١٠، وليس وراء تزكيتها بالبر إلا الفلاح، ولا وراء تدسيتها بالفجور إلا الخيبة، فلينظر الإنسان إلى ما يراه الأولى به من المصيرين.

وقد أجاد العلامة صاحب **المنار** عندما مثل القلب بالثوب إن اعتني بتنظيفه مما يدنسه من الأدناس، أو أهمل حتى تراكمت عليه، فإن سُورِع إلى تطهيره وتنظيفه كان من السهل أن يعود إلى ما كان عليه، وإن ترك للأدناس تتوالى عليه طبقة بعد أخرى؛ كان من العسير أن يرد إلى طبيعته.

ويصدق عليه ـ أيضا ـ أنه كالمرآة عندما يعرض لها الصدأ؛ فإن تركت كان من العسير أن تجلى بعد ذلك، وإن سُورِع إلى إزالة الصدأ عنها عادت كما كانت، وهكذا القلوب تصدأ بالمعاصي وتنجلي بالتوبة، فما أحرى أولي البصائر أن يتسارعوا إلى تنظيف قلوبهم من رجس الآثام قبل أن ترين عليها.

وكم تجد في الناس من لا يبالي بتتابــع خطاياه وإن خوطب بالتوبة أمل نفسه ورجَّى عاذله أن المستقبل فســيح وأن التوبة ستأتي ولو بعد حين، وهنا مكمن الخطر، إذ لا يدري أحد ما بين يديه من فسحة الأجل، فلعله أضيق من سم الخياط، وهو يخاله أوسع من رحاب الفضاء، وإذا كان يعسر عليه في حينه أن يقلع عن خطاياه ويتخلص من أوزاره فكيف به في المستقبل، عندما تتراكم آثار الفجور على قلبه حتى ينسى ربه فينسيه نفسه؟!.

خطر أماني المغفرة وإن لقي الله بالخطايا:

إن أخطر ما يهدد سلامة الإنسان أن يمني نفسه بمغفرة من ربه ولو أحاطت به خطاياه!! فإن هذا الداء العضال هو الذي أصاب الأمم من قبل فأرداها، كما ذكر الله تعالى ذلك في قولــه: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُ ﴾ الأعــراف: ١٦٩، مع أن الله تعالى حذر من الاغترار بالأماني وإهمال الحزم في الاستعداد للقاء الله تعالى، فقد قال سبحانه: ﴿ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴾ النســاء: ١٢٣، وقــال سبحانه: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾ الأنعام: ١٦٠، وقال عز من قائل: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ۝ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ النمل: ٨٩ ـ ٩٠، وقــال تعالى: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ القصص: ٨٤، وقال: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ غافر: ١٧، وقال: ﴿ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ غافــر: ٤٠،

وقال ﷻ: ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الجاثية: ٢٢، وقال: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ النجم: ٣١.

وبين تعالى أن الفوز في الدار الآخرة إنما هو للمتقين، كما في قوله: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ آل عمران: ١٥، وأتبع ذلك كشف خصائصهم في قوله: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۞ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ آل عمران: ١٦ ـ ١٧، وكذلك قوله: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ آل عمران: ١٣٣، ثم بين أوصاف هؤلاء المتقين، فقال: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ۞ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ آل عمران: ١٣٤ ـ ١٣٥.

وقوله: ﴿لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ آل عمران: ١٩٨، وقوله: ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الأنعام: ٣٢، وقوله: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يوسف: ١٠٩، وقوله: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ مريم: ٦٣، وقوله: ﴿وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الزخرف: ٣٥، وقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾ الحجر: ٤٥ ـ ٤٦، وقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ الذاريات: ١٥ ـ ١٦، ثم بين كيف بلغوا درجة المتقين المحسنين في قوله: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۞ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۞ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ الذاريات: ١٧ ـ ١٩،



وقولــه: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ القلم: ٣٤، وقولــه: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ النبأ: ٣١، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾ المرسلات: ٤١، وقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ الليل: ٥ ـ ٧.

وبين الله ســبحانه أن الناس بين متعلق بالدنيا سالك طريقها، وبين من يريد الآخرة ويســعى لها ســعيها، وأن كل فريق منهما ينتهــي إلى مصيره المحتوم بحسب مســيره المعلوم، ولا يشتركان في مصير واحد، وذلك في قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ هود: ١٥ ـ ١٦، وقوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ الإسراء: ١٨ ـ ١٩، وقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ الشورى: ٢٠، وقوله: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ النازعات: ٣٧ ـ ٤١.

وأنت ترى أنه تعالى بين في هذه الآيــات أن المتعلق بالآخرة الذي يفوز بالجنة لا بد له من أن يسعى لها ســعيها مع الإيمان التام، واليقين الصادق، وخوفه من مقام ربه، ونهيه النفس عن هواهــا، وأين هذه الأحوال ممن يغدو ويمسي على معصية الله تعالى غير مرعو ولا مدكر؟!.

وعجب الله تعالى عباده من ظن أن يتساوى عنده البررة والفجرة، فقد قال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ ص: ٢٨، وقال: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ الجاثية: ٢١، وقال: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۞ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ القلم: ٣٥ ـ ٣٦، وكثيرا ما يتعلق الذين يمنون أنفسهم أماني المغفرة من غير توبة بأن الله وصف نفسه أنه غفور رحيم، وأن رحمته وسعت كل شيء، وذهلوا عن كونه تعالى بين لمن تكون مغفرته، فقد حصر الله مغفرته في التائبين في قوله: ﴿ إِن تَكُونُوا۟ صَـٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾ الإسراء: ٢٥، ففي هذه الآية اشترط للمغفرة صلاح المغفور عليهم أولا، والشرط كما هو معلوم هو الذي «يلزم من عدمه العدم، ولا يلزم من وجوده وجود ولا عدم لذاته»[(١)]، وبين ثانيا أن مغفرته للأوابين دون غيرهم، وذلك بتقديم المعمول على العامل، وهو مما يفيد الحصر باتفاق الجميع، والأوابون جمع أواب، وهو كثير الأوبة إلى الله، بحيث لا يتباطأ إن وقع في معصية أن يقلع عنها ويتوب منها.

ونص على هذا المفسرون كما في قول القرطبي: «وعد بالغفران مع شرط الصلاح والأوبة بعد الأوبة إلى طاعة الله سبحانه وتعالى قال سعيد بن المسيب: هو العبد يتوب ثم يذنب ثم يتوب ثم يذنب، وقال ابن عباس رضي الله عنه : الأواب: الحفيظ الذي إذا ذكر خطاياه استغفر منها، وقال عبيد بن عمير: هم الذين يذكرون ذنوبهم في الخلاء ثم يستغفرون الله عز وجل وهذه الأقوال متقاربة»[(٢)]، «وقال أهل

---

(١) تشنيف المسامع بجمع الجوامع ٧٢٠/٢، تهذيب الفروق والقواعد السنية في الأسرار الفقهية بحاشية الفروق ٦٠/١، الفروق ١٠٦/٢، شرح تنقيح الفصول ٨٢/١، شرح مختصر الروضة ٤٣٥/١، البحر المحيط في أصول الفقه ٤٣٧/٤، القواعد والفوائد الأصولية وما يتبعها من الأحكام الفرعية ١٣٠/١، التحبير شرح التحرير ١٠٦٧/٣، غاية الوصول في شرح لب الأصول ١٣/١، حاشية العطار ٥٥/٢، المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ١٦٢/١، المطلق والمقيد، لحمد الصاعدي ٤٥٣/١، المهذب في علم أصول الفقه المقارن ٤٣٣/١، الشرح الكبير لمختصر الأصول ١٣٥/١، التمهيد شرح مختصر الأصول من علم الأصول ١٦/١، شرح النيل وشفاء العليل ١٧٦/١٥.

(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ٢٤٧/١٠.

اللغة: الأواب الرجاع الذي يرجع إلى التوبة والطاعة، من آب يؤوب إذا رجع. قال الله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ ق: ٣٢»[1].

ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ طه: ٨٢، فقد اشترط فيه للمغفرة أربعة شروط، وهي التوبة، والإيمان، والعمل الصالح، ثم الاهتداء، وهذا كله مما يباين الإصرار والاستمرار على المعصية، فأين هذه الأوصاف ممن يغدو ويروح على معصية الله تعالى غير مبال بعواقبها ولا مستحي من الله أن يلقاه بها؟.

أما رحمة الله التي وسعت كل شيء، فقد بين الله سبحانه من يستحقها من عباده، إذ قال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ۞ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الأعراف: ١٥٦ ـ ١٥٧، فأنت ترى أن رحمته سبحانه خصصها للمتقين، ووصفهم بالعديد من أوصاف البر والصلاح، في مقدمتها اتباع النبي الأمي والإيمان به وتعزيره ونصرته واتباع النور الذي أنزل معه، ويا ترى هل يتحقق هذا فيمن يغدو ويروح على كبائر الإثم، مع الإصرار عليها؟!!.

ماهية التوبة:

التوبة لغة: بمعنى الأوبة وهي الرجوع، ويراد بها في الشرع: الرجوع إلى الله بالإقلاع عن المعصية والتزام الطاعة، قال في اللسان: «التوبة: الرجوع من الذنب» إلى أن قال: «وتاب إلى الله يتوب توبا وتوبة ومتابا: أناب ورجع عن

(١) ابن منظور: لسان العرب، ٢١٩/١.



المعصية إلى الطاعة»[١]، ونص على هذا المفسرون قال الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ «يقول تعالى ذكره: شـديد عقابه لمن عاقبه من أهل العصيان له، فلا تتكلوا على سعة رحمته، ولكن كونوا منه على حذر، باجتناب معاصيه، وأداء فرائضه، فإنه كما أن لا يؤيـس أهل الإجرام والآثام من عفوه، وقبول توبة من تاب منهم من جرمه، كذلك لا يؤمنهم من عقابه وانتقامه منهم بما استحلوا من محارمه، وركبوا من معاصيه»[٢].

والذي يفهم من أدلة الشرع أن التوبة إلى الله تعالى لا تتحقق إلا باجتماع أربع أمور:

أولها ـ وهو أهمها ـ: الندم. فإن غير النادم ليـس بتائب، وبالندم يتحقق الإقلاع عن المعصية والعزم على عدم العودة إليها، وقد روي عن النبي ﷺ من أكثر من طريق أنه قال: «**التوبة الندم**»[٣]، ولا يعني ذلك أن التوبة محصورة في الندم وحده، وأنها لا تسـتلزم شـيئا آخر، كلا؛ وإنما الندم أهم أركانها، وبها تتحقق بقية الأركان.

ثانيها: الإقلاع عن المعصية، فإن المتمادي في معصيته ليس بتائب.

ثالثها: عقد العزم على عدم العودة إليها، كما لا تعود الألبان إلى ضروعها.

رابعها: طلب الغفران من الله تعالـى، كما قال ﷻ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ محمد: ١٩، وقـال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ آل عمران: ١٣٥،

---

(١) ابن منظور: لسان العرب، ٢٣٣/١.

(٢) الطبري: جامع البيان، ٣٥٠/٢١ ـ ٣٥١.

(٣) جزء من حديث ذكره الحميدي في مسـنده (٣٠١/١ رقم: ٢٨٦) بلفظ: قال أبو بكر ربما قال سفيان بسنده: «إن كنت بذنب ألممت فاستغفر الله فإن التوبة الندم والاستغفار»، وكذلك روي بلفظ قريب عند البيهقي في شعب الإيمان (٣٨١/٥، رقم ٧٠٢٧). وأحمد (٢٦٤/٦، رقم ٢٦٣٢٢).



وقال: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا﴾ النساء: ٦٤، وهذا الذي فهمه كثير من علماء الأمة.

قال الطبري: «ما التوبة على الله لأحد من خلقه، إلا للذين يعملون السوء من المؤمنين بجهالة ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾ النساء: ١٧، يقول: ما الله براجع لأحد من خلقه إلى ما يحبه من العفو عنه والصفح عن ذنوبه التي سلفت منه، إلا للذين يأتونه ما يأتونه من ذنوبهم جهالة منهم وهم بربهم مؤمنون، ثم يراجعون طاعة الله ويتوبون منه إلى ما أمرهم الله به من الندم عليه والاستغفار وترك العود إلى مثله من قبل نزول الموت بهم»[(١)].

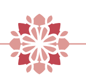
وذكر في موضع آخر: «أن التوبة لا تكون توبة إلا ممن ندم على ما سلف منه، وعزم منه على ترك المعاودة، وهو يعقل الندم، ويختار ترك المعاودة»[(٢)].

وقال ابن عطية: «وحد التوبة: الندم على فارط فعل، من حيث هو معصية الله ﷻ، وإن كان الندم من حيث أضر ذلك الفعل في بدن أو ملك فليس بتوبة، فإن كان ذلك الفعل مما يمكن هذا النادم فعله في المستأنف فمن شروط التوبة العزم على ترك ذلك الفعل في المستأنف، وإلا فثم إصرار لا توبة معه، وإن كان ذلك الفعل لا يمكنه، مثل أن يتوب من الزنا فيجب بأثر ذلك ونحو ذلك، فهذا لا يحتاج إلى شرط العزم على الترك»[(٣)].

وقال أيضا: «وحقيقة التوبة: الإقلاع عن المعاصي والإقبال والرجوع إلى الطاعات، ويلزمها الندم على ما فات، والعزم على ملازمة الخيرات»[(٤)].

---

(١) الطبري، جامع البيان، ٨/٨٨.
(٢) المرجع السابق، ٨/٩٧.
(٣) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ٢/٢٣.
(٤) المرجع السابق، ٥/٣٥.



وقال كذلك: «والتوبة الندم على فارط المعصية والعزم على ترك مثلها في المستقبل، وهذا من المتمكن، وأما غير المتمكن كالمجبوب في الزنا فالندم وحده يكفيه»[١].

وذكر الرازي عن الإمام أبي حامد الغزالي أنه قال: «التوبة تتحقق من ثلاثة أمور مترتبة، علم وحال وعمل، فالعلم أول والحال ثان والعمل ثالث، والأول موجب للثاني، والثاني موجب للثالث إيجابا اقتضته سنة الله في الملك والملكوت، أما العلم فهو معرفة ما في الذنب من الضرر وكونه حجابا بين العبد ورحمة الرب، فإذا عرف ذلك معرفة محققة حصل من هذه المعرفة تألم القلب بسبب فوات المحبوب، فإن القلب مهما شعر بفوات المحبوب تألم، فإذا كان فواته بفعل من جهته تأسف بسبب فوات المحبوب على الفعل الذي كان سببا لذلك الفوات فسمي ذلك التأسف ندما، ثم إن ذلك الألم إذا تأكد حصلت منه إرادة جازمة ولها تعلق بالحال وبالمستقبل وبالماضي، أما تعلقها بالحال فبترك الذنب الذي كان ملابسا له وأما بالمستقبل فالعزم على ترك ذلك الفعل المفوت للمحبوب إلى آخر العمر. وأما بالماضي فبتلافي ما فات بالجبر والقضاء إن كان قابلا للجبر، فالعلم هو الأول وهو مطلع هذه الخيرات وأعني به اليقين التام بأن هذه الذنوب سموم مهلكة، فهذا اليقين نور وهذا النور يوجب نار الندم فيتألم به القلب حيث أبصر بإشراق نور الإيمان أنه صار محجوبا عن محبوبه كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة فيطلع النور عليه بانقشاع السحاب، فرأى محبوبه قد أشرف على الهلاك فتشتعل نيران الحب في قلبه فتنبعث من تلك النيران إرادته للانتهاض للتدارك، فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي ثلاثة معان مترتبة في الحصول [على التوبة]. ويطلق اسم التوبة على مجموعها

---

(١) المرجع السابق، ٣٣٤/٥.

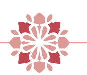
وكثيرا ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ويجعل العلم السابق كالمقدمة والترك كالثمرة والتابع المتأخر. وبهذا الاعتبار، قال عليه السلام: «**الندم توبة**»، إذ لا ينفك الندم عن علم أوجبه وعن عزم يتبعه فيكون الندم محفوفا بطرفيه، أعني مثمره وثمرته»[١].

وقال أبو الحسن علي النيسابوري: «معنى التوبة في اللغة: الرجوع. وفي الشريعة: رجوع العبد من المعصية إلى الطاعة، فالعبد يتوب إلى الله والله يتوب عليه، أي يرجع عليه بالمغفرة، والعبد تواب إلى الله أي راجع إليه بالندم، والله تواب يعود عليه بالكرم، والعبد تواب إلى الله بالسؤال، والله تواب عليه بالنوال»[٢].

وذكر ابن القيم أن التوبة «تتضمن العزم على فعل المأمور والتزامه فلا يكون بمجرد الإقلاع والعزم والندم تائبا، حتى يوجد منه العزم الجازم على فعل المأمور، والإتيان به، هذا حقيقة التوبة، وهي اسم لمجموع الأمرين، لكنها إذا قرنت بفعل المأمور كانت عبارة عما ذكروه، فإذا أفردت تضمنت الأمرين، وهي كلفظة التقوى التي تقتضي عند إفرادها فعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه، وتقتضي عند اقترانها بفعل المأمور الانتهاء عن المحظور.

فإن حقيقة التوبة الرجوع إلى الله بالتزام فعل ما يحب، وترك ما يكره، فهي رجوع من مكروه إلى محبوب، فالرجوع إلى المحبوب جزء مسماها، والرجوع عن المكروه الجزء الآخر، ولهذا علق سبحانه الفلاح المطلق على فعل المأمور وترك المحظور بها، فقال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ النور: ٣١، فكل تائب مفلح، ولا يكون مفلحا إلا من فعل ما أمر به

(١) الرازي: التفسير الكبير، ٤٦٦/٣.
(٢) أبو الحسن النيسابوري، التفسير البسيط، ٤٠٩/٢.



وترك ما نهي عنه، وقال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ الحجرات: ١١، وتارك المأمور ظالم، كما أن فاعل المحظور ظالم، وزوال اسم الظلم عنه إنما يكون بالتوبة الجامعة للأمرين»[(١)].

وقال أيضا: «فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، وإذا محا أثر الذنب بالتوبة صار وجوده كعدمه فكأَنه لم يكن، فيعود إلى مثل حاله. قالوا: ولأَن التوبة هي الرجوع إلى الله بعد الإباق منه، فإن المعصية إباق العبد من ربه، فإذا تاب إلى الله فقد رجع إليه»[(٢)].

وقال حقي في تفسيره قول الله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ النور: ٥: «وعطف قوله وَأَصْلَحُوا على قوله إِلَّا الَّذِينَ تابُوا يدل على أن التوبة وحدها وهي الندم على ما مضى من الارتداد والعزم على تركه في المستقبل لا تكفي حتى ينضاف إليها العمل الصالح أي وأصلحوا باطنهم مع الحق بالمراقبات ومع الخلق بالمعاملات وهذا الندم والتوبة إنما يحصل لمن لم ترسخ فيه بعد هيئة استيلاء النفس الأمارة على قلبه ولم تصر ريناً وبقي فيه من وراء حجاب صفات النفس مسكة من نور استعداده فيتداركه الله برحمته وتوفيقه فيندم ويواظب على الرياضات من باب التزكية والتصفية»[(٣)].

وقال قطب الأئمة: «والتوبة: الرجوع، فتوبة الله على عبده: رجوعه عليه بالرحمة، وقبول ندمه، وتوبة العبد: رجوعه عن الذنب والندم عليه، والعزم على عدم العود إليه»[(٤)].

---

(١) ابن القيم: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ٣١٣/١.
(٢) ابن القيم: طريق الهجرتين وباب السعادتين، ص: ٢٣١.
(٣) أبو الفداء حقي، روح البيان: ٥٩/٢.
(٤) امحمد يوسف إطفيش: هميان الزاد، ٢٦٨/١.

وقال أيضا: «وإنما يحصل الاستغفار بالندم، وأما مجرد الاستغفار باللسان، فلا يزول بــه الذنب، كما لا يحصــل الذنب بخطأ اللســان، وكما لا يحصل الاستغفار بخطأ اللسان بالاستغفار»(١).

وقال أيضا: «والتوبة باحتراق القلب علــى المعصية، والندم والعزم على تركها، وخوف العقاب، ورد المظالم إن كانت عن المظلمة»(٢).

وقال العلامة ابن عاشور: «وأصل معنى تاب رجع ونظيره ثاب بالمثلثة، ولما كانت التوبة رجوعا من التائب إلى الطاعة ونبــذا للعصيان وكان قبولها رجوعا من المتوب إليه إلى الرضى وحســن المعاملة وصــف بذلك رجوع العاصي عن العصيــان ورجوع المعصي عن العقاب فقالــوا تاب فلان لفلان فتاب عليه لأنهم ضمنوا الثاني معنى عطف ورضى فاختلاف مفادي هذا الفعل باختلاف الحرف الذي يتعدى به وكان أصله مبنيا على المشاكلة»(٣).

وقال العلامة ابن باديس: «والتوبة، هي الرجوع عن الذنب ولا يكون إلّا بالإقلاع عنه، واعتبر فيها الشرع الندم على ما فات، والعزم على عدم العود، وتدارك ما يمكن تداركه. فيظهر أن الأوبة أعم من التوبة: فتشمل من رجع إلى ربه تائباً من ذنبه، ومن رجع إليه يسأله ويتفرع إليه أن يرزقه التوبة من الذنوب»(٤).

وقد تحصحص من هذا أن توبة العبد إلى الله سبحانه هي رجوعه إليه بترك ما نهى عنه، وفعل ما أمر به مع الندم على ما فرط منه، وعقد العزم على عدم العودة إليه مع إصلاح ما أفســد، وهذا يعني أن معصيته إن كانت ترتب عليها

(١) المرجع السابق، ٢٦٤/٣.
(٢) المرجع السابق، ١٠٤/٦.
(٣) ابن عاشور: التحرير والتنوير: ٤٣٨/١.
(٤) ابن باديس: في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص: ٧٦.



إفســـاد فيما بينه وبين ربه أو بينه وبين خلقه يجب عليه أن يصلح ما أفسده، ويكون ذلك فيما بينه وبين ربه، فيما لو أمر بالمنكر أو نهى عن المعروف، أو تكلم في حكمه بغيــر علم، فأباح ما حرم أو حرم ما أباح، أو بدل شــيئا من أحكامه، فإن عليه أن يرجع في ذلك فيمحو أثر هذا الفســاد بنهيه عن المنكر الذي أمر به، وأمره بالمعروف الذي نهى عنه، وبيان حكم الله تعالى فيما بدل.

وكذلك إن كان ذلك فيما بينه وبين الناس، ســواء ما يتعلق بأنفســهم أو أموالهم أو أعراضهم، فإن عليه أن يصلح ما أفسد، ويؤدي إليهم ما ترتب على فعله من الحقوق المفروضة لهم، إلا إن أسقطوا ذلك الحق طواعية باختيارهم، ويدل على هذا ما في مســند الربيع بن حبيب عن أبي عبيدة رحمهما الله أنه قال: «سمعت ناسا من الصحابة يروون عن النبي ﷺ قال: **الذنوب على وجهين ذنب بين العبد وربه وذنب بين العبد وصاحبه فالذنب الذي بين العبد وربه إذا تاب منه كان كمن لا ذنب له وأما ذنب بينه وبين صاحبه فلا توبة له حتى يرد المظالم إلى أهلها**»[(١)].

الاستغفار من الذنب:

ومع هذا؛ فإن عليه أن يستغفر الله تعالى، لأن الإقدام على الذنب اجتراء على الله، والاستغفار هو انكسار وذل بين يديه واعتراف بالخطأ الذي وقع فيه، فلذلك لا بد منه، على أن التوبة المقبولة لا بد أن تكــون توبة نصوحا، فإنها هي التي تمحو الخطيئة، وتجلو القلب مما لابســه من الرين الناشيء عن المعصية، ومن السلف من فسر التوبة النصوح بالاستغفار مع الإقلاع عن المعصية وعقد العزم على عدم العودة إليها مع الندم، قال البغوي: «واختلفوا في معناها قال عمر وأبي ومعاذ: «التوبة النصوح» أن يتوب ثم لا يعود إلى الذنب، كما لا يعود اللبن إلى الضرع. قال الحسن: هي أن يكون العبد نادما على ما مضى؛ مجمعا على ألا يعود

(١) أخرجه الربيع بن حبيب (ص ٢٦٨ رقم: ٦٩١).

فيه. قال الكلبي: أن يستغفر باللسان ويندم بالقلب ويمسك بالبدن. قال سعيد بن المسيب: توبة تنصحون بها أنفسكم. قال القرظي: يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان والإقلاع بالأبدان وإضمار ترك العود»[(١)].

وعندي أن الاستغفار لا بد منه للتائب، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ غافر: ٥٥، وقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ محمد: ١٩، والأمر للوجوب ما لم تصرفه عنه قرينة، وأنى بالقرينة الصارفة عنه؟! مع أن القرائن جميعا تؤكد الوجوب.

أما ما قيل من أن الاستغفار هو عين التوبة التي هي الندم والإقلاع وعقد العزم على عدم العودة إلى المعصية ولو لم يستغفر بلسانه، فهو مردود، لأن النبي ﷺ أمر بأن يستغفر لذنبه وللمؤمنين والمؤمنات، مع أنه ليس في وسعه أن يتوب عن المؤمنين والمؤمنات، فإن التوبة أمر خاص بين العبد وربه، إذ الندم والإقلاع عن المعصية وعقد العزم على عدم العودة إليها لا يمكن إلا أن يكون من الشخص العاصي نفسه، أما الاستغفار باللسان فيمكنه أن يشرك معه غيره، ويؤكد ذلك أن الاستغفار عطف على التوبة في العديد من الآيات كقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ هود: ٢ ـ ٣، ودلالة هاتين الآيتين على وجوب الاستغفار ظاهرة من عدة أمور.

أولها: ما ذكرناه من دلالة العطف على ذلك، لأن العطف يدل على تغاير المتعاطفين، إذ الشيء لا يعطف على نفسه، وإنما يكفي أن يكون التغاير بين الجزء والكل، أو بين الماهية والركن، أو بين الشرط والمشروط، وبهذا تدرأ شبهة من يقول بأن العطف لما دل على ضرورة التغاير دل على أن التوبة غير الاستغفار.

---

(١) البغوي: تفسير البغوي: ١٦٩/٨.

ثانيها: أن الله تعالى عطف الأمر بالاستغفار على الأمر بعدم عبادة غيره، ومما يدرك بالبديهة أن الأمر بعدم عبادة غيره تعالى لا يكون إلا للوجوب، فكذلك ما عطف عليه.

ثالثها: أنه تعالى رتب على مخالفة هذا الأمر بالتولي عنه الوعيد بعذاب يوم كبير، وكل ما ترتب عليه الوعيد فهو من كبائر الإثم، وتأكد هذا المعنى بقوله تعالى فيما حكاه من دعوة هود عليه السلام لقومه، وأنه قال لهم: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾ هود: ٥٢، ومثل ذلك ما حكاه من قول صالح عليه السلام لقومه: ﴿فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾ هود: ٦١، وما حكاه عن شعيب عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾ هود: ٩٠، وقد حكى عن نوح عليه السلام أنه قال: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا﴾ نوح: ١٠.

على أنه تعالى وصف المتقين بالاستغفار بالأسحار عندما قال بعدما وعدهم الجنة: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾ آل عمران: ١٦ ـ ١٧، ولا يخفى أن على المؤمن أن يتصف بصفات أهل التقوى.

التوبة والأوبة والإنابة:

إذا علمت أن التوبة هي رجوع إلى الله سبحانه أدركت أنه لا فرق بينها وبين الأوبة والإنابة، فإن كلا منها دال على الرجوع، فالآيب هو الراجع، وكذلك المنيب.

ومنهم من فرق بينها فقد حكى الهرري عن **الأسئلة المقحمة** أن: «الفرق بين التوبة والإنابة: أن التائب يرجع إلى الله تعالى خوفًا من العقوبة، والمنيب

يرجع حياءً منه، وشـوقًا إليه، قال إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا صدق العبد في توبته.. صار منيبًا؛ لأن الإنابة ثاني في درجة التوبة.

ثم قال: «وفي **التأويلات النجمية**: التوبــة لأهل البداية، وهي الرجوع من المعصية إلى الطاعة، والأوبة للمتوسط، وهي الرجوع من الدنيا إلى الآخرة، والإنابة لأهل النهاية، وهي الرجوع مما سوى الله إلى الله، بالفناء في الله تعالى، وقال الجنيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: معنى أنيبوا إلى الله: انقطعوا عن الكل بالكلية، فما يرجع إلينا بالحقيقة أحد (ولا)[(١)] للغير عليه أثر، وللأكوان على سره خطر، ومن كان لنا كان حرًا مما سوانا»[(٢)].

والظاهر أن هذه الفروق مستوحاة من وجدانيات الصوفية، ولا دليل عليها من اللغة أو الشرع.

وقال الراغب الأصفهاني: «والتوبة والأوبة والاسـتغفار متقاربة وبحسـب ما اختلفت فيها الاعتبارات اختلفت عليها العبارات، (الإنابة) الرجوع عن طريق الضلال إلى الهـدى، والأوبـة: رجـوع القلب إلـى الحق والوقـوف عليه، والاستغفار: طلب الغفران قولا وفعلا، أي: تعاطي ما يغفر ما تقدم من الذنب، والتوبة التامة المعتد بها: ترك الذنب، والندم عليه، وهو العزم على أن لا يعود إليه، وتدارك ما تقدم وهو رد المظالم ـ مظلمة الخلق، ومظلمة الخالق ـ ومظلمة الخالق: هي إعادة ما ترك من العبادات وإذابة ما استفاد جسمه من الحرمات، ألا ترى إلى قوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**كل لحم نبت من سحت النار أولى به**»[(٣)]»[(٤)].

---

(١) كذا في الأصل، والظاهر أن (لا) هنا زائدة.

(٢) محمد الأمين الهرري: تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، ٢٥/٥٩.

(٣) لم أجده بهذا اللفظ وإنما أخرجه بلفظ: (إنه لن يدخل الجنة لحم نبت من سـحت) سـنن الدارمي (١٨٢٧/٣ رقم: ٢٨١٨)، والترمذي (٥١٢/٢ رقـم: ٦١٤)، والطبراني في الكبير (١٤١/١٩ رقم: ٣٠٩)، وبلفظ قريب أخرجه أيضا الحاكم (١٤١/٤ رقـم: ٧١٦٣)، وابن حبان (٩/٥ رقم: ١٧٢٣)، والبيهقي في الشعب (٢٥/١٢ رقم: ٨٩٥٢) و(٥٠٤/٧ رقم: ٥٣٧٥).

(٤) أبو القاسم الأصفهاني: تفسير الراغب الأصفهاني (١٦٢/١).



السر بالسر والعلانية بالعلانية:

يختلف حكم التوبة باختلاف حكم الذنب الذي يتاب منه، فقد يكون بينه وبين ربه، بحيث خفي على الناس ولم يظهر لهم، وقد يكون بينه وبين الناس، وهذا ـ أيضا ـ إما أن يكون بينه وبين خاصة من الناس، بحيث لا يطلع عليه إلا القليل، وقد يكون قارفه على ملأ من الناس، واشتهر به بين الخاص والعام.

فإن كان من الذنوب السرية بين العبد وربه، فعليه أن يتوب توبة سرية مما أتاه من تلك المعصية، لأن الله يحب الستر لعباده، وكذلك إن اطلع على معصيته خاصة من الناس، فعليه أن يبين لأولئك توبته مما أتاه، ولا يلزمه أن يعلن ذلك لجميع الناس، وهذا ما أرشد إليه النبي ﷺ بقوله: «**اجتنبوا هذه القاذورات التي نهى الله عنها فمن ألم بشيء منها فليستتر بستر الله وليتب إلى الله فإنه من يبد لنا صفحته نقم عليه كتاب الله**»[(١)].

وإن كانت معصيته علانية كالظلمة المجاهرين بظلمهم وفسادهم، فعليه أن يتوب منها علانية، ليتحول عند الناس من ظن السوء به إلى ظن الخير، ومن البراءة منه إلى ولايته، وهذا الذي عناه النبي ﷺ بقوله: «**عليك بتقوى الله ما استطعت واذكر الله عند كل حجر وشجر وما عملت من سوء فأحدث لله فيه توبة السر بالسر والعلانية بالعلانية**»[(٢)]، فمن جاهر بمعصيته لا تجزيه توبة السر، فكم للجهر بها من أثر سيء، فقد تحطم الحواجز التي بين النفوس وبين مواقعة الفواحش بإشاعته للفاحشة، وتهوين ارتكابها، وتزيينها للناس بفعله وقوله، فيندرج في حكم من سن سنة سيئة للناس، كما قال النبي ﷺ: «**من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص**

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/٤٢٥، رقم ٨١٥٨). والبيهقي (٨/٣٣٠، رقم ١٧٣٧٩).

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (ص٢٦)، والطبراني (٢٠/١٥٩، رقم ٣٣١) قال المنذرى (٤/٤٨)، وبلفظ قريب أخرجه ابن أبي شيبة (٧/٧٨، رقم ٣٤٣٢٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/٤٠٥، رقم ٥٤٨)، وهناد (٢/٥٣١، رقم ١٠٩٢).

من أجورهم شيئا ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيئا»[١]، ولذلك شاهد من القرآن، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ العنكبوت: ١٣، وقوله: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ النحل: ٢٥.

ومن ناحية أخرى؛ فإن المطلعين على ما أتى من الظلم والفحشاء مطالبون بأن يتبرأوا منه، ولا يحل لامرئ أن يعرض نفسه للبراءة، وإذا تاب توبة صادقة واستيقنها الناس وجب عليهم أن يتولوه كما وجب عليهم أن يتبرأوا منه من قبل، لهذا كان على المتزانيين أن يبلغ كل واحد منهما الآخر بتوبته إن تاب، لما في ذلك من دعوة الآخر إلى الخير، ونهيه عن المنكر الذي وقع فيه، ولأجل أن يدرأ المبلغ عن نفسه البراءة منه، لأن الفاجر مطالب بالبراءة ممن تيقن فجوره، وإن كان من جنس فجوره.

مكان التوبة في الأعمال الصالحة:

تبين مما تقدم أن التوبة إلى الله هي شعار النبيين وسبيل المتقين، بها يتدارك المرء ما فاته من خير، ويتخلص مما أحاط به من شر، ولا يدري امرؤ متى يتصرَّم أجله ويحين حَيْنُه، فالليل والنهار يتقاضيان عمره، والأنفاس التي تتساقط منه؛ كل نفس منها على حساب حياته، مع ما يعتريه من الغفلة والإهمال والطيش والرغبة، وهي جميعا تخلد به إلى الدنيا، وتجتذبه إلى الانغماس في أوحالها، فالحزم إذاً أن يسارع إلى المتاب مع كل غفلة تعروه، وإهمال يقع منه، وطيش

---

(١) أخرجه الطيالسي (ص٩٢، رقم ٦٧٠)، وأحمد (٣٥٧/٤، رقم ١٩١٧٩)، ومسلم (٢٠٥٩/٤، رقم ١٠١٧)، والترمذي (٤٣/٥، رقم ٢٦٧٥)، والنسائي (٧٥/٥، رقم ٢٥٥٤)، وابن ماجه (٧٤/١، رقم ٢٠٣)، وابن حبان (١٠١/٨ رقم ٣٣٠٨)، وابن أبي شيبة (٣٥٠/٢، رقم ٩٨٠٣)، والطبراني (٣٤٣/٢، رقم ٢٤٣٧)، والبيهقي (١٧٥/٤ رقم ٧٥٣٠).



يدفعه إلى الشر، ورغبة تقوده إلى تجاوز حدود الانضباط بأوامر الله ونواهيه في تعاطيه ما في دنياه، وهـذا الذي كان عليه الأنبيـاء ودرج عليه الصالحون، فهم يتوبون وإن لم يوقنوا بالذنب؛ خشية أن يكونوا واقعوه من حيث لا يدرون.

أما الغافلون فإنهم يسترسلون في الذنوب ذنبا بعد ذنب، ولا يفكرون في التوبة لأنهم أقصوا عن تفكيرهم أمر الدار الآخرة، لأنهم أسارى شهواتهم ونزواتهم ونزغاتهم، وأسارى ما أوتوه في هذه الدنيا من مال وجاه ومنزلة بين الناس، وإن سنح لأفكارهم ذكر الدار الآخرة تناسوه بما يتخيلونه من فسحة الأجل، وامتداد الحياة، فإذا ذكروا بالتوبة تهربوا بتسويفها إلى حين؛ لأنهم يتصورون أن التوبة الصادقة تحول بينهم وبين مبتغاهم من شهوات الدنيا وأمانيها، لذلك يتصاممون عن نذيرها المذكر بها حتى يفجأهم ريب المنون، هنالك يعضون على بنان الندم، ويتمنون أن لو استقبلوا من أمرهم ما فات ليفوزوا بها، وهؤلاء هم الذين آيسهم الله تعالى من قبول التوبة بقوله: ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ النساء: ١٨.

وما أكثر هؤلاء الذين رانت على قلوبهم المعصية، واستحكم في نفوسهم الهوى، فلا يلوون على قول نذير! ولا ينصتون إلى صوت واعظ! لأنهم كلما ازدادوا انغماسا في أوحال الذنوب، تعسر عليهم المخرج منها، فلم يجدوا إلى الفكاك منها سبيلا، ومع هذا كله فإنهم لو أحسنوا الجهاد مع أنفسهم واستبصروا بنور القرآن لاهتدوا إلى المخرج من الذنوب واتسع لهم المخلص من التبعات، كيف وقد دعا الله الذين أسرفوا على أنفسهم أن يعودوا إليه غير قانطين من رحمته، ولكن من هو المجاهد لنفسه ورغباتها، المفكر في عواقبها ومآلها؟! اللهم اجعلنا من التائبين المقبولين، واغفر لنا خطايانا يوم الدين، وأعنا على أنفسنا الأمارة بالسوء، واجعل لنا من كل شر مخلصا، ومن كل سوء مخرجا، وأعذنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.



الوصية

وجوب الوصية:

الوصية واجبة على الإنسان لاستدراك ما فاته أداؤه من حقوق الله تعالى؛ كالكفارات وسائر الواجبات، أو من حقوق الناس؛ كالديون وسائر التبعات، فهي بهذا داخلة في ضمن التوبة إلى الله، وإنما وجوبها إن ضاق أداؤها في حياته أو خاف أن يفجأه ريب المنون قبل أن يتمكن من أدائها، ومن ذا الذي يأمن أن يفجأه ريب المنون؟! وهو في كل نفس يتنفسه متوعد به، إذ لا يدري هل تكون له فسحة حتى يستعيد نفسا آخر أو أن ذلك هو آخر أنفاسه؟ وقد حكم عليه بذلك ممن لا راد لحكمه، ولا معقب لقضائه، ولا تبديل لكلماته، فهو القائل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ آل عمران: ١٨٥، وقد خاطب من هو أقرب إليه زلفى وأعظم منه قدرا من خلقه بقوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ الزمر: ٣٠ ـ ٣١.

فكيف لا يكون الاستعداد للقاء الله تعالى بالوصية بحقوقه وحقوق عباده أمرا محتوما، يجب على الإنسان في كل لحظة من عمره منذ بلوغه الحلم؟ على أنه بجانب هذه الوصية بالحقوق والتبعات فرض الله تعالى على كل واجد خيرا أن يوصي لأقربيه الذين لا يرثون، لتكون صلته لهم موصولة حتى بعد وفاته، فهي حق لذوي قرابته، نص عليه قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ۝ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ البقرة: ١٨٠ ـ ١٨١، وناهيك بما في أول هذا الحكم من أنه مكتوب عليهم دلالة على أنه مفروض، فإن الكتب في اصطلاح القرآن في مقام التشريع لا يكون إلا بمعنى الفرض،

وكذلك ما وليه من بيان كونه حقا على المتقين، وما كان حقا على المرء لا يسوغ له ترك أدائه، ومفهوم هذا الخطاب شاهد على أن من لم يؤد هذا الحق فليس هو من المتقين، مع أن كل مسلم ومسلمة عليهما أن يحرصا أن يكونا من المتقين، ومثله ما تبع ذلك من كون تبديل ما أوصي به يبوء بإثمه الذي بدله وحده.

وقد دلت دلائل السنة والإجماع على أن الوالدين إن كانا وارثين كان حقهما في الإرث، وليس لهما من الوصية شيء، وبهذا يتبين أن المراد بالوالدين في الآية الكريمة هما الوالدان اللذان لا يرثان لرقهما أو شركهما، فإن اختلاف الدين إن حجبهما عن الميراث لا يحجبهما عن حقهما في الوصية، وهذا من مصاحبتهما في الدنيا بالمعروف، فإطلاق الآية مقيد بدلائل السنة والإجماع.

ولأهمية الوصية في الإسلام قدم الله تعالى ذكرها على الدين، وقدمهما على حقوق الورثة في التركة في أربعة مواضع من سورة النساء، وهي قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾ النساء: ١١، وقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖ﴾ النساء: ١٢، وقوله: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖ﴾ النساء: ١٢، وقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾ النساء: ١٢.

وجاءت السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام معززة لوجوب الوصية على القادر عليها، فقد أخرج الربيع عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يحل لامرئ مسلم له شيء يوصي به يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عند رأسه**»[1]، ومثله ما ثبت عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**ما حق امرئ مسلم له شيء يريد أن يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته**

---

(١) أخرجه الربيع (ص ٢٦٤ رقم: ٦٧٧).

مكتوبة عنده»[١]، وفي رواية من طريقه: «**ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ثلاث ليال إلا وصيته عنده مكتوبة**»[٢].

وإذا كان ليس من حق المسلم عندما يجد ما يوصي به أن يبيت ليلتين أو ثلاث ليالي إلا ووصيته مكتوبة استعدادا للقاء الله تعالى، فكيف بمن تمر عليه السنون بعد السنين، وهو لا يفكر في الوصية مع وجدانه الأموال الطائلة التي لأقربيه حق فيها في محياه ومماته، ولربما كان عليه من الحقوق للناس ما ينوء به ظهره، ولا يبالي متى يؤدي هذه الحقوق إليهم، مع أن داعي الرحيل يصخ صوته الكائنات منـذرا إياه به في ليله ونهاره، وفي نومـه ويقظته؟ أيطيب له المنام ويهنأ له العيش وهـو غير مبال بهـذا كله؟! أم أن إخـلاده إلى دنياه واغتراره بأمانيها أنساه أنه واحد من البشر، وقد خلت من قبله القرون، وفنيت قبله الأمم، وأن الناس جميعا في سباق إلى ورد المنون؟! أم أن زخرف الحياة الدنيا وهناء العيش فيها أبعد عن خياله شبح الموت الزؤام، فغدا لا يفكر إلا في الحياة ولا يهتم بما بعدها، وإن أنهكته السنون بتعاقبها، فضعف بعد قوته، وشاخ بعد شبابه.

ألا ما أنسـى الإنسـان لعهد ربه وأبلغ إهماله للعمل لحياته، كأنما هي محصورة في هذه الدنيا ولا منقلب له إلى دار أخرى، فما للإنسان وهذه الغفلة وتناسي هذا الواجب وتعلقه بالأوهام:

---

(١) أخرجه مالك (٧٦١/٢، رقم ١٤٥٣)، والطيالسي (ص٢٥٢، رقم ١٨٤١)، وابن أبي شيبة (٢٢٧/٦، رقم ٣٠٩٣١)، وأحمد (٨٠/٢، رقم ٥٥١١)، والبخاري (١٠٠٥/٣، رقم ٢٥٨٧)، ومسلم (١٢٤٩/٣، رقم ١٦٢٧)، وأبـو داود (١١٢/٣، رقم ٢٨٦٢)، والترمذي (٣٠٤/٣، رقم ٩٧٤)، وقال: حسـن صحيح. والنسائي (٢٣٨/٦، رقم ٣٦١٥) وابن ماجه (٩٠٢/٢، رقم ٢٧٠٢).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٥٦/٩، رقم ١٦٣٢٦)، ومسلم (١٢٥٠/٣، رقم ١٦٢٧)، والنسائي في الكبرى (١٠٠/٤، رقم ٦٤٤٦).

أتأمل بعد شيب الرأس عمرا ... ومن آخيته قد مات طرا
تظنك خالدا تحصي الليالي ... ومر شهورها شهرا فشهرا
فسوف يسوق أشهرهن يوم ... يسوق إليك مجزرة ونحرا

تسويف الوصية كتسويف التوبة:

إذا تبين لك أن الوصية بهذا القدر من الأهمية في حياة الإنسان، لأجل سلامته، وأنها تدارك لما عسى أن يكون فاته من الخير في حياته، تبين لك أن من أسوأ الإهمال تسويفها من حال إلى حال، فهي كتسويف التوبة، وعلى اللبيب أن لا يعطي نفسه هواها، ويدعها ومناها، بل عليه أن يردها إلى الحق، ويقتادها إلى الرشد لأجل سلامتها ونجاحها، والله تعالى المستعان.

هذا؛ ولست الآن في مجال تتبع دقائق مسائل الوصية، أو غوامض أحكام التوبة، وإنما أردت بهذا التنبيه على ما يقع الناس فيه من الخطأ بإهمالهما حتى تتقضى أعمارهم وهم غير مبالين بذلك، وفي الحديث عن النبي ﷺ: «**الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله**»(١).

ومن ذا الذي لا يريد أن يكون من الأكياس، أو لا يربأ بنفسه أن يكون من العجزة، الذي لا يفكرون في عواقبهم؟! نسأل الله تعالى خير الدارين ونعوذ به من شرورهما.

---

(١) أخرجه ابن المبارك (٥٥/١، رقم ١٧١)، والطيالسي (ص ١٥٣، رقم ١١٢٢)، وأحمد (١٢٤/٤، رقم ١٧١٦٤)، والترمذي (٦٣٨/٤، رقم ٢٤٥٩) وقال: حسن. وابن ماجه (١٤٢٣/٢، رقم ٤٢٦٠)، وأبو نعيم في الحلية (٢٦٧/١)، والبيهقي (٣٦٩/٣، رقم ٦٣٠٦)، والطبراني (٢٨١/٧، رقم ٧١٤١)، والحاكم (١٢٥/١، رقم ١٩١) وقال: صحيح على شرط البخاري. وأخرجه أيضا: أخرجه البزار (٤١٧/٨ رقم ٣٤٨٩)، والقضاعي (١٤٠/١، رقم ١٨٥)، وابن أبي عاصم في الزهد (٣٨/١)، والديلمي (٣١٠/٣، رقم ٤٩٣٠).

الوصية لا تقصر من العمر، وإهمالها لا يزيد فيه:

ربما ظن ظان أن العبد إن أوصى كانت وصيته صارمة لأجله، مقربة لحتفه، وهذا من الخطأ البعيد، فكأين رأينا أحدا تعجل في الوصية ومع ذلك يبارك الله في عمره وتستمر حياته ردحا من الزمن، فقد أدركت امرأة من العابدات الصالحات جاوز عمرها تسعين عاما، وعندما توفيت ظهرت وصيتها مكتوبة قبل ثمانين عاما أو ما يزيد، ومعنى ذلك أنها لم تهمل الوصية منذ بلوغها سن التكليف مسارعة منها إلى القيام بالواجب، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الجمعة: ٤.



الخاتمة

في تحصيل ما تقدم

بعد هذه الجولـة بين أنحـاء هذه القضايا، وتسـليط الضـوء فيها على الممارسات الخاطئة الناشئة عن اتباع العادات فيها، لا بد من تحصيل ما تقدم، والتأكيد على المنهج الذي يجب اتباعه لأجل تقويم المعوج، وتصويب الخطأ من عمل الناس فيه، وقبل لملمة شتات هذه القضايا، وبيان العلاج الناجح فيها لما يصدر عن الناس مـن الأخطاء، أريـد أن أؤكد للقـارئ الكريم بأن كل ما أوردته في هذا الكتاب من القصص ذات العبرة البالغة، ليست هي قصصا مثالية اسـتوحيتها من خيال خصيب، وإنما هي قصص واقعية اطلعت عليها واستيقنت من وقوعها، كما أؤكد بأن هذا البعد عن الصواب في هذه القضايا إنما هو ناتج عن الجهل المركب بما شرع الله تعالى من الدين، وكيفية ممارسة شعائره والتزام شرائعه، كما أنه ينتج عن اتباع اللاحق للسابق، واقتفاء الآخر أثر الأول، من غير بحث وتفتيش عن الصواب.

ومن تتبع أحوال البشر في تأريخهم الطويل وأطوارهم البعيدة؛ استيقن أن للعادة أثرا كبيرا في أفكار الناس وسـلوكهم، فهي إن اسـتحكمت في طباعهم أصبحت جزءا منها، إذ كثيرا ما تغدو ملكة في النفس تتعامى معها النفس عن كل ما تراءى لهـا من حجج الحق وبراهينـه، وذلك بدافع من التعصب الأعمى المقيت.

ومن تأمل ما كان بين الأنبياء عليهم السلام وبين الأمم التي بعثوا فيها من حوار وجدل وضحت له صورة هذا الأمر ماثلة بين عينيه، فقد أتى الأنبياء أممهم وأقوامهم بالحجج القاطعة والحق اليقين، واقترنت دعواتهم بمعجزات تبهر العقول وتدهش البصائر، ولكن السواد الأعظم من الناس يظل مستمسكا بما ألف، متعاميا عما أبصرته عينه ووعــاه عقله من المعجزات المتحدية لجدل كل معاند المســتأصلة لشــك كل مرتاب، ومتصامما عــن خطاب الحكمة الصادر من ألسنة الأنبياء موقظا لناموس الفطرة في النفس البشرية، وإن صخ أرجاء الوجود.

فليت شــعري؛ ألم يبعث الأنبياء بالحكمة وفصــل الخطاب، ويؤتوا من ملكات البيان ما ينحط دونه طائر المعارضة والتحدي من قبل الذين أرســلوا إليهم؟ غير أنهم لم يجدوا ممن يصيخ إليهم ســمعه، ويصغي إليهم قلبه إلا القلة النادرة من الناس.

ألم يلبث نوح عليه السلام في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما، يجادلهم بالتي هي أحســن، ويتخللهم بالموعظة، ويفتح أبصارهم وبصائرهــم على الحق الذي لا يماري فيه ذو نهية، ولا يعدل عنه إلا من إيفت فطرته؟.

وقد تلون خطابه لهم بحسب ما كان يرجوه من التأثير عليهم، وتردد بين الجهر والإســرار، معرفا لهم بالإله الحق الذي تنادي بربوبيته ذرات الكون، وتشــهد بوحدانيته جزيئات الوجود، داعيا إياهم إلى التأمل بما يتجلى على صفحات الوجود من آياته البينات الدالة على صفاته العظيمة، ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۞ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۞ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۞ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ۞ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۞ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۞ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ۞ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ نوح: ١٣ ـ ٢٠، فهو يقيــم عليهم الحجة من خلق أنفســهم، ومن خلق غيرهم في

جميع أنحاء الكون، وأنى يكون شيء من ذلك لما يدعونه من دونه، من أوثان لا تسمع ولا تبصر، ولا تشعر ولا تحس، ولا تنفع ولا تدفع، ولا تقدم ولا تؤخر، ولا تنطق ولا تتحرك، ومع ذلك كله كانوا يتواصون بالتصامم عنه، وعدم الالتفات إلى دعوته، ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾ نوح: ٢٣، فما آمن له إلا قلة لا تكاد تعد بين الجماهير التي كفرت به، ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ هود: ٣٦.

وهكذا كان شأن النبيين جميعا، ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ الزخرف: ٢٣.

وهكذا تجد أكثر الناس يخلدون إلى الهوى ويرتكسون إلى الأسفل، وهم مع ذلك كله يرون ما هم عليه هو الرشد الذي لا يبغون به بديلا، ولكن مع ذلك يظل واجب الإرشاد والدعوة إلى الحق والتبصير بالحقيقة واجبا على كل أحد، وهذه أمراض تنشأ وتتفشى في جسم الأمة بسبب إهمالها فيتعين على كل قادر أن يقوم بعلاجها، بما آتاه الله من حكمة، ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾ هود: ١١٦.

ولا ريب أنك ـ أخي القارئ الكريم ـ بعد تجوالك بين أنحاء هذه القضايا المطروحة في هذا الكتاب، تبين لك ـ بثاقب فهمك ونور بصيرتك ـ الحق من الباطل، وتميز عندك الصواب من الخطأ، لهذا أدعوك ـ بما أخذ الله عليك من عهد، وما أوجب عليك من التواصي بالحق والتواصي بالصبر ـ أن لا تألو جهدا في معالجة هذه الأخطاء، بدءا بتنقية ديباجة الإيمان بالله مما علق بها من أي لوثة تشينها، وذلك برد الناس إلى صدق هذا الإيمان، وإيقانهم بأن ما أصابهم إنما هو بقضائه تعالى وقدره، وأن سنة الله تعالى في هذه الحياة

الدنيا أن يجتمع للناس ســراؤها وضراؤها، وأن يتوارد عليهم نفعها وضرها، وعليه فإنه من الضرورة أن ينقوا عقولهم من أوهام أن كل ما أصابهم من ضر إنما هو بفعل فاعل من الإنس أو الجن، فــإن هذه خيالات تفتح عليهم أبوابا يعييهم سدها، وتجد من الدجالين والمشعوذين من يروج لها بين الناس، حتى يبتزوا منهم كل ما تحت أيديهم من خير وثروة، ليضيفوا إليهم مصائب الأموال مع مصائب الأجسام.

هذا؛ مع تبصير الناس بقدر الكلام الــذي أنزله الله هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان وقداســته، بحيث يجب الإنصات عنــد تلاوته، وعدم الالتفات إلى غيــره، وقطع تلاوته بخطاب أي أحد مــن الناس، وتوقي كل ما يشي بعدم توقيره من التصرفات، وكذلك ما يجب عليهم من تعظيم أسماء الله الحســنى وكلماته، بحيث تراعى حرماتها حيث ما وجدت مذكورة، ولو كانت في خضم كلام آخر، وكذلك آياته البينات أينما وجدت في أي كتاب كان، وتوقير العلم النافع أيا كان بتعظيم مصنفاته التي هي أوعيته وخزائنه، لا سيما العلوم الشرعية وكل ما يمت بصلة إليها، وتقدير العلم في حال نشره وإلقائه ومذاكرته وجميع المداخلات حوله، وإدراج هذا كله فيما يلقنه الطلبة من بداية مراحل تعليمهم.

وكذلك إتقان أداء العبادات على الوجه المشروع من غير إخلال بشيء من واجباتها، ولا آدابها، والتزام هدي الرســول ﷺ في ذلك بجانب الاســتنارة بكتاب الله تعالى، الذي هو المصدر الأول للتشريع، وذلك لا يتم إلا بتزود زاد الفقه في الدين، فإن الله تعالى إنما يعبد بالبصيرة لا بالجهل.

ومراعاة الإخلاص في طلب العلم ونشــره، بحيث لا يطلب لشــهرة بين الناس، ولا لمنفعة دنيوية، سواء كانت معنوية أو مادية، وإنما يطلب تقربا إلى الله تعالى، لأن طلبه من ضمن العبــادات، بل هو أساســها، إذ يتعذر إتقانها



بدونه، وكذلك نشــره فإنه من القربــات إلى الله تعالى، فلا يبتغى به كســب دنيوي، وإنما ينشر لنفع الناس به وتبصيرهم بنوره، ولا يحتكر عن أحد، ومما ينبغي تضافر الجهود عليه تنقية الألقاب العلمية ـ خصوصا فيما يتعلق بالعلوم الشــرعية وكل ما يمت بصلة إليها ـ من الدخيل، لا سيما ما كان منها مرتبطا بمفاهيم بعيدة عن الإسلام، والاستغناء عنها بالألقاب الإسلامية، هذا مع عدم الالتفات في الطلب ولا في النشر إلى شيء من هذه الألقاب.

ومثل ذلك بناء العلاقات الاجتماعية، وشــد الأواصر الأســرية، بحسب تعاليم الإسلام، وإعطاء كل ذي حق حقه في هذه العلاقات، فلا يغمط الرجل شــيئا من الحق الذي آتاه الله إياه، حيث جعله قواما علــى المرأة، ولا تغمط المرأة شيئا من حقوقها الشرعية، فإن لها عليه مثل الذي عليها له بنص القرآن الكريم، وإنما جعل الله تعالى القوامة إليه لخصائصه التي آتاه الله إياها، فعليه إن أمسكها أن يمسكها بالمعروف، وإن سرحها أن يسرحها بالإحسان، مع عدم ابتزازها في الإمساك أو التسريح، فلا يرزأها شيئا مما آتاها ولا من غيره.

ومن الضرورة أن تبنى العلاقات الاجتماعية على العفة والنزاهة والتعاون من الجانبين على تجنيب أفلاذ أكبادهما كل ما يضر بدينها أو دنياها، بحيث تصــان أعراضها وتقــوم أخلاقها، وتحفــظ كرامتها، وتوقى شــر ما يتربصه المتربصون ويضمره المفسدون فيها، مع توعيتها وتوعية الأسر جميعا وسائر فئات المجتمع بأن العرض هو أغلى ما يحافظ عليه، فلا يفرط فيه لأجل مطمع ولا غيــره، فإن العقلاء يفــدون أعراضهــم بحياتهم، ولا يرضــون أن تكون الأعراض فداء الحياة، ومن الضرورة أن يكون ترسيخ هذا في الناشئة من أول مراحل العمر.

هذا؛ وبما أن العقل في الإنسان هو ملاك حياته، وجوهرة وجوده، ولا قيمة له بدونه، فإنه يجب أن تتضافر الجهود على محاربة كل ما يقضي على العقل،

أو يؤثر عليه من المسكرات والمخدرات والمفترات، ويتبع ذلك تغيير جميع المنكرات ونشر أضدادها من المعروف، فإن الإنسان مدني بطبعه، اجتماعي بفطرته، ينعكس على مجتمعه ما يكون من أفراده، سلبا أو إيجابا، ويشمل أفراده ما يصدر عن مجتمعه من خير أو شر، فلذلك يجب أن يكون بناء المجتمع على أسس متينة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وبهذا تتحقق المحافظة على الدين والترابط بين أعضاء كيانه وفرائد عقده من المؤمنين والمؤمنات برباط الولاية ـ وهي الحب في ذات الله تعالى ـ حتى يكونوا جميعا كالفرد الواحد في آلامهم وآمالهم، وأحاسيسهم ومشاعرهم، ومبادئهم وغاياتهم، ورضاهم وسخطهم، ولهذا لم يكْف في إبعاد الإنسان عن الخسران الإيمان والعمل الصالح وحدهما حتى يضاف إليهما التواصي بالحق والتواصي بالصبر كما نص عليه في القرآن.

ولما كان المال هو قوام الحياة ومحرك دفتها ووقود حركتها؛ فإن على الناس أن يراعوا فيه العفة والنزاهة، فلا يكتسبوه إلا من طيبات المكاسب، ولا ينفقوه إلا في طيبات الوجوه ليكون دعامة خير ورشد، ومصدر بر وإحسان، وهذا يعني أن يتقيدوا بشرع الله تعالى في كسب المال وإنفاقه، لأنه في الحقيقة ماله، فلا يتصرف فيه إلا بإذنه، وهو أعلم بالطيب والخبيث في الكسب والإنفاق.

هذا؛ ولا ريب أن اللباس مكمل لفطرة الإنسان، ومتمم لصورته ومظهره، لأن الله جعله زينته وستره، وما الإنسان بدونه إلا سوأة تسوء رائيها، لذلك كان من الضرورة التزام اللباس الشرعي، الذي لا مخيلة فيه ولا إسراف، وذلك بأن يكون ساترا للعورة، يحفظ للإنسان كرامته ويقيه الإهانة والازدراء، ولما كانت المرأة لها خصوصيتها في طبيعتها وأحكامها كان لباسها ـ أيضا ـ ملائما لفطرتها، ومنسجما مع خصائصها، فلا بد أن يكون لباسا سابغا

فضفاضا، لا يشـف ولا يصف، يجنبهـا عيون ذوي المـرض الطامعين في تدنيس عرضها، وإهانة كرامتها.

وتجب مراعاة أن يكون لباس الجنسين بعيدا عن التقليد لغير المسلمين، بل وعن تقليد الفسقة حتى من هذه الأمة نفسها.

وقد جعل الله تعالى حاجة الإنسـان إلى جميع بني جنسه حاجة ملحة، فلا يكاد يستغني أحد عن أحد، ولو أعطي الحول والتمكين، لهذا كان البيان ضرورة ملحة ليعرب به كل أحدٍ عما في قرارة نفسه، ويتلقى به كل أحد عن غيره، وقد جعل الله الألسنة متفاوتة في تعبيرها، واختص بينها اللسان العربي بما طبعه عليه من قوة البيان، وبلاغة القول، وفصاحة التعبير، وفضله على غيره تفضيلا بأن جعله وعاء لكلامه المنـزل للهداية والإعجاز، فكان بهذا لسان أمة الإسـلام؛ لأنها تلقت به عن الله تعالى خطابه المحكم، الذي هو مصدر فكرها واعتقادها.

وعليه فإن من الإهانة لهذا اللسـان ـ الذي فضله الله تعالى ـ أن يعدل المسـلمون إلى غيره، وأن يؤثروا عليـه ما فُرض عليهم مـن قبل الذين تسـلطوا عليهم من الأمم من الألسنة، التي كانت جسـورا لنقل أفكارهم الهدامة إلى هذه الأمة، فما أجدر المسـلمين أن يعتزوا بلغة القرآن، وأن يحافظوا عليها كما حافظ عليها سـلفهم، وأن تكون عندهم هي لغة العلم والثقافة، وأن تشدَّ بعضهم إلى بعض وإن تعددت ألسنتهم القومية، بحيث يجعلون هذا اللسان وحده هو وسيلة التفاهم بينهم جميعا، وإنَّ من العار على العربي ـ الذي أكرمه الله تعالى بتشريف لسانه بأن جعله لسان شرعه وبيانه ـ أن يؤثر على هذا اللسان لسـان من تسلط عليه وعلى أمته، فسلبه وسلبها ما ألبسـهم الله تعالى من لبوس التكريم والشرف والعزة، فإن هذا من استبدال الأدنى بالذي هو خير.

هذا؛ ولا ريب أن الأخلاق في الإسلام هي القطب الذي تدور عليه شريعته المحكمة، وهي الغاية من رسالته إلى الناس، وقد كان النبي ﷺ ـ الذي أرسله الله إلى الكافة بشيرا ونذيرا ـ أسمى الناس خلقا، وألطفهم طبعا، وأطيبهم معاشرة، وقد كان خلقه هذا تجسيدا لخلق القرآن، وترجمة لقيم الإسلام، فما أجدر الأمة أن تستمسك بهذه الأخلاق وتحافظ عليها، وتربي عليها ناشئتها، بحيث ينشأ كل أحد منها على توقير الكبير والرحمة بالصغير، وإعطاء كل ذي حق حقه، والقول الحسن لجميع الناس، والدفع بالتي هي أحسن، فإن هذا هو خير ما يورثه السلف الخلف، وما يتلقاه الحاضر عن الغابر، ويتأسى فيه الولد بوالده.

ومن المسلم عند الجميع أن الأولاد هم أهم وأغلى ما يوهبه الإنسان من زينة الحياة الدنيا، وثروتها وعدتها، فأي تفريط فيهم إنما هو تفريط في الحياة كلها، لهذا يجب أن يربوا على الإيمان، والعمل الصالح، ومكارم الأخلاق، ومعالي الأمور، وعلى الهمم الوثابة إلى الخير، والعزائم المتوقدة بحرارة الإيمان، ليكونوا خير خلف لأسلافهم، وخير امتداد لأصولهم فتقر بهم أعينهم في الدنيا ويسعدوا بهم في العقبى، ويكونوا لهم ذكرا حسنا في محياهم ومماتهم.

هذا؛ وإن من فضل الله تعالى على عباده ورحمته بهم أن يسر لهم السبيل إلى إصلاح ما فسد من أعمالهم، واستدراك ما فاتهم من الخير بالتوبة النصوح التي تجب ما قبلها من سيئات الأعمال، وكذلك الوصية بالخير التي تفتح للإنسان بابا إلى فعل الخير بعد وفاته إن فاته فعله في حياته، وهذه فرصة متاحة للإنسان، يجب عليه أن يسارع إلى اغتنامها، وأن لا يفوتها بتأخيرها من اليوم إلى الغد، فإن الغد لا يدري به هل يأتيه أو لا يدركه؟ ولو أدركه فإنه لا يدري ما يكتنفه فيه من أحوال، وما يواجهه فيه من الظروف؟ فما يسنح اليوم قد يفوته غدا، فعليه أن لا يؤخر توبته من اليوم إلى الغد، ولا من الساعة إلى ما يتبعها.

فدون مدارك الآمال رصد   من الآجال منقطع الظنون

وكذلك الوصية؛ فإنما عليه أن يبادرها فـــي لحظته التي أمكنته فيها، قبل اللحظة التي تليهـــا، وهذا عين الحزم، وإلا فهو الإهمـــال الذي قد يندم عليه المرء، ولات ساعة مندم.

وبالجملة؛ فإن على كل أحد أن يكون يقظـــا حذورا حاذقا لبيبا، لا يؤخر عمل اليوم إلى الغد، ولا ما يمكنه في لحظته إلى ما بعدها، ليكون غير ناس حظه من هذه الحياة الدنيا، فإن خير ما يكسبه المرء منها ما يتزوده إلى الدار الآخرة، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

وبانتهاء هذه الخاتمة؛ التي تلخص فيها ما تشعب في الكتاب، ننتهي بعون الله وتوفيقه من هذا الكتاب القيم، وأسأل الله سبحانه أن يتقبله مني، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم، وأن ينفع به عباده، ويهدي به من ضلَّ، ويبصر به من حار، ويرشد به من غوي، إنه على كل شيء قدير، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله وصبحه أجمعين.

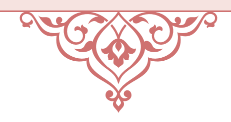
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

أحمد بن حمد الخليلي

زنجبار/ بويجوه (بيت الوئام)

٥ المحرم الحرام ١٤٣٩هـ

المراجع والمصادر



١ ـ إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، المؤلف: أبو العباس شهاب الدين أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل بن سليم بن قايماز بن عثمان البوصيري الكناني الشافعي (المتوفى: ٨٤٠هـ)، تقديم: فضيلة الشيخ الدكتور أحمد معبد عبد الكريم، المحقق: دار المشكاة للبحث العلمي بإشراف أبو تميم ياسر بن إبراهيم، دار النشر: دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٢ ـ آثَارُ ابْنُ بَادِيسَ، المؤلف: عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي (المتوفى: ١٣٥٩هـ)، المحقق: عمار طالبي، الناشر: دار ومكتبة الشركة الجزائرية، الطبعة: الأولى (عام ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م).

٣ ـ الأحاديث المختارة، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد بن أحمد الحنبلي المقدسي، دار النشر: مكتبة النهضة الحديثة ـ مكة المكرمة ـ ١٤١٠هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش.

٤ ـ الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، المؤلف: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ)، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (المتوفى: ٧٣٩هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

٥ ـ أحكام القرآن، المؤلف: أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي (المتوفى: ٣٧٠هـ)، المحقق: عبد السلام محمد علي شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

٦ ـ أحكام القرآن، المؤلف: القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي (المتوفى: ٥٤٣هـ)، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلّق عليه: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

٧ ـ إحياء علوم الدين، المؤلف: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ)، الناشر: دار المعرفة ـ بيروت.

٨ ـ آداب العلماء والمتعلمين، المؤلف: الحسين بن المنصور بالله القاسم بن محمد بن علي اليمني (المتوفى: ١٠٥٠هـ).

٩ ـ الأدب المفرد بالتعليقات، المؤلف: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ)، حققه وقابله على أصوله: سمير بن أمين الزهيري، مستفيدًا من تخريجات وتعليقات العلامة الشيخ المحدث: محمد ناصر الدين الألباني.

١٠ ـ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، المؤلف: مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي (المتوفى: ١٣٥٦هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي ـ بيروت، الطبعة الثامنة ـ ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م.

١١ ـ إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، المحقق: محمد حامد الفقي، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية.

١٢ ـ الأغاني، المؤلف: أبو الفرج الأصبهاني، دار النشر: دار الفكر للطباعة والنشر ـ لبنان، تحقيق: علي مهنا وسمير جابر.

١٣ ـ إِكمَالُ المُعْلِمِ بفَوَائِدِ مُسْلِم؛ شَرْحُ صَحِيح مُسْلِمِ، المؤلف: عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل (المتوفى: ٥٤٤هـ)، المحقق: الدكتور يحْيَى إِسْمَاعِيل، الناشر: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

١٤ ـ أمالي ابن الشجري، المؤلف: ضياء الدين أبو السعادات هبة الله بن علي بن حمزة، المعروف بابن الشجري (المتوفى: ٥٤٢هـ)، المحقق: الدكتور محمود محمد الطناحي، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ/١٩٩١م.

١٥ ـ الأمثال، المؤلف: أبو عُبيد القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي البغدادي (المتوفى: ٢٢٤هـ)، المحقق: الدكتور عبد المجيد قطامش، الناشر: دار المأمون للتراث، الطبعة: الأولى، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

١٦ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، المؤلف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى:



٢٨١هـ) تحقيق: صلاح بن عايض الشلاحي الناشر: مكتبة الغرباء الأثرية، السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

١٧ ـ الإيضاح، المؤلف: الشيخ عامر بن علي الشماخي، وزارة التراث القومي والثقافة، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

١٨ ـ البحر المحيط في أصول الفقه، المؤلف: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: ٧٩٤هـ)، الناشر: دار الكتبي، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

١٩ ـ البداية والنهاية، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.

٢٠ ـ البصائر والذخائر، المؤلف: أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد بن العباس (المتوفى: نحو ٤٠٠هـ)، المحقق: د. وداد القاضي، الناشر: دار صادر ـ بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

٢١ ـ بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، المؤلف: أبو محمد الحارث بن محمد بن داهر التميمي البغدادي الخصيب المعروف بابن أبي أسامة (المتوفى: ٢٨٢هـ)، المنتقي: أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان بن أبي بكر الهيثمي (المتوفى: ٨٠٧هـ). المحقق: د. حسين أحمد صالح الباكري.

٢٢ ـ تاريخ جرجان، المؤلف: أبو القاسم حمزة بن يوسف بن إبراهيم السهمي القرشي الجرجاني (المتوفى: ٤٢٧هـ)، المحقق: تحت مراقبة محمد عبد المعيد خان، الناشر: عالم الكتب ـ بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٢٣ ـ تاريخ دمشق، المؤلف: أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (المتوفى: ٥٧١هـ)، المحقق: عمرو بن غرامة العمروي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عام النشر: ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

٢٤ ـ التحبير شرح التحرير في أصول الفقه، المؤلف: علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان المرداوي الدمشقي الصالحي الحنبلي (المتوفى: ٨٨٥هـ)، المحقق: د. عبد الرحمن الجبرين، د. عوض القرني، د. أحمد السراح، الناشر: مكتبة الرشد ـ السعودية / الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

٢٥ ـ التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، المؤلـف: محمد الطاهر بــن محمد بن محمد الطاهر بن عاشــور التونســي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، الناشر: الدار التونسية للنشر ـ تونس، سنة النشر: ١٩٨٤هـ.

٢٦ ـ تحفة الأعيان بســيرة أهل عُمان، المؤلف: الإمام نور الدين الســالمي. مطبعة الشباب القاهرة، ١٣٥٠هـ.

٢٧ ـ تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري، اسم المؤلف: جمال الدين عبدالله بن يوسف بن محمد الزيلعي، دار النشر: دار ابن خزيمة ـ الرياض ـ ١٤١٤هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبدالله بن عبد الرحمن السعد.

٢٨ ـ التذكرة الحمدونية، المؤلف: محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون، أبو المعالي، بهاء الدين البغدادي (المتوفى: ٥٦٢هـ)، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ.

٢٩ ـ الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، المؤلف: عبد العظيم بن عبد القوي المنذري أبو محمد، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار النشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٤١٧هـ، الطبعة: الأولى.

٣٠ ـ تشنيف المسامع بجمع الجوامع لتاج الدين السبكي، المؤلف: أبو عبدالله بدر الدين محمد بن عبدالله بن بهادر الزركشي الشــافعي (المتوفى: ٧٩٤هـ)، دراسة وتحقيق: د. سيد عبد العزيز ـ د. عبدالله ربيع، المدرسان بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بجامعة الأزهر، الناشــر: مكتبة قرطبة للبحث العلمــي وإحياء التراث ـ توزيــع المكتبة المكية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

٣١ ـ تغريب الألقاب العلمية، المؤلف: بكر بن عبدالله أبو زيد.

٣٢ ـ تفســير ابن باديس «في مجالس التذكير من كلام الحكيــم الخبير»، المؤلف: عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي (المتوفى: ١٣٥٩هـ)، المحقق: علق عليه وخرج آياته وأحاديثه أحمد شــمس الدين، الناشــر: دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

٣٣ ـ التَّفْسِــيرُ البَسِــيْط، المؤلف: أبو الحســن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشــافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، المحقق: أصل تحقيقه في (١٥) رسالة دكتوراه بجامعة الإمام محمد بن سعود، ثم قامت لجنة علمية من الجامعة بسبكه

وتنسيقه، الناشر: عمادة البحث العلمي ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠هـ.

٣٤ ـ تفسير الراغب الأصفهاني، المؤلف: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ)، جزء ١: المقدمة وتفسير الفاتحة والبقرة، تحقيق ودراسة: د. محمد عبد العزيز بسيوني، الناشر: كلية الآداب ـ جامعة طنطا، الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٣٥ ـ تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم، المؤلف: نصر بن محمد بن أحمد أبو الليث السمرقندي، دار الفكر، بيروت، تحقيق: د. محمود مطرجي.

٣٦ ـ تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، المؤلف: محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (المتوفى: ١٣٥٤هـ)، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر: ١٩٩٠م.

٣٧ ـ تفسير القرآن العظيم، المؤلف: إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء، دار النشر: دار الفكر ـ بيروت ـ ١٤٠١هـ.

٣٨ ـ تفسير القرآن العظيم مسندًا عن رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين، المؤلف: ابن أبي حاتم؛ عبد الرحمن بن محمد بن إدريس التميمي، تحقيق: أسعد محمد الطيب، المكتبة العصرية ـ بيروت، ط٣: ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

٣٩ ـ تفسير المراغي، المؤلف: أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: ١٣٧١هـ)، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الأولى، ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م.

٤٠ ـ تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، المؤلف: الشيخ العلامة محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي، إشراف ومراجعة: الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي، الناشر: دار طوق النجاة، بيروت ـ لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

٤١ ـ التمهيد ـ شرح مختصر الأصول من علم الأصول، المؤلف: أبو المنذر محمود بن محمد بن مصطفى بن عبد اللطيف المنياوي، الناشر: المكتبة الشاملة، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.

٤٢ ـ تهذيب الفروق والقواعد السنية في الأسرار الفقهية، المؤلف: الشيخ محمد بن علي بن حسين مفتي المالكية بمكة المكرمة (١٣٦٧هـ)، وفيها اختصر الفروق ولخصه وهذبه ووضح بعض معانيه، والكتاب من ضمن طبعة كتاب الفروق أنوار البروق في أنواء الفروق، المؤلف: أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي الشهير بالقرافي (المتوفى: ٦٨٤هـ)، الناشر: عالم الكتب، الطبعة: بدون طبعة وبدون تاريخ.

٤٣ ـ تيسير التفسير، المؤلف: امحمد بن يوسف أطفيش (قطب الأئمة)، وزارة التراث القومي والثقافة ـ سلطنة عُمان، ط: ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٤٤ ـ تيسير التفسير، امحمد بن يوسف اطفيش (قطب الأئمة)، تحقيق وإخراج: إبراهيم بن محمد طلاي، المطبعة العربية، غرداية ـ الجزائر، ط٢: ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

٤٥ ـ جامع البيان في تأويل القرآن، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

٤٦ ـ الجامع الصحيح مسند الإمام الربيع بن حبيب، المؤلف: الربيع بن حبيب بن عمر الأزدي البصري، دار النشر: دار الحكمة، مكتبة الاستقامة ـ بيروت، سلطنة عُمان ـ ١٤١٥هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد إدريس، عاشور بن يوسف.

٤٧ ـ الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، صحيح البخاري، المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٤٨ ـ الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية ـ القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.

٤٩ ـ جمهرة خطب العرب، اسم المؤلف: أحمد زكي صفوت، دار النشر: المكتبة العلمية ـ بيروت.

٥٠ ـ جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر، المؤلف: محمود محمد شاكر، جمعها وقرأها وقدم لها: الدكتور عادل سليمان جمال، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة ـ جمهورية مصر العربية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٣م.

٥١ ـ جوهر النظام في علمي الأديان والأحكام، نور الدين أبي محمد عبد الله بن حميد بن سلوم السالمي العماني، تحقيق أبو إسحاق إبراهيم اطفيش، دار الفاروق للطباعة والنشر والتوزيع.

٥٢ ـ حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع، المؤلف: حسن بن محمد بن محمود العطار الشافعي (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: بدون طبعة وبدون تاريخ.

٥٣ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ)، الناشر: السعادة ـ بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.

٥٤ ـ دروس صوتية للشيخ سلمان بن فهد بن عبد الله العودة، قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية، المكتبة الشاملة.

٥٥ ـ دروس صوتية للشيخ صالح بن عبد الله بن حميد، قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية، المكتبة الشاملة.

٥٦ ـ روح البيان، المؤلف: إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي، المولى أبو الفداء (المتوفى: ١١٢٧هـ)، الناشر: دار الفكر ـ بيروت.

٥٧ ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، المؤلف: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: ١٢٧٠هـ)، المحقق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.

٥٨ ـ الزاهر في معاني كلمات الناس، المؤلف: محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، أبو بكر الأنباري (المتوفى: ٣٢٨هـ)، المحقق: د. حاتم صالح الضامن، الناشر: مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

٥٩ ـ الزرنوجي: تعليم المتعلم طرق التعليم، (مخطوطة).

٦٠ ـ الزهد، المؤلف: أبو السَّرِي هَنَّاد بن السَّرِي بن مصعب بن أبي بكر بن شبر بن صعفوق بن عمرو بن زرارة بن عدس بن زيد التميمي الدارمي الكوفي (المتوفى: ٢٤٣هـ)، المحقق: عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، الناشر: دار الخلفاء للكتاب الإسلامي ـ الكويت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ.

٦١ ـ الزواجر عن اقتراف الكبائر، المؤلف: أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري، شهاب الدين شيخ الإسلام، أبو العباس (المتوفى: ٩٧٤هـ)، الناشر: دار الفكر، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٦٢ ـ سنن ابن ماجه، المؤلف: ابن ماجه أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني، وماجه اسم أبيه يزيد (المتوفى: ٢٧٣هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية ـ فيصل عيسى البابي الحلبي.

٦٣ ـ سنن الترمذي، المؤلف: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (ج١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (ج٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (ج٤، ٥)، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

٦٤ ـ سنن الدارقطني، المؤلف: أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي الدارقطني (المتوفى: ٣٨٥هـ)، حققه وضبط نصه وعلق عليه: شعيب الارنؤوط، حسن عبد المنعم شلبي، عبد اللطيف حرز الله، أحمد برهوم، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت ـ لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.

٦٥ ـ السنن الكبرى، المؤلف: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط، قدم له: عبدالله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

٦٦ ـ سيد قطب الشاربي؛ إبراهيم حسين: في ظلال القرآن، دار الشروق ـ القاهرة، ط٣٥: ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م.

٦٧ ـ السير، المؤلف: البدر الشماخي. المطبعة البارونية. القاهرة. مصر، ١٣٠١هـ.

٦٨ ـ شامل الأصل والفرع، قطب الأئمة، امحمد بن يوسف اطفيش، وزارة التراث القومي والثقافة ـ سلطنة عُمان، ط: ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

٦٩ ـ الشرح الكبير لمختصر الأصول من علم الأصول، المؤلف: أبو المنذر محمود بن محمد بن مصطفى بن عبد اللطيف المنياوي، الناشر: المكتبة الشاملة، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.



٧٠ ـ شرح النيل وشفاء العليل، امحمد بن يوسف اطفيش، وزارة التراث القومي والثقافة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٧١ ـ شرح تنقيح الفصول، المؤلف: أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي الشهير بالقرافي (المتوفى: ٦٨٤هـ)، المحقق: طه عبد الرؤوف سعد، الناشر: شركة الطباعة الفنية المتحدة، الطبعة: الأولى، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.

٧٢ ـ شرح مختصر الروضة، المؤلف: سليمان بن عبد القوي بن الكريم الطوفي الصرصري، أبو الربيع، نجم الدين (المتوفى: ٧١٦هـ)، المحقق: عبدالله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٧٣ ـ شرح معاني الآثار، المؤلف: أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري المعروف بالطحاوي (المتوفى: ٣٢١هـ)، حققه وقدم له: (محمد زهري النجار ـ محمد سيد جاد الحق) من علماء الأزهر الشريف، راجعه ورقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: د. يوسف عبد الرحمن المرعشلي ـ الباحث بمركز خدمة السنة بالمدينة النبوية، الناشر: عالم الكتب، الطبعة: الأولى ـ ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

٧٤ ـ شرح نهج البلاغة، المؤلف: أبو حامد عز الدين بن هبة الله بن محمد بن محمد بن أبي الحديد المدائني، دار النشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت / لبنان ـ ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد عبد الكريم النمر.

٧٥ ـ شعب الإيمان، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي ـ الهند، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.

٧٦ ـ صحيح ابن خزيمة، المؤلف: أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسابوري (المتوفى: ٣١١هـ)، المحقق: د. محمد مصطفى الأعظمي، الناشر: المكتب الإسلامي ـ بيروت.

٧٧ ـ الضعفاء الكبير، المؤلف: أبو جعفر محمد بن عمرو بن موسى بن حماد العقيلي المكي (المتوفى: ٣٢٢هـ)، المحقق: عبد المعطي أمين قلعجي، الناشر: دار المكتبة العلمية ـ بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

٧٨ ـ طريق الهجرتين وباب السعادتين، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: دار السلفية، القاهرة، مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٤هـ.

٧٩ ـ العقد الفريد، المؤلف: أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم المعروف بابن عبد ربه الأندلسي (المتوفى: ٣٢٨هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤هـ.

٨٠ ـ غاية الوصول في شرح لب الأصول، المؤلف: زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري، زين الدين أبو يحيى السنيكي (المتوفى: ٩٢٦هـ)، الناشر: دار الكتب العربية الكبرى، مصر (أصحابها: مصطفى البابي الحلبي وأخويه).

٨١ ـ غرائب القرآن ورغائب الفرقان، المؤلف: نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (المتوفى: ٨٥٠هـ)، المحقق: الشيخ زكريا عميرات، الناشر: دار الكتب العلميه ـ بيروت، الطبعة: الأولى ـ ١٤١٦هـ.

٨٢ ـ فتاوى السبكي، المؤلف: أبو الحسن تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي (المتوفى: ٧٥٦هـ)، الناشر: دار المعارف.

٨٣ ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري، المؤلف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي الوفاة: ٨٥٢هـ، دار المعرفة، بيروت، تحقيق: محب الدين الخطيب.

٨٤ ـ القاموس المحيط، المؤلف: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (المتوفى: ٨١٧هـ)، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

٨٥ ـ القلقشندي: أحمد بن علي بن أحمد الفزاري، صبح الأعشى في كتابة الإنشا، وزارة الثقافة ـ دمشق ـ ١٩٨١م، تحقيق: عبد القادر زكار.

٨٦ ـ القواعد والفوائد الأصولية ومايتبعها من الأحكام الفرعية، المؤلف: ابن اللحام، علاء الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عباس البعلي الدمشقي الحنبلي (المتوفى: ٨٠٣هـ)، المحقق: عبد الكريم الفضيلي، الناشر: المكتبة العصرية، الطبعة: ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٨٧ ـ الكامل في التاريخ، المؤلف: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (المتوفى: ٦٣٠هـ)،

تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

٨٨ ـ الكامل في ضعفاء الرجال، المؤلف: أبو أحمد بن عدي الجرجاني (المتوفى: ٣٦٥هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود ـ علي محمد معوض، شارك في تحقيقه: عبد الفتاح أبو سنة، الناشر: الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

٨٩ ـ الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، المؤلف: أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (المتوفى: ٢٣٥هـ)، المحقق: كمال يوسف الحوت، الناشر: مكتبة الرشد ـ الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ.

٩٠ ـ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل، المؤلف: أبو القاسم محمد بن عمر الزمخشري، دار الكتب العلمية ـ بيروت. ط٤: ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

٩١ ـ كشف الأستار عن زوائد البزار، المؤلف: نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (المتوفى: ٨٠٧هـ)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

٩٢ ـ اللامع الصبيح بشرح الجامع الصحيح، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عبد الدائم القسطلاني، دار النوادر ـ سوريا.

٩٣ ـ اللباب في علوم الكتاب، اسم المؤلف: أبو حفص عمر بن علي ابن عادل الدمشقي الحنبلي، دار النشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت / لبنان ـ ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، الطبعة: الأولى، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض.

٩٤ ـ اللباب في علوم الكتاب، المؤلف: أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى: ٧٧٥هـ)، المحقق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت / لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

٩٥ ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن الندوي، دار الكتاب العربي، بيروت.

٩٦ ـ المجتبى من السنن = السنن الصغرى للنسائي، المؤلف: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية ـ حلب، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.



٩٧ ـ مجمع الأمثال، المؤلف: أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري (المتوفى: ٥١٨هـ)، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: دار المعرفة ـ بيروت، لبنان.

٩٨ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، المؤلف: أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (المتوفى: ٨٠٧هـ)، المحقق: حسام الدين القدسي، الناشر: مكتبة القدسي، القاهرة، عام النشر: ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

٩٩ ـ مجموعة رسائل التوجيهات الإسلامية لإصلاح الفرد والمجتمع، المؤلف: محمد بن جميل زينو، الناشر: دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض ـ المملكة العربية السعودية، الطبعة: التاسعة، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

١٠٠ ـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المؤلف: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ)، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة: الأولى ـ ١٤٢٢هـ.

١٠١ ـ المحلى بالآثار، المؤلف: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦هـ)، الناشر: دار الفكر ـ بيروت، الطبعة: بدون طبعة وبدون تاريخ.

١٠٢ ـ المخصص، المؤلف: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، المحقق: خليل إبراهم جفال، الناشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.

١٠٣ ـ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي ـ بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

١٠٤ ـ المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل، المؤلف: عبد القادر بن أحمد بن مصطفى بن عبد الرحيم بن محمد بدران (المتوفى: ١٣٤٦هـ)، المحقق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠١هـ.

١٠٥ ـ المدونة الكبرى، المؤلف: أبو غانم الخراساني، طبعة: وزارة التراث القومي والثقافة.

١٠٦ ـ مستخرج أبي عوانة، المؤلف: أبو عوانة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم النيسابوري الإسفراييني (المتوفى: ٣١٦هـ)، تحقيق: أيمن بن عارف الدمشقي، الناشر: دار المعرفة ـ بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

١٠٧ ـ المستدرك على الصحيحين، المؤلف: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

١٠٨ ـ مسند أبي داود الطيالسي، المؤلف: أبو داود سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي البصري (المتوفى: ٢٠٤هـ)، المحقق: الدكتور محمد بن عبد المحسن التركي، الناشر: دار هجر ـ مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

١٠٩ ـ مسند أبي داود الطيالسي، المؤلف: أبو داود سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي البصري (المتوفى: ٢٠٤هـ)، المحقق: الدكتور محمد بن عبد المحسن التركي، الناشر: دار هجر ـ مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

١١٠ ـ مسند أبي يعلى، المؤلف: أبو يعلى أحمد بن علي بن المُثنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي، الموصلي (المتوفى: ٣٠٧هـ)، المحقق: حسين سليم أسد، الناشر: دار المأمون للتراث ـ دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

١١١ ـ مسند إسحاق بن راهويه ـ مسند ابن عباس، المؤلف: أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن مخلد بن إبراهيم الحنظلي المروزي المعروف بـ ابن راهويه (المتوفى: ٢٣٨هـ)، المحقق: محمد مختار ضرار المفتي، الناشر: دار الكتاب العربي، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

١١٢ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: دار الحديث ـ القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

١١٣ ـ مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار، المؤلف: أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار (المتوفى: ٢٩٢هـ)، المحقق: محفوظ الرحمن زين الله، (حقق الأجزاء من ١ إلى ٩)، وعادل بن سعد (حقق الأجزاء من ١٠ إلى ١٧)، وصبري عبد الخالق الشافعي (حقق الجزء ١٨)، الناشر: مكتبة العلوم والحكم ـ المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، (بدأت ١٩٨٨م، وانتهت ٢٠٠٩م).

١١٤ ـ مســند الحميدي، المؤلف: أبو بكر عبد الله بن الزبير بن عيســى بن عبيد الله القرشي الأسدي الحميدي المكي (المتوفى: ٢١٩هـ)، حقق نصوصه وخرج أحاديثه: حسن سليم أسد الدَّارَانيّ، الناشر: دار السقا، دمشق ـ سوريا، الطبعة: الأولى، ١٩٩٦م.

١١٥ ـ مســند الدارمي المعروف بـ (ســنن الدارمي)، المؤلف: أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهرام بن عبد الصمد الدارمي، التميمي السمرقندي (المتوفى: ٢٥٥هـ)، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، الناشر: دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ/٢٠٠٠م.

١١٦ ـ مسند الروياني، المؤلف: أبو بكر محمد بن هارون الرُّوياني (المتوفى: ٣٠٧هـ)، المحقق: أيمن علي أبو يماني، الناشر: مؤسسة قرطبة ـ القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ.

١١٧ ـ المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

١١٨ ـ المصنف، المؤلــف: أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافــع الحميري اليماني الصنعاني (المتوفى: ٢١١هـ)، المحقق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: المجلس العلمي ـ الهند، يطلب من: المكتب الإسلامي ـ بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ.

١١٩ ـ المطلق والمقيد، المؤلف: حمد بن حمدي الصاعدي، الناشــر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.

١٢٠ ـ معارج الآمال على مدارج الكمال بنظم مختصر الخصال، المؤلف: نور الدين أبي محمد عبد الله بن حميد بن سلوم السالمي، تحقيق: ســليمان بابزيز، وداوود بابزيز، وإبراهيم بولرواح، وحمزة السالمي، مكتبة الإمام السالمي ـ بدية، ط: ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

١٢١ ـ معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، المؤلف: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى: ٥١٠هـ)، المحقق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ.

١٢٢ ـ معاملة غير المســلمين، الحوار والتســامح في الإسلام، شــواهد من التأريخ، المؤلف: د. محمد علي البار. دار القلم دمشق، الدار الشامية بيروت.

١٢٣ ـ معجم الشيوخ، المؤلف: ثقة الدين، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (المتوفى: ٥٧١هـ)، المحقق: الدكتورة وفاء تقي الدين، الناشر: دار البشائر ـ دمشق.

١٢٤ ـ مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة: الثالثة ـ ١٤٢٠هـ.

١٢٥ ـ المفصل في صنعة الإعراب، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، قدم له وبوبه: د. علي بو ملحم، دار ومكتبة الهلال ـ بيروت، ط: ٢٠٠٣م.

١٢٦ ـ مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها، المؤلف: أبو بكر محمد بن جعفر بن محمد بن سهل بن شاكر الخرائطي السامري (المتوفى: ٣٢٧هـ)، تقديم وتحقيق: أيمن عبد الجابر البحيري، الناشر: دار الآفاق العربية، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

١٢٧ ـ المنتخب من مسند عبد بن حميد، المؤلف: أبو محمد عبد الحميد بن حميد بن نصر الكَسّي ويقال له: الكَشّي بالفتح والإعجام (المتوفى: ٢٤٩هـ)، المحقق: صبحي البدري السامرائي، محمود محمد خليل الصعيدي، الناشر: مكتبة السنة ـ القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

١٢٨ ـ المنتقى من السنن المسندة، المؤلف: أبو محمد عبد الله بن علي بن الجارود النيسابوري المجاور بمكة (المتوفى: ٣٠٧هـ)، المحقق: عبد الله عمر البارودي، الناشر: مؤسسة الكتاب الثقافية ـ بيروت.

١٢٩ ـ الْمُهَذَّبُ في عِلْمِ أُصُولِ الفِقْهِ الْمُقَارَنِ، (تحريرٌ لمسائِلِه ودراستها دراسةً نظريَّةً تطبيقيَّةً)، المؤلف: عبد الكريم بن علي بن محمد النملة، دار النشر: مكتبة الرشد ـ الرياض، الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

١٣٠ ـ موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، المؤلف: الإمام محمد الخضر حسين (المتوفى: ١٣٧٧هـ)، جمعها وضبطها: المحامي علي الرضا الحسيني، الناشر: دار النوادر، سوريا، الطبعة: الأولى، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

١٣١ ـ الموطأ، المؤلف: مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (المتوفى: ١٧٩هـ)، المحقق: محمد مصطفى الأعظمي، الناشـر: مؤسسـة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية ـ أبو ظبي ـ الإمارات، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

١٣٢ ـ ناسـخ الحديث ومنسـوخه، المؤلف: أبو حفص عمر بن أحمد بن عثمان بن أحمد بن محمد بن أيوب بن أزداذ البغدادي المعروف بـ ابن شاهين (المتوفى: ٣٨٥هـ)، المحقق: سـمير بن أمين الزهيري، الناشـر: مكتبة المنـار ـ الزرقاء، الطبعـة: الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

١٣٣ ـ نثار الجوهر: المؤلف: أبو مسلم البهلاني ، مكتبة مسقط ـ مسقط ـ عُمان.

١٣٤ ـ نثر الدر في المحاضرات، اسم المؤلف: أبو سعد منصور بن الحسين الآبي، دار النشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت / لبنان ـ ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م، الطبعة: الأولى، تحقيق: خالد عبد الغني محفوط.

١٣٥ ـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر البقاعي، دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد ـ الهند، ط: ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

١٣٦ ـ نهاية الأرب في فنون الأدب، اسم المؤلف: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، دار النشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت / لبنان ـ ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م، الطبعة: الأولى، تحقيق: مفيد قمحية وجماعة.

١٣٧ ـ النهايـة فـي غريب الحديـث والأثر، المؤلـف: مجد الدين أبو السـعادات المبارك بن محمد بـن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشـيباني الجـزري ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ)، الناشر: المكتبة العلمية ـ بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى ـ محمود محمد الطناحي.

١٣٨ ـ هميان الزاد إلى زاد المعاد، المؤلف: امحمد بن يوسف اطفيش، وزارة التراث القومي والثقافة ـ سلطنة عُمان، ط: ١٤١١هـ/١٩٩١م.

١٣٩ ـ الوحـي المحمدي، المؤلف: محمد رشـيد بن علي رضا بن محمد شـمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسـيني (المتوفى: ١٣٥٤هـ)، المكتب الإسلامي ـ بيروت، ط١٠: ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

الفهـرس







